هوارد فاست

طريق الحرّية

ترجمة : سليم ابراهيم عبّود

للدراسات والترجمة والنشر
دمشق ــ اوتوستراد المزة
هاتف ٨١٦١٢٦ ــ ٨٨٦٩٥١
تلكس ٤١٢٠٥٠
ص . ب : ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري

طريق الحرّية

طبعة ١٩٨٥

تصميم الغلاف : الفنان عبد القادر أرناؤوط

اهداء المترجم

وطني ياضوء عيني .. ياذوب قلبي ورشفة الحياة في نفسي

نادرة استندت عليك زمنا متعبا وارتحت في واحاتك

هند انت شعر آبائي

ابراهيم حملتك اسم جذري الذي اطعمني نسغه

هيا يا ارض احبتي المتحدين بالارض

عمر اخترتك رمزا لما ابحث عنه في اسمك .

اليكم جميعا طريق الحرية ومعكم جميعا اتمنى ان نسير في طريق الحرية .

سليم

شيء من الذكرى

بقلم حنا مينه

ليس مصادفة أنه اختار أن يترجم « طريق الحرية » ، كانت هذه طريقه أيضاً ، وقد سارها هادئاً ، واثقاً متحملاً ، كالصَخْبِ ، كثيراً من العنت ، وكثيراً من الألم ، دون أن يضجّ بالشكوى ، وهي من حقه ، لأنه كان يعرف ، وربما بالحدس ، أن عليه أن يختزن أقصى طاقته ، للآلام المقبلات .

أذكره ، بين الدمعة والدمعة ، أذكره ، بين البسمة والبسمة ، ذاك الذي ، في الشباب لقيته ، وفي الكهولة ودعته ، ثم لم انكر ، طوال ثلاثين عاماً ، من حلو شمائله شميلة ، فكأنه ، في كبرياء

الرجولة ، وكبرياء الصبر ، قد ارتفع على الشدائد ، فهو يلقاها مبتسماً ، ويمضي في رحلة العمر بقدم ثابتة ، خطوه خطو محارب من اسبارطا ، وقامته ، بكتفيه العريضتين ، تعيد صورة اغريقي يقف على عربة الاقتحام ، والصدر مندفع إلى أمام .

لماذا يجن الشباب في إهاب رجل ؟ حين عرفته ، لأول مرة ، كان يرتدي لباسه العسكري ، وفوقه واقياً من المطر ، وكان الزنار يشد الخصر ، فإذا هو يبرز رحابة المنكبين ، وسعة الصدر ، ويعطي للقامة طولاً فارعاً ، وللوجه البدري ملاحة ، يضاعفها شارباه الخرنوبيان ، الصغيران ، ويعتمر سدارة ضابط من الفرسان ، أولئك الذين هامت بهم ألف حورية ، وظلت فضلة من نبالة تعطي للوسامة أن تكون معشوقة من أميرة اسطورية .

وقدم إلي نفسه : سليم ابراهيم عبود .

وتصافحنا ، ثم ، في المرات التالية ، تعانقنا ، صرنا صديقين ، صرنا ، في الدرب ، رفيقين ، واغتربنا أحدنا في مشرق

الأرض ، والآخر في مغربها ، لكن صورة سليم ، في عنفوانه ، تمرده إبائه ، ابتسامته ، لم تبرح الخاطر ، كائما ، في جاذبية الشخصية القوية ، قد استهوى قلبي ووجداني ، واستقر في الخاطر مثالاً نادراً للشباب الذي لا تبلى فيه فتوة أو سجية .

وبقيت ، مرتحلاً ومقيماً ، أتنسم أخباره ، أسأل عنه ، أحظى بلقائه ، أسر بزياراته المتباعدة ، نجلس ، نشرب القهوة ، نستعيد الذكريات ، أعرف منه أنه صار رجل قانون ، ووجد أميرته ، وتزوج ، وأنجب ، وأنه ما زال ، في الشوق إلى المعرفة ، ساعياً إليها ، ، صديقاً للحرف ، للكلمة ، وللموسيقى ، والأدب ، والفن ، وكل دنيا الصبا الموارة بالتهاويل ، المزركشة بألوان الفراشات .

وتمر الأعوام ، وتخطفنا المشاغل ، وذات يوم ، على متن طائرة ، بين باريس ودمشق ، ألقاه واقفاً ، مرحباً ، شاحباً ، عائداً من رحلة استشفاء ، لم يقل له الأطباء ، في ختامها ، أنك ستموت ، ولكن الموت كان طائراً ناعباً في نظراته ، معششاً بين أصابعه ، محوماً في الصفرة التي تقول : أنا الداء ولا دواء .

أشك في أن سليم كان مطمئناً إلى النجاة . ربما ، في السريرة ، كان يصارع شعوراً يتأرجح بين الأمل واليأس ، لكنه ، حتى في صراعه المرير هذا ، ظل متماسكاً ، هادئاً ، مبتسماً ، لا يتحدث عن المرض بل يعيشه ، ولا يجزع لنحوله ، بل يجده عارضاً ، أو يريد أن يخدعنا ، نحن أصدقاءه ، عن علته ، فهو يخفيها ، ويداريها ، ويتأمل الموت الزاحف نحوه بنظرات باردة .

منذ ذلك اليوم أدركت أن سليم انتهى ، لكنني كنت أتساءل ، والداء يأكله أكلاً ، كيف يشعر من كان يعرف أن نهايته دنت ؟ وكيف يتصرف ، في اليقظة والمنام ، وماذا يقول للزوجة ، وللأطفال ، وبأية حرقة يمسح بكفه على رأس صغيره ، عُمَرِه ، وبأي إحساس يمارس حياته المألوفة ، ويتحمل ألماً هو فوق الطاقة على الاحتمال ؟ .

الآن رحل سليم . توقف الألم ، سكن الحب والشوق والحسرة جميعاً ، تمدد مرتاحاً في تابوته الخشبي ، لم يعد الشروق والغروب يعنيان بالنسبة إليه شيئاً ، لم تعد المودات والذكريات تعتاده، لم نعد

صوراً أليفة ، عزيزة عليه ، لكنه هو ، الزوج ، والأب ، والصديق ، سيظل صورة ماثلة في خاطرنا ، بهية في نظرنا ، أثيرة على قلبنا .

طريقه كان طريق الحرية .. وأبداً ما حاد عنها ، وهذا الكتاب الذي يحمل اسمينا ، وفيه تتقاطع كلماتنا ، هو أكثر من رواية ، وأضخم من قصة ، إنه قضية ، وعلى اسمها عاش الذي قطع شوطاً ، وترنح ، من مرض ، شوطاً ، ثم قال لنا : وداعاً .

طلبت مني ، يا صديقي ، كلمة لكتابك ، وأنت في الأحياء ، ويشاء القدر ، أن تأتيك كلمتي وأنت في الأموات ، والفارق ، بين الحالين ، حزين وأليم ، لكنك ، في مغالبتك الشدة ، علمتني أن أتجاوز الحزن والألم ، وها أنا أفعل ، لأننا ما زلنا نعضّ على الجرح ، ونمضي به راعفاً ، نغّاراً .

سلام أبا ابراهيم، وفي جنة الخلد ، مثوى ضمير مكلل بالطهر .

(تقديم)

« انا النسر العجوز » الذي جرّحته خيبة الزمن المكسور .. ففي زمن تكسرت فيه رماح الفرسان .. وصارت خيولهم مسخا .. تعجز النسور .. وتصاب اجنحتها بالمحل .. وعندها تكره الطيران ، وتتخذ لها من العلب الانيقة بيوتا ، لتضع فيها بيوض المستقبل ، وهي تحلم بان تحطم تلك الاجنحة الصغيرة أغطية العلب ، وترتفع شاهقة ، مختزنة احلام آبائها .. واحزان من رحل منهم ..

من أجل ذلك كله اختار سليم ابراهيم عبود

« طريق الحرية » وصادق « هوارد فاست » .. وهو يشعر بفرح غريب ، عندما ينقل افكار التعسف ، فيكتب الصورة / الدينونة لحقيقة مصابة بفقدان الذاكرة ..

ومن هنا فبداية هذه المقدمة في جملتها الاولى ، كانت تتردد على شفتيه عندما يخاصم منطق مايجري في العالم الكبير/الصغير .

لم يكن يقاطع شكلا من اشكال الحياة .. بل يضعها تحت مجهر كبير .. فيفرح ، ويحب ، ويحزن .. ويمارس حزنه الذي جعل بعض احشائه يحتج ويمرض ..

كان فارسا لكنه يجتر هزيمة قادمة ، ومن أجل هذا احب « جديون جاكسون » بطل « طريق الحرية » واحس بالانتماء النفسي الفكري لامثال جديون جاكسون .

احب أن يشكل الواقع على طريقته .. ربما لم تكن ألوانه فيها براعة الرسام .. وربما فاتته بعض الجزئيات .. وربما .. وربما .. لكنه سار ، وسلاحه الصدق الحقيقي .. اذا كان يتساءل دائما :

هل يجوز لنا ان نحيا بينما تنظف دماء الآخرين « اغطية المفارش ، والبسة السهرات » . ؟ .. وماذا نسمي ذلك كله .. ؟ .. خيانة . ؟ .. لامبالاة .. ؟ .. أبدا لقد ترك هذا العالم وهو يبحث عن التسمية ..

صحيح لم يكن بطلا اسطوريا اذ لم يملك سيف هانيبال ..

ولا قوة جلجامش .. لكن احتفظ بقلب حزين يكبر حزنه مع تجاعيد وجهه .. وآلام احشائه .. فيهشم آلعابه المالوفة ..

ويوم فكر باختيار طريق الحرية كان في ذروة شبابه .. وترجمها لكن البدايات الاولى من هذا العمل أتت دون ذكر اسمه .. اذ كان ذلك عام ١٩٥٣ .. والواقع السياسي في بلده لم يسمح آنذاك باشارات او ومضات ، تصدر عن انسان يعرف كيف يطلق مدفعيته .. وكيف يرسم احداثياتها في الجيش ..

فجاءت الطبعة الاولى عن « دار القلم » في لبنان دون ذكر الاسم وقد لا يخطر ببال انسان أن يسأل : من نقل هذه الرواية .. ؟ .. او قد يقول آخرون ربما كان هوارد فاست كاتبا عربيا عاش في امريكا وحمل اسما امريكيا ..

تراك تسمعني ياسليم .. ؟ ام تحب أن تضيف اشياء ما ؟ .. لن أكرر مقولات الذين اجتازوا مرحلة من الزمن ، فلووا شفاههم وقالوا : الحياة تافهة .. ولا تستحق شيئا من الانسان ..

لا فهناك أمثال جديون جاكسون يحملون الينا أشعة من أمل تتسلل الى اعماقنا وخلايانا فتجعلنا ننسى ونتابع .. ونتجدد ومن يقرأ « طريق الحرية » يرى نموذجا من نموذجات الحياة المتجددة الخصبة .. ولنترك لون جديون جاكسون الاسود .. ولنضع جانبا مايردد عن قضيه الزنوج واضطهاداتهم .. ولنتذكر شيئا واحدا : أن

هناك ملايين الزنوج / البيض واشكالا جديدة من « الكلان » العصابات التي تفتك ببريق الحياة .. وتنخرها .. مضافا الى ذلك ملايين الجنوبيين المتعصبين ضد المقهورين ، والباحثين عن رفض عبودية الانسان ..

واظن انه من أجل ذلك أحب سليم هذه الرواية .. اذ ليس فيها مايثير .. ولا تحمل فلسفة جديدة تشق ماقيل فيما كتب ويكتب .. ابدا فيها بساطة الحياة وشكل من اشكال وعيها وانسانيتها .. فيها صفعة لمن يسترخي .. واخرى لمن يصنف البشرية وهو ينظر في مرآته .. فيها ضوء صغير قد لا يحجبه الظلام الكثيف ، لمن يتوجعون « اذ طوبى للحزانى لانهم يتعزون »

قد يقرأ قارىء ما مقدمة هذا الكتاب .. فيقول هذه عادة ألفناها اذ يمتدح الكتاب قبل قراءته .. لا أبدا .. وانها آراء من عرف المترجم وسار معه طويلا حتى أنهكه التعب .

وليست المشكلة في ان يعطي المترجم والكاتب

وثيقة مديح أو تعظيم .. المشكلة فيمن ستقع عيونهم على الكتاب وهم الذين يقررون فقد يحزنون لموت ماركوس وجيف ابني جاكسون .. وقد تمتلىء عيونهم بدمع خفي الجلد « جاك هيو » وزوجته المريضة .. أو يطلقون شهقة لموت « هانيبال واشنطن » .. قد يحدث هذا لكن احدا لن يقف متفرجا اذا تابع الكتاب حتى نهايته ..

وقد يصرخ صوت ، ولكن كتب في هذا المجال كثير .. كوخ العم توم « الجذور » وغير ذلك كثير .. ثم ان صناعة السينما تتناول الكثير من ذلك لتعرضه فتحقق الاثارة كما حدث مع مسلسل الجذور .. لكن هذا لا يعني ان اشكالا أخرى من القهر الانساني واساليب أفظع ، مايزال واجبا على كل من يؤمن بأثر الكلمة ان يتلقفها ويظهرها دون « رتوش » حتى ترق العيون لرؤيتها فكل الاشياء الكبيرة تبدأ من الوجع .. ! .. من بداية الحياة والى نهايتها ..

الم يكن هذا هدفك ياسليم ؟ .. لن تبتسم في وجهنا بعد اليوم .. ولن تقول شيئا .. لكن اختيارك للعمل يقول ذلك .. فهو ليس عملا مسليا .. ولا كتابا يدغدغ المشاعر العاطفية لمراهق ما .. انه حياة ما في جزء من الكرة الارضية التي تفرز من احشائها اشكالا واشكالا للحياة..

ألم يكن قاسيا « هوارد فاست » عندما ترك « جديون جاكسون » يموت ويحترق البيت الكبير بمن فيه في نهاية الرواية ؟ ..

ألم يكن من الاحلى والاجمل « سينمائيا » أن يموت كل افراد عصابات الكلان ومن وراءهم ؟ ؟

لكن ذلك مشهد انساني حقيقي .. تناقضات الواقع .. تكذيب لمقولات عرفناها او لنقل تعلمناها .. اذ ينتصر المجرم ويلتصق الطيب بالأرض لتنبت مكانه شجرة .. او يربط فيها حيوان ما لسيد ما ..

لن اقول هذا ما اراده « هوارد فاست » فهذا ليس درسا ساذجا يلقى على طلاب مبتدئين .. انه بعض مما قد يتلمسه قارىء ما .. في هذه الرواية .. .. او بعض مما تلمسه سليم الذي ينام الآن مرتاحا الى جانب جديون ورفاقه ..

ليس في الرواية شخصية تستطيع ان تنساها .. اذ ان كل الشخصيات حاضرة .. راشيل ببساطتها وقوتها وحبها لجاكسون ..

وآلن بعماها والتصاقها بجيف .. واللنبي باطفاله المباعين دائما وكارويل بعنجهيته ووحشيته .. كلهم .. وكل الآخرين يتحركون دائما .. تختلط ألوانهم وتتنافر امزجتهم .. لكنهم لايكّفون عن الحضور ..

اتساءل دائما لماذا نأتي الى الدنيا .. ؟ .. واية حكمة في ان نتعذب او نمارس العذاب او نتعاطى القهر .. ؟ .. ولا تقنعني كل الأجوبة .. فكل يجيب حسب تكوينه وانطلاقه ومزاجه وتراكماته .

اما انت ياجديون فلو كنت موجودا معنا .. ولو اتيح لي ان أجلس اليك فسأسالك : لماذا سمحت أن تموت ؟ .. لماذا لم تهرب .. ؟ .. لماذا صدقت أكذوبة أنظمة القهر والاضطهاد ؟ ..

وما الذنب الذي جنته يداك عندما أتيت نتاجا لرجل اسود وامرأة قاتمة اللون ؟ .. الم يكن ابوك اسعد حظا منك عندما استطاع ابنه الذي هو انت ان يعيش ؟ ويجلد بالسياط وتُمارس عليه اشكال العبودية ، ثم يقاتل الى جانب الشماليين ضد العنصرية واللاانسانية .. ويصبح نائبا عن المقهورين والمسحوقين ، ويدخل الكونغرس مانحا اياه زرقة من عقار الانسانية .. ألم يكن ابوك اسعد حظا منك يامن فقد ابنيه واصدقاءه .. وحياته .. ؟ .. لا أعرف ماالذي تقوله .. لكنني اسمع صمتك .. وارى عينيك السوداوين المحملتين بالضوء .. المزروعتين بأشعة خفية .. تنظر الى الابعد .. والاكثر عمقا ..

أنا لا اعرض نقدا .. فانا اعجز من ذلك .. وذلك دور القادرين .. لكنني اكتب فقط كلمات قد تُقرأ وقد يتجاوزها القارىء ليعرف الاحداث ..

فسليم كان يريد دائما ان يختار كل مايحب وما يريد .. وما يبحث عنه .. رحلة طويلة / قصيرة .. رافقت فيها « سليما » وفهمت منها الكثير .. فهمت لماذا يحاسب نفسه اذا قام بعمل .. او تتشنج تقاسيمه اذ حدث مايعذبه .. .. ربما كان للحياة طعم خاص لديه .. ربما كان لها رائحة نفاذة .

لكنه يعرف كيف يختار .. وماذا يرفض .. بهدوء ودون ضجيج .. يغسل احزانه في الفن .. ويطهر آلامه في الحقيقة .. ثم يعود فيصلب نفسه في السؤال .. حتى قرر الرحيل فحمل ما تبقى من جسده المتألم .. ومن احشائه المتآكلة وارتحل دون ان يحمل كسرة خبز ولا قطر ماء .. واوغل في تلافيف الارض ..

ملعونة هذه التلافيف .. تقضم اجسادنا منذ بدء الخليقة .. وتتجرع دماءنا منذ الفجر الاول في الكون ..

كان جديون جاكسون بطريقة ما .. وكنت راشيل التي حمّلها مسؤولية من بقي بعده في بيته وقال لي اتركيني فنفسي حزينة حتى الموت .. لكنه لم يقاتل ولم يشهر سيفا ..

واليوم اذ تعاد طباعة هذا الكتاب .. لاأعرف ما يمكن ان اردده .. لا شيء البتة .. فمنذ متى كان الكلام قادرا على استيعاب ما نفكر به ؟؟

وما أريد ان أتابع الحديث عنه هو ان اختيار الانسان يحمل افكاره .. وهذا ما جعل سليما ينقل « طريق الحرية » .. وليس طريق الحرية شعارا جذابا .. ولا لافتة مثيرة .. ولا قصيدة يتلوها شاعر فذ في مناسبة ما ..

طريق الحرية صعب ووعر .. طويل ولا تحدد نهايته بأطر معينة فالحرية هي الانسان الكبير .. المبهم . الرائع بكل ما يحمله من تضاعيف وجوانب الحياة ..

وارفض ان احدد مفهوم الحرية .. ربما لعجز .. ربما لقصور . لكنني ارفض وارفض ..

واترك لكل تحديدها .. ومهمة البحث عنه .. لكنني أضعه في اعماقي حاملا كل اشكال الانسانية .. والعدالة .. عدالة المقهورين الباحثين عن نظام يفتح طاقات الانسان ويمجد روعته .. ويحرره دون ان يخلق اصناما جديدة وطواطم مبتكرة .. دون ان يصبح مفهوما سُلعيا يصطاد ويذبح ويصنع الولائم .

« سعيد هو الرجل الذي يترأف ويعطي » .

كلمات تعزيني .. وتمنحني شكلا من اشكال الشجاعة ...

ربما يبتكر الطب عقاقير تعطي الكائن راحة .. ربما حُقنت الادمغة بسوائل تختزن الأساليب والذكريات .. وربما اكتشف الباحثون اكسير السعادة وسوائلها .. ربما حدث كل ذلك .

لكن الكلمة الصادقة تبقى الأعمق .. والكلمة الحكيمة هي الأشمل .

ولذلك كله اقول عرفت سليما صادقا في كلماته .. حكيما في تجربته ودقيقا في اختياره لـ « طريق الحرية » .

لاشيء لدي بعد .. لكن طريق الحرية يستحق ان نسير عليه .. وان نرتبط به .. قد نخطىء .. قد نفشل .. قد نتألم .. قد نتراجع . لكنه حلمنا .. وعذابنا .. وارقنا الدائم اللامنتهي .. ..

نادرة الزين عبود

اهداء المؤلف

الى الرجال والنساء البيض والسود ، الصفر والسمر ، الذين قدموا ارواحهم في النضال ضد الفاشية .

هوارد فاست

الجزء الأول

الانتخابات

تمهيد

انتهت الحرب . النزاع الدموي الطويل ، حرب الشعب العُظمى التي لم يسبق للعالم ان عرف لها مثيلاً حتى ذلك العهد . ووقف الرجال ببزاتهم الزرق ينظرون الى ارضهم بألم وحيرة . يفكرون فيما فعلت بها الحرب .

وألقى الجنرال (لي) سلاحه في دار الحكومة في مدينة ابو ماتوكس . وعندها انتهى كل شيء .

وفي مناطق الجنوب الدافئة اصبح اربعة ملايين من الزنوج احراراً ... بعد ان دفعوا ثمن الحرية غالياً . يالها من شيء ثمين . ينظر الرجل الحر الى امسه وغده وكلاهما

أصبح ملكه . ليس ثمّة من سيد يشبعه اذا ما جاع ، ولا من يقول له ابطىء اذا ما سار بخطوات وسيعة . وعندما انتهى القتال ، كان مئتا الف من هؤلاء الزنوج جنوداً في جيش الجمهورية ، عاد الكثيرون منهم الى بيوتهم يحملون بنادقهم بأيديهم .

كان « جديون جاكسون » احد هؤلاء ، طويلاً وقوياً ، عاد بسترته الزرقاء الباهتة الى ارض كارولينا حيث مزرعة كارويل .. تعباً ، منهوكاً يحمل بندقيته بيده .

لم تدمر الحرب البيت الابيض الكبير ، بيت الاسياد ، فهو ما زال قائماً على حاله تماماً كما تركه ، اما الحقول والبساتين فقد غدت مكسوة بالاعشاب والحراج .

وأسرة كارويل قد رحلت وما من احد يعرف الى اين . وعاد الرجال المحررون الى حيهم في منطقة العبيد الى جانب أولئك الذين لم يغادروا المزرعة ابداً .

وتمر الشهور ويعود عدد اكبر من المحررين الى مزرعة

كارويل من الشمال البارد حيث كانوا يناضلون من أجل الحرية . لقد تركوا صفوف جيش الاتحاد ، وغادر بعضهم مخابئهم في الغابات والمستنقعات البعيدة ، وعادوا جميعاً ليستأنفوا حياتهم وقد أخذتهم دهشة عميقة .. لقد اصبحوا احراراً .

الفصل الاول

في صباح يوم بارد من ايام تشرين الثاني ، ايقظت الغربان « راشيل » باكراً . انها الآن مستلقية على فراشها وثوبها القديم يلتف حول أعلى عنقها ، تستمع الى الغربان ناعقة من بعيد كاو ... كاو ... كاو ... و « جيني » ابنتها ، مضطجعة الى جانبها تنفخ في صدرها فتترك بقعة دافئة حول ثديها . ان صوت هذه الغربان حزين ، ولكنه لم يكن يزعج راشيل ، فقد اعتادت سماعه منذ مدة طويلة ، في كل بزوغ شمس . ان هذه الغربان لا تفرق بين يوم بهيج وآخر كئيب .

وتحركت البقعة الدافئة التي تركتها الطفلة حول ثدي راشيل ، فهمست قائلة : « نامي يا عزيزتي .. نامي .. اهدئي .. اسمعي نعيق هذه الغربان العجائز .. اسمعي .. »

ويبدأ النهار فلا يمكنك ايقافه ، وراشيل تفضل ان تبقى هناك ، مستلقية على كيس القش الدافىء المريح . ولكن أشعة الشمس المتسللة من خلال شقوق الباب وألواح الخشب الكثيرة ، تملأ الغرفة بالنور . وتمطى « جيف » ضرب الأرض بعقبي رجليه واستيقظت جيني ، ونهضت توّاً منثنية على أمها ، وتسلل البرد الى المكان الدافىء حيث كانت مضطجعة ، وصرخ ماركوس وو ... وو .. وو ... مثيراً الضجة والصخب ، فهب جيف اليه ودفعه وبدأا يتدحرجان على الأرض وهما يتعاركان .

كانت راشيل تعرف جميع الأصوات التي يتكون منها الصباح ، تعرفها جميعها وعيناها مطبقتان . لماذا تستيقظ الكائنات الحية هكذا دفعة واحدة .. ؟ لطالما سألت نفسها هذا السؤال .. ما يقرب من مئة مرة . ونهضت واقفة على قدميها فجأة على الرغم من الوسن الذي كان يغري جفنيها بالتمسك بالظلام لحظة اخرى .

نادت : « اخرس يا جيف » ... كان الاثنان مازالا يتعاركان ، وقد لف جيف ساقيه حول بطن ماركوس . وكان جيف هذا يبلغ الخامسة عشرة من عمره ، وهو شديد الشبة بأبيه

جديون من حيث قوة البنية . فقد كان الصبي جباراً قبل ان يبلغ أشده ويصبح رجلاً كامل التكوين ، طوله خمس أقدام ، لونه اسمر كلون الشوكولاته ، انه أقرب الى هذا اللون منه الى لون أبيه جديون الاسود كالخوخ اللامع ، وجهه طويل كوجه أبيه لا يخلو من جمال ، وكأنه خلق كذلك ليكون سبباً لاغراء النساء بحياة الخطيئة . أما ماركوس فكان قد بلغ اذ ذاك اثني عشر عاماً من عمره ، وهو ضعيف صغير الجسم .

وصرخت راشيل بجيف : « اتركه .. اترك رجليك ايها الأحمق الكبير » .. وهنا وثبت جيني وعمرها لما يتجاوز السابعة بعد ، ففتحت باب الكوخ وخرجت . انه أول عمل تقوم به هذه الطفلة كل صباح ... مخلوقة تبحث عن النور ... واستقبلها كلب ينبح رافعاً رأسه بطيش الى الأعلى . ونهض جيف واقفا وما زال ماركوس يضربه باستمرار كعصفور ينقر شجرة سنديان كبيرة .

كان جيف يشبه أباه بطبعه الهادىء ، الا انه لم تكن بين جنبيه تلك الشعلة الملتهبة وذلك الفولاذ القوي اللذان جعلا من جديون شيئاً هاماً يذكر . ان جيف يغضب ببطء ثم يثور فجأة

كالنار .. أما جديون فان الغضب والثورة يكمنان فيه لا يفارقانه ابداً ..

وأعقبت راشيل تقول لهما : اخرجا هيا اخرجا ، ارتسمت على وجهها ضحكة عريضة . لقد كان من دواعي عجبها دائماً ان تكون ــ وهي الصغيرة الجسم ــ صاحبة هذه الكتل السوداء من الدم واللحم ، هذه الأجساد السود التي ولدت منها هذه المجموعة من الانسجة التي كانت ترتبط الى جسمها بحبل .. ! وفكرت بفخر : انهم أولاد جديون ..

وتمشت في الكوخ ، انه مغمور بضوء الشمس الآن ، وبابه مفتوح على مصراعه ، ودخل جيف يحمل الكانون وقطرات كثيرة من الماء تتساقط من رأسه وقد بلله في برميل ماء المطر .

وذهبت هي الى البرميل ، فغطست رأسها ويديها فيه ونادت جيني : تعالي اغسلي رأسك : تعالي حالا . وكانت جيني تكره الماء، ولم تجب نداء أمها على الرغم من انها وعته خمس مرات.. وامسكتها راشيل ، واغرقت لها شعرها الكث المتلبد في الماء ، واذ ذاك صرخت جيني وكأن الماء سيميتها وينتزع منها الحياة .. وعندما دخلت راشيل الى الكوخ كان جيف قد انتهى من إيقاد

النار ، وابتدأت تمزج الغذاء المؤلف من الحبوب في الوعاء الخشبي ، بينما كان جيف ينفخ في الفحم وقد بدأ يشتعل ، وتمدد الكلب أمام النار .. دعه هناك متمدداً في صباح يوم بارد من أيام تشرين الثاني .

*

كانت مزرعة كارويل خلال عشر سنوات مضت ، في أوج مجدها اذ كانت تغطي اثنين وعشرين ألف فدان مربع من تربة كارولينا الخصبة ممتدة على تموجات الأرض الهادئة على نحو مئة ميل من الشاطىء ، مؤلفة نطاقاً عريضاً كحد فاصل بين مياه المد والجزر الأفقية . والمرتفعات العالية . ويوم كان القطن يطغى على كل شيء ، فتتفتح جوزاته في الموسم ويبدو منبسطاً كبحر أبيض ينتهي في الافق الى آخر مدى البصر ، كان يُجمع من الفدان المربع ما يزيد على بالة ونصف البالة .

كان البيت الكبير يقوم « على رابية عالية » في مركز المزرعة ، بطوابقه الأربعة وغرفه الاثنتين والعشرين وفنائه الواسع ذي الاعمدة وكأنه فناء معبد اغريقي ، لقد كان يطغى ويسيطر على المنظر . وعلى جانبي الطريق التي كانت مدخلاً وطريقاً

للعربات ، انتصبت أشجار من الصفصاف كبيرة وارفة ، وحول البيت نفسه تشابكت أشجار السنديان كسور منيع .

لو انك انحدرت الى محلة العبيد ، وشخصت متطلعاً الى البيت الكبير قائماً على مرتفعه ، ومن ورائه غيوم بيضاء تجتاز السماء هاربة ، لبدا لك اكثر شبهاً بالمعبد وأروع منظراً وهو في تلك المنطقة .

كل ذلك كان في الأزمنة الماضية ، أما في هذه السنة ، « عام ١٨٢٨ » فان الحال قد تغيرت . فلم يعد القطن يزرع في مزرعة كارويل ويقال بأن « دودلي كارويل » يعيش الآن في مدينة تشارلستون . لقد توقفت المزرعة عن العمل كغيرها من مزارع الجنوب ، ويقال ان ابني كارويل قد ماتا في الحرب ، كما يقال ان الديون والضرائب لم تدفع ، وتلك هي الأسباب التي تركت المزرعة على حالها الغريبة هذه . ويقال ان المزرعة اصبحت ملكاً للدولة ، كما انه يقال ايضاً انها ستوزع : لكل عبد من عبيد كارويل أربعون فداناً وبغلاً ..

لقد كانت تلك الأقاويل والاحاديث تسري كالنار في الهشيم ، ولكن لم يكن هنالك من احد يعرف الحقيقة او يدرك ما

يجب عمله تماماً . وجعل بعض من البيض يفدون من كولومبيا ، مرات عديدة ، فيتجولون في المزرعة ثم يقفلون راجعين .

ومازال العبيد المحررون يعيشون هناك في المزرعة، فقد بقي منهم عدد كبير طول زمن الحرب ، يزرعون الموسم تلو الموسم ويعتنون بالارض ، وبعضهم غادرها وانتسب لجيش الاتحاد كجديون ، والبعض الآخر هرب واختبأ ، اما القسم الاكبر منهم فقد بقي ولم يهرب على الرغم من اعلان تحرير العبيد ، ليس بسبب العقاب الشديد الذي كان يفرض على الآبقين ، بل لانه لم يكن لديهم مكان خاص يذهبون اليه . هنا في المزرعة ، كان بيتهم وأرضهم ووطنهم . لقد كانت دائماً كذلك .

كانت أسرة كارويل طوال قرن كامل ، تقضي اكثر أيامها في تشارلستون تاركة امر المزرعة للمراقبين . وفي السنة الثالثة من سني الحرب ، زارها « دودلي كارويل » مرة واحدة ، واصطحب معه حين عاد خدم البيت واغلق ابوابه ، وفي عام ١٨٦٥ غادر المزرعة آخر مراقب ، وهكذا بقي العبيد وحدهم . وتوقفت زراعة القطن باعتبارها زراعة لا بد من بيع نتاجها بأموال نقدية للحصول على المواد الغذائية ، والعبيد لا يعرفون الأموال النقدية ولا كيفية استعمالها وهم لهذا السبب لا يحتاجون اليها ، واخذوا

يزرعون ذرة صفراء وارزا في الاراضي المنخفضة ، وحشائش وبقولاً في البساتين وقاموا بتربية الدجاج والخنازير ، وبهذه الطريقة عاشوا ..

لقد اجتاحتهم جيوش الجنوب النظامية ثلاث مرات ، وفي كل مرة كانت هذه الجيوش تأتي على كل شيء وتترك المكان نظيفاً ، ورغم ذلك استطاعوا ان يتغلبوا على ايام الجوع ، وتلك الجيوش المتراجعة التي ذاقت مرارة الهزيمة ، لم تفتك إلا بأربعة منهم ، وهذا ليس شيئاً ذا بال اذا ما قورن بما حدث في كثير من الأماكن التي عاش فيها غيرهم من العبيد المحررين . لقد كانوا اكثر حظاً .

ومن بعيد .. بعيد جداً ، اصدر هذا الشيء الذي يسمونه « الكونغرس » أمره للمحررين بان يذهبوا للتصويت ، وعمت البلاد موجة من العجب والتساؤل .. لقد كان بالامكان الاقتناع بذلك .

سيظل ماركوس يذكر ، انه اول من رأى جديون عائداً من التصويت . كان آنئذ يلعب مع « اكسيل كريت » وآخرين على التلة قرب البيت الكبير حيث صعدوا الى مرتفع عال يسمح لهم ان تمتد رؤيتهم الى مسافة ميلين من الطريق التى تنبسط تحت

أشعة الشمس المحرقة وقد ثارت عليها سحابة من الغبار ... طريق تنتهي إلى مكان مجهول عندهم .. يقولون انك اذا سرت عليها طويلاً بلغت كولومبيا ، الا ان هذا لا يتعدى كونه قولا .. والعالم مملوء بالاقاويل ... ومهما يكن فماذا يهم ماركوس ورفاقه ان كانت تبتعد او لا تبتعد .. وهل من الضروري ان تؤدي الى اي مكان ؟

منذ أربعة أيام جمع جديون والاخ بيتر جميع الرجال الذين تزيد اعمارهم عن الواحدة والعشرين . ولقد كانت قضية الاعمار مسألة تقدير . اذ كيف يتسنى لأكثر الرجال ان يعرفوا انهم قد بلغوا العشرين او الواحدة والعشرين او الاثنتين والعشرين او اي شيء آخر ؟؟ ان معرفة العمر لا يمكن ان تكون تخميناً . بل يجب ان نرجع بها الى التاريخ والأرقام . وهكذا كان على الاخ بيتر ان يعود القهقرى بذاكرته إلى اولئك الأطفال السود، فيفصل بين مختلف المواليد والولادات . وبعد ضجيج وأخذ وردّ ، عمد هو الى الطريقة التي يعبر بها عن اعتقاده . ففصل الثيران عن العجول ، فكان مجموع الرجال الذين يجب ان يذهبوا الى التصويت سبعة وعشرين رجلاً .

والآن ، كان على هؤلاء الرجال ان يتوجهوا بالاسئلة الى

جديون .. ما هذه الحكاية ؟! ما هذا الذي يدعى بالتصويت ؟ وانتظروا من جديون ان يجيبهم . وكان ماركوس على يقين بانه من الطبيعي ان يتوجهوا بالأسئلة الى جديون .. فعندما يكون السؤال حول الله والموت فمرجعهم الاخ بيتر ، وعندما يكون عن كل شيء آخر ، عن الزراعة والمرض وما تبقى ، فمن يسألون غير جديون ؟ ..

عاد الرجال من التصويت ، وها هم الآن على بعد ميلين على الطريق التي ثارت عليها سحابة الغبار ، وقد رأى ماركوس عدداً منهم يمشون معاً ببطء .. فانطلق منحدراً على سفح التل وهو يصرخ : لقد عادوا هاي . هو .. هو ..

وتجمع بقية الاولاد خلفه ، وارتفع صوتهم صاخبا عاليا يمكن سماعه على بعد ميل ، وخرج الجميع من اكواخهم يتعثرون ليروا ما حدث . وظنت راشيل ان ثمة جريمة قتل . واضطرت الى صفع ماركوس مرتين لتفهم من قوله شيئاً . صاحت : من هو الآتي ؟

أجابها : أبي .

وسألت الاخت ماري : أهو جديون ؟

وأضاف آخر : فلنحمد الله ! وكأنه يعبر عن شعور الجميع .

ان مسأل التصويت أمر غامض يبعث على التشاؤم والتخوف ، وقد ذهب جميع الرجال ، وكانت فترة انتظار ممضة في المزرعة ، ولقد زاد أمر التصويت الذي لا يعرف أحد كنهه من تخوف الناس ، وغدت النسوة يجتمعن بعضهن الى بعض اكثر من اي وقت مضى ، متقاربات محاولات في.كل ساعة تكوين فكرة عن هذا الذي يدعى « التصويت » ومخاوفهنّ ماتفتأ تتزايد .

وقف الجميع ينظرون الى الطريق المنحدرة عند السفح وفي عين كل منهم يرتسم خيال اشباح هؤلاء العائدين . انهم يمشون ببطء بعد ان ساروا اميالاً كثيرة ، وها هم يعودون الآن بكل تأكيد . لقد احصاهم كل من يعرف العدّ ، وكان من الجلي ان احداً منهم لم يتخلف ، وتمكنت راشيل من تمييز جديون عن غيره بجسمه الكبير ومنكبيه الضخمين .

لو جاز لنا تقدير الرجال بالكميات لكان جديون رجلاً ذا كمية كبيرة ، لقد بني جسمه كجسم ثور ، ثقيل المنكبين ، ضيق الخصر ورفيع الساقين ، وقد جرى القول على ألسنة الناس

بان هذا النوع من الرجال الذي يشبهون الثيران بضخامة بنيتهم تكون ادمغتهم في ايديهم عادة . الا ان جديون لم يكن رجلاً تنطبق عليه الأقوال والأمثال . من المستحيل تماماً تشبيهه بأي شيء .. لقد كان ذاتاً قائمة بنفسها .. كان يتحرك ببطء حقاً من ناحية جسمه وتفكيره ، الا انه اذا ما دعت الحاجة ، كان بامكانه ان يتحرك بسرعة ، واذا ما جالت برأسه فكرة ، قلّبها على جميع وجوهها ، وفي اللحظة التي يتبناها فيها تكون قد اصبحت فكرته وحده ، ولهذا اتجه جميع الرجال اليه .

كان أول القادمين وقد عرفته راشيل . ان تلك المشية المنحنية البطيئة تعني أن اميالاً كثيرة قد خلفها وراءه . كان يمسك بندقيته بيده افقياً على الطريقة التي تعلمها في الجيش ، ويحمل على كتفه كيساً ربما كان فيه بعض الاشياء للاولاد ، والى جانبه كان يسير الاخ بيتر ، طويلاً ، نحيلاً ، اعزل كما يجب ان يكون رجل الدين .

ويليهما الاخوان جيفرسون ، كل منهم بندقية بيده ، والى الخلف : هانيبال واشنطن ذو الجسم الصغير ، جيمس ــ اندرو ــ فرديناند ــ الكسندر ــ هارولد باكستر ــ ترويبر ، هؤلاء الرجال الذين لا كنية لاسمائهم ، والذين كثيراً ما جالت

في خواطرهم ، بين الحين والآخر ، فكرة الحصول عليها . الا ان كنية الاسرة هذه من القضايا التي يجب امعان النظر فيها ، وكم من الرجال لا يصلون الى ما يأملون بسهولة !

وانطلق جيف يقفز راكضاً على الطريق المنحدرة ليستقبل الرجال يتبعه جمهور من الصبيان والبنات والنساء . اما راشيل فقد بقيت ، وسحبت ماركوس من ياقته مرغمة اياه على مساعدتها في نشل ماء بارد من البئر لارواء عطش زوجها . لم يكن من الضروري على اية حال ان تسعى راكضة كطفلة مجنونة لاستقبال جديون . ان كلا منهما يفهم الآخر جيداً بطريقة أفضل .

كان الطقس حاراً رغم تلك الامسية من امسيات اواخر شهر تشرين الثاني . ومشى جديون والرجال بتثاقل بين الاكواخ . كانت قطرات العرق تشق طريقها على وجوههم السوداء تاركة في اثرها ــ فوق طبقة الغبار المتراكم ــ اخاديد وخطوطا تلمع في الشمس .

وقفت راشيل تنظر اليهم وهم يجرعون مياه البئر الباردة ، ويعودون فيمدون ايديهم بالأوعية الخشبية طالبين المزيد . وقد كان ذلك خير مكافأة لها على اتعابها وبعد نظرها .

كان لدى الجميع اسئلة ينتظرون الاجابة عنها . انهالت تلك الاسئلة بسرعة كالمطر العارم :

« ما التصويت ؟ »

« ماذا ... أين التصويت ؟ .. انكم لم تجلبوه معكم ! »

« هل اشتريتم التصويت ؟ اشتريتموه ودفعتم ثمنه ؟ »

« ما عدد التصويت الذي وجدتموه عند الاناس البيض ؟ »

« ما حجمه ؟ وكم عدده ؟ .. »

واخيراً اعلن الاخ بيتر وقد ضاق ذرعا بهذ الاسئلة :

ـــ اخوتي .. اخواتي .. اولادي .. انتظروا قليلا ، الزموا الهدوء سنجيبكم عن جميع هذه الاسئلة .

وقبل الرجال نساءهم وأبناءهم . واخذ جديون راشيل بين ذراعيه وقبلها على ثغرها بلطف . وكان بعضهم قد جلب معه بعض الحلويات ، ففتحوا الاكياس وبدأوا بتوزيعها . وكان جديون قد احضر لجيني وردة مصنوعة من القماش الاحمر ، جميلة معطرة وكأنها حقيقة . وحامت الكلاب متجولة حولهم وكأنها اصيبت بالجنون . ان الكلاب بطبعها الغريزي تود لو تأخذ قسطها من العطف . واخيراً رفع الاخ بيتر يديه طالباً منهم السكوت ، وخيم على المكان نوع من الهدوء ، فجلس الرجال

القرفصاء ، واستلقى الاولاد على العشب ، وجلست بعض النسوة ووقف بعضهن الآخر وايديهن متكاتفة متشابكة .

قال الاخ بيتر : ان جديون سيحدثكم عن كل شيء ... ان التصويت اشبه بحفلة عرس ، او لعله اشبه باحتفال بعيد الميلاد ... مسألة تهم الجميع . لقد رفعت الحكومة يدا قوية كيد جبريل وقالت لنا : عبروا عن آرائكم ففعلنا ! كان معنا ما يزيد عن خمسمئة زنجي وابيض .. طلبت منا الحكومة ان ننتقي نائباً عنا يمثلنا .. ففعلنا ... وانتخبنا جديون ! .

وانتصب جديون واقفاً ببطء ، وكان الجميع يرقبونه وكأنهم لا يصدقون ما يرون او يسمعون . ولاحظت راشيل ، وهي العليمة بكل حركة او خلجة تصدر عن جديون ، أنه كان خائفا .. ما معنى « انتخبنا » وماذا يراد بكلمة « نائب » ؟

ـــ لقد ذهبنا وصوتنا ... قال جديون بصوته الرخيم الهادىء . الا ان الكلمات كانت تخرج ببطء .. فهو يقلبها على وجوهها ليختار منها الصحيح .

ـــ التصويت .. قالها جديون متنحنحا وسكت ..

وعاد بذاكرته الى ايام قلائل خلت ، فتذكر كيف ذهبوا الى المدينة للتصويت وكان الشك ينتابهم لدى تفكيرهم بطبيعة

هذا التصويت وماهيته ، لقد حاولا ، هو والأخ بيتر ، ان يشرحاه آنذاك بقولهما : انه تقرير مصير اختياري : .. انهم رجال احرار ، واذن فان لهم صوتاً .. فاذا كان هنالك امر يتعلق بقضية حياتهم فمن حقهم ان يستعملوا هذا الصوت ... وهذا هو التصويت . الا ان هذا الشرح كان من المفاهيم المجردة ، وكل ما هو مجرد كان يخيفهم وسينتظرون ليروا نتيجة هذه الحكاية ..

وعندما اتوا الى المدينة ، فكر جديون قائلا لنفسه : ان جميع زنوج العالم وبيضه هم هنا .. في هذا المكان ...

كان الشارع الرئيسي غاصاً بهم ، وكانوا مزدحمين في فناء دار الحكومة ذات الأعمدة ، مجتمعين هنا وهنا وفي كل مكان ... كل يتكلم بأعلى صوته والكل يتكلم عن التصويت . ، نصفهم مسلح .. من السود والبيض على السواء .. اسلحتهم بأيديهم .. وهناك انتشرت سرية من جنود الاتحاد لحفظ النظام . لشد ما شكر جديون الله على ذلك ، فقد فكر بان هناك كثيراً من البنادق وكثيراً من الثائرين . ما اكثرهم أولئك الزنوج الذين كانوا يعتقدون بأن التصويت ما هو الا عبارة عن أربعين فدانا من الأرض وبغلا واحداً يعودون به الى البيت .. ! وكثيرون أولئك الذين فكروا بان التصويت سيجعل منهم اغنياء ..

كثير منهم من أمعن النظر بيديه الفارغتين في غضب وخيبة امل بعد ان أعطى صوته .

والآن .. يريد جديون ان يبذل المستحيل ليشرح لمستمعيه : ماذا فعل عندما جاء دوره . وعادت الى ذهنه صورة الجدران المحفرة القذرة داخل دار الحكومة ، حيث قبع المسجلون خلف الطاولة الكبيرة ودفاترهم امامهم مفتوحة .. وقد تدلى العلم الاميركي بخطوطه ونجومه وراءهم معلقا على الحائط . ووقفت ثلة من الجنود لا يزيد تعدادها على نصف دزينة تحرس صناديق الاقتراع .. وذكر جديون كيف اعطي وريقة كتب عليها « لصالح مؤتمر دستوري » وعلى السطر التالي « ضد مؤتمر دستوري » يأتي بعد ذلك في السطر الثالث : « صوت على أحد هذين الرأيين بوضع اشارة (X) في الحقل المراد .

وفي الشارع ، كان الجميع .. شماليين كانوا ام زنوجاً ، يتباحثون في هذه الاسئلة ويقولون انه يجب على الزنوج جميعاً ان يصوتوا لصالح المؤتمر .

ولم يكن من الصعب على جديون ان يدرك ان هذا المؤتمر الدستوري سيخلق عالما جديدا ، او على الاقل هكذا كان يقال . وفي حين كان جديون يحدق في الوريقة بين يديه ، قال له

المسجل بصوت قد امله التعب : « لصالح المؤتمر ام ضده ؟ » ضع شارتك وخلصنا ... اذهب ووقع اولا .. ثم اطو ورقتك .

وقرأ مسجل آخر وهو يقلب في صفحات السجل : حرف الجيم ... حرف الجيم .. الجيم .. الجيم هه جديون جاكسون صاح بصوت عال ، وقال وقع هنا او ضع بصمتك ... ثم ذكر كيف انه تناول القلم بخوف وارتباك وكتب جديون جاكسون وهو يرتجف .. ! ولكنه كان يشكر الله على انه كان قد تعلم كتابة اسمه ، وبهذا لم يضطر الى اهانة نفسه بوضع بصمته . وكيف انه اخذ ورقة الأقتراع الى مكان آخر وجرب ان يقرأها قبل ان يضع عليها الاشارة في المكان الذي يعبر عن رأيه . سبق له ان صرح بأنه يحسن بعض القراءة الا ان كلمات كهذه : « مؤتمر دستوري » لم يسمع بها . ومن يدري ؟ . قد تكون باللغة السنسكريتية . ثم كيف انه وضع اشارته في الحقل الذي كتب بحذائه كلمة : « لصالح » . انه يستطيع على الأقل ان يقرأ هذه الكلمة ، ولكنه لن ينسى مطلقاً ذلك الخجل الذي اعتراه بسبب جهله آنئذ .

ذكر كل ذلك بلحظة ثم عاد الى نفسه ، فنظر الى مستمعيه وقال : لقد اتينا الاقتراع كأطفال جهلة لا معرفة

لديهم ، والاخ بيتر سيصلي الى الله داعيا ان يكون ما قد عملناه صالحا .

وقال بعضهم بهدوء : هلليويا ... المجد لك يا الله .

واضاف جديون قائلاً : وتكلم معنا احد رجال الشمال . قسمنا الى جماعات كقطعان من الغنم ، وكان عددنا يزيد عن خمسمئة من الجهلة الذين لا يدركون شيئا ، وقال لنا : انتخبوا نائبا ، وتكلم احد الزنوج وتبعه زنجي آخر ثم رجل ابيض وتكلم الاخ بيتر وقال : ان جديون هو الرجل .

ولم يتمكن جديون ان يضيف الى ذلك شيئاً ، لقد فهم كل واحد الآن كيف اصبح جديون نائباً .

وأحسوا بفخر واعتزاز لم يسبق أن شعروا بمثلهما في اي وقت مضى احسوا بالاعتزاز مع انهم كانوا على يقين بان فهمهم للقضية كان غير كامل ولا يتعدى كونه فكرة غير واضحة .

وتكلم الاخ بيتر ، وأخبرهم كيف ان جديون سيذهب الى تشارلستون لينضم الى المؤتمر . وبكت راشيل ، وحدق جديون بنظره الى الأرض وداس العشب بقدميه ، ونفخ ماركوس وجيف صدريهما تيهاً وخيلاء .. لن يتقلص هذان الصدران قبل

مضي اسبوع . هتف الاخ بتر :

ــ « الحمد لله » .

وهتف الجميع مجيبين : « هلليويا » .. وتفرقوا جماعات صغيرة .

*

في تلك الليلة ، كان جديون وراشيل مضطجعين على فرشة القش . لقد عاد اليها رجلها ، كانا مضطجعين يستمعان الى ذلك الصوت الرتيب ، صوت تنفس الاولاد ، ونقيق الضفادع وتصفيق خفافيش الليل .

همس جديون كفّي عن البكاء .

ــ اني خائفة .

ــ ولمَ الخوف ؟

ــ انت تذهب وانا ابقى مضطربة

ــ ها انذا قد عدت الآن

ــ انك ستعود فتذهب الى تشارلستون .. اجابت راشيل وكأنها تتكلم عن مكان اسطوري في عالم آخر .

قال جديون بهدوء : انني سأعود . لماذا تبكي المرأة في وقت يجب ان تفرح فيه وتبتهج ؟ تلك هي أفضل الأيام في حياة رجل اسود . هذا وقت الفرح ايتها الطفلة . يا عزيزتي .. اقتربي مني ان الشمس تبزع .. اني ممتلىء بالخوف . الا انه على اية حال ليس خوفاً على امرأتي واولادي .

ــ لماذا انت ممتليء بالخوف ؟ .. !

وهتف جديون بمرارة :

ــ اني زنجي اسود طائش . أنا رجل زنجي اسود اللون . ماذا اعرف ؟ .

لا أعرف القراءة ، ولا أعرف ان اكتب سوى اسمي .

ــ ليس الاخ بيتر مجنوناً !

ــ وكيف ذلك ؟ .

ــ لقد وقف وقال لهم : هذا الرجل هو نائبكم . فلماذا انتخبك هؤلاء الزنوج على ما تعتقد ؟

ــ لا اعلم

وبكت راشيل برقة وسعادة ، كانت تميل الى البكاء عادة عندما كانت تطرأ أحداث سعيدة . وقالت لزوجها :

ــ يا عزيزي جديون . اتذكر يوم كنت على أهبة الذهاب .

للالتحاق بالجنود الشماليين ؟ لقد قلت لي آنئذ وقلبي يكاد ينخلع من كثرة البكاء :

ــ هذه هي السبيل المثلى التي يجب ان يسلكها الرجل . والآن هذه لا تختلف يا جديون ! ..

ــ وكيف ؟ ..

وقربت شفتيها من اذنه وهمست : زنجي في الحقل يجمع القطن .. يجمع القطن ويفكر في الفتاة التي يحب ..

وعلى هذه الكلمات . على هذه الذكريات المتعثرة .. بين الأمل والخوف . اسبل جديون جفنيه وراح في سبات عميق .

الفصل الثاني

في اليوم التالي ، عند تناول الفطور ، جلس جميع افراد الأسرة معاً وفكر جديون بفخر : قليل من الرجال عندهم كل هذا : امرأة كراشيل ، ولدان قويان وابنة صغيرة وجميلة كجيني . ان الصبيين عنيدان ومتوحشان ، ولكن ألم يكن مثلهما ايضاً فيما مضى ؟ ان على ظهره آثار اكثر من مئة جلدة تثبت الى اي مدى كان عنيداً وقاسياً .

وشرعوا بتناول الفطائر الساخنة المغمورة بالدبس ، عندما اطل الاخ بيتر برأسه من الباب وقال : صباح الخير اخي واختي . صباح الخير ايها الاولاد .

ولم يجدوا كثيراً صعوبة في دعوته للجلوس معهم الى المائدة . كانت رائحة الحب الساخن المطبوخ منتشرة في الكوخ

تسيل لعاب الانسان قبل ان يذوق الطعام . وقد كان الاخ بيتر كريماً في مديحه . وقد اخرج بعض قطع الحلوى من جيبه واعطاها للاولاد . كانت راشيل تتحمس دائماً لمن يمتدح طعامها ، لا سيما ان كثيراً من رجال الدين كانوا قليلي اللباقة كتفاحة حامضة .

وبعد الانتهاء من الطعام ، سأل الاخ بيتر ملاطفاً جيف :

ـــ هل تتمكن يا بني من ان تقوم باعمال ذات قيمة كأبيك ؟

ـــ « نعم .. على ما أظن » هكذا أجاب جيف مشيراً برأسه .

وسار جديون والأخ بيتر معاً الى مستودع الحبوب ، وجلسا على الأرض واسندا ظهريهما الى ألواح الخشب ، وظلت ارجلهما ممدودة . كان المكان مشمساً ، وهواء الصباح البارد يهب من الوادي ، وجاء الكلب وتمدد بجانبهما واخذ كل منهما قشة طويلة من العشب وأخذ يمضغ طرفها .

سأل الأخ بيتر : جديون ... متى تقرر ان تسافر ؟

ـــ الى تشارلستون ؟

ـــ نعم ..

وعندما مرت فترة طويلة لم يجب جديون خلالها قال الأخ بيتر :

ـــ لم انت خائف ؟

ـــ وكيف تمكنت من ان تعرف أني خائف ؟

ـــ اوه .. اسمع ياجديون ... انت وانا يعرف كل منا الآخر منذ مدة طويلة ، فعندما يحل عام الله الجديد ، ستكون انت بلغت السادسة والثلاثين ؛ لماذا اذكر ذلك بوضوح ؟ .. عندما جاءت ساعة ولادتك ، كانت امك مستلقية على ظهرها وانت في بطنها ! .. كانت تصرخ : ايها الطفل يسوع .. لقد اتت ساعتي . أربعة عشر عاماً كان عمري اذ ذاك ... وقال والدك : اركض يابيتر الى السيد واخبره بان صوفيا تموت . وركضت مسرعاً لكن جيم بليك ، السيد المراقب أجاب ببرود : قل لي .. اي زنجية لم تمت أثناء الوضع ؟ .. والآن هل تعتقد باننا قد اتينا لها بطبيب ؟ لا ... ان العمة العجوز (آنا) ـــ القابلة ـــ قاومت الشيطان ثلاثة أيام . وعندئذ ولدت انت ، الا ان أمك ماتت . وجلد جيم بليك قفاي ، واقسم بالله أمام السيد كارويل بانني لم اخبره .. هذا هو السبب في اني اذكر يوم ولادتك جيدا . انني اذكر كيف كنا نعمل في حقول القطن في

تلك الأيام الحارة ، وكيف كنا نبحث عن الأسباب التي من اجلها يعيش الزنجي ، وعندما أعلنت بانك ستضع حدا لحياتك ، وتنام نوماً طويلا هادئاً ، كنت انا ـــ والحمد لله على ذلك ـــ الزنجي الوحيد الذي أراك فظاعة العمل الذي كنتَ مقدما عليه ... الى من اتيت عندما أردت ان تذهب لتحارب مع رجال الشمال ؟

اجاب جديون : اتيت اليك .

وقلت : اعتن براشيل والأطفال الثلاثة الصغار .. وذهبت . ؟

ـــ نعم

ـــ والآن تتراجع مجفلا كالبغل عندما أقول انك خائف ! ..

واجات جديون : تقول لي ان اذهب الى تشارلستون .. انا الزنجي الذي لا يقرأ ولا يكتب .. ولا يتمكن من تهجئة اسمه الا بصعوبة .. تقول لي اذهب الى المؤتمر ... الى تشارلستون .. انا اذهب الى مدينة ممتلئة بالبيوت البيضاء كذلك البيت الأبيض حيث الكثيرون من الاناس البيض يضحكون من زنجي مخبول .

كان الاخ بيتر يرسم خطوطا على الرمل امامه ، وسأل

بلطف : « كيف ذهبت الى تشارلستون لأول مرة يا جديون ؟ .

ـــ ذهبت مع رجال الشمال .

وتذكر جديون وتابع : اتيتها مرتديا البزة الزرقاء وبيدي بندقية ، والى جانبي عشرة آلاف رجل نغني معاً أنشودة النصر ...

ـــ لم تكن خائفاً .. وها انت الآن تحجم عن الذهاب وحدك خوفاً . لم يعد هنالك بزة زرقاء ترتديها ، ولا بندقية بيدك تحملها ، ولا أنشودة . ليس هنالك سوى يد القانون تقول للزنجي الأسود : انك حر ياولدي ..

ولم ينبس جديون ، وتابع الأخ بيتر بصوته الهادىء : « يقول الكتاب المقدس بان موسى كان خائفاً ، وقال له الله اذهب وقُدْ شعبي » .

ـــ انا لست موسى .

ـــ ان الشعب يحتاج الى قائد يا جديون ، ولقد قلت لنفسي أثناء التصويت : القانون يقول الزنجي حر ، القانون يقول صوتوا ، القانون يقول ايها الزنجي الخارج من العبودية .. تستطيع العيش . ان الزنجي لا يعرف القراءة والكتابة لدرجة لا يستطيع معها التفكير . عبد نصيبه السوط او البيع الى جانب النهر اذا ما

تجرأ على التفكير ، عبد ينال ثلاثمئة سوط .. لماذا ؟ لأنه تعلم القراءة .. ان الزنجي ككلب صيد عجوز يطرح خارج البيت ، فيبدأ بالحصول على طعامه ، وقلت لنفسي : من سيقود هؤلاء الناس ؟ من سيتكلم بجرأة وقوة ؟ ويمشي بجرأة وسرعة .. انهم جميعاً خائفون . من سيقودهم ؟ . وهتف جديون : « لماذا اخترتني انا ؟ . لماذا لم تكن انت .. ؟

ــ ان الشعب قد انتخبك . وستكون هكذا منذ الآن .

وانحنى بيتر واضعاً يده البارزة العظام على ركبة جديون .. انظر الي ياأخي جديون تقول انك لا تعرف القراءة . ما من انسان يولد وهو يعرفها .. انك ستتعلم . انا لي بعض المعرفة بالكتابة ، قد تكون لا تتجاوز خمس عشر او عشرين كلمة ، الا اني سأكتبها لك وستتعلمها كبداية .

وهز جديون رأسه يائساً .

وتابع الأخ بيتر : خذ قضية الكلام . الكلمات تتناسب ، ويقول البيض عن هذا بانه « الصرف والنحو » . ان رجلا رأسه على كتفيه يجب ان ينطق الكلمات صحيحة أما الزنجي العجوز مثلي فلا يتمكن .. كيف ستصل الى ذلك ؟

أجاب جديون .

ـــ لا يعرف ذلك الا الله .. !

ـــ الله يعرف وكذلك انا أعرف .. يجب عليك ان تستمع . يجب عليك ان تستمع الى الرجال البيض وهم يتكلمون . يجب ان تستمع اليهم في كل دقيقة من ساعات اليوم ، يجب ان تتعلم بنفسك . وربما يأتي ذلك اليوم الذي تستطيع فيه ان تقرأ كتابا . ليس هنالك من شيء لا تجده في الكتب ... ان حقائق الانجيل موجودة هناك .. فيها ..

قال جديون : ان الانسان يفكر في عمل .. في زراعة ما مثلا .. يستطيع ان يقوم به في يوم واحد ، ولكن كيف السبيل الى أن يملأ رأسه بالمعلومات ؟

ـــ لا شك انك مجتاز الجسر عندما تصل اليه ، ويكون جيف عندها قد وصل الى درجة يستطيع بها ان ينوب عنك في أداء بعض الأعمال الصغيرة .. وماركوس ! .. انه صبي ممتاز .. ان بركة الله عندك على الدوام .. سيكون عالما جديدا يا جديون .

وابتسم وأشار الى اكواخ العبيد التي لا نوافذ لها .. وهتف فلنقوض هذه ونهدمها .. وطوى يديه النحيلتين الطويلتين واحنى رأسه متمتماً : فلنحمد الله .

وقال جديون : ما أفكارك عن هذا المؤتمر ؟

ـــ انه يسن وصايا وقوانين ، دستورا كالانجيل . ان هؤلاء الزنوج يتهيجون كالكلاب المتوحشة . البيض يكرهون السود والسود يخافون البيض ، ان هذه الطريق ليست طريقاً سوية ، ولا يمكن للعالم ان يبقى هكذا ..

ـــ كيف استطيع ان اميز قانونا صالحا من آخر غير صالح ؟

ـــ كيف تستطيع تمييز رجل جيد من آخر ليس كذلك؟ كيف تعرف امرأة صالحة من أخرى خاطئة ؟ .

ـــ ان لي مقياسا في ذلك

ـــ ان لك مقياساً في ذلك ؟ (قال الأخ بيتر) . وكيف ذلك وأنت لا تعرف القراءة والكتابة ؟ ليس هنالك مدارس للزنوج ، كما أنه لا توجد مدارس للبيض الفقراء المساكين . من هنا البداية . ضع قانوناً للمدارس .. انه قانون صالح . هنا هذه المزرعة مزرعة كارويل ، قد تكون عشرين الف فدان ! من يملكها ؟ .. السيد كارويل ؟ ام الحكومة ؟ ام الزنوج ؟ ام البيض ؟ ان الزنوج يحتاجون الى الأرض وكذلك البيض . ان

هنالك ما يكفي الجميع ، الكثير للجميع . ولكن كيف ستقسم ؟

ــ انىّ لي ان أعرف هذا ؟

ــ اصبر قليلا يا جديون على مهل ، وبهدوء .

فسأل جديون :

ــ لماذا لا تكون انت النائب ؟

ــ لمَ لم يذهب الشعب وينتخبني ؟ ان لي طريقة في المعرفة يا جديون ، انني زنجي عجوز ، وقد بلغت اقصى ما بإمكاني ان أبلغه من المعرفة والتعليم .

وسيأتي يوم تنظر فيه الي وتقول لنفسك ، كيف كنت اطلب النصح والتوجيه من هذا الرجل الزنجي . هذا الرجل الجاهل ؟

ــ سوف لن أقول ذلك مطلقا .

ــ فليباركك الله ، قد لا تقول ، الا انك شبيه بطفل صغير . كأنك دلو يسحب ماء من البئر ، يجب ان يأتي وقت وتملأه .. انتظر فقط وسترى .

وهز جديون رأسه وقال : كم اود لو اصدق ما تقول .

ـــ لا يهمني صدقت أم لم تصدق يا جديون ، ومع ذلك فان هذا هو الواقع ..

كأنك دلو يسحب به ماء بارد نظيف ..

ـــ لنفرض انهم سيضحكون ويهزؤون من هذا الزنجي !

ـــ بكل تأكيد ، سوف يضحكون يا ولدي جديون . عندما يأتي زنجي مسكين من المخابىء والمستنقعات ، ويقول : اين السيد ، فنقول له : انك حر ! . وذلك الزنجي لا يفهم من كلمة (حر) اكثر مما يفهم كلب صيد ، فكيف لا نضحك نحن ؟ ! انه لمن الطبيعي ان نضحك من المسكين . يجب ان تتقبل الضحك وتتقبل التأنيب ! من أول راتب يدفع لك بصفتك نائباً ، وربما كان دولاراً واحداً في اليوم كما قال الاميركي الشمالي ـــ اشتر لنفسك كتابا . ربما شعرت بانك توشك ان تموت جوعا .. غير انه يجب ان تشتري الكتاب اولا .. اشتر مصباحا لتقرأ الى جانبه .. تصور وادرس تلك الكلمات . كلمات الكتاب .

وهز جديون رأسه، وكانت مخاوفه من المؤتمر في تشارلستون تزداد بقدر ما يزيد الأخ بيتر من كلامه وارشاداته . وفي نفس الوقت كان يشعر بالغبطة العجيبة المؤلمة التي سبق له ان شعر بها

عندما هرب للالتحاف بجيش الاتحاد .

ــ أي نوع من الكتب سأشتري اولا ؟ .

ــ قد يقول رجل الدين « الانجيل » الا ان الانجيل ليس بالكتاب السهل ، فهو يعقد عليك الأمور . اشتر لنفسك كتاب تعليم ابتدائي ، كتاب « تهجئة » ، ثم كتاب « جمع وطرح » وسيأتي يوم تدرك فيه بنفسك أي كتاب ستقرأ بعدئذ .

ووافق جديون على ذلك بقوله : آه .. نعم .

ــ « ليست كل الأشياء مكتوبة في الكتب » قال ذلك بيتر وكأنه قد رأى ان من الضروري ان يتخذ بعض الاحتياطات .

ــ وكيف ذلك ؟

ــ لا يكتب في الكتاب شيء ان لم يكن قد وقع حادث ما ، ان هذه الأشياء التي حدثت للعبيد هنا ، فأمسوا احراراً ، لم يسبق ان حدثت من قبل . ربما لم يحدث امر مماثل ، لذلك منذ ان قاد موسى بني اسرائيل من مصر ، لم يكن لدى موسى آنذاك كتب ، وما فعله هو انه أدار وجهه الى الله وقال : ما الشيء الصالح الذي يجب ان أعمله ؟ .

ــ وكيف لي ان اعرف انا ذلك ؟

ــ أفعم قلبك بالمحبة يا جديون ، واملأه بالمعرفة .

ــ ان قلبي يميل لان يكون مفعماً بالغضب !

ــ جميع قلوبنا كذلك ، أننا نشأنا على الخطيئة يا أخي . من هو افضل رجل في الكون على ما تعتقد يا جديون ؟ .

وفكر جديون قبل ان يقول : حي ؟ أم ميت ؟

ــ أحد الاثنين ..

ــ اعتقد انه ابراهام

ــ كيف عرف ابراهام كل هذه الاشياء ؟ كيف تسنى لابراهام ان يقول للزنجي في كل العالم : أنت حر ؟

ــ اعتقد بانه رأى ان ذلك هو الحق والصواب .

ــ ربما .. وربما اكثر من ذلك . كان له قلب ممتليء بالمحبة والرحمة . يقولون ان ابراهام العجوز ، عندما خرج من غابات الصنوبر لم يكن ليختلف عنك ، بغير قلبه الكبير ، الكبير حقاً . كذلك البيت الأبيض .

ووافق جديون قائلاً : نعم لقد كان له قلب كبير .

ــ والآن لنأخذ قضية ما .. اي قضية تحتاج الى تحكيم ، يأتي رجلان ويشهدان في قضية ما ، احدهما رجل انيق ، رجل مدينة ، والآخر قذر . جائع . الأول يقول ان الرياح ساكنة

ضعيفة ، والثاني يقول ان الرياح تهب بعنف ، وعليك ان تحكم .. هل تهب الرياح أم لا . فكيف ستتمكن من أن تحكم ؟

ـــ ارفع يدي في الهواء ، فأحس إن كانت الريح تهب وتعصف أم لا ! .

ـــ نعم .. او لعلك تسأل الناس . ربما سألت عشرة رجال او ربما كانوا اثني عشر رجلاً . إياك ان ترفض شهادة رجل لانه يختال كطاووس ، او لانه يتكلم بطلاقة وجودة . انك يا جديون ستجد ذلك من الأمور الصعبة وآثار السوط لا تزال على ظهرك . ستجد ذلك صعباً لانك تشعر بالعداء نحو الأناس البيض ، وقلبك متحجر . ان هذا لا يعود إلا الى البؤس والالم . ومن الآن وصاعداً لن يكون للون البشرة اي تأثير ، هنالك كثير من الاناس الطيبين ، سواء كانوا سوداً أم بيضاً .

وهز جديون رأسه موافقا وقال : انني أفهم ما تقول .

وفكر الأخ بيتر قليلاً ثم قال : لقد تكلمنا الكفاية ، ولا اعتقد انه يوجد اكثر من هذا ، فليباركك الله ياجديون وليسر بجانبك .

وأجاب جديون : آمين .

الفصل الثالث

وكلما مرت الايام ولم يحدث جديد ، يصبح انتخاب جديون للمؤتمر أقل اهمية عنده . وقد ينقضي يومان او ثلاثة دون ان يفكر في الامر مطلقاً . وفي الواقع ، اي برهان لديه يثبت بأنه كان نائباً ؟ فعقب الخطاب الذي القاه الاخ بيتر يوم التصويت ، كان يبدو أن جميع الناس في تلك المنطقة قد صوتوا لجديون ، وبالتالي لم يصرح احد بأنه قد صوت ضده . وكان ان استنتجا ، هو والاخ بيتر ، أنه قد انتخب واصبح نائباً ، الا ان الاقتراع كان سرياً ، وقد اخبروهما بأنه عند الانتهاء من فرز الاصوات ، سيعلمون من اصبح نائباً ويرسلون له اوراق الاعتماد . وها قد انقضى الآن اسبوعان ، كان جديون خلالهما يترجّح بين الخوف والامل ولقد كرر على نفسه هذا السؤال مراراً كثيرة :

ــ « الى كم من الوقت ياترى يحتاج ، موظف ماهر من موظفي احصاء الاصوات لكي يعد لي الخمسماية او الستماية صوت ، واخيراً ، وبكل بساطة ، نسي جديون القضية من اساسها ، اذ انه لا يعقل من رجال الشمال البيض ، وهم متمتعون بكامل قواهم العقلية ، ان يطلبوا الى زنوج مجاذيب ان يكونوا نواباً . !

كان لديه من الاعمال والمتاعب ما يكفي لإشغاله عن اي شيء آخر ، ففي الصيف كان العيش سهلا ، والحياة سعيدة ، أما الآن ، فالشتاء على الابواب وفي مثل هذه الحال يميل الناس عادة الى الاهتمام بالطقس البارد القادم . وارسل جديون الرجال ليقوموا بقطع الاخشاب في المكان المسمى (القسم الاسفل) حيث قاموا بالعمل هناك لمدة اسبوع . وقديماً يوم كان يوجد على رأسهم مراقب ، كان لا يسمح لهم بقطع الاشجار من الغابة بل استئصال الجذور من الاراضي المحروثة . وفكر جديون أنهم لو اقتلعوا الاشجار مستأصلين جذورها ، لاستفادوا من الأرض في الزراعة ، واقترح ذلك على الرجال .

فأجابه الرجال :

ــ « ولكن هذا يعني مضاعفة عملنا .. ولماذا ؟ »

قال جديون : من الاسهل علينا ان نقتلع الشجرة والجذر معاً من ان نقطعها ثم نعود فنستاصل الجذر .

ـــ ومن يهمه أمر الجذر ، استوءصل أم لم يستأصل ؟

فقال جديون : هذا أمر لم نعرفه بعد . لم نعرف بعد من سيمتلك هذه الأرض ، قد أكون انا وانت يوما ما .. ؟

ـــ اننا سنفكر في هذا عندما تحين الساعة !

لقد كان من الممكن ان تمتد هذه المناقشة نصف يوم كامل لو أن جديون تمالك نفسه ، ودعا الرجال للتصويت . لم يكن جديون متأكداً بعد ، حتى اللحظة التي طلب فيها منهم ذلك ، بأن مبدأً عجيباً كهذا يمكن تطبيقه على العمل اليومي كقطع الاخشاب مثلا وفي سكون شامل عقب الاقتراح ، طبق جديون مبدأ الاجابة بنعم أو لا على الاقتراح . وعلى الرغم من انه قد سبق للرجال التصويت للمؤتمر ، وجدوا ان الطريقة كانت ثورية . وقد سأل بعضهم : هل يجب على المرء ان يصوت « بنعم » فقط أو «لا» فقط ، أو انه بامكانه ان يصوت بـ « نعم » و « لا » معا ؟ . واخيراً نجحت الطريقة وفاز اقتراح جديون الخاص باقتلاع الاشجار من جذورها بدلا من قطعها على مستوى الأرض بأغلبية كبيرة .

وعندما احتج ترويير ، ذو الجسم الكبير ، القوي كجسم ثور ، قائلا انه قد اقتطع من الأشجار ما يعادل ثلاثة اضعاف ما يحتاج اليه ، في حين أن رجلا صغيرا كهانيبال واشنطن لم يتمكن بعد ، أن يقوم بنصف العمل الذي قام به هو ـــ عاد جديون الى التصويت ، الا أن عاملا جديدا دخل القضية الآن . فقد وضع الرجال أدواتهم وطرحوا قضية التعاون الجماعي على بساط البحث . ففي ايام المراقب كان العمل الجماعي يبدو كأنه أمر طبيعي . أما الآن ، وقد استيقظوا وادركوا انهم قد أصبحوا احرارا ، فقد بدأوا يتساءلون : لماذا لا يعمل كل رجل لنفسه بحرية ؟ واذا كانت الحرية لا تعني هذا .. فما عساها تعني اذن ؟ ..

أما المشروع الذي اقترحه الأخ بيتر ، فقد كان يضم نواحي كثيرة من القضية يجب بحثها قبل ان يطرح على التصويت .

وهتف هانيبال واشنطن وقد تقطب وجهه الصغير بخطوط الغضب : ـــ هيه .. انت هناك .. ترويير .. لماذا تسخر مني ايها الشحيح الكبير يا اسود اللحم كلحم الغربان .. افعل انت

ما بدا لك ، اذهب واقطع أخشابك لنفسك .. انني لم اطلب ان تقسم الحصص بالتساوي . غير اننا سوف نعمل معاً .

ورفع تروبير فأسه مهدداً ، وهنا تدخل جديون وبعض الاخرين ، فباعدوا بينهما ، وصرخ الأخ بيتر : انه لمن المخجل ان يجرب الرجال اراقة دم بسبب مسألة كهذه ! .

واستمرت المشادة ساعة كان فيها كل من المتخاصمين يوجه كلمات قاسية للآخر . وفاز الاقتراح باكثرية ضئيلة هذه المرة . واخيراً قال جديون موجهاً الحديث للأخ بيتر .

ــ يظهر اننا سوف لا نعيش بدون متاعب .

ــ نعم . أو ليست هذه طبيعة الرجل ؟

ــ مهما يكن من أمرهم ، فان في رأسي ألماً على كل حال .. رجال يصرخون كالاطفال ، ــ انهم لا يعرفون هل يعملون معاً ؟ أم يعملون منفردين ؟ . ان الايام تسير ببطء ، وهذا الزنجي لم يزل عبداً كما هو ، وحتى صيفنا هذا لم يمضِ على تحريره من العبودية سوى صيفين . انهم اشبه بالاطفال الآن ، فكيف تنتظر منهم اعمالاً كبيرة ؟

الا ان الايام أتت . وأتت معها الصعوبات والمشاكل . لقد مضت فترة ايام التصويت وكأنها بزوغ شمس مفاجىء لامع .

ومنذ ذلك الوقت لم يحدث اي شي وعادت الحياة الى سيرتها الاولى . ولاحظ جديون ان الناس اخذوا ينظرون عبر نوافذ البيت الابيض الكبير . كان البيت مملوءاً بالاشياء الجميلة ، وكثر الكلام عن هذه الاشياء ، وفي ثنايا هذا الكلام كمن الحقد على جديون وبان الامتعاض منه . ومنذ عام جاءت قوات محتلة من جنوب كارولينا ، ودخل افرادها البيت ، فاخذوا منه ما أرادوا وألقوا بالاشياء الاخرى هنا وهناك . وقد أمر جديون آنذاك بان تعاد الاشياء الى أمكنتها ، وان يعاد اغلاق الابواب . وعندما سألوه : لماذا ؟ أجابهم : ان هذه الاشياء ليست ملكنا ، ان هذا البيت يختلف عن البيوت التي نعيش فيها ، والثياب الموجودة فيه تختلف عن الثياب التي نرتديها اننا لسنا بحاجة الى كل ذلك .

ووجد مع ماركوس ملعقة فضية لا يمكن ان تكون قد اتت الا من البيت الكبير . وكيف ذلك ؟ .. لقد دخل ماركوس الى البيت ! ان بيتا كبيرا له مئة باب ومخرج ، ليس من الصعب الدخول اليه . الا ان جديون شعر للمرة الاولى بعدم الاطمئنان الى الطريقة التي يعامل بها أولاده . وفكر .. لقد كان يظن حتى الان بانه يعرف مايجب عمله .. وها هو يشعر بجهله شعورا مخيفا مرعباً . وعندما يجلس كل مساء أمام النار وبيده لائحة الكلمات

التي كتبها له الأخ بيتر : نملة .. رجل ، امرأة ، بنت ، انت ، زنجي .. الى آخر ما هنالك ، كان ينتصب أمامه جبل من الواقع يخيفه ويرعبه . وغدا الصواب والخطأ أمرين مرنين يمكن تغييرهما اذ لم يعودا جامدين لا يتغيران ! وبدلا من ان يعاقب ماركوس بشدة وصرامة قال له بلهجة المتشكك :

ـــ كيف دخلت الى ذلك البيت الكبير يا ماركوس ؟ .

ـــ انني لم ادخله .

اذن لقد كذب ماركوس .. « انه ولد طيب » فلماذا يكذب ... هكذا فكر جديون ... ان المسائل والاحاجي تزداد باضطراد .

ثم سأل جديون :

ـــ من اين حصلت على هذه الملعقة اذن ؟

ـــ لقد وجدتها .

ـــ واين وجدتها ؟

لقد أُخذ ماركوس .. فلم يكن مستعداً .. وتتابعت القصة جزء يتلوه آخر .. لقد دخلوا البيت من نافذة المطبخ . وأخذ بعض الاولاد الاخرين أشياء اخرى أيضاً : قطعاً من الحرائر وفضيات خبأوها . ولم يتمكن جديون من جلد ماركوس ، انه لم

يرفع يدا على اي ولد من أولاده . ان شعبه لم يتعود الجلد . فلنترك الجلد . للاناس البيض . انه يعرف شعور الانسان عندما يهوي السوطَ على ظهره ، ولجأ الى طريقة اخرى .. دعا الرجال الى اجتماع عام ، واتى بماركوس أمامهم ، واخبرهم بما حدث وكانت كل كلمة تطعن الولد وكأنها سكين .

وسأل الأخ ستيبان :

ــ الى متى سيبقى هذا البيت الكبير قائماً هناك على حاله ، يا أخانا جديون ؟

ــ الى يوم الدين ، اذا كان يجب ذلك .

ــ ان الزنوج يعيشون في أكواخ حقيرة قذرة .. وذلك البيت الابيض الكبير الملعون لا يسكنه أحد .

قال جديون ثانية بعناد :

ــ الى يوم الدين !

وفي تلك الليلة ، قالت له راشيل وهي تبكي :

ــ كيف فعلت ذلك بالولد ياجديون ؟

ــ لقد فعلت ماكان ينبغي علي ان أفعله .

ــ شهّرت به هكذا .. أمام جميع الناس !

ــ لقد قام بعمل غير صالح .. شرير .

ــ يظهر ان الشر لم يصبنا الا من التصويت ..

ــ ماذا ؟!

ــ سيكون التصويت سبباً في ذهابك الى تشارلستون ، وقد كان سبباً في جعل الزنوج يتذمرون ويتأففون ، لا ينتجون شيئاً ولا يصلون الى شيءٍ .

وتظاهر جديون بالنوم فأغمض عينيه . وتوقفت راشيل عن الكلام ، وسمعها تبكي بهدوء .

وكان جيف آنذاك قد بلغ الخامسة عشرة ، واخذ يتململ مغتاظاً من القيود التي فرضت عليه . كان عنيداً وذا بنية قوية كحيوان متوحش ، وكان جديون والاخ بيتر يتراءيان له شيخين طاعنين في السن وكأنهما يربطان العالم بعنقه ويضيقان عليه الخناق كحبل المشنقة . لقد كان سجيناً ، وأراد ان يحطم القيود ويصبح حراً خارج هذا المجتمع الصغير ، المجتمع الذي ليس فيه من يقرأ ويكتب بسهولة ، وحيث لم يسبق ان وجدت أية صحيفة مطلقاً . لقد كانت الحياة بدائية ولا زالت كذلك منذ الآف السنين . حتى ان الساعة لم تكن موجودة هناك ، ولا التقويم ايضاً .. فالشمس هي الساعة . تترجح كبيرة بلون البرتقال ، وتوالي الفصول يشكل تقويماً سهلاً ، بسيطاً . في هذا

المجتمع ، بلغ جيف عامه الخامس عشر .

وقد كانت ذكرياته عن سنوات ما قبل الحرب مشوشة غير أكيدة ، والحديث عن الفرق بين الحرية والعبودية ، لم يؤثر عليه كثيراً . فقد ولد في عهد من الفوضى ، وكل عهد طفولته كان مليئاً بها .

انه الآن فتى جبار ، وهو لايزال صبياً . وقد تألم كثيراً يوم ذهب الرجال للتصويت وتركوه في البيت وخيل اليه ان كل طريق يغني له ، فانتابه شعور بأنه سيذهب يوماً في احدى هذه الطرق ولا يعود ثانية . وكان جديون يشعر احياناً بتلك القوة في اعماق الصبي ، فيفسح له المجال كي يذهب الى المستنقعات المنخفضة ليصطاد بنفسه . وكان جيف يتجول هناك خلال ساعات طويلة ينشدُ اناشيد همجية لا معنى لكلماتها . لقد كان الصيد يهدىء من طموحه اكثر من اي شيء آخر . وعندما كان يأتي الى البحيرة الباردة وحولهاآثار أرجل الحيوانات ، لم يكن يجد من يقول له أن غزالا شرب من هنا . كان بامكانه ان يتمدد هناك عشر ساعات ، بهدوء وصبر ينتظر ظبياً ذا قرنين كبيرين ، او دباً مفترساً . وفي هذه الساعات الطوال الصامتة . كان يحلم احلاماً مشوشة لا نهاية لها .

وفي احلامه كانت تتراءى له مدن لم يرها قط ، وممالك الجن كما سمعها من أحاديث الرجال . وفي هذه الاحلام كان الاب ابراهام يظهر غامضاً لا هيئة له وكأنه الله ، وهو ينشد : هلليلو يا .. ، واناشيد المجد والنصر . كان يشعر أحياناً أثناء احلامه بشوق حاد مشوش تماماً ، يشد قلبه كأنه المطاط .

وتلاقى مرة مع رجلين من البيض في المستنقعات ، ولم يخبر اباه جديون بذلك . كانا جنديين ببزتيهما الرماديتين القديمتين ، مزقهما القدم ، ولطختهما الاوحال .. ونظرا اليه وشتماه ، وعندما رفعا بندقيتيهما ، قفز واختبأ وراء شجرة . ودوى صوت البندقيتين في المستنقع كأن هناك معركة . لو انه اصيب لما كان سوى زنجي آخر يموت ، يسقط منكبا ووجهه في الماء يبتلعه الوحل تدريجياً ، وتغطيه اوراق الاشجار الصغيرة ، وبعدئذ يصبح نسياً منسياً ، ولو كان هنالك شيء يميز بدء حياة الشباب عند جيف لما كان سوى هذا الحادث . وعندما كان المعتديان يركضان عبر المستنقع ، كان بامكان جيف ان يقتل اي واحد منهما ، الا انه لم يفعل .

راقبهما فقط ، بغرابة دون اي خوف ، مجربا ان يجد حلا

لهذا اللغز . ! لماذا ارادا ان يقتلاه فوراً وبكل برودة ؟ الا انه لم يخبر أحداً بهذا ! .

*

هذه اول رسالة تصل الى مزرعة كارويل منذ ان رحل المراقب . لقد مرت اسابيع طويلة عقب التصويت ، ولذلك لم يجد احد علاقة بين الحديثين الهامين . كان الوقت ظهراً ، وشوهدت العربة تصعد في الطريق المؤدية الى كولومبيا . وعند وصولها ترجل منها هولسيتنج موزع البريد ، وسار ببطء وكسل مبالغ فيهما . تلك كانت عادته عندما يكون مع العبيد المحررين . لقد حافظ هولسيتنج على عمله كموزع للبريد طيلة مدة الحرب ، مارس عمله مع الجنوبيين العصاة أولا ، ثم مع الشماليين ، ثم مع العصاة من جديد وبعدئذ مع الشماليين ثانية ، لم يكن هذا لان هولسيتنج كان رجلا مخلصاً .
كلا . لقد كان يمضغ التبغ ويبصقه . عدو لدود للدستور . يقضي النهار بكامله وهو يكيل له الشتائم من بزوغ الشمس حتى غروبها . ولم يحي العلم قط . الا انه الرجل الوحيد الذي

كان يعرف اين يوجد كل انسان ، اثناء فوضى الحرب ، وما بعد الحرب ، وهو الوحيد الذي يعرف من بقي على قيد الحياة ، ومن مات . من بقي في بيته ومن رحل الى تشارلستون او اي مدينة الى كولومبيا ، اتلانتا ، او حتى من رحل الى الشمال . وهو الى جانب ذلك ، الوحيد الذي يعرف معظم الالآف العديدة من العبيد المحررين في كل المنطقة . ولذلك ، احتفظت به السلطات العسكرية كموزع للبريد بالرغم من انه كان يشتمها علناً كل يوم . وقد اقسم بأنه سينتظر ذلك اليوم الذي سيقتل به جمهورياً بيديه الاثنتين . وها هو الآن قد ساق العربة الى مزرعة كارويل . وصرخ :

— هاي . ايها الزنوج . ايها العبيد السود . يا ابناء الزنا ! . كان هولستينج في الواقع لايخاف من اي مخلوق يمشي ! . وركض الناس . رجالاً ونساء ، صبياناً وبنات ، واجتمعوا حوله ، وبصق في الغبار بصقة مملوءة بالتبغ وفرك يديه ، ثم اخرج من جيبه مظروفاً كبيراً بنيّ اللون ، وحوّل بصره اليه ثم سأل :

— من منكم ايها الزنوج المختلسون هو جديون جاكسون ؟ وكان جديون يقف باسماً من العجوز الصغير . ثمة

شيء ماكان يعجبه فيه ولكن ما هذا الشيء ؟ لم يكن جديون يعرف ذلك . شيء لخصه الاخ بيتر بقوله : « هذا رجل يحتاج لان نصلي من اجله بكل تأكيد » وتقدم جديون جاكسون وكان هولسيتنج يعرفه ، فنظر اليه من الاسفل إلى الاعلى وقال :

ـــ جديون جاكسون ؟ .

ـــ نعم

ـــ وقّع هنا .

ـــ نعم سيدي .

وناوله هولسيتنج طرف القلم ، هل تعرف الكتابة ؟ اذا كنت لا تعرفها فضع اشارة الزنجي هنا .

قال جديون :

ـــ استطيع ان اكتب .

يعزف كيف يكتب اسمه على اية حال . وبكل صعوبة أتاح له الناس المتجمعون التنفس عندما كان يوقع اسمه وعين موزع البريد ترقبه . انه لم يمارس الكتابة علناً هكذا من قبل . وعلق الناس بكلمات الاطراء على مهارته . ثم ركب الشيخ في عربته ، وادارها الى الوراء ، ولطم البغل فعادت تجري على الطريق التي جاءت منها . وادار جديون المغلف بهدوء ، وعلى الزاوية

العليا من اليسار كان مكتوباً : « اذا لم يسلم في مدة عشر ايام يرجع الى :

الجنرال آ .ر . س . كابني — الجيش — الولايات المتحدة .

كولومبيا : ج . ك . م . ع . ث .

لقد تمكن من قراءة اكثر الكلمات ، غير انه لم يعرف ماذا تعني هذه الاحرف الكثيرة المتتابعة . وقال الاخ بيتر وهو ينظر من فوق كتفه :

— الجنرال كابني ، انه الرجل الشمالي الجديد الذي جاء ليراقب الاعمال . اما حرفي (ج — ك) فتعني جنوب كارولينا ، م . ع . ث قد تعني منطقة عسكرية ثانية كما قالوا لنا يوم التصويت « والله يعرف ما تعني الاحرف الاخرى » وعلى الزاوية المقابلة كتب « كتاب رسمي » كل من يستعمل مثل هذا الغلاف ليوفر دفع رسم الطوابع يعاقب بدفع ١٠٠ دولار . »

ولم يتمكن الاخ بيتر او اي شخص آخر من اولئك المجتمعين حوله ان يفهموا شيئاً . وفي وسط الظرف كان العنوان:

جديون جاكسون المحترم

مزرعة كارويل

كارويل ج . ك . م . ع . ث

وقرأ الاخ بيتر اسم جديون بصوت عال ، الا انه توقف عند « المحترم » انه لم ير تلك الكلمة قبل الآن ، ولا يعرف ما تعنيه ، ولم يتمكن من لفظها . وجرب ان يقرأها صامتاً وهو يحرك شفتيه . وهانيبال واشنطن الذي كان بإمكانه قراءة بعض الكلمات جرب ايضاً ، وكذلك ماريون جيفرسون الذي تعلم بعض القراءة اثناء وجوده في جيش الاتحاد ، وهو آخر متعلم في كل هذه المجموعة البشرية . وحدقوا جميعاً في الرسالة بصمت وقال جديون أخيراً :

ــ ماذا تفهم من هذه الكلمة ايها الاخ بيتر ؟

وهز الاخ بيتر رأسه ، وتطوع هانيبال واشنطن بالاجابة :

ــ قد تكون مثل السيد ، او الكولونيل او شيء من هذا القبيل .

ــ ولكن لماذا تأتي بعد اسم جديون ولا تأتي قبله ؟

وخيم السكون الى ان قطعه الاخ بيتر قائلا :

ــ افتحها يا جديون .

وفتح جديون المغلف ببطء . كان مملوءاً باوراق موضوعة

ضمن رسال مطوية ، وقد كتب العنوان بنفس الاسلوب الذي كتب به على الظرف . وجاء في الرسالة :

« اننا بهذه الرسالة نحيطكم علماً ، بانكم قد انتخبتم نائباً عن منطقة كارويل سنكرتون ـــ من اعمال كارولينا الجنوبية ، ندعوكم الى المؤتمر الدستوري للدولة الذي سيجتمع في تشارلستون ج . ك . م . ع . ج . في الرابع عشر من كانون الأول عام ١٨٦٨ طيا التعليمات واوراق اعتمادكم . ان الميجر الين جيمس في شارلستون قد اخذ علما بانتخابكم وقبولكم . وسيقبل اوراقكم »

« ان حكومة الولايات المتحدة لها ملء الثقة بأنكم ستقومون بواجباتكم بشرف ووجدان . وان الكونغرس للولايات المتحدة يطلب منكم بان تقوموا بدوركم في اعادة بناء ولاية جنوب كارولينا باخلاص وأمانة » .

التوقيع

الجنرال ي .ر .س كابني

ج .و . مم . ع . ج

هذا ماجاء في الكتاب . الا انه مرت ساعات قبل ان

يصلوا الى فهم جزء مما يعنيه . وفي تلك اللحظة ، وبغض النظر عن اي شيء آخر ، اصبح انتخاب جديون بالنسبة اليه شيئاً يثير الضحك . انه صورة كاريكاتورية تهزأ بحريتهم الجميلة التي لم يمض وقت طويل بعد منذ ان حصلوا عليها . كل شيء بدا لعينيه اسود قائماً ، والجهل الاسود يطغي على ما حوله ، جهل اسود كالليل . اسود كجلده الاسود . ان قضية انتخابه لا تعدو كونها خدعة كتلك الاحلام التي تأتيه في كل ليلة تقريباً منذ ان أصبح حراً ، أحلام كان يحس اثناءها بالسوط يلهب ظهره ، احلام كان يرى نفسه فيها يعمل في حقول القطن تحت اشعة الشمس المحرقة . أحلام كانت تظهر كأنها حقيقية وتضطره لان ينسلّ من فراشه الى الباب ليرى بأم عينه أن الحقول ليست مزروعة قطناً . والآن انقلبت يقظته الى حلم ، واحس برغبة جامحة تدفعه الى ان يهرب ويختبىء ! .

وجهد الأخ بيتر وهانيبال واشنطن في قراءة الكتاب عبثاً . وملَّ الناس ، وغربت الشمس ، فدخلوا الى كوخ جديون ، وجلسوا والاوراق بايديهم ، وتحلقوا حول ضوء النار وقال هانيبال واشنطن :

ـــ بأمكاننا ان نأخذ الرسالة الى المدينة ، ونسأل

الاميركي الشمالي ان يقرأها لنا . وصرخ جديون مغتاظاً : كلا . واتجهت اليه نظرات متعجبة من الجميع . ان ماركوس وجيف لم يشاهدا اباهما على هذه الحال من قبل ، وجلسا ساكتين . ولكن ذلك كان بالنسبة لجيف بداية حدث جديد . رأى ثلاثة رجال أشداء ، ثلاثة يعتبرهم الجميع اقوياء ، ويخافون الله ، يعرفون اسرار الموسم الجيد ، وكيف تذبح البقرة والعجل والخنزير ، واشياء اخرى كثيرة ، ثلاثة يقفون مشدوهين عاجزين امام قصاصة من الورق . هنا في هذه الورقة كانت تكمن القوة . لقد كانت لجيف طريقة في التفكير ، وهي ان يجسد الافكار ويجعل من كل فكرة تمثالاً حياً والآن تراءت له قوة الكلمة المطبوعة وسلطانها ، في غايتها الهادئة ومقصدها . وكان على ثقة بأنه سيتعلم القراءة . وللمرة الاولى شعر بتفوقه على جديون .

وللمرة الاولى ايضاً شعر بنوع من الازدراء تجاه جديون ، وفكر : لو انه كان في مثل وضعه ، لما غضب وارتبك لعدم قدرته على القراءة . وشعرت راشيل بذلك ايضاً . كانت تستجيب لعواطف هؤلاء الناس كقيثارة شدت اوتارها بمهارة ، وكانت اكثرهم اضطراباً . فبالامس اعطتها « مامي كريستي » العجوز أيقونة لتجلب لها الحظ ، صورة صغيرة مخبأة في مكان ما من

الكوخ الآن . لو ان جديون يعلم بذلك لغضب كثيراً . انه كان يكره هذا النوع من العادات ، وكان يتحدى الحظ اذا ما اتيحت له الفرصة لذلك . وكان الاخ بيتر يدعو اشياء كهذه أعمالاً وثنية غير مسيحية .

وبعد مدة فهم الرجال الثلاثة الكتاب بصورة كاملة تقريباً. وكانوا يتحزرون معنى بعض الكلمات الواردة فيه (كأعادة بناء ــ ووجدان الخ . ولعلهم فسروا كلمات اخرى بشكل خاطىء الا انهم على كل حال فهموا فحوى الكتاب . لقد ادركوا أنه يجب على جديون ان يذهب الى تشارلستون .

وقد كانت صورة المؤتمر غير الواضحة ، تسير جنباً الى جنب مع التفكير في المستقبل . فقد يكون المؤتمر شيئاً دائماً وقد لا يكون . لقد خسروا جديون ! . انه لم يعد واحداً منهم . اما البطاقات والاوراق الاخرى التي كانت في المغلف فلم يحدقوا فيها الا من قبيل حب الاطلاع . سيصطحب جديون معه هذه الاوراق وعندها سيظهر معناها بكل وضوح .

وسأل جديون عن التاريخ . وانسلت ريح باردة من شقوق جدران الكوخ . هل يمكن ان يكون الرابع عشر من شهر كانون

الأول قد مرّ ؟ الا ان الاخ بيتر فكر في تاريخ البريد على الظرف وقال :

ـــ التاريخ هنا ٢ كانون الأول .

ـــ ان المرء ليحتاج الى وقت طويل ليسير الى تشارلستون . هكذا قال هانيبال واشنطن متأوهاً . لقد كان الرجل الصغير يحسد جديون الى حد ما .

وقال جديون : لا يمكن ان اذهب هكذا . ونظر الى سرواله القطني البالي ، وسترة الجيش الزرقاء القديمة التي يرتديها ، وحذاء الجندي الضخم الذي يلبسه ووافقه الاخ بيتر قائلاً : انها لا تليق ، ان لدي سترة سوداء وقد تمزق احد كميها بامكان راشيل ان تصلحها ، قد تكون ضيقة قليلاً ! .. الا انه بامكانك ان ترتديها .

وأضاف :

ـــ ان لدى فرديناند سروالاً جيداً ، وبامكانك اخذ القبعة السوداء التي يحتفظ بها تروبير في كوخه ، فانها قبعة جيدة ، ولئن كانت مكسرة .. لهي قبعة جيدة .

قالت راشيل :

ـــ أنني سأغسل لك القميص وارفوه يا عزيزي جديون

وقال هانيبال واشنطن بسخاء : « لدي تلك الساعة القديمة التي اعطانيها الاميركي الشمالي يوم كنت في الجيش » .

لقد كانت الساعة اغلى ما يملك . وشعر جديون بعاطفة حارة شديدة نحو هؤلاء الناس الذين يحبونه كثيراً : « خذها يا جديون » قال هانيبال واشنطن معقباً : انها ساعة معطلة لا تدور ، ولا تدل على الوقت ، الا انها جميلة لكي تحمل فقط .

قال الاخ بيتر :

ــ « يجب ان يكون لك منديل » ، منديل يختلف عن منديل الزنجي الذي يمسح به عرقه ، منديل نظيف تضعه في جيبك كما يفعل الرجال البيض . ولدي قطعة من القماش ملونة بالابيض والاحمر ، وبامكان راشيل ان تخيطها بالشكل المطلوب .

وهكذا استعد جديون جاكسون ليقوم بمسيره الطويل الى مدينة تشارلستون . وبعد مرور يومين ، ترك مزرعة كارويل باكراً في الصباح اللامع ، وخلفها على بعد بضعة اميال وراءه . وكان يمشي على الطريق المغبرة ، وقبعته السوداء مائلة بشكل غير ثابت ، يغني بصوته الضخم الخافت اغنية فرقته القديمة في الجيش:

لاتنمو الاعشاب تحت قدمي
في الطريق الى الحرية
ياجدي العزيز جون براون
اننا قادمون ـــ اننا قادمون
نسير في الطريق الى الحرية

اغنية كلها تحدٍّ .. ان انشادها على الطريق وعلى الاخص فوق اراضي كارولينا الجنوبية حيث يكرهون الزنوج كراهية تقليدية ، ليعادل حياة رجل .. ولقد كان راضيا عن طريقته هذه في التحدي ، وهو الآن اشبه بصبي يذهب ليصطاد في نهر منع الصيد فيه ، يشعر بالسعادة بشكل يدعو الى الغرابة ، وانه ليكاد يطير . ربما عادت اليه المتاعب والاضطرابات بعدئذ ، ولكن كيف لا يشعر رجل سبق له ان كان عبدا فيما مضى بالفرح والهياج وقد سنحت له الفرصة لان يمشي هذه المسافة الطويلة حرا .. ؟ ان امامه مئة ميل سيقطعها مشيا على الاقدام الى تشارلستون ، مئة ميل من هذه الطريق الطويلة .

ولقد تباحث الناس قبل ان يرحل ، فيما اذا كان يجب عليه ان يأخذ معه بندقيته ام لا وبالرغم من انه كانت هنالك مخاطر في الطريق ، فقد وافق الاخ بيتر أنه من الخطأ ان يذهب

جديون الى المؤتمر وبندقيته في يده ، لقد قال له آنذاك : ستعود بسلام . المحبة في قلبك وبين يديك .

ومهما يكن فقد كان جديون يحمل في جيبه الاعلى اوراق اعتماده التي ارسلتها له حكومة الولايات المتحدة ، فمن ذا الذي يجرؤ على ان يتعرضه ؟ « كتاب رسمي » هذا ماكتب على الظرف البني اللون .. وكفى . انه لمن المضحك حقا ان قلبه يرتفع وينخفض وتزداد آماله وتتضاءل . يخاف لحظة ويشعر بالابتهاج والسعادة في اللحظة التالية . وبينما كان يسير ، متأبطا صرة تحوي بضعة ارغفة من الخبز ، وقطعة من لحم الخنزير البارد ، وهو ينشد اغنيته وريح باردة تعصف في غابات الصنوبر على حافتي الطريق ، فكر فيما عسى ان ينتج هذا المؤتمر . انه لامر غريب ، فكلما فكر في الموضوع وقلبّه على مختلف وجوهه ، يبدو له مفهوم جديد لعالم جديد ، حياة جديدة تنبثق من المؤتمر قد تكفي لان تدع المرء خائفاً ، وقد تكفي لان تجعله فخوراً .

كانت كثافة اشجار الصنوبر تتناقص باستمرار امامه . ووصل الى منطقة جرداء تقدر مساحتها بعشرة افدنة ، كانت تدعى سابقا « ملك أبنرليت » بالرغم من ان هذا الاخير كان يعمل لحساب كارويل ، ولا زالت تدعى كذلك حتى الآن .

كان « ليت » مديد القامة ، نحيلاً ، أحمر الوجه ، أبيض ، يتكلم ببطء ، وينظر الى العالم بريبة وعدم ثقة . لقد أناخت عليه الايام المضنية بكللها ، فقبل الحرب كان لايحصل على عيشه من الارض الا بصعوبة شديدة ، وكانت اسرة كارويل تأخذ غلتها اذا كان الموسم جيداً ، أما اذا كان سيئاً ، فكانوا يزيدون عليه الديون ! وعندما اعلنت الحرب ، التحق بفرقة دودلي كارويل ، وبعد ثلاث سنوات ونصف السنة ، واربعة جروح ، وعدد كبير من المعارك اكثر مما يستطيع ان يتذكر ، أخذ اسيراً وقضى بقية ايام الحرب في معسكر للاسرى عند الشماليين . ولأمر ما ، بقي اولاده الاربعة وامرأته على قيد الحياة بعد ذهابه . انه لا يعرف كيف تم ذلك ، وكذلك امرأته لا يهمها ان تعرف . لقد عاد الآن ، وزرع موسمين ، والحال سيئة ، الا انها ليست من السوء بقدر ما كانت عليه سابقاً . لقد تخلص من أسرة كارويل على الاقل ، وزرع حبوبا وربي الخنازير والدجاج وبذلك اصبحت البطون ممتلئة بشكل معقول .

كان « أبنرليت » يكره الزنوج كراهية تقليدية ، حسب اسلوبها القديم الذي كان يتقنه ويعرفه : كراهية يعتبرها شيئاً لا مفر منه . وكان يكره كذلك اصحاب المزارع ، ولديه لذلك

اسباب دقيقة . وكان بينه وبين جديون نوع من الاحترام الممزوج بالحقد . وفي اثناء مرور جديون في الطريق ، وقف ابنر على الحاجز في نهاية ارضه متكئاً على الرفش .

ــ صباح الخير ايها السيد « ليت » ــ هكذا قال جديون..

ــ يالها من اغنية خبيثة يغنيها زنجي ! الله

ــ عندما تسير قدماي على طريق ، تكون ثمة أغنية في فمي ..

وابتسم جديون واردف : عندما كنا نسير مع رجال الشمال كنا نغني هذه الاغنية .

قال ابنر بكسل :

ــ فليذهب بك الله الى جهنم

وتقدم ابناء جيمي وبيتر بخجل الي الحاجز ، واعقب ابنر يقول :

ــ كم كنت اود لو اجدك في طريقي عندما كنت مع الشماليين ، اذن لملأتك بالثقوب اكثر مما في هذه السترة التي ترتديها . كيف حدث ان حزمت نفسك هكذا ، كأنك قرد ، ياجديون ؟

ـــ انني ذاهب الى تشارلستون ، الى المؤتمر .

ـــ الى المؤتمر ؟ هذا اسوأ ما في الامر ، الا لعنة الله عليهم .

ـــ لقد انتخبت في التصويت .

ـــ وصفر ابنر وقال : ما رأيك في هذا ؟ زنجي في المؤتمر بشارلستون . اظن انهم سيجلدونك قبل ان تفتح فمك بالكلام ، ياجديون .

وهز جديون رأسه وقال : ربما يكون الامر كما ذكرت ، غير ان لدي اوراقاً حكومية هنا في جيبي .. هل ذهبت الى التصويت يا ابنر ؟

ـــ لقد كنت هناك ، الا انني لم اعط صوتي لزنجي .

وبقينا لحظة اخرى واقفين ، وتجرأ احد الاولاد وتقدم الى جديون ، فداعب هذا شعره الاشقر بلطف . واستأذن جديون مودعاً وعاد الى الطريق ثانية ونظر اليه ابنرليت وتمتم :

ـــ الى تشارلستون ... يايسوع المسيح ! تصور انك ترى زنجياً يسير الى تشارلستون ليأخذ مكانه في المؤتمر .

وسار جديون الى ان ارتفعت الشمس عالياً في كبد السماء . ثم توقف في جانب الطريق ، واشعل ناراً صغيرة وأكل

بعض الخبز واللحم ، ثم استلقى واستراح مدة من الزمن . ان الطقس اكثر حرارة من قبل ، فالطيور تغني بابتهاج ، وصوت مياه النهر القريب يناديه : تعال وارو ظمأك ـــ لقد كان جديون في غمرة من السعادة .

وعندما خيم الليل ، بدأ جديون يجيل البصر باحثاً عن مكان ينام فيه . ان في امكانه ان يشعل ناراً بين اشجار الصنوبر ، ويستلقي على فراش ناعم من القش الدقيق اذا كان لا مفر له من ان ينام في العراء .

هنالك امكنة اسوأ من هذا المكان ينام فيها البشر . الا ان جديون لم يخلق للوحدة ، وكان يعتقد بأنه يقتل ساعات ذلك المساء قتلاً اذا لم يسعفه الحظ بسماع صوت انسان او ضحكة رقيقة لقد كان متعباً من مسير النهار ، وقد قطع مسافة طويلة ربما كانت خمسة وعشرين او ثلاثين ميلا . لقد اجتاز بلدة وخلفها وراءه مبتعدا عنها اميالا . وسار في الممر المرتفع عبر المستنقع المملوء باشجار السرو ، واجتاز الارض المستوية بمحاذاة الشاطىء ، وتوافدت الى السماء فوقه غيوم صغيرة ، وسرت في الهواء موجة قارصة من البرد .

وعندما رأى جديون كوخا على الاكمة القريبة ، تتصاعد

من مدخنته شرائط زرقاء من الدخان مرفرفة في الفضاء ، وامامه ثلاثة اولاد صغار بلون الشوكولاته يلعبون بالرمل امام الباب ، احس بالفرج واستبشار . انه لن يقضي ليلته وحيدا . وبينما كان يجتاز الحقل تقدم صاحب البيت لاستقباله . وهو زنجي ربما بلغ الخامسة والستين ، الا انه قوي الجسم ، ووجهه يفيض بالصحة . قال وهو يبتسم :

ـــ طاب مساؤك .

ـــ مساء الخير .

هكذا اجابه جديون وهو يحني له رأسه ، ويفكر كيف ان الاطفال انفسهم موجودون في كل مكان . خجولين طُلَعَةَ يتهيجون بحماس لدى حضور غريب ..

وسأل الرجل العجوز : ماذا استطيع ان اقدم لك ؟

ـــ ان اسمي جديون جاكسون ، ياسيدي ، وانني كنت اسير على الطريق قادماً من مزرعة كارويل عندما رأيت هذا الكوخ ، وقد هبط الليل . اتمنى لو سمحت لي بزاوية من الاسطبل هناك ، اقضي فيها ليلتي . انا لست بائساً شريدا يستجدي خبزا . ان زادي معي ، هنا في هذه المزودة ـــ ومعي

في جيبي هذا اوراق حكومية . ولاحظ جديون ان الشيخ كان يبتسم ، فتوقف عن الكلام وابتلع الكلمات التي كاد يتفوه بها بما يختص بالمؤتمر في تشارلستون . وقال الرجل الطاعن في السن :

ـــ اني ارحب بكل غريب يأتي ليجلس الى جانب ناري ، ويأكل شيئاً من زادي . ان الاسطبل للحيوانات . قد لانستطيع ان نقدم لك فراشاً ، ولكن في استطاعتنا بكل تأكيد ان نقدم لك بطانية تنام عليها الى جانب النار اذا زاق لك ذلك .

وانا آخر الامر لا اسأل اي انسان عن اوراقه الثبوتية يا سيدي . ان اسمي جيمس اللنبي .

ـــ اشكرك جداً ايها السيد اللنبي .

ـــ قال جديون ذلك وكأن ابتسامة الشيخ جعلته اكثر ارتياحاً . وسار اللنبي امامه الى الكوخ . كان البيت عبارة عن مجموعة قديمة من الاخشاب والعصي مسمرة الى بعضها فنهضت جدراناً ربما كانت هذه المزرعة مزرعة ملك في السابق ، اذ كان هنالك في الجدران نوافذ وشبابيك مما لا يرى عادة في اكواخ العبيد وفي الداخل كانت فتاة منحنية الى جانب النار تحرك شيئاً

في القدر . واذ دخلا نهضت واقفة . كانت طويلة ، مستديرة الاطراف ، ذات بشرة بنية ، جميلة جداً ، وقفت رافعة رأسها باتزان كأنها تحافظ على توازن جرة فوقه . وكانت عيناها واسعتين ولامعتين . لقد لاحظ جديون ذلك اللمعان رغم حلكة الظلام ، ولاحظ ايضاً الى ذلك شيئاً .. شيئاً غريباً في عينيها لم يعرفه للوهلة الاولى ، شيئا بدا له حينما تأكد بأنها لم تكن تحدق النظر الى وجهه . واخذها اللسنبي من يدها وقال لها :

ــ يابنتي .. عندنا ضيف هذا المساء ، اسمه جديون جاكسون . كان مسافراً الى تشارلستون عندما هبط الظلام . وقد دعوته لقضاء ليلته معنا . رجل طيب ولطيف على ما اظن .

ووجد جديون سر ما يبحث عنه . وجدها في الطريقة التي اتبعها الرجل في مخاطبة الفتاة وفي نظراتها الشاخصة الى ورائه . انها عمياء !

ان ادراكه لحقيقة عينيها أخيراً ، أدخل الرعب الى قلبه للوهلة الاولى ، ولم يصدق ذلك بسهولة ونظر يريد التأكد مما ادرك : في منظر الاطفال المتعلقين بثوبها ، في الرائحة الشهية المنبعثة من القدر ، في منظر الكوخ النظيف البائس . قد تكون ابنة الشيخ ، فمن المؤكد انها ليست أم الاطفال . انها شابة

صغيرة لا يمكن ان تكون أمهم . ولم يكن يسع جديون ان يطلب اي ايضاح الآن . وقالت الفتاة : انني ارحب بك ياسيدي . وعادت الى النار تحرك القدر . وجلس جديون على كرسي من اغصان الصنوبر ، وكان اللنبي يرتب الطاولة ويضع عليها صحوناً معدنية وملاعق . وخيم الليل تماماً في الخارج . وكان لجديون طريقتة الخاصة في اكتساب صداقة الاطفال فيجعلهم يهشون له ، ولم تمض فترة حتى كان احدهم في حضنه والاثنان الآخران منحنيان على ركبتيه .

وقال الرجل العجوز : انهم يحبون الاغاني .

وغنى جديون : اخونا الارنب يعيش في كوم من العليق

السماء غطاؤه ولا يريد القش تحته

*

وعندما اصبحت النار قطعاً من الجمر ورماداً ، كان جديون قد انتهى من سرد قصته عن التصويت ، وكيف تم انتخابه نائباً وكان الوقت قد تأخر ، وتسلقت الفتاة آلن جونس السلم الى فراشها في السقيفة ونام احد الاولاد معها هناك .. وفي فراش

واحد نام الصبيان الآخران هام وجابيت معاً جنباً الى جنب ولم يبق جالساً قرب النار سوى الرجل الشيخ وجديون . قال الاول :

ـــ انت الآن في طريقك الى تشارلستون .. اذن فقد جاء الفجر بعد هذا الوقت الطويل من الانتظار . كم احسدك ياجديون جاكسون فليغفر لي الله .. انني احسدك ان الأمور تسير في الطريق التي يجب ان تسير فيها .. تسير مع الرجال الاشداء .. مع الشباب الزاخر بالآمال .. مع رجال امثالك .

ـــ ولكن لاجلنا جميعاً ، . اضاف جديون :

ـــ نعم .. ربما ! ما هي سني على ما تعتقد ياجديون ؟

ـــ ربما خمسة وستون عاما .

ـــ لا بل سبعة وسبعون يا جديون . لقد حاربت البريطانيين عام ١٨١٢ .. نعم .. لا تستغرب . فقد كان يحق لنا ان نحارب اذ ذاك .. لاجل حرية هذه البلاد .. كلا لا تعتقد بأني اشعر بمرارة الحقد .. كان العبيد آنئذ ـــ يفكرون بان العبودية ستموت بنفسها ، وما كان هذا الاعتقاد خاطئاً ، فقد ساد قبل ان يصبح القطن زراعة ضخمة تدر اموالا . كان يسمح للعبيد آنذاك بتحمل بعض المسؤوليات كغيرهم من المواطنين حتى انهم ثقفوني ، وجعلوا مني معلم مدرسة .. انهم لم

يعرفوا حينئذ ان التعليم كالمرض وانك اذا ما ثقّفت رجلاً فانه لا يعود صالحاً للرق والعبودية ، وانه سينشر عدوى مرضه الى الآخرين .

ـــ وقال جديون : ان نياط قلبي لتتقطع حين اشعر بحاجتي الى قليل من التعليم .

ـــ التعليم والحرية .. لا تنس ذلك ياجديون .. التعليم والحرية صنوان متلازمان لا تفريق بينهما . انا اعرف ذلك جيداً .

عندما انتهت الحرب مع البريطانيين ، (وشعر الاسياد بانهم لم يعودوا بحاجة الى جهودنا اثناء الحرب) ، وجد السيد الذي يملكني باني كنت اعلم العبيد الآخرين القراءة والكتابة .. كيف تجرأت على ذلك ؟ هذا ما لم يفهمه .. واراد معرفته . وهل بأمكاني ان اقوم بتعليم ابناء جلدتي ؟ لقد كانوا جميعاً جياعا للمعرفة ، وكنت المس هذا الجوع منتشراً انّي ذهبت .

اناس يودون لو يقرؤون مقطعاً من الانجيل ، لا بل يودون لو استطاعوا تهجئة كلمة او كلمتين . او كتابة رسالة الى عزيز غائب . وهكذا باعني الى جانب النهر ـــ باعوني بعد جلدي وهددوني . ولكن هل يمكنهم شفاء داء بهذه ـــ الطريقة . لم

اتوقف عن تثقيف نفسي ، لقد قرأت فولتير وتوم وجيفرسون ، نعم حتى شكسبير ايضاً . انك لم تسمع باسمه يا جديون ، ولم تشعر بوقع كلماته الذهبية في اذنيك ، الا انك سوف تسمع بكل تأكيد ... كم اود ان يتحقق ذلك .

وهز جديون رأسه ببلادة ، وتابع العجوز قائلاً :

ـــ لقد كان لي ثلاث زوجات أحببتهن جميعاً وكنت كلما بنيت بواحدة منهن ، أباع واضطر الى ترك زوجتي . وكان لي اولاد ، الا اني لا اعرف اين يوجد الآن احد منهم. لقد هربت اربع مرات ، وفي كل مرة كانوا يعثرون عليّ ويعودون بي ويجلدونني . ولم يفكروا في قتلي لاني لا اساوي شيئاً اذ لم تكن بي حياة..

اني لا اتكلم عن هذه الاشياء كثيراً ياجديون ، واني اخبرك بها الآن لانه من الضروري ان تتذكر ماضينا ، وتتذكر كم تحمل شعبنا من الآلام ، فيك ياجديون تكمن القوة والنار واللطف بامكاني ان اعرف ذلك بفراستي ، انك ستصبح قائداً كبيراً لشعبنا ، انك سوف لن تساوي شيئاً اذا نسيت قومك . منذ مدة وجيزة ، لاحظت انك كنت تتعجب من امر هذه الفتاة العمياء ، والاولاد الثلاثة . أنني سأخبرك بقصتهم .

فقال جديون : ـــ انني لا اطلب منك ذلك الا اذا كنت تريده .

ـــ سأخبرك بها ، يا جديون ، لانني اريد ذلك . ان الاولاد الثلاثة مشردون . وهذه المنطقة الجنوبية البائسة ، ملأى بالايتام والمشردين ، اولاد ضالون ، عجول سود ، لم يعرفوا اباً أو اماً ، حيوانات متروكة كأنها خرجت من سوق مهدمة للماشية . لقد كنت عبداً في الباما يوم نشبت الحرب ، وعندما جاء يوم الحرية وتحررت ، ضربت في طول الارض ، شمالاً وشرقاً ، إلا اني لم اذهب الى بلاد الشماليين اني احب ارض الجنوب بروحه وأعماقه . لقد جلدني جلداً شديداً . وفكرت بأنه قد يوجد مكان في احدى مقاطعتي كارولينا او فرجينيا في حاجة الى معلم .. وفي طريقي الى هناك ، التقطت هؤلاء الاولاد . وكيف ؟ .. لقد حدث ذلك يا جديون ، وقد يحدث معك . وبنفس الطريقة وجدت الفتاة ايضاً . كانت آلن ، وهذا اسمها ، قد بلغت السادسة عشرة ، وكان والدها طبيباً زنجياً من زنوج اتلانتا الاحرار ، وبعد ذهاب الجنرال شيرمان الشمالي ، قام بعض الثائرين الجنوبيين فقتلوا والدها امام عينيها ، وبقروه بحرابهم ، وقلعوا عينيه . انني لا اتهم احداً فلكل جيش رجاله

الاشرار ورجاله الصالحون . وانك لتعرف لماذا فعلوا ذلك به ..

لانه ساعد الشماليين . انني اقول لك هذا وليست غايتي اثارة الاحقاد ، بل التفاهم . انك ذاهب الى تشارلستون لتضع دستوراً ، لدولة جديدة ، ولعالم جديد ، ولحياة جديدة . وأنا اريد منك ان تذكر عندئذ كم يسهل على الناس أن يقوموا بأعمال شريرة ، لسبب بسيط ، هو أنهم يجهلون كيفية القيام بأعمال خير منها . والآن ماذا فعل الثائرون الجنوبيون بعد ان قتلوا والد آلن ؟ افترسوها بوحشية ، وعندئذ أصبحت عمياء . لا اعرف هل الصدمة هي التي سببت العمى ، ام ان مرضاً أصاب عينيها ، الا أني عندما صادفتها ، كانت فاقدة العقل ، حتى أنها كانت لا تعرف من هي ، كانت تعيش في الغابات كحيوان متوحش ، وتفزع كما يفزع حيوان وجل . ولسبب ما ، وثقت بي . فأضفتها الى مجموعة رفاقي . والى هنا ، توقف الشيخ عن الكلام ، وكان جديون يحدق في الفحم ، ويداه تتماسكان طوراً وتنفلتان طوراً آخر . ومرت لحظة وهما ساكتان ، وقال الزنجي العجوز فجأة :

ـــ جديون .

ــ نعم ياسيدي .

ــ ياجديون .. عندما ذكرت ان اوراق الاعتماد الحكومية في جيبتك ، لم تعد رجلاً ، بل خادماً لشعبك . ان الرجل كثيراً ما يسمح لكراهيته وحقده ان يتدخلا في حكمه على الامور ، كما تريد ان تفعل الآن . اما خادم الشعب ، فيجب الا يفعل ذلك . ان شعبك يا جديون هو سيدك ، ويجب عليك ان تعمل لصالحه . والآن اسمع يا جديون ، سأخبرك بما تبقّى :

ــ انني استمع .

ــ وجدت هذا الكوخ ، والله يعلم اين أصبح ساكنوه ، قد يكونون قتلوا في الحرب على ما اعتقد . ان هنالك آلافاً من الاكواخ كهذا في منطقتنا الجنوبية هذه . وقد اتخذت من هذا الكوخ سكناً ، وعشت هنا . لقد مرت على ذلك سنتان ، قمت خلالها بزراعة صغيرة تكفينا الحاجة . وعندي بعض الدجاج ، وقد ساهمت الخنازير بتأمين بعض معيشتنا ، ومنذ اتينا لم ينهبنا احد ، ان آلن اصبحت طبيعية الآن ، الا انها عمياء . وليست حياتي سيئة على كل حال ، فأنا أقوم بتعليم هذه الانفس الاربع الصغيرة ، ويستأجرنني للعمل في القرية ، اذ انني استطيع القيام بأعمال كثيرة : فأنا نجار لابأس به ، وحذّاء ايضاً ،

وكاتب رسالات كذلك . وهكذا اني اكتسب بعض الدريهمات من كل مهنة ، أكتسب ما يكفي لشراء بعض الالبسة وبعض الكتب . وتوقف الشيخ عن الكلام برهة طويلة قطعها جديون سائلا :

ـــ وعندما تموت ؟ فأجاب اللنبي :

ـــ لقد فكرت في هذا .. هنا يكمن خوفي وتعاستي .

ـــ ولنفترض انك مرضت ، او ان العمدة اتى واحرق هذا الكوخ مثلا .

ـــ لقد فكرت في هذا ايضاً يا جديون .

وقال جديون وفي صوته نبرة اهتياج : ـــ أنظر هنا ياسيدي ، انك رجل علم ومعرفة ، شيخ بلغ السابعة والسبعين من عمره .. لقد بلغت من العمر عتياً ، الا انك كجوزة قاسية ، ولكنك قد تموت غداً ، وقد تعيش عشرة اعوام ، وربما خمسة عشر عاماً . ان الطاعن في السن لا يعلم ما يخبئه له الله.

ـــ ماذا تريد ان تقول يا جديون ؟

ـــ في رأسي فكرة .. هاانذا رجل اسود اصبح حراً ، اذبح قدمي سيراً على الطريق الى تشارلستون ، اختال كالطاووس لانتخابي نائباً في المؤتمر . الا اني لا أتمكن من القراءة او

الكتابة ، مسربل بالجهل . قد يكون الجهلة كثيرين في هذه البلاد الجنوبية ، وربما كانوا أربعة ملايين ، وجميعهم يتحسرون على قليل من التعلم .. وتوقف جديون ، وبلع لعابه ، وأكد كلامه باشارة من سبابته الطويلة . ثم اردف : ــ اذهب الى هناك . خذ معك هؤلاء الصغار أخبرهم بأن جديون أرسلك تكلم مع الأخ بيتر ، انه واعظنا . قل له انك ستعلمهم ... ستقدم لهم المعرفة ... انهم سيعتنون بك جيداً .

وهز اللنبي رأسه قائلاً : لقد فكرت بهذا من قبل ، الا اني قد طعنت في السن كما ترى ... اني خائف .. وانا راض بمعيشتي هنا ، هنالك (مكتب المحررين) يهتم بقضايا كهذه .

ــ اننا سننتظر حتى يوم الدين ، اذا ما انتظرنا مكتب المحررين . قل لي : لم انت خائف ؟ .. اصعد هذه الطريق وأسأل اي انسان .. اين توجد مزرعة كارويل ؟ .. ان هذا خير من ان يستيقظ هؤلاء الصغار يوماً ، فيجدونك ميتاً ، ولا من احد يأتي فيحلق لك لحيتك ، وليس هنالك من يصنع لك تابوتاً او كفناً .. من سيقوم بذلك ؟ .. هذه الفتاة العمياء المسكينة ! .

وكان الرجل الشيخ لا يزال يعارض في ذهابه ، وجديون يطلب ذلك منه مسترحماً ، الى ان اضمحلت النار تماماً في

الموقد . وهز اللنبي رأسه وقال : نعم .. اظن انه من الافضل ان اذهب . قال ذلك وهو جالس في الضوء الخافت ورأسه ممتد الى الامام ، كأنه يريد ان يبحث عن تأكيد لفكرته في الظلام . ثم سأل :

ـــ هل تظهر لك وكأنها حلم احياناً ،. قضية الحرية هذه ؟ .

تمتم جديون : ـــ انها ليست حلماً . لقد مشيت مع الرجال الشماليين وصنعت جزءاً من هذه الحرية بهاتين اليدين ... انها ليست حلماً ! .

وفي اليوم التالي ، حدثت اشياء كثيرة ، جعلت جديون يفكر بأن ساعات قليلة يقضيها الانسان على الطريق قد تعادل شهراً كاملا من العيش في مزرعة ريفية يحيا بها حياة الرعاة . فقد ساعد ولداً كان يجد صعوبة في قيادة عربة يقودها بغل عنيد ، وركب معه مسافة ميلين من الطريق . وقضى خمس عشرة دقيقة يتكلم الى امرأة عجوز . كانت تحمل سلة من البيض في طريقها الى القرية لتبيعها ، فحمل عنها السلة الى ان افترقت عند طريق فرعي آخر . وقام بتكسير حزمة من الحطب لامرأة بيضاء ، وعندما جاء زوجها من الاسطبل ، زعم انه لم ير زنجياً قط ،

يحسن تكسير الحطب بهذا الشكل . وقدمت له المرأة غذاء جيداً . ولم يتفوه بكلمة عن المؤتمر حاسباً ان التحفظ والحكمة هما خير انواع الشجاعة . وفي نهاية النهار مرّ قرب مزرعة يحفر رجال سود مجاري مياه في ارضها القاسية ، ويشرف على عملهم مراقب ابيض . وصاح جديون سائلاً :

— هل تعلمون بالاجرة ؟ .. ولم يجيبوه بأية كلمة ، وصرخ المراقب :

— اذهب الى جهنم ايها الاسود .. ياابن الزنا .

وفي المساء ، داهمته عاصفة من المطر ، فانسل الى كومة من القش وبقي فيها الى ان انقطع المطر المنهمر . وكانت قد سبقته الى المكان بقرة التجأت اليه ، فاستند جديون الى جنبها الحار وهو يهمهم منشداً :

اجمعي العجول ، جميع العجول البيض
اجمعي العجول ، آه يا أماه

واذ اتسخت بزته السوداء ، اخذ ينظفها من قصلات القش العالقة بها ، اما القبعة السوداء فقد كانت نهايتها قد اقتربت ولا يمكن انقاذها ، وسقط اطارها . وسأل جديون نفسه : هل بأمكانه ان يضع الاطار وحده على رأسه ؟ . ولكنه

شعر بان قبعة عالية سوداء بدون قمة شيء تافه ، لكن نفسه لم تطاوعه على القائها جانباً ومتابعة السير ، فاحتفظ بها حتى باعها اخيراً الى شيخ زنجي بتفاحتين كبيرتين .

ونام ليلة تحت النجوم ، مفترشاً بعض اغصان الصنوبر لعزل جسمه عن الارض الرطبة ، ولم يكن الفراش مريحاً ، الا ان قلبه كان يحلق به عالياً ، وكل جارحة فيه تُكبر هذه المهمة التي كان مقدماً عليها .

وفي الصباح استأنف سيره على ارض الساحل المنخفضة ، وفي اليوم الرابع لاحت له عن بعد ، سطوح بيوت تشارلستون .

الفصل الرابع

ان شعور الرعب الذي سيطر على جديون عندما دخل تشارلستون لأصعب من ان نحيطه بتفكيرنا . شعور بالرعب من المجهول الخطر ... الانسان الابيض ! .

(تعال هنا ياولد) كلمات عادت الى ذاكرته من الماضي السحيق ـــ قُذف بها منذ ثلاثين عاما ، عندما دعي الى شرفة البيت الابيض الكبير وقد جلس عليها رجال ينتعلون جزمات طويلة وسراويل ضيقة ، واردية فخمة ، ونساء يرتدين البسة جميلة ، وبينهن امرأة كل ما يذكر من امرها ، حذاءها الموحل ، وذكر كيف اشار احد الرجال الى الحذّاء قائلاً : (تعال هنا يا ولد) .. وكيف تقدم وهو يرتجف من الخوف ونظّف الحذاء ، ثم كيف دبّ على يديه ورجليه عندما تدحرجت قطعة النقود

التي رماها اليه الرجل على الوحول ، واطبق عليها بيده ، وهو ينظر اليهم نظرة من يتساءل : لماذا ضجوا بالضحك . وادرك اذ ذاك ــ وهو الطفل الذي لم يكن قد تجاوز الستة اعوام أنهم كانوا ينظرون اليه نظرتهم الى حيوان اسود صغير . ومنذ ذلك الحين تملكه خوف شديد وألم من الوحدة مرعب ! واصبح الرجل الابيض بابا مغلقا امامه كلما اقترب منه بعدئذ ، ولم يفتحه قط . لقد حُرِم كل امل يُشعره بانه مخلوق بشري .

انه يضع يده الآن على الباب ليس كما وضعها عندما جاء أول مرة الى تشارلستون ، يوم كان يسير جنبا الى جنب مع الآخرين ، وبندقيته على كتفه . ، بل وحيداً وخائفاً هذه المرة .

وسار جديون في المدينة ، جائعاً متعباً ، لا يملك مالاً او طعاماً ، وليست لديه الجرأة على ان يقدم نفسه للضابط المسؤول عن المؤتمر . وادرك اذ ذاك كم كانت ثيابه رثة مضحكة ، حتى منديله المتدلي من جيبه الاعلى بمربعاته الملونة كرقعة شطرنج لم يكن ليشجعه كثيراً .

وسأل نفسه : لماذا ترك بيته !؟ لماذا سمح للاخ بيتر بأن يغريه بالوقوع في هذا الشرك ؟ وهو متأكد الآن بانه من الطبيعي ان لا يتمكن من تقديم نفسه الى المؤتمر .. ماذا اذن ؟ . أيعود

الى بيته ؟ وليفترض انه عاد ، وعندما يسألونه عن المؤتمر ؟ بماذا يجيبهم ؟ .. أيكذب ؟ .. أيكذب على شعبه ، على الاخ بيتر ..

على راشيل .. ؟ أيواجه جيف الذي سينظر اليه ببرود مَن عرف الحقيقة ؟ ثم ، كيف يعرف ، بانهم لم يفرضوا عقوبات صارمة ، بحق النواب المتغيبين عن حضور المؤتمر ؟ .. ماذا لو اختفى مثلاً ؟ ولكن ما هذه الفكرة الجنونية ؟ .. أيترك راشيل واولاده وشبعه ، كأنه بيع الى جانب النهر كما كانت الحال في الايام الماضية ؟ .. هل فقد عقله ؟ ..

وسارت به قدماه . وجال متشرداً في الازقة الموحلة ، حيث كان يعيش الزنوج في اكواخ بنيت دون اعتناء في سنوات ما بعد الحرب . وهنا وهناك كانت تبرز بعض البيوت ، بيوت هجرها البيض . وتناهى الى سمعه صوت امرأة تنادي : انظروا الى هذا التيس الكبير ! الى اين انت ذاهب ايها الرجل ؟ .. انه نفسه لم يكن يعرف الى اين كان ذاهباً .. ومشى في انحاء المدينة القديمة متجولا بين الابنية البيضاء الفخمة ، ذات الفناءات الجميلة ، واشجار النخيل الباسقة ، والابواب المصنوعة من الحديد ، والشرفات الواسعة .. هنا في هذه المدينة .. لم يجد

نظرات تحمل معنى اللطف ، ولم يحظ بسماع كلمات مؤنسة ، مدينة منكمشة على نفسها وكأنها تتألم من اهانة ذلك المؤتمر لها ، لانه يضم اناساً كجديون جاكسون . جديون هذا الذي يشعر كأنه جدار يرتجف من الغضب .

وعندما اقترب المساء نظر جديون الى بناء جميل ، ورأى فوق بابه كلمة (المؤتمر) مكتوبة باحرف كبيرة . اما الكلمات الاخرى فانه لم يتمكن من قراءتها وفهم منها ان المؤتمر سيعقد في هذا المكان . وكان امام البناء ، حرس مؤلف من نحو اثني عشر جندياً شماليا ، يستندون بكسل على بنادقهم ، ويمضغون التبغ . وكان الى القرب منهم جماعات من الزنوج والبيض ، يتكلمون مشيرين بايديهم ؛ ويرفعون اصواتهم احيانا بكلمات ثورية نارية . ولاحظ جديون بخجل كيف ان بعضهم يرتدي ألبسة أنيقة ، وأحدهم يرتدي سروالاً رماديا ورداء ذا حياكة مربعة ، وفي عنقه ربطة خضراء جميلة ، وغيره ينتعل حذاء اسود مرتفعا ، وسروالاً ابيض ، وآخر يلبس بزة صوفية مخططة تغطيه من رأسه الى قدميه .

ان جديون لايحلم بامتلاك ألبسة جميلة كهذه . ولم

تشجعه رؤيته لعدد كبير من الناس يرتدون البسة أردأ من لباسه ، مؤلفة من لباس الحقل البسيط ، دون ربطة عنق او قبعة .

وانحدر في شارع « ميتينغ » ومنه الى شارع « ايست باتري » . لقد بدأت تشارلستون المدينة التي قاست كثيراً في سنوات الحرب تستعيد مكانتها لتصبح مرفأ عظيماً . كانت السفن راسيه في المرفأ ، وعلى الجانب الشرقي من الميناء صواري المراكب كأسنان مشط مكسر .

كانت الشمس تقترب من المغيب ، وصفحة الماء تغلي بلون احمر ذهبي ووشاح شفاف من الضباب يلف قلعة (صومتر) الممتدة في البحر ، فتبدو وقد انعكس عليها لون الغسق الارجواني ، كسفينة عائمة في عالم مسحور ... ولا يمزق هدأة السكون الا نعيق طيور البحر المنقضة هنا وهناك ..

الا ان هذا لم يزد جديون الا قنوطاً ويأساً ، كان يحس البرد والجوع ولم تكن لديه نقود او مكان ينام فيه . وفي شارع الخليج الشرقي كانت اكياس من القطن المكدسة ترتفع عالياً ، وبينها اكياس ثلاثة وضعت بعضها فوق بعض مشكلة شيئاً شبيهاً بكهف ، انسل اليه جديون . لقد تملكه اليأس لدرجة لم

يتمكن معها من ان يغني او يدندن أغنية ترفع من معنوياته . وهناك ظل مستلقيا ببؤس ، ولم يستطع ان ينام الا بعد ساعات .

وفي الصباح الباكر ، كان جديون يسير على الرصيف عندما وجد نفسه بين جماعة من عمال السفن الزنوج . كانوا جالسين ينتظرون سفينة ، وعندما لاحظوا رداءه الاسود صاح احدهم :

ــ هاي . أنت هناك ... هل انت واعظ ! أم رجل دين؟

وقال آخر :

انه شماس دون شك ! واردف ثالث :

ــ انظروا الى ردائه ، لابد انه كان ملفوفا بالقطن .

ولكن ضجيجهم ، وتعليقاتهم الساخرة ، لم يكن لها اي تأثير في جديون . ووقف هناك بائسا صامتا ، يراقبهم وهم يلتهمون فطورهم ، الخبز والجبن والبصل . وكان يأسه كاملاً وواضحاً مما جعلهم يتوقفون عن هزئهم وقال له احدهم :

ــ أتريد قطعة من الخبز ايها الشماس ؟

وهز جديون رأسه رافضا .

ــ هل لديك عمل ؟ وهز جديون رأسه ثانية بالنفي .

ـــ ان السيد الابيض يدفع اجرة اليد العاملة ، خمسين سنتا في اليوم ..

واشار جديون برأسه موافقا . ان الرجل الذي لا يعمل يموت جوعا ، وقد يجد نفسه بعد مدة غير صالح لأي شيء . ان له ظهراً كظهر الثور ، ويدين قويتين اذا كانتا لا تفيدان شيئاً ، فانهما ولا شك تصلحان لرفع اكياس القطن الثقيلة . وخمسون سنتا كانت مبلغا كبيراً من المال عنده .

وخلع رداءه ، ووضعه جانباً ، ووضع اوراقه الحكومية في جيب سرواله ، انه لا يتمكن من مفارقتها ، وكان يشعر بالراحة والاطمئنان عندما يحس صلابتها (وخشخشتها) وتملكه احساس عميق بالفرح كان في اشد الحاجة اليه . وفي غمرة العمل لم يأبه للعرق المتصبب على وجهه ، وكانت عضلاته المفتولة متقلصة ومشدودة حتى ان احد الزنوج صرخ باعجاب :

ـــ انه تيس قوي من منطقة النهر ، انه من رجال القطن الاشداء .

وفي تلك الساعة كان جديون يحصر تفكيره في الحاضر ولا يشغله المستقبل . وعند الظهر قدموا له طعاماً ، الا ان كبرياءه أبت عليه ان يقبله فرفضه . وعندما انتهى النهار كان

يشعر بمعدته الخاوية كذب جائع ، تعب ، الا انه كان يملك خمسين سنتاً . وذهب مع اثنين من عمال السفن : جو ، وهاركو ، الى مكان قريب من شارع كامبرلاند ، حيث قدمت لهم امرأة عجوز سوداء ، صحناً كبيراً من الارز والسمك والخرشف « ارضي شوكي » طبخت جميعها معاً ، والى جانبه قطعتين كبيرتين من الخبز . وأكل جديون حتى شبع . انه لشعور حار عظيم ان يكون مع المرء بعض المال فيشتري طعاماً يملأ به بطنه . وصادف رفيقه جو امرأة خاطئة فذهب معها ، وقد سأل جديون هل يريد مرافقته ، الا ان جديون هز رأسه رافضاً ، وقد انتفض وعاد بغتة الى واقعة فتذكر راشيل والحديث الذي دار بينه وبين الاخ بيتر وفكر مستغرباً : الى اين ستقوده هذه الطريق الغريبة اليائسة التي بدأ يسير عليها .

وفي ظلام الليل الحالك عادت اليه مخاوفه وادرك ان ذهابه الى (الميجر) آلن جيمس ، لتقديم اوراق اعتماده كان امراً بسهلا طبيعياً .

وقد جرّب بعدئذ ان يذكر العامل الذي كان سببا في التغير الذي طرأ عليه ، هل هو شراؤه صحيفة بخمسة سنتات وشعوره بالفخر وهو يضمها تحت ابطه ؟ ام انه بيبت السيد

جاكوب كارتر ، حيث وجد سريراً ينام عليه ؟ او ان السبب ينحصر في احدى تلك الحوادث التي حصلت معه في ذلك المساء ؟ ..

وكان جاكوب كارتر زنجياً حراً ، كان ذلك اثناء الحرب وما قبلها ، يعمل حذاء جاداً في عمله ، ومحترماً ، وقد وفر طوال سنوات عديدة ما استطاع ان يشتري به حريته . وكان يملك بيتاً مؤلفا من اربع غرف في طرف تشارلستون ، وضع عليها لافتة كتب عليها : « غرف مفروشة لنواب المؤتمر » وقد اخبر جديون بذلك بائع الصحف ، ودله على البيت ، وخاطبه بكلمة « سيدي » ربما لانه اشترى منه صحيفة فقط ، ومهما يكن ، فقد ارتفعت بذلك معنوياته المنخفضة ..

وعندما جاء جديون الى بيت كارتر كان الظلام مخيما . وقرع الباب ، فانفتح له عن فرجة تسرّب منها الى الخارج نور شاحب ، واطل عليه وجه امرأة ــ نظرت اليه متفحصة :

ــ ماذا تريد ؟

فأجاب : ــ عفواً يا اماه ! انني ابحث عن مكان أنام فيه ــ وقد رأيت اللافتة خارجا . اليس هذا بيت كارتر ؟ .

ــ نعم من انت ؟ .

وعندئذ ظهر رجل وراءها ، فاوسع من فتحة الباب ، ونظر اليه .

ـــ ان اسمي جديون جاكسون ياسيدي .... نائب ..

ـــ نائب ؟ .

وكان جديون على علم بحالة ثيابه التي يرثى لها ، فغمغم قائلاً :

ـــ اح .. احم ... نعم .. ان ثيابي رثة .. وما توفر لي الوقت لشراء البسة من المدينة جئت من منطقة ريفية بعيدة ...

وابتسم كارتر قائلاً : ـــ « ادخل »

كانت اسرة كارتر ، الاسرة الوحيدة من اهل المدينة التي دخل جديون بيتها ، وقد يكون لقاؤه بهؤلاء الناس هو الذي بدد مخاوفه .

وأعطوه غرفة صغيرة نظيفة ينيرها مصباح من الكاز ، وتحوي سريراً عليه فراش من القطن ـــ انه اول سرير ينام عليه ـــ . مضيفين الى هذا وجبتين من الطعام يوميا يدفع لقاؤها ولقاء اجر الغرفة دولارين في الاسبوع . وقد ابتسموا من سذاجته عندما اشار الى ان عمله في المؤتمر قد لا يدر عليه هذا المبلغ

اسبوعيا ، واكدوا له بأنه لا يمكن للحكومة ان تدفع للنائب اقل من خمسة دولارات .. وقد تدفع عشرة ..

لم يكن لكارتر وزوجته اولاد . وقد اجتازا العقد الرابع من عمرهما . ناضلا بشجاعة نضال اليائس المستميت كي يحافظا على مركزهما من حيث هما زنجيان حران يملكان منزلاً يعيشان فيه ، عندما كانت القوانين تطبق ضد الزنوج دون شفقة او رحمة ، واثناء موجة الرعب التي انتشرت خلال سنوات الحرب والسنتين اللتين اعقبتاها . وفي الوقت الذي كان فيه الزنوج الاحرار يحتقرون القرويين السود الاميين ، الذين انتخبوا نواباً ، كان كارتر وزوجته ، ببساطتهما ، يعاملان اناساً مثل جديون — معاملة الاصدقاء .

في تلك الليلة ، كان جديون في غرفته ، يكسر دماغه بقراءة صحيفة ، ونور المصباح الاصفر يرسل اشعة فيضيء المكان . لقد سبق ان رأى صحفاً ، الا انها كانت المرة الاولى التي جلس فيها لقراءة واحدة منها . وكانت الاحرف صغيرة ، مما جعل الامر اكثر صعوبة ، واضطر لأن يقرأ ببطء اكثر مما اعتاد ، واضعا اصبعة تحت كل كلمة ، مدركا او مخمناً معناها . ولم يتمكن من تكوين فكرة متسلسلة من كل ما قرأ ، فقد كانت ثمة

كلمات كثيرة لا يعرف معناها ، ومع ذلك فقد بذل الجهود لقراءة تعليق صحفي يتناول المؤتمر ، مليء بالهزء والسخرية ، يشبه الكاتب به الزنوج بالقرود ، ويسمى اجتماع المؤتمر (بسرك) وحديقة للحيوانات ــ وجمعية النسانيس ... ووجد نفسه مفتوناً بخبر يسرد قصة سفينة تحطمت ، ومن جمل اخرى متقطعة ، فهم خبراً عن زنوج يقومون بأعمال عنف في الولاية ، وقد تركه هذا الخبر يتساءل مستغرباً : كيف لم ير او يسمع باعمال كهذه ؟ .. !

واخيراً ، بلغ به التعب درجة لم يتمكن معها من ان يحتفظ بعينيه ــ مفتوحين . وخلع ثيابه ، وانسل الى السرير الناعم المريح . كان للسرير نوابض معدنية ، ولاختبارها كان جديون يهتز فوقها صاعداً هابطاً . كان يشعر كأنه يطفو في الهواء . ونام وهو يشكر الله على حظه السعيد هذا ، وينسج لنفسه عالماً من الاحلام ، حيث ينام هو وراشيل في كل ليلة على سرير كهذا ..

وفي اليوم التالي قدم جديون نفسه الى (الميجرجيمس) دون ان يجد اية صعوبة ، او ان يفكر طويلا . انه لم يكن كثير المخاوف . وكانت السيدة كارتر قد قامت بتنظيف ردائه ورتقه

وكيّه . ووضع جاكوب كارتر رقعة على الفردة اليسرى من حذاء جديون حيث كان ابهام قدمه يطل الى الخارج من ثقب فيها وطلى الحذاء بالشحم الاسود . وبكل ما اوتي من لطف ولباقة أشار في حديثه الى ان مكان المنديل الملون ذي المربعات هو جيب السروال وليس جيب الرداء الاعلى حيث يتدلى ، وكان كارتر يملك قميصين ابيضين اشتراهما منذ سنوات مضت ولا يرتديهما الا يوم الأحد ، واستطاع بعد لأي ان يقنع جديون بارتداء واحد منهما . لقد كانا ، كارتر وامرأته ، في اوج السرور لوجود جديون بينهما ، وكما يفعل الشيوخ قرباه من قلبيهما وكأنه صبي شاب .

أتاه كارتر بحوض من الماء الساخن الى غرفته ، وجلس قبالته يستمع اليه وهو يكشط وسخ اسبوع ، وأخذ جديون يتحدث عن حياته ، وتحدث كارتر بالمقابل عن تشارلستون . عن الزنوج والبيض ، والتوتر المشؤوم الذي خيم على المدينة منذ أعلن خبر المؤتمر ، فقال :

ــ يظهر ان هنالك نائبين زنجيين مقابل كل نائب ابيض ومعظم النواب البيض هنا يدعون بالقذرين لتعاونهم مع الشماليين ، يبدو ان الايام السود قد عادت ــ للظهور وانها

ستستمر طويلا هذه المرة ... ربما لاحظت كيف ان الجنود الشماليين في كل مكان .

ـــ نعم ، لقد لاحظت ذلك .

ـــ وانا من جهتي لا احب الجنود الشماليين ... لا أحبهم ابداً ..

ـــ ولماذا ؟

ـــ لماذا ؟ حسناً .. قل لي اذن ، ماذا يفعلون هنا ياجديون ؟ فليذهبوا الى بلادهم !

ـــ وقال جديون بهدوء الواثق : لولا الجنود الشماليون لما كان ثمة زنج احرار ، حتى ولا مؤتمر ... !

ولم يناقش كارتر هذه النقطة . وفكر جديون : ان كارتر لا يتعمق كثيراً في دراسة الامور .. ! مامن شك في ان الحذّاء الصغير كان غيرياً وكريماً الى اقصى حد ، الا انه رجل كنيسة ، وثلثا كلامه يدور حول الدين ..

وعندما ترك جديون البيت مرتدياً الرداء الاسود والقميص الابيض والربطة السوداء ، كان مظهره لائقاً ربما كان القميص ضيقاً قليلاً الا ان استعماله كان ممكناً .

وعندما كان الناس ينظرون اليه وقد لفت انظارهم طوله

وعرض منكبيه ووجهه الواسع الجميل التقاطيع ، كان يعتقد متأكداً بأنهم انما يبدون اعجابهم بالقميص وربطة العنق السوداء .

كان الميجر جيمس رجلا مرهقاً بالاعمال ، وفوق ان المؤتمر الدستوري كان يتمطى كعمل غير منظم ، كانت مدينة تشارلستون اشبه ببرميل من البارود اشعل فتيله وكاد ينفجر .

وكثيراً ما جرب الميجر جيمس ان يفسر جميع الدلائل ويلائم بينها كي يصل بذلك الى استنتاج . واثناء الحرب الطويلة القاسية احتلت القوات الشمالية ـــ ما ينوف عن اثنتي عشرة مدينة جنوبية وهو يعتقد أن المدينة هي مؤسسة حية لها روحها وقلبها وشعورها ، لها خلقها الاسود من جهة وخلقها المرح من جهة اخرى . وهي بعرفه خطرة او غير خطرة حسب الطريقة التي يظهر فيها رد الفعل وكما انه لا يخشى بأس رجل سطحي سريع الغضب كثير الصراخ ، كذلك كان الميجر جيمس لا يخشى شر مدينة تغلي بالغضب .

اما تشارلستون ، هذه المدينة الهادئة البغيضة ، فقد كانت تشغل باله ويخشاها ويحسب لها الف حساب . مدينة اكثر نوافذها مغلقة ، وقد تمر على وجهائها ايام او اسابيع وهم قابعون

في بيوتهم لا يخرجون . واذا خرجوا فلقضاء بعض الاعمال او لاسباب اخرى . وهم حتى في هذه الحال يسيرون مسرعين في الطريق ، ناظرين الى الامام ، ولا يتكلمون الا فيما ندر .

وأن هذه الحال ، حسبما يرى الميجر جيمس ، ليست مما ترتاح اليه النفس . فكم من البنادق والمدافع والمسدسات المحشوة توجد في تشارلستون ؟ .

قد تقع كثير من الحوادث خلف هذه النوافذ المغلقة . اما الكولونيل فانتون كريس وهو رئيس الميجر جيمس فقد كان له رأيٌ آخر ، اذ انه قال دون ان يتصور خطورة الموقف :

ـــ فليكن ! ولتقع الواقعة .. ونحن من يقضي عليها ، وعندئذ سنعرف أين نقف .. وعلى كل حال انك يا جيمس تفكر كثيراً وتشرب كثيراً .

ذاك جواب قد يتفوه به رجل عسكري كالميجر جيمس عير مسؤول عن الاشراف على مؤتمر سلمي مدني ينقل البلاد من الوضع العسكري الى الوضع المدني ، وربما كان الميجر جيمس يحلم بالترقية ونيل اجازة ستة اشهر . انه لا يحب الجنوب ، ارض الاعداء ، وهو لا يثق بالبيض والسود على السواء ، ولا يفهم اية فئة منهما فهماً جيداً . ولا يحب الزنوج لانه كان يحملهم

مسؤولية الحرب التي حدثت بسببهم ، وهو الى ذلك لا يكنُّ اي حب للبيض البوربونيين الذين يمقتهم بغريزته بسبب انحداره من الطبقة المتوسطة في « أوهايو » . اما البيض الجنوبيون الفقراء العاديون فلعنة الله عليهم ، انهم الرجال الثائرون الذين قتلوا رفاقه .

وعندما اجتمع اعضاء المؤتمر وقدموا له اوراق اعتمادهم تلاشى امله بالنتيجة المبشرة بالنجاح في مهمته . يالهم من رعاع !

يالهذا الجمهور الجاهل المدني ! ما هذا السيرك الجنوبي الذي فرضه الراديكاليون الشماليون على الجنوب ؟ انه مجموعة ايدٍ عاملة سارت مئة او مئتي ميل ، وهم اغبى من ان يعرفوا ان هنالك قطاراً يسير ويسمح للنواب بركوبه مجاناً . هم جنود من الزنوج المسرحين ، يعتبرون انفسهم بسويته لانهم ارتدوا في يوم من الايام لباس جيش الاتحاد ، وحملوا بندقية بأيديهم ، رجال لايعرفون القراءة او الكتابة ، والى جانبهم رجال بيض جنوبيون طويلة اطرافهم ، جهلة اميون ، ناصروا الاتحاديين الشماليين لانهم يكرهون ملوك العبيد ، ومتعلمون زنوج يعتقدون بأنهم يتمتعون بثقافة عالية ، لانهم يعرفون القراءة ويتمكنون من جمع

الاعداد ... فهل كان غريباً ان تغلي تشارلستون بغضب مكبوت وهي على هذا الحال ؟

وبدأ الميجر جيمس يرى بعض الصواب فيما يدعيه العصاة من أن الزنجي رجل متوحش ، وعقله لا يتجاوز عقل طفل . وقد كاد شعوره ينفجر عندما رأى زنجيا ضخما يقدم نفسه اليه على انه نائب عن منطقة « كارويل سنكرتون » مرتديا رداء اسود طويلا ، وقميصا ضيقا ابتدأ بالتمزق ، وسروالا قديما مرقعا . وكان اسم الزنجي جديون جاكسون ، جاء الى تشارلستون مشيا على الأقدام ، وبوسعه ان يكتب اسمه ! هل يعرف القراءة ؟ قليلا انه فخور بامتلاكه مئة كلمة يعرف قراءتها ! هل يعرف واجباته كنائب ؟ واجبات ؟ فلنضعها بشكل آخر . ولنقل : هل يدرك معنى المؤتمر أو غايته ؟ معنى ؟ طبعا لا ! حتى كلمة (معنى) لا يعرف هذا النائب ماذا يراد بها .. يجب على المرء والحالة هذه ان ينحدر الى الالفاظ البسيطة التي لا تزيد عن مقطع لفظي واحد . قالوا ــ وبئس ما قالوا ــ أن هذا يسمى « اعادة بناء الولاية » واعلان دستور لها . ان هذا غير ممكن بل انه مستحيل . وذهب الميجر جيمس الى الكولونيل كريس وسأل :

ــ سيدي .. هل يجوز ان نسمح لمثل هذا ان يأخذ مكاناً في المؤتمر ؟

ــ نعم اذا كان انتخب رسمياً .

ــ ان لديه اوراقه .. انهم جميعا قد انتخبوا ــ اذا سمحنا لانفسنا بأن ندعو هذا انتخابا .

وقال الكولونيل كريس بجفاء :

ــ انا لا اشك في الانتخابات .. وارجو ان تذكر بأن هؤلاء الزنوج كانوا مخلصين لنا في اشد ساعات حاجتنا اليهم .

لم يكن كريس وجيمس يحب أحدهما الآخر ، فالكولونيل كريس التحق بالخدمة عن طيبة خاطر مفتخراً بذلك ، ولا غرابة اذا علمنا أنه ينتمي الى قوم معارضين للرق منذ البداية .

واجاب الميجر جيمس : ــ انني انذرك ياسيدي ، فهذه المدينة لن ترضى ان يحكمها مؤتمر عناصره من الايدي العاملة .

ــ اما انا يا سيدي فاقول : ان هذه المدينة ستعمل كما تأمرها حكومتنا !

ــ ان اهل هذه المدينة أناس متعجرفون متكبرون .

ــ نعم ، انه نوع من الكبرياء تريد ان تضع نصف مليون من البشر في القبور .

وهكذا عاد الميجر جيمس ووقع على استلام اوراق جديون واصبح لهذا الاخير الحق في ان يجلس في مؤتمر جنوب كارولينا الدستوري .

وبينما كان جديون في طريقه عائداً من مكتب الميجر جيمس ، استوقفه رجل نصف زنجي ، حسن الهندام ، وقدم نفسه على أنه يدعى فرانسيس كاردوزو وقال :

ــ انك عضو في المؤتمر على ما اعتقد .

ــ أي نعم ..

ــ اتسمح لي بأن أسير الى جانبك ؟

واجاب جديون ، وقد ظهر عليه بعض الاضطراب ، وعدم الثقة ، مردهما تلك السهولة التي فرض بها نفسه عليه ذلك الرجل الغريب ، اللبق ، الحسن الهندام :

ــ لا اعرف اذا كنت اسمح بذلك ..

وسارا منحدرين في الشارع ، وجديون ينظر اليه بطرف عينه تكراراً ، الى ان قال فرانسيس كاردوزو وقد احنى رأسه قليلا :

ــ وما اسمك ياسيدي ، اذا سمحت لي بالسؤال ؟

ــ جديون جاكسون .

وتحدث كاردوزو فقال انه هو ايضاً نائب في المؤتمر عن منطقة تشارلستون . وسأل جديون ان كان يريد ان يجتمع ببعض النواب الآخرين ، وأعلمه بأن هؤلاء النواب سيحضرون الى بيته في نحو الساعة الثالثة من بعد الظهر ، ليبحثوا أموراً تتعلق بالمؤتمر ، وسأله ايضاً ان كان قد تعرف على أحد النواب .

فأجابه جديون :

ـــ اعتقد بأني لم اتعرف الى احد .

ـــ سيتسنى لك ذلك بالطبع ، عندما يجتمع المؤتمر . على ان هذا الاجتماع الذي سيعقده نفر من النواب في داري قد يوضح بعض الأمور . انني أؤكد لك أيها السيد جاكسون بأنهم رجال افاضل .

وقال جديون :

ـــ انني أرغب كثيراً ان آتي .

ـــ تعال اذن .. سأكتب لك العنوان .

وكتبه له على بطاقة أعطاها الى جديون ، وتصافحا . وتركه جديون عائدا وكلمات وداعه ترن في اذنيه . السيد جاكسون ! صوت كاردوزو الجميل . الاعجاب المتزايد به . لقد كانت هذه الاشياء التي حدثت له اشبه بأناشيد الكنيسة . اناشيد المجد .

قبل برهة قصيرة فقط كان يخاف أن يقدم أوراقه ، وغداً يبدأ المؤتمر . ان قلب جديون يضرب كانه مطرقة ، وهذه الضربات غير الطبيعية أصبحت عاملا دائما في حياته الآن . وسار مسرعا في الطريق ، وهو يقول لنفسه : ان نور الشمس يسطع في العالم ، وان يسوع المسيح كان يسير ايضا : لقد ولدت يا جديون عبداً رقيقا وبقيت كذلك حتى البارحة . واولادك الصغار ولدوا عبيداً أيضاً ، ولكن انظر الآن .. انظر الى هذا اليوم ! .

وفي الشارع كان يسير باتجاهه رجل ابيض ، يسير وكله ثقة بأن الزنجي سيفسح له الطريق . غير ان جديون كان في تلك اللحظة مستغرقاً في تفكيره ولا يحسّ بوجود العالم الخارجي ، وكان لابد ان يصطدم الاثنان وجها لوجه ، الا ان الرجل الابيض انحرف في اللحظة الاخيرة جانبا ، وضرب جديون بعصا كان يحملها ، فاصابته على ظهره . وعاد جديون الى نفسه بتأثير الضربة ، عاد الى واقعه وقد شدهه الاستغراب وتوتر جسمه خجلا . وان الضربة لتلتهب على ظهره ، وثمة غضب متزايد مسيطر عليه ، غضب وخجل ورغبة جامحة في الاندفاع وراء الرجل الابيض ، غير ان شعورا ما تحدّث اليه فأوقفه عن عزمه الى ان انعطف الرجل في الزاوية المجاورة وغاب عن البصر .

وتابع جديون سيره وهو يفكر بان العالم لم يبلغ درجة الكمال بعد . انه يحتاج الى الاصلاح في بعض نواحيه . وسأل جديون نفسه :

ــ ترى ، لاي سبب فعل ذلك وكان لا يزال عند جديون خمس وعشرون سنتاً . ان المال يذهب ولا يدوم كالارز والبطاطا نتاج الأرض . ان المال يتبع حسابات دقيقة ، نأكل بكذا كل يوم واخيراً ينفذ . ان للمال مرونة وفي مكنة المرء ان يستعمله هنا وهناك او لا يستعمله ابداً . وقد اثر الطقس البارد الخفيف في جديون ، ففتح قابليته ، ووقف يأكل في مكان من السوق المغطاة صحناً حاراً مملوءاً بالارز والبصل دفع ثمنه خمس سنتات ، ثم اشترى صحيفة اخرى وانحدر الى المرفأ وجلس على كيس من القطن ، وفتح الصحيفة . لم يعد يحس بأثر الضربة في ظهره الآن ، واخذ بسحر الاحرف وغرامها مما جعل جلده يتقلص ويهتز من الهيجان عندما قرأ : « تقارير عن جورجيا تبشر باستقرار دائم » . وبقيت كلمة استقرار راسخة في ذهنه . انها كلمة غريبة لا يعرفها . وحرك شفتيه مجرباً ان يقرأها : استرق .. استق .. استقرار .. وانتقلت عيناه الى عنوان آخر : « مستقبل القطن في اسواق نيويورك » . ما هو هذا « المستقبل » ؟ ان

كلمة اسواق يعرفها ـــ مكان يبيعون فيه الاشياء ـــ كلمة كغيرها تستعمل في البيت . ولكن ما هذه الاسواق في نيويورك حيث يصبح القطن فيها « مستقبل القطن ؟ » . وأحس ألماً في عينيه ، ودواراً في رأسه ، وكان يغمض جفنيه لحظة يغالب النعاس في حرارة الظهيرة . ثم يستيقظ ، وينظر ثانية الى الصحيفة ، ويعود فيغلبه النعاس . وتركض كلمات امام ناظريه : « متوحشون سود من الكونغو .. » .

وفي هذه الاثناء كان عمال السفن يصرخون ويغنون وهم يجرون أحمالهم ، وفكر : « هل الكونغو في كارولينا ام في جورجيا ؟ » ان كلمة « متوحشون » يعرفها فهي تجعل من الزنجي هندياً احمر غاضباً . وفي الخليج كانت هنالك سفينة تهتز الى الامام والى الخلف ، وطيور البحر تلاحقها . ونظر جديون الى الشمس وقدر بان الساعة قد تقارب الثالثة .

وجاء الى بيت كاردوزو ، وصحيفته مطوية بكل أناقة تحت ابطة ، وانحنى عندما قدم الى السيد تاش والسيد رايت والسيد ديلاني ، وهم زنوج من تشارلستون في العقد الرابع ، وكان كل منهم يرفع حاجبه ناظراً الى البسة جديون ، مستمعاً الى كلماته ، كلمات الزنوج الناعمة . وبلغ جديون حد التأثر .

اولاء هم رجال مثقفون يرتدون البسة جيدة سوداء ، وبدأ يدرك بأن بعض المحافل تفضل اللون الاسود على الوان الاردية الفاتحة الضاحكة التي يرتديها بعض النواب . وقال السيد تاش :

ــ انني اعتقد بأنك تحمل بعض التعليمات من ناخبيك ايها السيد جاكسون .

واضاف السيد ديلاني قائلاً :

ــ اننا ندرك حاجتنا الماسة الى برنامج محضر .

وتمتم جديون : ــ لا اعرف .

كان فرنسيس كاردوزو لطيفاً بالاضافة الى ادراكه الواسع وفهمه السريع للأمور وابتسم قائلا :

ــ ان هذه الكلمات ، ان هي الا كلمات رنانة ايها السيد جاكسون . ان الرجل ليترك نصف دماغه في جيوب سرواله ويجرب ان يعمل بالنصف الآخر الذي لم يفكر قط بأنه يملكه . وهز جديون رأسه موافقاً ، وقد عزم على ان يحتفظ بفمه مغلقاً ويقتصر على الاستماع فقط ، وأظهر السيد رايت يأسه من المستقبل وقال موجهاً كلامه لكاردوزو :

ــ ولكن عندما تفكر بالامر ، يافرانسيس ، تجد هنالك ما لايقل عن ثلاثين نائباً لا يتمكنون من القراءة او الكتابة ..

واحس جديون بالسرور لان الصحيفة لاتزال مطوية تحت ابطة . ترى ماذا يفكرون به ؟ لماذا طلبوا منه ان يحضر الى هنا ؟ واجاب كاردوزو وهو يهز رأسه :

ـــ لا بأس . هذا لا يمنع .

ـــ ولكن ارجوك ان تفكر بالامر .

ـــ وقال تاش : ـــ اني اوافق فرانسيس ، فالمثقفون في العالم لم يقوموا بالمعجزات . واجاب رايت :

ـــ ما هذه السفسطة . ان امامنا مسألة رجال كادحين ، ايد عاملة تقوم بوضع دستور للبلاد ، واذا ضربنا صفحاً عن غضب السكان البيض ، فأن امامنا مشكلة هذه الايدي العاملة نفسها . ماذا يمكنهم ان يفعلوا ؟

ـــ بالامكان ترويضهم .

وقال كاردوزو بهدوء وبصوت خافت :

ـــ هل تعتقد بأنه بالامكان ترويضك ايها السيد جاكسون؟

ـــ ماذا ياسيدي ؟ وشعر جديون بأنهم يبغون ان يجعلوا منه العوبة . وانقلبت حيرته الى غضب .

وقال كاردوزو : لا تغضب يا سيد جاكسون لقد كنت عبداً .

ـــ نعم لقد كنت .

ـــ عاملا في الحقل .

ـــ هذا صحيح .

ـــ اذن كيف تفهم هذه المسألة ـــ الدستور ؟ انني اقول هذا جدياً . كيف تريد ان يكون الدستور الذي ستشترك في وضعه ؟

ونظر جديون اليهم جميعاً : تاش بجسمه الثقيل ، وكاردوزو النحيل الممشوق القوام ، ورايت المدور الجميل ، كأنه خادم بيت جيد التغذية ، والقى نظره على الغرفة التي يجلسون فيها ، والتي كانت بالنسبة اليه ، فخمة اكثر مما يتصور ، الكراسي المريحة والسجادة القديمة المبسوطة على الارض ، والصور الثلاث الفحمية المعلقة على الجدران . وفكر : كيف يحصل رجل اسود على كل هذا ؟ واين مكانه بين هؤلاء الناس والنواب الآخرين الذين اجتازوا الولاية مشياً باحذيتهم البالية التي لا شكل لها ـــ احذية حقول القطن . وألح كاردوزو بقوله : ـــ ارجو الا تغتاظ ايها السيد جاكسون .

وهز جديون رأسه واجاب :

ــــ انا لست متكبراً . اظن انكم تريدون جواباً . لقد كنتم تتكلمون عن اناس لا يتمكنون من القراءة والكتابة . عن زنجي شيخ جاء سيراً على الاقدام من حقول القطن . انني انا ذلك الشخص !

اتسألونني ماذا اريد من المؤتمر ؟ قد لا يكون ما تريدونه أنتم. انا اريد التعليم، اريد ان يعم التعليم الجميع، البيض والسود على السواء . واريد حرية اكيدة ثابتة كعمود السور الحديدي في هذا البستان . اريد الا يدفعني اي رجل كان في الطريق . اريد مزرعة صغيرة يدفن الزنجي فيها بذاره ثم يحصده . وهكذا باستمرار كل ايام حياتة . هذا ما اريد من الدستور ..

وصمت جديون وخيم السكوت ، واحس بالارتباك . انه رجل مثير لغضب الآخرين ، قوي البنية ، طويل ، ولكنه ضعيف الحجة ، رجل قال الكثير ، ولم يكن يفهم مما قاله الا النزر اليسير . وبعد برهة وجيزة استأذن الآخرون بالذهاب . وعندما نهض جديون ، امسكه كاردوزو من كمه ورجاه ان يبقى لحظة اخرى وحينما غادر الآخرون قال كاردوزو :

ــــ فلنتاول بعض الشاي ، اذا اردت ذلك ، ثم نتكلم ..

انه لم يكن من الذكاء في شيء ان ادخلك في احاديث كهذه ، اليس كذلك ؟

وهز جديون رأسه قائلاً : لابأس .. واراد ان يذهب ، إلا انه لم تكن له الثقة بنفسه لاختيار الطريقة التي يجب ان يستأذن بها وينصرف . ودخلت زوجة كاردوزو ، وهي امرأة صغيرة سمراء جميلة ، وبدا جديون الى جانبها كأنه عملاق كبير . وارادت ان تبدأ حديثاً فسألت :

ـــ هل الرجال جميعهم بهذه الضخامة عندكم في الجبال ؟

وكان جديون سريع التهيج في تلك اللحظة فأجاب :

ـــ انا لست من الجبال ايتها السيدة ، بل من المناطق الوسطى .

وسأله كاردوزو : ـــ هلاّ بقيت ؟ ان هناك اشياء كثيرة يجب علينا ان نبحثها معاً . وهز جديون رأسه بالموافقة ، وعاد كاردوزو الى الكلام فقال :

ـــ لننظر الى الوضع بهذا الشكل : ان افراداً قلائل منا ، هنا في تشارلستون ، كانوا زنوجاً احراراً فيما مضى . ربما لم نكن على اتصال وثيق بشعبنا كما يجب . افراد قلائل متحررون مقابل

اربعة ملايين ارقاء . لقد فتحت امامنا الكتب ، وتعلمنا قليلاً ، غير اني ارجو ان لا تشك باننا كنا عبيداً اكثر منكم .

اننا الآن نشاهد حالة غريبة ، حالة غير واضحة لما تتضمنه من ملابسات . ان العالم لا يمكنه ان يدرك هذا تماماً . فحكومة الاتحاد يدعمها جيش قوي نُظم اثناء الحرب ، وهي تطلب من سكان الجنوب ، سوداً وبيضاً ، ان يبدأوا ببناء حياة جديدة فيباشرون عملهم من البدء ، ان يسنوا دستوراً جديداً ، انظمة وقوانين جديدة ، مجتمعاً جديداً . ان المزارعين البيض سيثورون على هذا كله ، وقد تغيبوا عن التصويت ، الا انهم المغلوبون في هذه الولاية . انتخب الرجال السود نوابهم وارسلوهم الى المؤتمر وهم الذين كانوا عبيداً أرقاء بالامس . هل تعلم ياجديون باننا نحن الزنوج نشكل الاكثرية ؟ ان ثلاثة وسبعين نائباً من مئة واربعة وعشرين نائباً هم من الزنوج ، وان نحو من خمسين كانوا عبيداً . نحن الآن في عام ١٨٦٨ . ما هي المدة التي انقضت على تحررنا من العبودية ؟ ان ابناء اسرائيل قضوا في البراري اربعين عاماً .

وبعد لحظة تمتم جديون : انا لا استشهد بالكتب الدينية عندما اخاف . فانا رجل اخاف الله ، وقد حدث ـــ عندما

تعاظم الخوف في نفسي ــ انني اخذت بندقية بيدي وحاربت من اجل حريتي .

ــ وماذا ستعمل هاتان اليدان ، بل ماذا ستعمل ايدي عمال الحقل ، ايدي اولئك العمال الكادحين ، في محاكم القضاء ؟

ــ ماذا سيعملون ؟ انهم ليسوا سوداً متوحشين كما تقول الصحيفة . انهم يملكون زوجات واطفالا ، وقلوبهم تطفح بالحب . انهم يفكرون بأن هذا الشيء لصالحهم وصالح المرأة والاطفال ، فيصوتون عليه . انهم يحسون بجوع التعليم فيصوتون عليه ، انهم يعرفون ما هو الرق وسيصوتون من اجل الحرية . انهم سوف لن يختالوا تكبراً ، واذا ما اخذت بأيديهم فسيتبعونك بمشيئة الله . إنهم لايريدون السوط على ظهورهم . انهم يقدرون قيمة احساسات المرء عندما يكون حراً حق قدرها .

واطرق كاردوزو مفكراً ثم قال :

ــ ان يتطلب مني شجاعة ياجديون !

ــ وقد كلفني مجيئي الى هذا المؤتمر كثيراً من الشجاعة انا ايضاً .

ـــ انا واثق من ذلك ، اخبرني شيئاً عن نفسك ياجديون .

وبدأ جديون يسرد قصته ، بهدوء وتعثر ، وعندما انتهى منها كان قد حل الظلام ، واحس عند نهاية حديثه بأنه كان متعباً ، باليا ، جافا !

وقبل ان يغادر المكان اعطاه كاردوزو كتابين ، كتاباً للتهجئة ، وكتاباً لقواعد اللغة الانكليزية ، وهما اول كتابين يحصل عليهما جديون . وامسكهما بكثير من اللطف والاعتناء بيديه الكبيرتين ، وكأنهما كمية من البيض يخاف عليها من التكسير وبحث في ذاكرته فنبش اسما ، ثم سأل :

ـــ هل لديك كتاب شكسبير ؟

وتردد كاردوزو لحظة ، ثم ذهب الى رف الكتب دون ان ترتسم على شفتيه ابتسامة وتناول منها كتاب « عطيل » واعطاه الى جديون . فقال جديون : ـــ اشكرك . وهز كاردوزو رأسه، وبعد ان ذهب جديون قال لامرأته :

ماذا لو اني انفجرت ضاحكاً ! ماذا لو ضحكت ؟ فليرحمني الله ، لقد كدت اضحك . يالنا من حيوانات !

وقد طلب جديون من كارتر ان يخبره شيئاً عن كاردوزو .

وكان لخبر زيارة جديون منزل كاردوزو اكبر الاثر في نفس كارتر ، من ناحية اجتماعية محض ، لا يتمكن جديون من فهمها الآن .

ــ ان نصفه يهودي ، ولذلك دعي بهذا الاسم الغريب . انه زنجي متكبر .

وقال جديون ولم يكن قد رأى يهوديا بعد :

ــ ان مظهره ينبىء انه لا يختلف عن اي زنجي آخر .

ــ الا انه متكبر .

وسمح كارتر لجديون باستعمال مصباح الزيت . ففي نهاية الشهر عندما تدفع الرواتب للنواب دون شك ، سينقده ثمن ما يستهلك من الزيت . وكان جديون يقضي نصف الليل وكتاب التهجئة بيده . كان يكتب الكلمات على هامش الصحيفة ، ويقرؤها بصوت عال مسموع ، مجرباً ان يسمع ليعرف هل لفظها غريب عليه . وقد ارغمت تهجئته على هذا الشكل كارتر مرة على ان يقترب من الباب ويسأل :

ــ امتألم انت ؟

فقال جديون وكأنه يعتذر : كلا اني اتعلم .

كان كتاب التهجئة كتاباً رائعاً ، الا انه لم يكن يشرح معنى الكلمات . وتساءل جديون : هل هنالك كتاب يبين

للمرء ماذا تعني كل كلمة . وتعثر في كتاب « قواعد اللغة » ، وقد وقفت عيناه على مقطع جاء فيه :

« ان الادغام بصورة عامة مسألة يجب ان نقطب حاجبنا عند سماعها ، ولا شك أن استعمال كلمتين مدغومتين هو أشد اللهجات عاميّة . ان اللهجة علامة الطبقة التي ينتمي اليها المتكلم كما انها دليل على ان الرجل سيد محترم او غير محترم إن الجنتلمان يتجنب الادغام بقدر الامكان ، ولا يستعمل كلمة أصلها كلمتان في أية حالة من الحالات ، ولا يسمح لنفسه باستعمال كلمة يمكن أن يحصل فيها التباس ، كما أن الرجل المثقف لابد ان يكون دقيقا في كلامه وفي تفكيره ، وفي عاداته الشخصية » .

وقرر جديون أن يتجنب استعمال أية كلمة مدغمة ، وكأنها الطاعون ! وكلما تابع قراءته في اساليب استعمال اللغة ازدادت مخاوفه ، وأصبحت مسألة التعليم اخيراً مرعبة ، مخيفة عنده . وأخذ كتاب « عطيل » وبعض الامل يدغدغه ، الا أن أمله هذا أصيب بالخيبة عندما قرأ :

اياغو : انني احوم حولها . وحقا ان الخرعة[1]

(١) الخرعة : الابتداع والبدعة .

جاءت من هامتي .. كما يجيء الدبق من المغراة .

ونام اخيرا وهو يحس الما في رأسه وقد بلغ يأسه درجة لم يبلغها من قبل .

لقد بقي كاردوزو مستلقيا أكثر من جديون ، وعيناه لاتعرفان الى النوم سبيلا . وكان ينظر الى المكان الذي انتزعت منه الكتب الثلاثة . انه ثغرة في حياته ، ثلمة في تاريخ الانسانية ، وهوّة في نهر الحياة البشرية الزاحفة المتألمة . كيف حدث أن تعرّف الى جديون جاكسون ؟ جديون هذا الخارج من العبودية والظلام من منطقة نائية في كارولينا ؟ ولماذا أرغم كاردوزو على استصغار نفسه ؟ ما هو مقياس الرجل ؟ ان كاردوزو ، الرجل الذي وُلِدَ حرا ، يذكر دراسته الجامعية في غلاسكو ، والحفلات العديدة في لندن . انه يذكر الاجتماع الكبير ، حيث خطب في جمهور يزيد عن ثلاثة آلاف رجل انكليزي ، والاحتفاء والاحترام اللذين قوبل بهما . لقد اجتاز أبحرا ودخل بيوت العظماء .

لقد كان وزيرا في « نبوها فن » واجتمع محررو العبيد في بيته حيث حاكوا مؤامراتهم . ان مزيجا من الدم الابيض والاسود ، من دم الهنود الحمر واليهود يجري في عروقه ، حتى ان

سكان تشارلستون البيض يحترمونه .

ومع ذلك رأى جديون جاكسون منقذا ، اذا كان لابد من وجود منقذ ، في تلك الحالة المظلمة من الاضطراب . ان ذلك الزنجي الاميّ الضخم يتطلع الى نور شمس لا يسع كاردوزو ان يبصره . وبقي كاردوزو الذي لم يتأتَّ له ان ينام لكثرة مخاوفه ، فشلت آماله ، بقي مستيقظاً يحسد الزنوج المحررين .

مهما طال انتظار الاحداث فهي لابد آتية ، وهكذا كانت هذه الاحداث تتوالى . والتأم المؤتمر ، وجلس جديون مع النواب . وخُيل اليه في تلك اللحظة أن عجلة الزمن قد توقفت . لقد عاش ستة وثلاثين عاماً : قذف الى الحياة ولدا أسود لا يسكت عن العويل وقتل امه بولادته . وعومل معاملة الماشية منذ بدأ يمشي على قدميه ، يُقرصُ ، ويُشدّ ويُجس ويُقدّر ثمنه . وهو الآن يجلس مع رجال ينظمون علما . جلس ساكتاً هادئاً ، لايبدي حراكا . ان العالم يشرف على نهايته ! وكان جديون لا يجرؤ على التنفس الا بصعوبة ، وقد جلس ويداه متماسكتان في حضنه وركبتاه ملتصقتان معا ، وهو يسمع كل ضربة من ضربات قلبه القوية . نعم انه لم يكن من السهل على المرء أن يتنفس في هذه الردهة الكبيرة حيث تكدست صفوف الكراسي المترادفة

المتقابلة . ومن تلك المقاعد المحشوة بالاجسام كانت تطل وجوه سود وبيض ، لرجال بلباس المدينة ولباس القرية ، بأردية سود وبسترات عسكرية قديمة. شباب وشيوخ، رجال وُلدوا احراراً، وآخرون وُلدوا عبيداً. أنصار الجنوب ومغامرون شماليون . جبليون شُقر طوال القامة ، ممن حاربوا إلى جانب الثائرين الشماليين ... الكل يجلسون جنباً الى جنب مع الشماليين .. كلا ! لم يكن من السهل على المرء أن يتنفس .

وكأن هذا لم يكن كافيا ، فقد ترك سكان تشارلستون بيوتهم واسرعوا بالمجيء ليروا « السيرك » : ، القرود باذنابها الدائرية والزنوج والنسانيس الدميمة . وزاد في الازدحام وجود المراسلين الصحفيين المحليين ، وعدد آخر كبير من جورجيا ، ولويزيانا ، وألباما ، ومقاطعات اخرى جنوبية ، وجميعهم على اتم الاستعداد لالصاق الفضائح والتهم بهذا الجنون ! وكان هنالك ايضاً مراسلون من نيويورك ، غرضهم ان يستخلصوا ، من كل ذاك ، الصور ذات الطابع المحلي التي يهوى سكان المدينة الكبرى الاطلاع عليها . وقد حضر كذلك صحفيون من بوسطن ، ومعلقون صحفيون من انصار الغاء العبودية من نيوزلندا ، وكذلك طبعاً رجال من واشنطن ارهفوا السمع لما من شأنه ان يجعل

العاصمة توشوش وتتهامس . وكان الجنود الشماليون يضربون نطاقاً حول الردهة التي ازدحم فيها كل ما يسعها ان تستوعب من الانفس البشرية .

وكان اليوم الاول من الاجتماع هادئاً يسوده النظام خلافاً للتكهنات والمخاوف المنتظرة . وتليت اسماء النواب ، وجلس جديون مرعوباً ، مريضاً ، الى ان جاء اسمه . وبعد ان اجاب : « حاضر » وتلي الاسم الذي يليه ، شعر بأن سماع جميع هؤلاء الحضور لصوته لم يكن شيئاً هاماً على الاطلاق .

وبعد قراءة الاسماء نهض السيد أور الحاكم السابق لجنوب كارولينا وخاطب المؤتمر . وكان قد حضر بدعوة خاصة ، دلالة على ان النواب سيعملون كأنهم جزء انبثق من قلب المجتمع لا من خارجه . وخيم الهدوء في الردهة ، وانحنى جديون الى الامام كي لاتفوته اية كلمة فقال : وقد سُرَّ في بادىء الامر ، اذ تكلم اور عن الحاجة الماسة لنشر التعليم بين الزنوج الذين كانوا عبيداً فيما مضى ، ثم صرّح بأن النواب لا يمثلون طبقة المثقفين او الاثرياء في الولاية .

لقد كان كلام الناس عن المساواة كما يتكلمون عنها الآن ، لا يتعدى ان يكون حلماً من الاحلام . ولم يتمكن

جديون من فهم الكثير مما قيل . وتضايق من نفسه اذ تفوته هذه الآراءِ لأنها لم تكن واضحة عنده ، واذ لم يكن يفهم معنى كلمة من ثلاث او من اربع كلمات .. هل كان أور يهزأ بهم ؟ يحتقرهم ؟ اتراه يهاجمهم ؟

ولم يعقب الكلمة التي القاها أور كثير من التصفيق ، بل خيم شيء من النظام والهدوء . ثم وضعت لائحة بأعمال الغد ، وأعلن أن الجلسة قد رُفعت الى ذلك الغد .

ووقف جديون يصغي الى جماعة من النواب كانوا قد اجتمعوا معاً في ناحية من الطريق وهم يتكلمون بحماسة . كانوا من سكان الريف ، كبيري الاجسام ، ذوي ايد قوية ومناكب عريضة تشير الى عديد السنوات التي قضوها وراء المحراث . وكان احدهم ، وهو زنجي مسنّ ، اسود كالفحم ، متطاول الوجه ، حاد النظرات ، يقول :

ـــ ان التعليم لا وجود له هنا في هذه الولاية . ولكن ، على من يقتصر هذا التعليم ؟ هنالك مقاطعات كثيرة بدون مدارس ان السيد الكبير لا يهمه الامر في كثير او قليل . فهو يأتي بمعلم الى بيته يعلم اولاده ، او يرسل ابناءه الى اوروبا . وكم وقت مضى ونحن على هذه الحال ؟ سنتان من الحرية ويوم من ايام المؤتمر .

وأقول : لماذا يريد هذا الرجل ان يمزقنا ويلقي بنا ارضاً .

وشق رجل ابيض ، طويل القامة ، بارز العظام ، طريقه في الجمهور المزدحم وقال بلهجة الجبليين المتلعثمة :

ـــ هنالك اسباب كثيرة ايها العم .

ـــ وكيف ذلك ؟

ـــ ايها العم ، لماذا لا تفتحون عيونكم انتم ، ايها الزنوج ؟ ان هذا الشيء الذي ندعوه « المساواة » لن يعيش طويلاً الا اذا وضعتم مناكبكم تحته . سيهاجمونكم في احاديثهم ، وخطبهم ، وسيهاجمونني انا ايضاً . فانت زنجي ، وانا ابيض بائس . لقد انتخبني البيض البؤساء امثالي ، وانتخبك انت زنوج امثالك ، وقد يكون ممن صوت لي من ابناء جنسك ، وصوت لك نفر من ابناء جنسي . انا لست ممن يحبون الزنوج . الا انني احب من يفكر بصواب ويقول : ان اثنين واثنين يساويان اربعة . ان هذا النوع من التفكير يجعلني اعرف ما يجب عمله اذا كنا نملك حواسنا ، الا ان مثل التفكير لا يقول لي انهم سيكفون عن تسميتنا بالحيوانات المتوحشة .

وسأل احدهم :

ـــ وماذا ستفعل من اجل ذلك ايها الرجل الابيض ؟

ـــ احتفظ بصوابي ، واخرج من هذا المؤتمر بمدارس وحق التصويت . وانني اعلم ماذا سيقول اعدائي في ذلك .

ـــ او تسمح لهم ان يقولوا ما يريدون ؟

نعم . اسمح لهم ، وبعدئذ اقول مايجب ان اقوله انا ايضاً .

ـــ والارض ؟ ما فائدة المدارس والتصويت اذا لم تكن لدينا الوسائل التي تمكننا من الحصول على غلتنا ؟

فقال الرجل الابيض وهو يمضغ كلمته الاولى :

ـــ الارض .. ايها الاخ ، اذا سألتهم عن الارض فلا بد انهم سيطيحون بك ارضاً ويلغون بدمائك . لن نحصل على ارض بواسطة هذا المؤتمر ، فاذا كنا نريدها حقاً فلا بد لنا من ان نشتريها باتعابنا وعرقنا .

ـــ ألم نخدم هذه الارض ؟ ألم نعمل فيها مئات من السنين ؟ ألم ندفن فيها البذار ثم نحصد الغلة ونقدمها لهم ؟ او ليسوا هم انفسهم من حاول تخريب البلاد ؟

ـــ ليست المسألة مسألة حق ايها العم ، بل انها مسألة امتلاك .وانا لا اهدف بسهامي النجوم ، بل اسدد الى سفح الرابية المجاورة .

واحتدم النقاش ، وارتفعت حرارته . وعندما رأى جديون

الرجل الابيض يعود فيشق طريقه خارجاً من بين الجمهور تبعه وسار الى جانبه ثم امسكه من كمه وقال :

ــ ايها السيد .

وتوقف الرجل الابيض وحدّق في جديون بعينين زرقاوين فيهما كثير من البرود ، وحاول ان يتابع سيره . وشعر جديون بما في نفس الرجل الآخر من نزاع داخلي ، فهو لا يعدو كونه رجلاً جنوبياً ، ولد وترعرع في الجنوب ، غير انه يكره نظام الرق والاستعباد لانه جعل منه رجلا بائساً لا يملك ارضاً ويكره الزنوج ايضاً لانه اضطر بطبيعة وضعه المالي ، ان ينحدر الى طبقتهم ولم يبق له من دلائل الاحترام سوى اهابة الابيض .

وقال جديون :

ــ عفواً ياسيدي . أود ان أتحدث اليك . اسمي جديون جاكسون .

ــ « واسمي انا اندرسون كلاي . » قال الرجل الابيض ذلك وقد هز رأسه بعنف وتابع سيره ، وجديون يسير الى جانبه . ثم قال جديون :

ــ انا لا أريد ان أُصَدَّ ... أصرّح ... وما ... ولا أريد ان أتكلم بكبرياء . غير اني سمعت ماكنت تقوله عن الارض .

ان حصول قومي على الارض أمر عظيم الاهمية عندي . هل تعتقد انهم لن يعطونا شيئاً ؟

انهم لن يعطونا شيئاً وحق الشياطين .

ـــ ولكن ، كيف سنعيش ؟

ـــ ايها الزنجي ، انه امر يجب عليك ان تفكر به انت .

وتابع جديون سيره الى جانبه ثم قال اخيراً :

ـــ قد نعود الى هذا الحديث مرة ثانية .

ـــ ربما يكون ذلك .

وودّعه جديون قائلاً :

ـــ انني فخور بمعرفتك .

وفي رسالة بعث بها الى زوجته راشيل بعد بضعة ايام ، وهي اولى رسالة كتبها في حياته ، كتبها وهو يشعر بروعة كل كلمة يخطها ، قال :

« امرأتي العزيزة راشيل :

« انني افكر فيك كل الوقت . لقد رسمت لنفسي صورة لك انك جميلة . هذا ماافكر فيه كل الوقت . اشعر بالحزن لاني بعيد عنك كما كنت اشعر به يوم كنت مع الشماليين . اني اتعلم الكتابة والقراءة من الكتب ، وانا نائب في المؤتمر لاضع قوانين

جيدة . ان راتبي كبير جداً ــ ثلاثة دولارات في اليوم ، اوفر اكثرها . وقبل ان أنام أراك أمامي مع الاولاد ، وأصلي الى الله ليكون باراًّ بكم . انني اكتب جيداً وأقرأ الكتاب . لقد تكلمت مرة في المؤتمر عن الاجرة . وكنت خائفاً جداً . وهذا مايسمونه مناقشة . ارجو ان تكوني لطيفة مع جيمس اللنبي اذا ما جاء اليكم وليباركم الله . سأكتب قريباً .. » .

هذا هو الكتاب الذي كتبه جديون ، واستغرق فترات طويلة من الجهود والعمل حتى ساعات متأخرة من الليل . وتحقق من كل كلمة مكتوبة في الدفتر الذي اشتراه . لقد جعلته الرسالة يحس بحرارة القرب من راشيل والاناس الذين تركهم في المرزعة وكانهم أمامه . ماذا سيكون شعورهم عندما يعلمون بأنه قد اشترك في النقاش الدائر في المؤتمر ؟ ان الامر لم يكن هاما جدا ، ولم يكن يقصد الاشتراك في الكلام حبا بالكلام ، الا أنه ، لسبب ما ، لم يتمكن من ان يتمالك شعوره فوجد نفسه واقفا يتكلم ، وقد كانت الجلسة آنئذ مخصصة لبحث مسألة رواتب النواب .

كان السيد لانكلي هو الذي بدأ النقاش بقوله : « لاشك ان اثني عشر دولارا ، هي الاجر الذي يستحقه نواب المؤتمر . »

وضج الصحفيون غاضبين . وعلى الفور نهض زنجي ، وقال ان عشرة دولارات هي أدنى مبلغ يمكن ان يعيش به المشرّع في حدود الكرامة . وعادت الضجة فغمرت الردهة وتدخل رئيس المجلس فطلب من المستمعين السكوت . ونهض باركر ، وهو نائب ابيض ، فرفع المبلغ الى احد عشر دولارا .. انه لمبلغ خيالي عند تسعين بالمئة من النواب الذين كانوا بصورة عامة يعملون بأيديهم ، وبعضهم كانوا عبيدا وكان البعض الآخر مرابعين في المزارع ، وبينهم الكثيرون ممن لم يروا في حياتهم لمعان القطع الفضية .

وقد اعرب ثلاثة من النواب من انصار الجنوب واثنان آخران من الشمال عن موافقتهم على اقتراح السيد ليزلي النائب الزنجي عندما وقف وصرخ :

« انني على استعداد لقبول ثلاثة دولارات مقابل خدماتي ، واني اريد ان اسجل هذا الرقم بوصفي زنجياً .. انا اعتقد ان اتعابي لا تساوي اكثر من هذا المبلغ .. سأطرح هذا السؤال على النواب : ماهو المبلغ الذي يمكن ان يدفعوه لو كلفوا بأداء الاجور من جيوبهم الخاصة لمجموعة من البشر كهؤلاء ؟ الا يكون دولار ونصف الدولار كافياً ؟ ما هذه المساومة في الارقام ؟ .

افي اليوم الواحد ثمانية او تسعة او عشرة دولارات ؟ انه لامر اشبه شيء بتزوير النقود ! » .

وتكلم السيد « ميلروز » في عاصفة متقطعة من التصفيق : « هذه اهانة قذرة » .. يقترحون دولاراً وخمسين سنتاً لنائب في المؤتمر ؟!

وعندئذ نهض جديون ، وتقدم الى الامام وقد نسي نفسه في خضم هذه المتناقضات ومالبث صوته العميق الغني ان ملأ جنبات القاعة قائلاً :

« لقد اقترح البعض عشرة دولارات ، وآخرون احد عشر دولاراً ... انني استمع الى جميع هذه الاقوال ، واقرأ في الصحيفة كيف ينعتوننا باللصوص السارقين ، فلا اتمالك من ان اصبح مجنوناً غاضباً . اننا لسنا لصوصاً . ولكن كيف هذا ؟ .. » وهنا تبادر الى ذهن جديون ضخامة العمل الذي اقدم عليه ، واحس بالحرارة والبرودة تتناوبه ، وجاءت كلماته التالية مضطربة :

ـــ ... لقد جئت الى تشارلستون منذ سنوات قليلة مع الجيش الشمالي ، فكم كان راتبي آنذاك ؟ عشرون سنتاً في اليوم ! الا انني كنت احارب من اجل الحرية .. وعندما كنت

عبداً قبلها ، ما كنت اتقاضى اجراً البتة . وقبل المؤتمر جئت ثانية الى تشارلستون . كان لا بد لي من ان اعمل كي آكل . لقد ذهبت الى المرفأ حيث عملت عتالاً يجر البالات واجري خمسون سنتاً في اليوم ، وانه لأجر جيد . فهل يجوز لي الآن بين عشية وضحاها ان اساوي عشرة دولارات ؟ وتغلّب على خوفه ورعبه وتابع كلامه وهو اكثر ثقة بنفسه :

ـــ ... لعلها الكرامة ، كما قال آخر .. اذا كان الامر كذلك ، فلا شك ان ثلاثة دولارات تكفي الكرامة ... ثلاثة دولارات في اليوم تجعل فارقاً بين نائب وعامل مرفأ ، وربما لا يكون الفرق حقيقياً ، الا اننا على كل حال لا نستحق عشرة دولارات في اليوم . !

وهكذا تكلم جديون أول مرة في المؤتمر وقد تقدم فيه بمشروع .

الفصل الخامس

وتوالت الايام واصبحت اسابيع والاسابيع شهوراً ، واجتماعات المؤتمر متتالية ، وتخلص جديون من شعوره بالخوف والوحشة ، الذي انتابه في اول جلسة ، وتخلص كذلك من جميع الامور الاخرى في مجرى حياته فالحوادث غير الطبيعية اضحت مع الزمن طبيعية عنده ، والاشياء الغريبة اصبحت مألوفة لديه .

ان التغير الكيفي الذي كان يطرأ على جديون لم يرافقه احساس بذلك التغير ، ولم يحدث له ان توقف مراقبا نفسه ، لكي يرى أنه لم يعد ذلك الرجل الذي كان بالامس ، وأنه بفضل تحمله اعباء عمله اكتسب الخبرة في هذا العمل لقد طلب الاخ بيتر منه في الماضي ان ينصت عندما يتكلم الآخرون ، قائلاً بان الكلام هو احد المقاييس التي يُحكم بها على الرجال . ومرت

الايام : ثلاثون .. خمسون .. تسعون يوماً ، وجديون جالس اثناءها في اجتماعات المؤتمر مستمعاً ومصغياً .

لم يكن يتكلم الا احياناً ، الا انه لم يعد يرى الغرابة في ان ينصت الناس جميعاً اليه في كل مرة يتكلم فيها .

وظهرت الثمار .. وتزايدت الكتب في غرفة جديون فأصبحت اثنى عشر كتاباً ، ثم تضاعف هذا العدد نفسه . وكان يدخل غرفته في كل مساء بعد انتهائه من تناول العشاء ، ويغلق الباب عليه ، ويبسط كتبه على الطاولة تحت نور المصباح . وكان من النادر ان يعمل اقل من ثلاث ساعات يومياً ، واحياناً خمساً ، وقد يطول به العمل فيستغرق الليل بأكمله كما حدث له وهو يهمُّ بقراءة كتاب « كوخ العم توم » ، وهي القصة الاولى التي قرأها . لقد قدمها له احد النواب وكان يدعى « ديلارج » ولكن جديون اعترض آنئذ على ذلك قائلاً :

ـــ ليس لديَّ متسع من الوقت لقراءة القصص . فقال ديلارج :

ـــ هذا الكتاب هو احد العوامل التي اتاحت لك فرصة الوجود في هذا المؤتمر

ـــ كتاب ؟

ــ عندما اجتمع ذلك الشيخ ، ابراهام لنكولن بالسيدة ستو مؤلفة هذا الكتاب قال لها : آأنت السيدة الصغيرة التي اغرقت أمة كبيرة في حرب ضروس ؟

فابتسم جديون وقال : أظن ان هنالك عاملا أو عاملين آخرين ساعدا في ذلك ايضاً .

ــ مهما يكن من أمر ، خذ هذا الكتاب واقرأه .

واخذ جديون الكتاب معه الى البيت ، ومرت اسابيع قبل أن يبدأ بقراءته ، وعندما بدأ بذلك احس كأن عالما جديدا انفتح امامه وامتد به السهر حتى ان كارتر وزوجته توسلا اليه ان ينام ، ونبهاه الى أنه سيقضي على نفسه حتما ان لم ينم . وكان جديون يقف حائرا مضطربا أمام الأسئلة الورادة اثناء قراءته ، فينسخ بعض المقاطع التي تجيب عن هذه فتغدوا الأسئلة بذلك واضحة جلية . فقد نسخ المقطع التالي : « اننا نعلم بأن الشعور الانساني عند الرجل الارستقراطي في كل انحاء العالم ، لا يتجاوز حداً عيّنه له المجتمع ، وباختلاف المجتمعات يختلف مدى هذا الحد كثيرا . ففي انكلترا ينتهي في مكان ما وفي بورما أو أميركا ينتهي في مكان آخر . والارستقراطيون في كل من هذه البلدان لا يتعدون هذا الحد . فالحادث الذي ينظرون على انه ظلم لا

يطاق ، أو كارثة مرعبة ، اذا ماألم بأناس طبقتهم ، ينظرون اليه على أنه أمر طبيعي ولا يحرك شيئا من مشاعر نفوسهم اذا ما حل بطبقة أخرى . وقد كان اللون يشكل الحد الذي ينتهي عنده الشعور الانساني .. ! ففي الوقت الذي لم يكن هنالك من هو اعدل أو اكرم او اعطف من والدي على أبناء طبقته الذين يعتبرهم مساوين له ، كان يعتبر الزنجي الملون ، حلقة الاتصال بين الانسان والحيوان ، وقد بنى جميع نظرياته في العدالة والكرامة الانسانية على هذا المبدأ ! ...

ونسخ هذا المقطع :

« ألفريد ، الطاغية المعتدّ بنفسه ، لا يلتمس دفاعاً . كلا .. انه يعيش بخيلاء في عليائه ، ويقف ثابت القدمين في وسط تلك الارض القديمة المحترقة . » .

« الحق للاقوى » ذلك هو شعاره .. وهو يقول واعتقد ان لديه الحق فيما يقول — ان المزارع الاميركي يتعامل لكن بأسلوب مختلف عن اسلوب الارستقراطيين والرأسماليين الانكليز عندما يتعاملون مع طبقات الشعب الدنيا الذين يعتقدون انهم يمتلكونها بلحمها وعظمها ، بنفسها وروحها ، ويستثمرونها لصالحهم ورفاهيتهم . ان والدي يدافع بحماسة عن المزارع

والرأسمالي معاً ، ويقول بأنه لا يمكن ان تكون هنالك مدينة عظيمة بدون استعباد الجماهير اسميا كان او فعليا . ويقول مصرّاً بأنه يجب ان تكون هنالك طبقة دنيا بائسة ، تنصرف للتعب الجسماني وللطبيعة الحيوانية وبذلك تتمكن الطبقة العليا من الاستمتاع بالثراء والرفاه وبالثقافة والتقدم ومن ان تصبح هذه الطبقة : هي التي ترشد وتوجه الطبقة الاخرى . ان والدي يفكر هكذا .. وبهذا المنطق يناقش لانه كما يقول : ولد ارستقراطيا . واني اخالفه بهذا التفكير ، ذلك لاني ولدت ديموقراطيا » .

لقد نسخ جديون مقاطع كثيرة كهذه ودرسها ، وعندما رأى ديلارج ثانية قال له :

ـــ انني اقرأ الكتاب .

ـــ وهل تتعلم منه شيئاً ؟ ..

وابتسم جديون قائلاً :

ـــ انني دائما اتعلم بعض الشيء . ارجوك ان تخبرني هل طبع هذا الكتاب في انكلترا ايضاً ؟ ..

ـــ نعم وقد ترجم الى اللغة الالمانية ، والروسية ، والهنغارية ، والفرنسية ، والاسبانية ، والى مايزيد عن عشر لغات اخرى .. ويسميه العمال الكادحون في اوروبا : « انجيلهم » .

ـــ كتاب كهذا عن عبد اسود ، يصبح انجيلهم ؟
ـــ بل عن العبيد اياً كان لونهم ياجديون .

*

واولى مرة في حياته ، احس جديون بعينيه تؤلمانه . لقد خف وزنه واضحى انحل واكثر نهكا مما كان عليه يوم كان يمسك المحراث بيده ، او يوم كان جندياً يسير ثلاثين ميلا في اليوم . كان فيما مضى ، يعتقد بأن هنالك متسعاً من الوقت لكل شيء . ايام تاتي وتذهب كما تطلع الشمس وتغيب .. كل شيء كان دائما مستمراً مثل اناشيد الرعاة البطيئة الهادئة ..

غابات الصنوبر .. المستنقعات المعتمة ... اغاني الكادحين الحزينة الناعمة ... اما هنا ، فالامر يختلف عن الماضي ... هنا يمتد عالم متقلب الاشكال ، بعيد الآفاق كمد البحر . عالم لا يمهل ولا ينتظر .. لكل يوم حساب بل لكل ساعة . ان القاموس الذي اشتراه جديون ، يحوي خمسين الف كلمة ، والكلمات هي الادوات التي يعمل بها الآن ان المعرفة لا

تنتهي عند حد ، وكان دائماً يشعر بانه لا يزال ينبش السطح الخارجي فينتابه اليأس . انه يقضي اسابيع باكملها يتعلم الجمع والطرح وضرب الاعداد البسيطة ، ويسهر ليلة بتمامها لا تذوق فيها عيناه طعما للكرى كي يدرس خطاباً في موضوع التعليم لا يتجاوز الصفحة الواحدة ليلقيه في اليوم التالي اثناء انعقاد المؤتمر . انه لمن دواعي الثقة بالنفس ــ والاعجاب بها ان يرى جديون نفسه واقفاً في الردهة وهو يقول :

« لقد سمعت في الايام التي مضت ، زملائي النواب المحترمين يناقشون قضية جعل التعليم اجبارياً وكأنه قانون .. وسمعت نواباً آخرين يقولون بانه ليس من العقل او المنطق الصحيح ان نأمل بجعل التعليم الزامياً . انا لا اوافق ــ هؤلاء الآخيرين .. قد يعيش الناس عراة اذا لم يرغمهم القانون على ارتداء الالبسة ان الانظمة تفرض عليهم ارتداء الالبسة ثم لا يلبثون ان يعتادوا ذلك . اني اعتقد بانه سيصبح ذهاب الناس الى المدرسة من الامور الطبيعية بعد مرور خمسة او عشرة اعوام ، ارادوا ذلك ام ابوا . لماذا كان ملاكو العبيد يسرعون لبيع العبد اذا علموا بانه يعرف القراءة والكتابة ؟ انا اخبركم لماذا .. لانه لا يمكن فرض العبودية الا على الاناس الجهلة الاميين .

الديموقراطية والمساواة لا يمكن ان يدركهما الا من كان لديه قسط من العلم يسمح له بدراستهما ولا يمكن لاي شعب ان يصبح حراً اذا لم يتعلم .. »

لقد امضى جديون ليلة بكاملها حتى استطاع ان يكتب هذا المقطع . وعندما انتهى منه لمس فيه انه ليس على المستوى الذي يريد ، ورأى ان الجمل ليست قوية التركيب وانه لم يعبر بها عما كان يأمل ان يقول او عما اراد قوله . وكأن ذلك لم يكف جديون ، فقد اتاه كاردوزو مندفعاً بحب الاستطلاع وابتدره بالسؤال :

ــ اين كنت مختبئاً يا جديون ؟ .

ــ مختبئاً ! .

ــ اعني انك تختفي بعد كل اجتماع ..

ــ انني ادرس ..

ــ في كل ليلة ؟ .

ــ نعم في كل ليلة ...

فقال كاردوزو وهو يفكر :

ــ ولا راحة او تسلية ؟ انك لا تجتمع باحد . اليس كذلك ؟ ان الاعتكاف ليس افضل ما يجب عمله .

ـــ انني احضر الاجتماعات ..

ـــ نعم ـــ ... ولكني اريدك ان تجتمع ببعض الناس ، من البيض والسود على السواء . انه لمن الضروري ان تتعرف على البيض ، وتعرف ماذا وكيف يفكرون او يقولون ويفعلون . اننا سنضطر للعمل متضامنين مع البيض ياجديون . فهزَّ جديون رأسه وقال :

ـــ اعتقد ذلك .

ـــ اتريد ان تأتي وتتغدى معنا غداً ؟ فتردد جديون قليلا ..

ـــ اتغدى معكم ؟ .. والح كاردوزو قائلا :

ـــ ارجوك تعال .. يجب ان تأتي .

ـــ حسناً ..

ـــ ليس هذا كل ما أردت التحدث عنه . لقد تاثرت بما قلت عن التعليم الاجباري انني اهتم كثيرا بهذا الموضوع . وأعتقد اننا اذا منينا بالفشل بهذا الشأن ، فأننا سنفشل بوضع الدستور بكامله . ان هذا المشروع سيحال الى اللجنة المختصة في الاسبوع القادم . اتريد ان تعمل مع هذه اللجنة ؟

وحملق جديون بكاردوز .. الا انه لم يلمح اثراً للمزاح او

التهكم بوجهه فما كان منه الا ان وافق . وأجاب كاردوزو قائلا :

ـــ انني سعيد جداً .

منذ مدة قرر جديون بأنه يحتاج الى بدلة . فعلى الرغم من جميع الرقع التي ألصقتها السيدة كارتر على سرواله ، كان ذلك السروال بطريق الاهتراء ـــ ولا بد أن ينتهي به الأمر سريعاً الى الفناء . أما رداؤه الذي كان صغيرا جدا عليه ، فقلما كان يمر يوم دون ان يتفتق منه احد خطوط الخياطة . لقد صنع له كارتر حذاء جيداً بدولارين .. ولكن البدلة ولا شك ، كانت تعاني ازمة شديدة . وصرحت السيدة كارتر ، بانه من العار عليه ـــ وهو النائب ـــ ان يذهب الى المؤتمر يوماً بعد يوم مرتدياً هذه الخرق المخلولقة . ولكن جديون قال :

ـــ ان الالبسة تكلف مالا ، واني بحاجة الى ان اصرف هذا المال في نواح اخرى . ـــ ان الالبسة تدل على الرجل الذي يكمن فيها ...

وهكذا ذهب جديون بعد ان اثير بهذه الطريقة ، الى الشيخ «العم بادي» الذي كان يملك دكانا بسيطا وراء محلات هنري في شارع روتليج . وكانت محلات هنري هذه مدينة بيضاء كبيرة قائمة بذاتها . وقد كان العم بادي الى زمن بعيد جداً ، الى

اقصى ما يستطيع المرء التوغل في الماضي ما قبل الحرب واثناءها عبدا من عبيد هانري . انه يبلغ الآن الخامسة والسبعين من عمره بل ربما الثمانين ، وقد تعلم الخياطة عند آل هانري ، وقضى جيلين كاملين وهو يجلس الى الطاولة رافعاً ساقيه ، يخيط البسة الحفلات الراقصة ، واثواب النساء المطرزة ، وبزات الاسياد الرمادية والسوداء ، وعندما تحرر العبيد ، سمح له آل هانري بالبقاء في الدكان لقاء اتعاب الخياطة التي بذلها لاسرتهم . وفي المدة الاخيرة بدأ يفصل ويخيط بالاجرة .

وارسل كارتر جديون الى هناك . ونظر الشيخ اليه من الاسفل الى الاعلى ، واخذ يغمز بعينيه ثم قال :

ـــ احاول احاطتك بنظري فارى ان لا نهاية لك ـــ بكل تأكيد . كيف سأتمكن من ان اجد اقمشة تغطي زنجياً بحجمك : واجاب جديون :

ـــ ليس من الضروري ان تكون بزة .. يكفيني ان تكون واسعة لأتمكن من ارتدائها .

ـــ ماذا تعني بقولك : ليس من الضروري ان تكون بزة ؟ .. لقد قمت بخياطة بزات لهانري طوال اربعين سنة وربما كانت خمسين . لا تجرب ان تعلمني كيف اخيط لك بزة ..

واعتذر جديون ، وبعد اسبوعين كانت البزة جاهزة ، كانت سوداء ، جيدة الخياطة حسنة التفصيل ، دفع ثمنها عشرة دولارات وكتب الى راشيل يخبرها :

زوجتي العزيزة راشيل .

لقد اضطررت الى شراء بزة ، لأن البزة القديمة قد بليت وانتهى امرها . لقد كلفتني عشرة دولارات استهلك ثمن القماش اكثرها . انني اعلم انه لمن المخجل ان اصرف هذا المبلغ الكبير ، الا أن كل شيء هنا في تشارلستون يكلف مالاً كثيراً لقد سررت كثيراً عندما علمت بان الامور عندكم تسير بشكل حسن ، وان السيد جيمس اللنبي يعلم الاولاد ، وهو سعيد ، لشد ما حزنت إذ علمت من رسالة اللنبي ان اربعة من الزنوج قد قتلوا في سنكرتون بأيدي رجال خارجين على القانون يضمرون لنا الكراهية ، ويقومون باعمال العنف والارهاب . الا ان هذه الآثام ستضمحل ــ عندما ننتهي من وضع الدستور ، وعندها سيتحول ثرى مقاطعتنا العزيزة كارولينا الى ارض طيبة بفضل مساعي الحكومة المدنية . انني اجتمع برجال افاضل واعتقد بان كل شيء سيكون على مايرام ، غير انه لابد لنا من الصبر . قبلّي عني الاولاد ، والله يباركك واياهم ..

ووضع جديون دولاراً ضمن الرسالة لقد كان يضع دولاراً في كل رسالة من رسائله اليومية الى راشيل . وارتدى البزة الجديدة ليحضر بها حفلة العشاء التي دعاه اليها كاردوزو في ذلك اليوم . وان حفلة العشاء هذه ، التي اقيمت عام ١٨٦٨ في دار كاردوزو ، لتعتبر بحق ، لحظة توقف هامة في التاريخ ، لحظة بدت وكأنها هوة عميقة حفرت بحراب جنود الاتحاد الشماليين في مجرى التاريخ الاميركي ، بل كانت مسألة المؤتمر بحد ذاتها تكاد تصبح مرحلة هامة من جميع الوجوه .. في حين كانت تشارلستون ، التاج الذي يكلل هامة الجنوب بفخر ، تشارلستون ، المدينة الجميلة الساحرة كموطن من مواطن الجن ، تشارلستون هذه ، كانت تتمدد منهوكة القوى .. لقد مزقت الحرب احشاءها ، واصبح من العسير ان تجد اسرة بيضاء من تلك البيوتات الكبيرة العريقة لم تشعر باقتراب اجلها ، وانهيارها الاقتصادي . ان الثروات الضخمة التي شيدت هذه الابنية البيضاء الجميلة ، التي لا مثيل لها في اي مكان آخر في اميركا ، كان مصدرها الوحيد منكبي العبد الاسود العريضين . وما كان عمل العبيد المصدر الوحيد لهذه الثروات بل ان العبيد انفسهم كانوا سلعة يتكون منها اهم راسمال يملكه الجنوب .. لقد كانوا

آلات بدائية تشرى وتباع وتربىّ كذلك . وفي خضم هذا النسل الذي لا ينقطع من الزنوج الارقاء كانت ترسو الصخرة التي شيد الجنوب عليها اقتصاده . وجاءت الحرب المهلكة .. فقيضت نظام الجنوب المالي ، وحوصرت موانئه ، وكانت تشارلستون احدى هذه الموانىء . وارسلت الجيوش تكر وتفر عبر اراضيه طوال اربع سنوات ... وتحرر العبيد .. حررتهم الوثيقة التي وقعها الرجل الشيخ العظيم في البيت الابيض . وكانت حرية فرضت على الجنوب بالقوة ... بمدافع جيش الاتحاد .. وعند انتهاء الحرب ، وقف الجنوب صامتاً .. مذهولاً .. مريضاً ... لقد حمل مئتا الف من الزنوج السلاح ، وارتدوا بزات الشماليين وحاربوا من اجل حريتهم حرباً عنيفة ضارية .. وانحلت جيوش الجنوب وجلس قادتها منهكين ، يائسين ، ينظرون بدهشة الى هذا الانحلال وكأنه بيت من السكر انهار فجأة بعد ان اشبع الجو من حوله ببخار الماء . وملوك الزراعة ، الرجال المسؤولون عن الحرب ، اولئك الذين اوجدوها ، ووضعوا تصميمها وهندستها تجار الحروب الذين غمسوا الايدي حتى المرافق بالدماء كي يكتبوا الحياة لممالكهم ممالك القطن والارز والسكر والتبغ ... وقفوا يشاهدون المستحيل يصبح امراً واقعاً ... لقد

تحرر العبيد .. وانتزعت من الاسياد الملايين العديدة من الدولارات بين ليلة وضحاها ... وتبدد هذا الرأسمال الضخم وذاب في الهواء كأنه لم يكن .

قد يكون هذا الحادث هو الأول من نوعه في تاريخ الانسانية . طبقة بكاملها جردت بسرعة من ثروتها وممتلكاتها . لقد كان السكوت اول رد فعل لهؤلاء المزارعين ، سكوت ممض مرعب ، كانوا يفكرون اثناءه بالدمار الذي حل بهم . انهم لا يتجرّؤون على العصيان لأنهم لا يملكون الوسائل لذلك ، وهم يستطيعون التفكير بتنظيم حياتهم الجديدة هذه فانه لم يسبق لهم مطلقاً ان تخيّلوا مستقبلاً خالياً من الرقيق . هذه الثروة من العبيد كانت ضماناً للمبالغ الهائلة التي كان يستدينها بعضهم . وهكذا عندما زالت العبودية زالت معها ممالكهم .. وهذه المزارع الكبيرة اضحت مهجورة خاوية على عروشها الا من بعض الزنوج الذين لم يبرحوها لا لشيء ... سوى انه لم يكن هنالك من مكان يذهبون اليه ، فظلوا يعملون في هذه المزارع كلٌّ وحده ولنفسه وبيعت مزارع اخرى بعد ان طرحت بالمزاد العلني لتسديد الديون ودفع الضرائب ، واضمحلت زراعة القطن واختفت من مناطق كثيرة وتمددت الحقول مترامية الأطراف متروكة ...

وافاق المزارعون من صدمتهم الاولى ، وفكروا بانه يجب الا يدعوا العوبة التحرير هذه تمثل امامهم ، فالزنجي لا يزال زنجياً ، ويجب ان يبقى عبداً ان هذه البداية يجب ان تكون النهاية ايضاً : وان حاجات الجنوب العملية تختلف عما هي عليه في واشنطن ... وبسرعة جنونية ابتدؤوا بوضع مجموعة من القوانين ، تلك القوانين التي دعوها »الانظمة السوداء« وعادت بالزنجي الى الوضع الذي كان عليه قبل الحرب تماماً . لقد كان الامر سهلاً في بادىء الامر ، فهنالك ، في البيت الابيض ، كان الرئيس عميلا لهم ، يؤيد اعمال الارهاب التي كانوا يقومون بها بكل ما اوتي من قوة ... اما هم .. فقد كانوا يحتقرون هذا الرجل ويستغلونه في الوقت نفسه .. كان احدهم يلتفت للآخر والابتسامة تعلو شفتيه ويقول : « ان جونسون التنيسي مفيد .. ! وهكذا عاد المزارعون يحلمون بالمستقبل . المستقبل الذي تراءى لهم كما عهدوه سابقاً ، واربعة ملايين من الظهور ، ظهور العبيد القوية البائسة تنوء بحمله .

وانهار البيت الكرتوني الذي حلموا به ، لقد هب الكونغرس الغضبان الثائر الذي حارب افظع حرب عرفها الجنس البشري واتخذ قراراً : ان الدماء التي اهرقت يجب الا تذهب

عبثاً . وفي غمرة الغضب الجامح ، ارغم الرئيس على ارسال قوات سحقت الارهاب في الجنوب ، وقضى بصورة شرعية على الولايات العاصية واقيمت مناطق عسكرية فيها ، ودعي جميع افراد الشعب لانتخاب نواب لمؤتمر كل ولاية تنبثق عنه جمعيات تأسيسية تضع الدساتير وتخلق ديموقراطية حديثة في مناطق الجنوب ، يقف بوجهها الاسود والابيض جنباً الى جنب مشتركين معاً في بناء صرح حياة جديدة .

ثمة حقيقة ثانية صدمت كبار المزارعين في كارولينا الجنوبية اثناء الانتخابات ذلك ان عدد السكان الزنوج يزيد عن عدد البيض ، فلم يكن امام اولئك المزارعين والحالة هذه الا ان يقاطعوا الانتخابات . تلك كانت الطريقة الوحيدة التي لا سبيل لهم غيرها للتعبير عن استيائهم . انهم سيدعون الزنوج الاميين ، والبيض الجهلة القذرين ينفردون بالتصويت ، وستقوّض النتيجة هذا المؤتمر المزعوم . وجاءت النتيجة كما كانوا ينتظرون ، ونال الزنوج اكثرية ساحقة في المجلس ، الا ان النتيجة اختلفت من وجهة اخرى ، وبدلا من ان يروا امامهم « سيركا » بدأ المؤتمر الملون يعمل بخطوات ثابتة اكيدة ولكن ببطء وصعوبة ، قائماً بدوره كمجلس تأسيسي ، وكان الدستور في طريقه الى الظهور .

ابان هذه الاحداث التي كانت تجري في مؤتمر تشارلستون ، كان الارستقراطيون البيض يغلقون ابوابهم ونوافذهم وينتظرون . ان حراب الشماليين المنتشرة في الشوارع جعلتهم عديمي النشاط آنئذ ، لم يكن لتلك اللحظة ماض ولا مستقبل ، وفي تلك الهوة التي حُفرت في مجرى التاريخ كأن شيئاً ما على وشك ان يحدث ، في هذه الهوة كان كاردوزو يقيم في بيته حفلة عشاء ، وفي هذه الحفلة كان جديون جاكسون يرتدي بزته السوداء الجديدة ، والمزارعون ينتظرون الاحداث .

ان اغرب ما حدث في حفلة العشاء هذه ، ان هذه الحفلة ذاتها ، قد ادت الى حفلة عشاء اخرى كبيرة ، كان جديون ضيف الشرف فيها . فقد كان النائب استيفان هولمز وهو من ملاكي العبيد السابقين احد المدعوين الى بيت كاردوزو في تلك الليلة . وحسب مدلول الكلمة الفني كان هولمز من « السكالواغ » وهو الاسم الذي كان يطلق حينئذ على الجنوبيين الذين تعاونوا مع الشماليين والزنوج . الا ان هولمز هذا لم يكن في الواقع واحدا منهم . والسكالواغ أولئك كانوا اناساً بيضاً معدمين ، اما هولمز فقد كان ولا زال رجلا ثريا . لقد كان النائب الوحيد الذي خالف القاعدة المألوفة بان يجلس كبار المزارعين في

المقاعد الخلفية دون ان يقحموا انفسهم في هذه الثورة التي لا يمكن للعقل تصديقها ، وقد انتخب للمؤتمر باصوات عبيده السابقين ، وكان يجلس في المؤتمر متفرجاً ، يراقب كل شيء ويستمع ، فلا يقول شيئا وكان كثير التأدب مع السود والبيض على السواء فاصبح والحالة هذه لغزا قرر كاردوزو ان يكتشفه .

لم تكن الدلائل الخارجية تشير الى اسرار يخفيها الرجل .. فهو الرجل الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من اسرة كارولينية العريقة ، وقد مات ابنه واخوه في الحرب . وكان هولمز ماجورا في الجيش وحارب مع لي وجاكسون دون ان يحصل على شهرة أو ان يتميز بشيء خاص ، ومن المعروف عنه انه لم يكن يوافق على الحرب ، فهو منذ البداية يعتقد بان مسألة الانفصال كانت قضية يائسة سخيفة ، وكان يملك مزرعة على ضفة نهر (كونغري) لا تبعد كثيراً عن كولومبيا . وهو الآن يعيش مع والدته في تشارلستون ، وكان من البديهي انه قد فقد المزرعة بسبب الديون والضرائب ، الا انه على كل حال لم يكن ليتعرض لها بذكر ابدا .

وكان استيفان هولمز جميل الطلعة ، شاحب اللون ، يوحي منظره بانه خجول ، وقد تركت اضطرابات معدته لونا اصفر على

بشرته ، اسود الشعر مستطيل الوجه ، يملاء رأسه شعر غزير ، وكان متوسط الطول ، رشيق الحركات ، هادئا في كلامه يشعر من يراه حالا بانه سيد محترم ، وقد اثار كاردوزو اهتمامه ، فتكلم معه في موضوع التعليم والارض ، عدة مرات وعندما دعاه هذا الاخير الى العشاء قبل الدعوة بسرور .

ان هذه الدعوة ، ثم قبول هولمز لها خلقا لكاردوزو بعض المتاعب . فعندما يتناول البيض الطعام مع الزنوج في مدينة تشارلستون ، تقوم الدنيا وتقعد وترتجف .. وقد سيطر هذا الشعور على كاردوزو عندما قدم جديون جاكسون ، العبد السابق ، الى ستيفان هولمز ملاك العبيد السابق . وقال هولمز : ــ لي الشرف بمعرفتك ايها السيد جاكسون .

نطق هولمز بهذه الكلمات ، بهدوء ، وهو بادي السرور ، وكأن عمله هذا شيء عادي يقوم به في كل يوم . لقد كان جديون من طينة تدعو الى الاعجاب ، وهو بلباسه الحسن التفصيل ، ببروز صدره الواسع ، بمنكبيه العريضين تحت بزته السوداء ... كان يرتدي قميصاً ابيض ، وربطة عنق رفيعة .. اما شعره الذي كان كثاً غزيراً ، فقد قُصّ حتى غدا قصيراً ، وذقنه

حُلقت بنظافة ، وتقاطيع وجهه كانت كبيرة ممتلئة لحماً ، رغم انها اصبحت انحل مما كانت عليه سابقاً ..

واعاد جديون الى هولمز ، بمنظره القوي الانيق هذا ، ذكرى سوق الرقيق ، وتأمل هولمز ، ان رجلاً كهذا في المزاد العلني كان لابد ان يخلق ثورة في السوق بسعره المتزايد بشكل جنوني ، والنخاس الى جانبه يصرح بكل ما اوتي من قوة : « ايها السادة الاعزاء ... ايها الاصدقاء ... يامن تميزون بين النوع الجيد والسيء وتقدرون ... عندنا وليد اصيل ، نصفه ثور والنصف الآخر حصان ... هو ذا امامكم .. لم يسبق لكم ان رأيتم له مثيلاً ... » .

واجاب جديون :

ـــ انني سعيد بمعرفتك ياسيدي

وكان الدكتور راندولف رابع المدعوين الى العشاء ، رجلاً صغير الجثة سريع الكلام ، اسمر اللون ، وهو نائب في المؤتمر . وكان راندولف يبدو اكثر اضطراباً من جديون امام هولمز ، فيتلعثم وهو يقذف كلماته . وجرّبت السيدة كاردوزو ، المرأة الوحيدة التي تجلس معهم الى المائدة ، جرّبت ان تخفف من حدة

اضطراب الآخرين ، وكان هولمز يتبادل معها هذه المهمة . وتساءل جديون في نفسه ما الانسان ؟ ...

انها المرة الاولى التي يصافح بها رجلاً من طبقة هولمز ، ويخاطب واحدا منها كما يخاطب الرجل ندا له ، وهي ايضاً المرة الاولى التي يجلس فيها الى مائدة ليتناول طعامه مع رجل من تلك الطبقة . من الواضح ان كاردوزو كان يختلف عنهم بشعوره غير أن راندولف كان مرتعباً خائفاً .. ونظر جديون الى المائدة التي تقوم وراء مضيفته ، حيث وضعت قطعة من الكعك المنتفخ تحت آنية من البلور ، والى الجدران المزدانة بالورق الملصوق عليها ، وفكر .. ان كاردوزو يعرف العالم ..

اما هو ... فقد شعر بحذره عندما تكلم مع هولمز قائلاً :

ــ ان ، التعليم ، ياسيدي ضرورة اولية .

وسأل هولمز وهو يجرب ان يكون حياديا في حديثه ، يسأل فقط دون ان يعرض وجهة نظره ، وكان انسحابه المتواصل طريقة لها اثرها في مداعبة مستمعيه :

ضرورة .. ؟ .

ــ اذا استعرضنا الوقائع بكل بساطة نجد ان اربعة ملايين

من الزنوج كلهم اميون ، وبالامكان ان نرجو منهم خيراً .. بالامكان ان نستفيد من اربعة ملايين عبدا قد اصبحوا احراراً .

وصرّح هولمز :

ان هذه الطريقة للنظر في الامور غريبة ، بماذا تفكر ايها السيد جاكسون ؟ .

ـــ انا اعتقد ان العلم بارودة ... بندقية

ـــ بندقية ... ؟

وقطب كاردوزو حاجبيه ، وبدأ راندولف يلعب بالشوكة بينما قال هولمز وهو يبتسم :

ـــ تفضل تابع حديثك ..

وجرّب جديون ان يتوصل الى « السيرغور هولمز » وان يعرف ماذا يخبىء وراء ابتسامته وقد تمكن من ذلك تقريباً ... فهنالك وراء الابتسامة ، محاولة للمحافظة على التوازن بينه وبين هولمز .. التوازن الذي يعود للتغيرات الكيفية الطارئة ، والى تفاعل القوى وتكافئها ... وفجأة توقف عن محاولة فهم ستيفان هولمز ، فهو لن يتوصل مطلقاً الى فهم هذا الرجل تماما وتابع قوله :

ـــ قد يشبه البندقية ، وقد يكون افضل منها .. لنأخذ رجلاً يحمل بارودة اذا اردت استعباده وجب عليك ان تأخذ

سلاحه اولاً . فلا يجوز ان تدعه مسلحاً ، اذ قد يقتلك بهذا السلاح وقد لا يقتلك غير انه لا بد لك من تجريده من البندقية اولا ...

ــ ولماذا ؟ ..

ــ أليس الامر واضحاً ؟ .. أجاب جديون بهدوء ...

ــ كلا .. ليس الامر واضحاً .

وبحث جديون في ذاكرته عن الكلمات التي يجب ان يستعملها ، وقاوم افكاره وتابع حديثه ويداه تمسكان طرف المائدة بشدة :

ــ الرجل الذي لا يحمل بندقية قد يكون عبداً وقد لا يكون ، وان كونه عبداً او حراً يتوقف على اشياء كثيرة . اذا كان لدى الرجل سلاحه .. بندقيته .. فلا يمكن ان يكون عبداً لسبب واحد :

بارودته .. فلكي نجعله كالناس الآخرين يجب ان ننتزعها منه . اما العلم ، فشيء لا يمكن انتزاعه من الرجل .. واعتقد بان الانسان المثقف جيداً لا يمكننا ان نجعل منه عبداً حقيقياً .. وهكذا نجد ان العلم يشبه البندقية من ناحية ومن ناحية اخرى يُفضل عليها ...

وقال كاردوزو مبتسماً :

ـــ انا لا اضع العلم من حيث التشبيه بالمنزلة التي وضعته فيها تماماً .

ـــ وقال هولمز بكل بساطة :

ـــ طبعاً انت لا تفكر بالامر بهذه الطريقة تماماً ، ومع ذلك فان تحليل السيد جاكسون مفيد جداً ، فهو ينظر الى التعليم من ناحيتين : الحرية مقابل الاستعباد . واعتقد ان هذا واضح . ثم اردف : لقد كنت رقيقاً أليس كذلك ايها السيد جاكسون ؟

ـــ نعم كنت رقيقا .

ـــ غير ان العبودية ألغيت ..

ـــ وهز جديون رأسه ببطء . وسأل هولمز بلطف ..

ـــ إلا انك تفكر بانها قد تعود ..

ـــ نعم قد تعود ..

وبينما كان جديون يتلفظ بهذه الكلمات الاخيرة ، وقع بصره على السيدة كاردوزو فلمح في عينيها رعباً حيوانياً مخيفاً .

وانتهى العشاء باكراً . غير ان انه قد ادى الى شيء آخر ،

فبعد اسبوع ، عند الخروج من المؤتمر ، اوقف هولمز جديون وقال له :

ــ انني دعوت بعض الاصدقاء الى داري ، فهلا تفضلت بالحضور ايها السيد ــ جاكسون ؟ .

وتردد جديون .. واعقب هولمز :

ــ وبالاضافة الى ذلك اذا اردنا ان نعمل معا .. فانني اريدك ان تحضر .. أؤكد لك ذلك .

ووافق جديون على الحضور ..

وبدأ المؤتمر يعمل بتقدم ، وببطء وتؤدة . وظهرت الامور الصغيرة ثم تلتها الامور الكبيرة ، وكان الاتفاق يتم حول الامور الصغيرة ، فوضعت مادة بالغاء المبارزة ، والغي السجن الذي يكون نتيجة الديون ، باكثرية ساحقة . وقد اظهر النواب نشاطاً غريباً في وضع التشريع نتيجة بساطة الاكثرية التي لم تكن بينها حزازت واحقاد ، كانت معرفتهم تقوم على العادات والاخلاق ، واصبح الامر الصعب الحل واضحاً ، وكثيراً ماكان الامر الواضح يظهر مستحيلاً . وهكذا عندما بحث هؤلاء الرجال العلاقة بين الرجال والنساء في المجتمع انهار الجدار الذي كان قائماً منذ اجيال عديدة . وقال نائب ابيض .

ــ لقد حاربت الشماليين مدة اربع سنوات . وزوجتي هي التي دبّرت المنزل ، وقامت بجميع الاعمال ، اطعمت الاطفال ، والبستهم ، حرثت الارض ، وبذرتها ، وحصدتها .. والآن ، اريد ان اسأل هؤلاء السادة : هل يريدون ان يسمحوا لي بحق الانتخاب ويحرموا منه زوجتي .

وتقدم جديون الى الامام وقال :

لقد تزوجت في عهد العبودية ، وكان زواجنا سراً لان سيدنا لم يكن ليوافق على زواج العبيد .

كنا في نظره حيوانين متساويين بالحقوق ، متساويين بالعمل الذي يُطلب منا القيام به ، متساويين عندما اغمي علينا كلانا في حقول القطن . لا شك اننا نلنا نصيبا متساوياً من الآلام ، ولهذا فانا اقول هنا في هذا المؤتمر : ان زوجتي مساوية لي .

واصبح قانون تساوي الحقوق بكافة انواعها قريب المنال ، اقرب من اي وقت مضى في تاريخ الانسان . ولكنهم لم يسنوا هذا القانون مخافة ان يكونوا قد تجاوزوا الحقوق الممنوحة لهم من الكونغرس في واشنطن ، ومع ذلك فقد كان من نتيجة مباحثاتهم ومناقشاتهم ان ظهر اول قانون للطلاق في كارولينا الجنوبية . قانون

معتدل بسيط ، الا انه اثار ثائرة الصحافة في الجنوب ، فانطلقت تولول وتصرخ متذرعة بان المتوحشين السود يريدون جعل البلاد موطناً للاخلال بالشرف والخروج عن المألوف من حسن سمعتها ، وظهر تشريع آخر يقول :

لا يجوز بيع ما تملكه الزوجة لايفاء ديون الزوج ، وهو شيء جديد آخر في كارولينا الجنوبية ، ونتج ايضاً من المناقشات الطويلة ، بحث مكتمل لقضية تساوي الحقوق وقد دفع هذا البحث جديون الى قراءة دستور الولايات المتحدة واعادة قراءته ثانية حتى اوشك ان يستظهره . ووقف مع غيره جنبا الى جنب مناضلين من اجل المساواة المطلقة بين الاسود والابيض في الانتخابات ولمنع التمييز العنصري بالقوة وقد كتب للمشروع النجاح .

واقبل شهر آذار ، وبدت طلائع الربيع على الارض ، وكانت سماء تشارلستون اشد زرقة من اي مكان آخر في الكون ، وفوق الخليج كانت طيور البحر تنقض وترتفع ورذاذ المطر يتساقط بهدوء تارة كالضباب الخفيف وينقطع اخرى فتزداد السماء صفاء ، وطلب نائب في المؤتمر ان يطلق على هذه السنة اسم « عام المجد » غير ان اقتراحه هذا قُوبل بالضحك ورُفض ،

الا انّ الجميع ، كانوا يعلمون بان هذا العام يختلف عن اي عام آخر . وكتب مراسل في صحيفة نيويورك هيرالد : « هنا في تشارلستون تجري اكبر تجربة في تاريخ الانسانية ، تجربة يصعب تصديقها الا انها مليئة بالآمال .. » .

* * *

واعتدى ثلاثة من الجنود السابقين على نائب زنجي هرم يدعى تشارلز كافور ، غير ان الانفجار الذي كان يهدد تشارلستون لم يبدأ بعد .. هاهي اشجار النخيل تنعكس اخيلتها على صفحة الماء فتترك عليها لوناً اخضراً جميلاً ، وجديون واقف يتنشق هواء البحر ويرقب السفن التي تجتاز الخليج ناشرة اشرعتها البيض .. لقد سبق لجديون ان قرأ بكتاب اسمه « اوراق الاعشاب » .

ايها الارض يبدو أنك تنظرين الى شيء في يديّ

وانت ايها الرأس .. ماذا تريد ؟ ..

وتردد صدى الكلمات الاخيرة في رأسه « ماذا تريد ؟ » .. انه يريد العالم باجمعه .. وهاهو العالم امامه ، وعمال

المرفأ ، يغنون وهم دائبون في العمل .. كانوا يدركون ان هذا العام هو عام « هللوليا » عام المجد . لم يعد جديون وحيداً الآن في دراسته ، فقد انضم اليه ثمانية من النواب ، كانوا جميعهم يشكلون صفا واحدا يجتمع في بيت كاردوزو لدراسة التاريخ الاميركي والاقتصاد وكان بينهم ابيضان وفي احد الايام ، بعد انفضاض جلسة المؤتمر ، تصدّى اندرسون كلاي لجديون وقال له :

ـــ انتظر لحظة يا جديون .

وتوقّف جديون لحظة ثم تابعا مسيرهما معا . كان كلاي اطول قامة من جديون وشعره الاشقر الطويل مسبل يلمع كأنه النحاس في ضوء الشمس .

وقال كلاي بجفاء :

ـــ ان ما افكر فيه في هذه الأيام هو انك ستعمل معنا ولا ينتظر ان تنحاز ضدنا .

ـــ وماذا تريد ان تقول ؟ ..

ـــ لقد تحمّلت الاحتقار في هذه الاسابيع الاخيرة ، وانا اعيش في مكان مملوء بالزنوج اكثر مما اصابني في اي وقت مضى من حياتي . وفكرت بادىء ذي بدء بانه من الافضل ان اعود

الى بيتي على ان اقيم بين قوم من الزنوج واخلق بسبب ذلك كثيرا من الاضطرابات والمشاكل .

واجاب جديون بهدوء :

ــ لا يجوز لك ان تشعر هذا الشعور .

. ــ حسنا .. لقد بدأت اشعر ، انه من الممكن ان يتعايش الابيض والاسود معا ــ ترى هل يمكن ان ابحث معك هذا الموضوع ؟

وأجاب جديون :

ــ نعم انني اريد ان اتكلم في هذا الموضوع .

وسارا جنبا الى جنب وقد ران عليهما سكوت غريب ، في شوارع تشارلستون الضيقة ، وبين الجدران البيضاء التي تقسم العالم الى قسمين ، سارا تحت اشعة الشمس الغنية دون ان يتمكن احدهما ان يتخطى الحاجز المرتفع الذي كان يفصل بينهما . واخيراً قال كلاي :

ــ ماذا تنتظر ان تفعل عندما يظهر العالم الجديد ؟ أتبني جزءا منه أم تهدمه ؟ اما انا فاني لا احب من يفكرون بهدمه .

ان جديون ينام قليلاً في هذه الايام ، ويشعر بانه اصبح قريبا الى كاردوزو اكثر منه في اي وقت مضى ، فهو يعمل واياه

في لجنة التعليم ، ولم يسلم بالامر الواقع بسهولة ويدرك ان الزنجي الذكي انما يستغله ويستعمله كجدار مرجع للصدى ، فالاول انضجته الثقافة والآخر بدأ يتذوقها فأسكرته . وتعاونا معاً وعملا جنباً الى جنب لغاية واحدة تضم بين حناياها الاساس الذي يبني عليه الدستور :

التعليم الاجباري العام . وقد كان لهما مؤيدون ومعارضون ، وكان هنالك آخرون يقولون :

ـــ اقبلوا بحل وسط ، فليس بامكانكم أن تفرضوا التعليم على شعب كامل من الاميين .

ـــ ولماذا ؟

ـــ لانهم لا يتمكنون من تحمل ذلك .

ـــ اذن نضع بذلك قانونا .

ـــ اذا اصبح جميع الناس مثقفين ومحامين ، فمن اين سنجد عمالا وفلاحين للحقول ؟

ـــ ليس من الضروري ان يكون جميع الناس محامين ، حتى ولا في ولاية نيوانكلند حيث نسبة المتعلمين عالية جدا .. بامكان المتعلم ان يعمل في الارض كما يعمل الامي فيها .

ـــ ان البيض لا يذهبون الى المدرسة مع الزنوج .

ـــ اذن نبني مدارس خاصة لمن يريدها .. ومهما يكن ، يجب على الاطفال جميعاً ، سوداً كانوا ام بيضاً ، ان يذهبوا الى المدرسة .

ـــ ان هذا جنون ، فما سبق للبلاد ان عرفت قانونا كهذا

ـــ ما علينا الا ان نبدأ .. يجب ان يُنفذ هذا القانون يوما ما وبمكان ما .

ـــ وهل بامكان زنوج كارولينا ، القيام بما عجز عنه اذكى اقوام الارض ؟

ـــ بامكاننا ان نحاول ذلك .

واخيراً تقدمت اللجنة بمشروعها الى المؤتمر ، واحتدم النقاش ساعات طوال ووجد جديون ان لهم مؤيدين حتى بين من لم يكن من المنتظر ان يقفوا الى جانبهم ، كان من هؤلاء نواب بيض من الجنوب ، ونواب آخرون من البيض البؤساء الذين كانت الصحف تهاجمهم بشدة اكثر من مهاجمتها للزنوج انهم البيض الذين يؤيدون الشمال ، رجال طوال القامة ، ناحلون ، شقر الشعر ، انتخبهم سكان المستنقعات والغابات البؤساء .. وهم لذلك محتقرون من قبل الجنوبين والصحافة ... ووقف اندرسون كلاي وصرخ قائلا :

ياللشيطان !! . نعم ! اذا كان سبيل الخلاص هو المدارس . حيث يجلس البيض والسود معا ، فأني بكل تأكيد ؛ اصوت لصالح المدارس . اذا كنت انا اجلس هنا في المؤتمر ، جنباً الى جنب مع الزنوج ، فبامكان ابني ولا شك ان يجاور الطفل الزنجي في المدرسة .

ودافع كليربون من اهالي « بي دي سوامب » عن وجهة نظره قائلا :

ــ لقد قاتلت في الحرب ، وقضيت ثلاث سنوات قبل ان ألم الماما بسيطا بالقراءة التي تسمح لي بمطالعة صحيفة او كتاب . وقد استشهد لي اخوان . لماذا ؟ .. للاشتراك في حرب يبقى بعدها بعض ملاكي العبيد القذرين بالحكم ، اننا لم نكن نعلم ان هذا هو المآل . اقسم بالله لم نكن لنعلم ذلك .. انني اقول : انشروا التعليم .. فليتعلم الجميع ولتذهب جميع النتائج المترتبة على ذلك الى الشيطان . نحن ممثلو الشعب في هذه الولاية نجلس هنا ، نقضم اظافرنا ، وجلين خائفين من نتائج كل كلمة نقولها .. » .

وتكلم جديون باختصار :

وان كنت لا اعرف الا قليلا من التاريخ ، غير ان هذا

القليل الذي اعلمه ، يؤكد لي ان الانسان لا يبقى حراً ان هو لم يناضل من اجل حريته ، بصورة متواصلة ، وهنالك سلاح قوي يخدم الحرية .. انه التعليم . وانا اقول : لابد لنا من ان نُسلح انفسنا .. وفي اليوم التالي تطرّق كاردوزو الى الموضوع نفسه فقال :

ــ لقد احتدم النقاش البارحة ، واشار بعضهم الى انه يجب علينا ان نعمل ما بوسعنا لادخال كل ما من شأنه ان يرضي من يعارضنا بمواد الدستور . واعتقد انه ما من احد على استعداد للتساهل مثلي، الا انه علينا ان نحترس مما نقوم به في سبيل ارضائهم فهنالك اولا فئة تعارضنا مهما فعلنا وسوف لن نتمكن من ارضاء هذه الفئة اطلاقاً . ان هذه الفئة لا تعارض الدستور الذي نضع مواده فحسب ، بل انها تعارض وجودنا في المؤتمر . ان هذه المعارضة تعود لاسباب مبدئية لا يجدي معها اي تساهل او إرضاء في وضع الدستور . ثم هنالك فئة تنصح بان نضع دستورا يرضي اعداءنا ، وتَعِد هذه الفئة ان تكون الى جانبنا ان فعلنا ذلك . وهنالك فئة ثالثة تتساءل بكل اخلاص . ان كان بامكاننا ان نضع الدستور . انني احترم هذه الفئة الاخيرة ، واعتقد انه اذا اردنا ان نكون عادلين معها ، فوضعنا

دستورنا على اساس قيام حكومة جمهورية قوية الدعائم ذات مبادىء تحريرية نزيهة ، فان ذكاء هذه الفئة سيدفعها دون شك الى صفوفنا . وقبل ان انتقل الآن لبحث مسألة التعليم اريد ان اجرد القضية من كل ما عُلق بها من تأويلات خاطئة لنتيجة قد تكون من نسج خيال بعض السادة الذين لم يدرسوا القضية درسا منطقيا كافيا اني اعتقد ان هذه النتيجة ستكون الاقرار بهذه المادة التي تدعو الى التعليم « الاجباري » رُبَّ معتقِد ان هذه المادة تنص على ارغام الطلاب البيض والسود على الحضور الى مدرسة واحدة . الا ان هذه المادة لا تحتوي شيئاً من هذا القبيل ، انها تقول بكل بساطة بان جميع الاطفال يجب ان يتعلموا .. اما طريقة التعليم فهي متروكة للآباء ... للآباء حرية الخيار بارسال ابنائهم الى مدرسة خاصة او مدرسة عامة . قد تكون هنالك مدارس خاصة للبيض فقط وغيرها للسود ، كما انه سيكون مدارس يقبل فيها البيض والسود على السواء ، وانا لا اشك بان الملونين سيفضلون مدارسهم الخاصة في اكثر المناطق ، على الاقل حتى يزول فيه بعض التمييز والاضطهاد لعنصرهم ...

ونظر جديون حوله في القاعة ، ولاحظ صفوف الوجوه الهادئة ، وجوه سود وبيض ، وجوه عديدة لم تجتمع بعددها الوفير

هذا منذ مدة طويلة ، منذ ان اجتمع الفلاحون والفنانون وقرروا القيام بالثورة .. وجوه كانت تهتز بشكل لا شعوري لكلمات كاردوزو . شعر جديون بالحرارة والقوة وبرباط متين من الاخوّة ، واحسَّ برغبة شديدة في أن يُسند رأسه على ذراعه ويبكي ، وفكَّر في اعماق نفسه« ان الزنجي اشبه بطفل تائه ، ليست له ارض ، حتى ولا حفنة تراب يمكن ان يقول عنها : انها ملكي ، الا انهم يخلقون ارضاً جديدة الآن » . وكان منبر الخطابة مغطّى بستار احمر وابيض وازرق ، ومن خلفه يتدّلى علمان كبيران لجمهوريات الاتحاد . كان جديون ينظر اليهما مشدوها عندما سمع راندولف يقول بصوته المرتجف :

ـــ « نحن الموقعين ادناه » شعب كارولينا الجنوبية ، المجتمعين في هذا المؤتمر ، نقرر بأن يستمرّ مكتب اللاجئين والمحررين الاراضي المهجورة في عمله الى ان تنتقل السلطة الى حكومة مدنية . ونقرر ان يؤسس مكتب لقضايا التعليم يهتم بأمور بناء مدارس كافية .

وكان الى جانب جديون زنجي شيخ يبكي وهو يهز رأسه مع ايقاع التصفيق الذي كان يدوي في الردهة . واسرع

الصحفيون بالخروج لكتابة قصصهم الغريبة كهذه التي ظهرت في صحيفة الاوبزر في اليوم التالي :

« قانون لا يمكن تصديقه يسنه السود المعتوهون »

لقد قام السيرك الذي يدعو نفسه المؤتمر يوم امس بوضع قانون ، ضاربا بذلك بكل التحفظات الحقوقية والقيم الاخلاقية عرض الحائط ، الامر الذي من شأنه ان يؤدي بهذه الولاية الى الافلاس والخراب التامين . فالاولاد السود والبيض من جميع الطبقات سَيُزَجُّوْن وكأنهم قطيع من الماشية في مدرسة واحدة . سَيُدَنَّسُ عفافُ البنات ولمّا يبلغن العشرين من العمر بعد ، وسيموت المواطنون الشرفاء جوعاً لارغامهم على دفع تكاليف باهظة لبناء مدارس جديدة ..

لقد تعوّد جديون على سماع اقوال كثيرة كهذه ، كما انه كان ينتظرها في حينها بعد انفضاض كل جلسة ، وينتظرها كلما سار المؤتمر خطوة جديدة في وضع الدستور او اصلاح الفساد الذي كان متأصلاً في النظام القضائي ، كأنتخاب القضاة بدلاً من تعيينهم ، او إلغاء التمييز العنصري ، او اطلاق حرية القول ، او بحث قضية ملكية الاراضي وتوزيعها . وكانت هذه الاخيرة يحيطها كثير من الشكوك . فالحكومة الاتحادية قد لا توافق ،

وربما هدمت ، نظام الزارع بأكمله ، ورغم ذلك فقد ناقش المؤتمر الموضوع .

ها قد مضى زمن طويل منذ ان اقام جديون في بيت كارتر ، زمن بعيد وكأنه الابدية . انه يجلس مع هذين العجوزين الى المائدة يرسم لهما دائماً خطوط المستقبل كما يتصوره .. وهكذا اصبح من دواعي سرورهما ان يتفاخرا امام اصدقائهما بان جديون جاكسون النائب يقيم معهما في البيت .

* * *

واخبر ستيفان هولمز أمه قائلا :

ــ غدا سيكون معنا على العشاء زنجي ياأُماه .

وفكَّرت هي بانه يعني خادماً فاجابت :

ــ طبعاً ياستيفان .

ــ لا اعتقد انكِ فهمتِ ما اقول ياأُماه ، اعني انه سيجلس معنا الى المائدة وسيتناول معنا طعام العشاء ، انه ضيف ..

ــ انا لا اريد ذلك يا ستيفان .. انك تقول اشياء ..

انني جادٌ فيما اقول يا أماه ، وارجو ان تُدركي ذلك . لقد دعوت زنجياً لتناول الطعام معنا ، وفوق ذلك ، سيكون ضيف الشرف . قال ذلك هولمز بينما جلست هي على الكرسي محدقة اليه ، في حين كان هو يسرح بنظره من فوق رأسها ، متطلعا الى قلعة صومتر التي لم تكن واضحة كما تبدو من خلال النافذة . وعندما لاحظته والدته ادركت للحال ان ابنها يعيش لنفسه هذه اللحظة ، وربما تمكنت من مناقشته لمدة وجيزة ، الا انه في النهاية لابد ان يسير على الطريق التي رسمها لنفسه . كان كامل القوى ، مثقفاً ومخيفاً في وقت واحد وهذا ما لا تستطيع فهمه ..

واذ ما تقوّل الناس بهذا او ذاك عنه فبأمكانها ان تدفع التقولات ــ وهذا ما تفعله دائما ــ اعجبهم ذلك ام لم يعجبهم .

كانت تقول لهم :

ــ قد لا تدركون ان عزيزي استيفان يعمل كذا وكذا ..

كانت مارتا هولمز تناهز الستين من العمر ، فهي تعبة انهكتها السنون ، الا انها على استعداد لان ترضخ للامر الواقع وتسلم بأن جزءا من العالم قد اختفى في النهر الكبير من الدماء

التي سالت وانه لابد لها من ان تتعلق بالجزء الذي بقي من العالم . وقد حاولت ان تتفهم استيفان عندما قال لها مرة :

ـــ انني سأدخل المؤتمر يا والداتي العزيزة ، لان الوسيلة الوحيدة لمكافحة هذا الشيء القبيح المرعب هو ان اتفهمه ، وخير سبيل الى ذلك هو ان اصبح جزءا منه . نعم لقد حاولت آنذاك ان تفهم غير انها منيت بالفشل ، وهاهي الآن لم تفهم كذلك عندما فاجأها استيفان بقوله :

ـــ ارى من الضروري ان يجلس معنا الى المائدة زنجي هذا المساء ، وارجو ان تثقي بانه عندما اقول من الضروري ، فان الضرورة الملحة هي بالفعل وراء ذلك .

ـــ ولكن ما السبب ؟ هل هنالك سبب على الارض يدعوك الى ذلك ؟

ـــ هنالك ، على الارض ، اسباب كثيرة ووجيهة ، وانني على استعداد لشرحها لك .

ـــ لكن ، يا استيفان ، لا يمكنني تحمل ذلك ..

ـــ الا انك ستتمكنين دون اي شك .

ـــ اذا اردت يا استيفان ان تجعل من نفسك رجلاً قذرا ، كرجال « السكالواغ » فيجب على الاقل ان تحترم شعوري .

ـــ انني اؤكد لكِ يا امي العزيزة بانه ليس هناك من أحترمُ شعوره اكثر منكِ .

ـــ وماذا سيقول الناس ؟

ـــ انهم لن يقولوا شيئاً ، وسيكون معنا الى مائدة الكولونيل فانتون وزوجته وسانتل ، وروبرت وجي دوير وكارويل وكانغريت وزوجته .

وهل يعلمون بان زنجيا سيجلس معهم الى المائدة ؟

ـــ انهم يعلمون ذلك .

ـــ وهل تسمح لي أن اسألك : من سيكون هذا الضيف الكريم ؟

ـــ انه عبد سابق من عبيد كارويل ، واسمه جديون جاكسون . .

* * *

واخيراً زأر الجدار الكبير الذي كان قائما وراء جديون ، جدار الطفولة والشباب والرجولة . جدار تختفي وراءه آلاف الذكريات المؤلمة . ذكرى هؤلاء الناس يوم كانوا ينظرون الى تربية

الزنوج كما ينظرون الى تربية الماشية واراد جديون ان يرفض الدعوة غير ان كاردوزو قال :

ـــ اذهب يا جديون ، من الضروري ان تذهب . ان هولمز قد دعاك لواحد من ثلاثة اسباب : قد يكون اولها انه يريد حقا ان يفهمنا ويتعاون معنا ، وهذا ما اشك فيه ، فهو رجل ذو دهاء على الرغم من انه كان ملاك عبيد سابقاً . والسبب الثاني قد يكون انه يريد ان يظهرك بمظهر المخبول فيضحك ويُضحك الآخرين منك ، وهذا ما اشك فيه ايضاً ، كما ان هولمز لا يمكن ان يكون صبيانياً لدرجة ان ينحدر بإرادته لمثل هذه الورطة . اما السبب الثالث الذي ارجحه على غيره فقد يكون ان هولمز يعتقد بان هنالك مؤامرة سرية يدبرها الزنوج ، وهو يود ان يكتشف بعض خطوطها الرئيسية وان يدرك ما يتم في الخفاء . فاذا كان هذا الاخير هو سبب الدعوة فليس لديك ما يجب اخفاؤه .

لم يكن لدى جديون ما يجب اخفاؤه غير مخاوفه ، جميع المخاوف القديمة التي ظهرت للوجود وكأنها إحساس مؤلم في معدته . بامكان المرء ان يفكر في اعماق نفسه بهذا او ذاك . لقد جاءت الحرية ، وبدأ الاسود والابيض يعملان معاً لخلق عالم

جديد . لقد تحطمت الاغلال القديمة البالية ، ولم تعد العبودية سوى ذكريات مؤلمة .

نعم بامكان المرء ان يفكر لنفسه بجميع هذه الاشياء غير ان المخاوف تحرقه وكأنها آثار سياط ملتهبة تكوي جلده .. المخاوف من الجَلد والفرار والبغض والتعذيب ، واناشيد الماضي الحزينة .. اتركوا شعبنا ، اتركوا شعبنا ينعم بالحرية .

وسار جديون ببطء بجانب الشاطىء الى ان بلغ البيت الابيض الشامخ مطلا بواجهته على الخليج . وقرع الجرس ، فبعث صوته الرجفة في بدنه وفتح له زنجي شيخ نظر اليه باستغراب بالرغم من انه قد نُبِّه لقدوم هذا الضيف من قبل وسار جديون في الممر ثم صعد السلم المؤدي الى الشرفة ، وتخاذلت ساقاه حتى كاد يقع دون ان تقوى على حمله ، ثم فُتح له الباب .. ودخل ..

هذه هي المرة الاولى التي يدخل بها جديون الى بيت بديع مضاء مملوء بالحياة كهذا .. عندما كان طفلا كان يخرج ويدخل من المطبخ واليه فحسب في بيت كارويل ، الا أنه لم يدخل قط الى الغرف عامة ، ومن ثَمَّ ، عندما اصبح رجلا دخل بيت كارويل ، ولكنه كان خاويا . وقد خيم عليه هدوء الموت . اما هذا البيت، بيت هولمز، فلم يكن خاويا، لا ولا يخيم عليه الموت..

وهاهو النور يشع من الاضواء الكبيرة والشمعدانات فيبهر بصره.. وتنتثر قطع الاثاث الناصعة البياض . المصنوعة باتقان وروعة حسب نموذج القرن السابق في الردهة ، بينما كان السلم يصعد متلويا لمسافة عالية يصعب تمييزها ، والى الجانب الاخر تفغر غرفة الاستقبال فاها كفم شيطان مرعب ، وشعر جديون بضعف وهزال ، ولم يطرأ على شعوره اي تحسن بالرغم من سلام هولمز وترحيبه الحارين قائلا :

ــ انني لسعيد جداً بقدومك يا جاكسون .

وهز جديون رأسه دون ان يتمكن من الاجابة . وأدخله هولمز الى غرفة الاستقبال التي كانت تلمع بالاضواء ، وبالرغم من حرارة المكان ، فقد داخل جديون شعور بان القوم انما صُنعوا وكأنهم تماثيل من الثلج الناصع البياض ، نساء بالبستهن الفضفاضة الفخمة ، ورجال ببزاتهم السوداء وقمصانهم البيضاء . وبدا الاثاث وكل شيء لامعاً براقاً تحت نور الثريا الكبيرة المضاءة ، لم يعد اثاث كاردوزو اذا ما قورن بالفضة والبلور هنا ، الا شيئاً هزيلاً كئيباً . وقدم هولمز المدعوين واحداً واحداً الى جديون ، الا ان احداً منهم لم ينهض ليصافحه ، وعندما وقف

جديون امام دودلي كارويل ، الذي كان فيما مضى سيده ، لم يبد الرجل الابيض اية اشارة تدل على معرفته السابقة به ، وكان هذا منتظراً ، اذ هل تعدى جديون كونه عاملا كادحا في الحقل يعمل بيديه ؟ عندما دخل جديون كان القوم منهمكين في حديثهم ، ولما انتهى هولمز من تقديمه لهم ، عادوا الى الحديث .

وابتسم هولمز وبادر جديون بقوله :

ــ أرجو الاّ تؤاخذهم يا جاكسون : فان الشيء الذي ندعوه آداب المجتمع يحتم احياناً على القوم الاّ ينهضوا مرحبين ، ماذا تريد ان تشرب ؟ .. وكان زنوج من الخدم يروحون ويجيئون في الغرفة وكأنهم اخيلة تتحرك ، والواقع ان كل شيء كان غامضا يرتجف امام ناظري جديون ، ولم يتمكن فيما بعد ان يكون في ذاكرته صورة واضحة عما صادف اذا ذاك « لا شيء » .. لا شيء مطلقا .. وهزّ رأسه اثر كلمات هولمز ... ثم عاد فجمد في مكانه وتقلصت عضلات جسمه حتى غدا وكأنه قد قُدّ من حجر عندما احس بالخدم وهم يحدجونه بنظراتهم . انه حيوان قد وقع في الشرك .. انه عبد فار أُلقي القبض عليه .. انه رجل رُبط الى عمود واشبع ضربا .. وأسوأ من كل ذلك ، وأكثر مرارة

ورعبا .. انه خائف .. وهذا الوقت ... الوقت القصير الذي سبق العشاء ، ظهر له وكأنه الابدية ..

لقد رأى فيما مضى كيف يتناول الناس طعامهم ، فقومه في المزرعة يأكلون بطريقتهم الخاصة ، واسرة كارتر لها طريقتها ايضا وكذلك اسرة كاردوزو فانها تتناول طعامها بطريقة أخرى ... الا انه لم ير احدا يتناول طعامه على هذه الطريقة . فهنا تتزاحم صحون الصيني والاواني الفضية بشكل مربك ، وصعُبت عليه طريقة استعمال الملعقة والشوكة كما يستعملونهما هم .. اذ كان يرتبك وتسقط من يديه بعض الاشياء ... كان ينتظر حركاتهم ليراقبها ويرى ويتعلم طريقتهم وهم شاعرون بانه يفعل ذلك . لماذا سمح لنفسه ـــ بالوقوع في الشرك ؟ لقد تصرف كمجنون بكل تأكيد ، وتراكضت افكاره متلاحقة وكأنها سنجاب في قفص . ماذا يبغي هولمز من وراء ذلك ؟ .. لماذا اراد هذا الشيء او ذاك ؟ . ماذا سيكسب هولمز من كل هذا ؟ .

ولمس جديون في نفسه انه يجيبهم بشكل آلي عندما يتكلمون معه ، وكان هولمز هو الذي يذكي الحديث كلما خمد إواره . ان هولمز يريد ان يتوصل الى شيء ما ، شيء لم يتمكن جديون من ان يدرك ماهيته ، وتملكه الغضب لرؤية مثل هؤلاء

الناس واستماعه اليهم ، تملكه الغضب لاول مرة في الستة والثلاثين عاماً من حياته . وصفا ذهن جديون الآن وبدأ يفكر ، انهم ينطقون الكلمات نفسها التي يتكلمها هو ، وهو يجيبهم بها ايضاً ، وان ما يقولونه لا يدل على كثير من الذكاء ، واجتاز بسرعة قرناً من تاريخ الحضارة ـــ وتوقف يتثبت من نفسه .. ان أندرسون كلاي ، ذلك الرجل الابيض الفقير ، ليتمكن من ان يفكر ببرود بالمستقبل خيراً الف مرة من تفكير هؤلاء الناس . أما هُم ، فقد ارادوا ان يهزؤوا منه ، الا ان صوته العميق الاجش كان يجيبهم بهدوء فلا يدع لهم مجالا لنيل بغيتهم . لم يكن بينهم من يعادله ويجاريه سوى هولمز . ولقد ارتسمت على شفتي هذا الاخير ابتسامة رقيقة عندما انبرى الكولونيل فانتون سائلا :

ـــ اعتقد يا جاكسون بانك تجد متعة في مهنة وضع القوانين ، ولا شك عندي انها تختلف اختلافاً بيناً عن الاشياء الاخرى .

ـــ انها اكثر ربحاً من جمع القطن ، فهم يدفعون لنا ثلاثة دولارات في اليوم .

ـــ وهذا اكثر مما يكسبه رجل شريف في هذه الايام .

ـــ وسألت جان دوبر النحيلة الشقراء ، وقطب زوجها حاجبيه عندما تكلمت :

ـــ وماذا يعمل الزنجي الاسود بهذه الكمية من المال ؟

واجاب جديون :

ـــ يصرف بعضها على الطعام والبعض الآخر على اللباس ، الا انه يصرفها على المشروب في اكثر الاحيان .

وظهر لهم جديون وهو على درجة كبيرة من البساطة ، ولم يدركوا تماماً ماذا يقصد من كل من رأوا او سمعوا خلال حفلتهم ، وقد كان موقفهم اشد صعوبة من موقف جديون ، ولاحظوا جميعاً ، ان هولمز يجد لذة في عمله هذا ، وقد علقت جان دوبر بقولها فيما بعد بأنها كادت تتقيأ وهي تراقب الزنجي الاسود اذ يأكل مستعملاً شوكته وكأنها رفش .

وقال الجنرال كنغريت :

انني اعتقد ياجاكسون بان الثقافة يجب ان نعتبرها سابقة ضرورية للاشتراك في التشريع .. الا تجد عملك صعبا في المؤتمر ؟

ـــ نعم .. انني اجد صعوبة كبرى . واردف الجنرال :

ـــ لا سيما وانك كنت قبل سنوات قلائل احد عبيد كارويل .. وابتسم جديون واجاب :

ـــ نعم لقد كنت كذلك .

واشار سانتل ، ذو الوجه المستطيل والعينين الصغيرتين ، الذي بلغ الخمسين من العمر ، اشار الى أن جديون قد بدأ يتفهم الحياة ، واجابه جديون بان هذا ما يعتقده هو ، وان العالم يتغير . فعلق بعضهم على ذلك بانه تغيّر وانتقال من سيء الى اسوأ.

وهز جديون رأسه وقال :

ـــ هذا يتوقف على الطريقة التي تنظر من خلالها الى العالم .

وسألت إحدى النسوة :

ـــ هل تحسن القراءة ؟

ـــ نعم لقد تعلمت قليلاً عندما كنت في الجيش .

وسأل الجنرال :

ـــ ماذا ؟ .. عندما كنت في الجيش ؟

ـــ لقد كنت مع جيش الشماليين عندما دخل تشارلستون .. هل تذكر اللواء الملون (لواء الزنوج) ؟

لقد اشعل الحديث الفتيل في الغرفة ، وهناك برميل من البارود متصل به . وبلع هولمز ريقه ، اما الجنرال واكثر الآخرين ، فقد جمدوا في امكنتهم ، وللمرة الثانية ، شبههم جديون بتماثيل من الثلج المتجمد ، وعاد حبل الذكريات الى مخيلته فاتصل . كل شيء للسيد الابيض .. لا شيء ابداً للعبد الاسود ، وادرك جديون ان هذه الحفلة لا يمكن ان تستمر على هذا الشكل ولابد ان يحدث الانفجار . واعتذرت السيدة هولمز فتركت المائدة ، وما عتم ان سمع صوت نشيجها في الغرفة الثانية ، وعاد هولمز الذي كان قد تبعها وقال :

ـــ ارجو ان تعذروا والدتي فهي مصابة بوعكة بسيطة ..

واعتصم الجنرال بصمت كئيب ، واراد فانتون ان يتحدى السكوت فسأل :

ان لك اسماً جميلاً يا جاكسون ، غير اني اعلم بان الزنوج انما يأخذون اسماء اسيادهم .

ـــ نعم ان البعض يأخذون اسماء اسيادهم . اما انا فقد عشت دون كنية الى ان رُفعت الى رتبة رقيب في الجيش . واخبرني الرئيس الشمالي قائلا : يجب ان تتخذ لك اسما يا جديون . من كان يملكك ؟

وتوقف جديون عن الحديث ونظر الى كارويل وهو يعلم انه لولا وجود السيدات في المكان لقتلوه دون شك ، ثم تابع حديثه :

ــ ان الرجل الذي تملكني كعبد رقيق لا اقبل أن أكنّى باسمه ابداً ، ما رأيك بجاكسون كنية لاسمي ؟

وما ان انهى جديون قصته هذه حتى وقف كارويل باعقا :

ــ اخرج من هنا ايها الاسود القذر ..

وعاد جديون الى البيت وهو يشعر انه منشرح القلب بشكل غريب فقد كانت تسيطر عليه اسرار غامضة الا انها الآن تبخرت وتلاشت ، وتلك المخاوف التي كانت تحيط به لم يكن لها أساس في الواقع ، وهذا العالم باجمعه يظل خضماً كبيراً من المجهول الى ان تتفحصه ، وإن الخليج المظلم الذي يبدو كأن الاشباح تتراقص فوقه اليوم ، سوف يصبح صفحة هادئة تسطع عليها الشمس في الغد .. لقد تحطمت الاغلال التي كانت تقيد شعبه ولم يعد لها من مكان تحت الشمس ، لا ولن يعاد صنعها بداً ..

ان حكم الاقلية للأكثرية هو اسوأ ما يمكن ان يتصوره الانسان الفاسد الذي ملأه الشر حتى غدا كقربة منتفخة مملوءة

بالماء .. وانه لمن الممكن ان يثقب ، وان يفرغ الشر منه . تماماً كما تثقب القربة ويفرغ الماء منها ، وبنفس الطريقة التي ملئت بها وانشد جديون بهدوء :

دعوا شعبي يتحرر واتركوه

ظلموه ، زادوا في الطغيان والظلم

وفي بيت هولمز ، انسحبت النسوة ، وبقي الرجال كل يدخن سيكاره . وقال الجنرال :

ــ ان هذا الرجل هولمز لا يمكننا ان نغفر له بتاتاً .

واعقبه سانتل بصوته الاجش القاسي :

ــ انك قلت بان هنالك اسباباً تدعوك للقيام بهذا العمل ، كما انك اكدّت يا استيفان بان هذه الاسباب كافية لأن نرضى بالجلوس جميعنا معاً الى المائدة مع زنجي اسود . انك لا تعدم اسبابك دائما ، وكنا نحن نجرب دائماً ان نكون على وفاق معك .

لقد كان تصرفك غريباً وشاذاً عندما دخلت الى المؤتمر متملقاً الزنوج ، لابل لاحساً مؤخراتهم لينتخبوك وكنت اذ ذاك تزعم ان لديك اسبابك .. وانني شخصياً اشعر بانني مريض اوشك على الموت بسبب اسبابك اللعينة هذه ..

واجاب هولمز بكل هدوء :

ــ ان السبب لايزال في مرحلته الاولى .. وقد رأيت منه مافيه الكفاية هذا المساء ، واسمحوا لي ان اقول لكم : ان هذا الزنجي قد سخر منكم جميعاً ...

وصرخ الجنرال :

ــ اعتقد بانك قد تماديت يا استيفان ..

وقال الكولونيل فانتون :

ــ اما انا فلا اوافقك ... فمهما فكرت فيما يقصده استيفان فهو مصيب من هذه الناحية .. ان الزنجي قد سخر منا حقاً ، وارجو ان نتقبّل ذلك ايها السادة .

ــ انني اطلب من استيفان ايضاحاً عن ذلك والا ..

وأجاب هولمز :

ــ انني استحلفك بالمسيح يادوبر ... هل تريد ان تطلبني للمبارزة ؟ .. هذا اكثر مما استطيع ان اتحمل . هل نحن اولاد ؟ اطفال ؟ معتوهون ؟ مجانين ؟ لقد دعوتكم عندي ايها السادة ، وكنت اعتقد انكم رجال ذوو اخلاق فاسمحوا لي ان اصحح هذه الاوهام ...

ــ هولمز .. ! ؟

ــ حسنا دعوني اقوم بوظيفة المتكلم الآن . لقد احضرت السيرك الى هنا هذا المساء ، ووضعتكم وجهاً لوجه مع هذا الزنجي . واحرجت موقفكم .. انني اوافقكم على هذا . كنت اخمّن ماذا سيتبع ذلك ، الا انني لم افكر مطلقاً بان معنوياتكم ستنهار على هذا الشكل بسبب وجود زنجي واحد يشارككم الجلوس الى المائدة . والآن دعوني احلل الوضع .

لقد رجوتكم أداء خدمة لي ولكم جميعاً بان نقضي امسية انس مع احد اعضاء المجلس التأسيسي . وقد اردتها ان تكون امسية انس لانني ظننت بانها ستكون الوسيلة الوحيدة التي استطيع بها ان اوضح لكم وجهة نظري التي لم اتمكن من ان اخبركم بها منذ البداية لانها لم تكن واضحة . هل ما اقوله واضح ؟ حسناً تحمّلوني برهة أُخرى .

اذن ما موقفكم ؟ اعني موقف الطبقة التي انتمي أنا اليها ؟ عندما واجهنا أوامر الحكومة الاتحادية بوجوب إعادة بناء الولاية رفضتم قبولها .. نعم .. جميع ابناء نوعنا في الجنوب . سكتوا وهم عابسون . ورفضوا ان يسجلوا انفسهم او ان يصوتوا . لقد قلتم عن الزنوج والبيض البؤساء انهم متوحشون وان هذا الشيء سينهار بين ليلة وضحاها . ولكن هل تعتقدون بذلك

حقاً ؟ وبعد ان قمتم بهذه الحرب اللعينة الدامية ، هل تحلمون بالسلطان ؟ هل تتبعتم تقدم المؤتمر ؟ ان تتبع الامور لا يعني ان نقرأ عنها في صحفنا السخيفة . وقاطعه دوبر بقوله :

ـــ الا يكفيك كل ما تفوهت به ...

غير ان الكولونيل فانتون قاطعة بصراخ وحشي قائلا :

ـــ إخرس يا دوبر ، تابع حديثك يا استيفان وبقي دوبر يتمتم وقد سيطر عليه غضب مرعب وهو ينقل نظره من وجه الى آخر ، وقضم هولمز باسنانه طرف سيكاره الجديد ، ثم قام الى الشمعة المضاءة الموضوعة على المائدة فأشعله منها ، ثم سكب لنفسه كأساً من البراندي وتابع حديثه :

ـــ والآن ايها السادة .. ما وضعنا الحالي ؟ اتذكرون عالمنا الجميل ، ذلك العالم الذي كنا نعيش فيه منذ ثمان سنوات خلت ؟ ان هذه السنوات الثمانية ليست بالامد البعيد ، لقد كان لي من العمر آنذاك ستة وعشرون عاما ، وها أنا الآن قد بلغت الرابعة والثلاثين ، غير أني لا ازال شابا اتذوق ملذات الحياة ، كما أني اعتقد أنكم جميعاً تشعرون بما اشعر به . إنني اذكر عالمنا جيدا واليوم ما وضعنا ؟ ان هنالك شيئاً مشتركا بيننا .. اننا ملاكو مزارع ، وقد كنا كذلك في الماضي . اننا الاساس او

الصخر الذي يرتكز عليه هذا الجنوب . كما انّ هنالك شيئاً اخر نشترك به جميعا .. اننا نواجه القدر المحتوم .. الفناء والدمار التامين .. لقد فقدت مزرعة كانت ملكاً لاسرتنا مدة مئة وثلاثين عاماً . ودوبر فقد مزرعته كذلك .. وها هو كارويل .. ديون وضرائب .. اما الآخرون فهم يتمسكون بما تبقّى لديهم عندما خضنا هذه الحرب التي لا معنى لها ، تنبأت بنتيجتها . لقد اتهمني بعض المعتوهين آنذاك بأني لا أخلص للقضية . وبأني خائن ! اتريد ان ندجّل على أنفسنا ؟ أمن الممكن ان اكون خائناً وانا كما أنا بلحمي ودمي وبما جُبلت عليه ؟ إنني اقول لكم بصراحة ايها السادة ، أنه يجب علينا ان نفهم هذا الوضع جيداً ، وعندئذ فقط نستطيع ان نجد الخلاص لانفسنا . وسأل الجنرال وهو يصعد سحابة من دخان سيكاره :

ـــ اتقترح يا استيفان ان تحضر جلسات هذا السيرك المملوء بالزنوج ؟

واضاف سانتل بقوله :

وكيف ؟ لقد جربنا ان نشتري الزنوج في المؤتمر .. جربنا ان نخدعهم بمعسول الكلام ، ان نهددهم ، غير انهم لا يذكرون إلا شيئاً واحداً : هو أننا كنا نملكهم .

ـــ وسأل فانتون :

ـــ لماذا دعوت الزنجي الى بيتك هذا المساء ؟

ـــ هنا مفتاح القضية أيها السادة ، وانا اعترض على عبارة الجنرال بنعت المؤتمر « بسيرك زنوج » فعندما نفكر بالقضية بهذا الشكل نساعد على هزيمة انفسنا . ان هذا المؤتمر ليس « سيرك زنوج متوحشين » . انه مجمع يضم عدداً من الرجال الأذكياء ذوي الارادة ، كما انهم شرفاء اذا نظرنا اليهم من ناحيتهم وعلى ضوء قضيتهم .

واعترض الجنرال بقوله :

ـــ ان كلامك هراء لا معنى له .

ـــ اهذا ما تعتقده ؟ هل حضرت جلسة ما من جلسات المؤتمر ؟

ـــ لقد قرأت الصحف .

ـــ ان الصحف تكذب ... وارجو ان تثق بما اقول . لقد حضرت انا جميع الجلسات ولهذا اقول ان الصحف تكذب ، وقد احضرت هذا الزنجي الى هنا لسبب واحد ، احضرته لانه كان منذ سنتين او ثلاث سنوات أمياً ، وقبل ذلك بقليل كان احد عبيد كارويل .. الم تره هذا المساء ؟ هل كان متوحشاً ؟ اننا لا

ندرك ما يكمن في هؤلاء الزنوج من قوة ، هؤلاء الزنوج الذين كنا نبيعهم ونشتريهم طيلة قرنين كاملين . اننا لا ندرك ايها السادة او لا نجرأ على التفكير بان نسأل : هل يستسلم امرؤ كجديون جاكسون بسهولة ويلقي جانباً ما حصل عليه ؟ والزنوج ليسوا وحدهم في المعركة . لقد بدؤوا يتدربون على التعاون مع البيض البؤساء الذين كنا نحتقرهم بالامس الى ان أتى اليوم الذي احتجنا فيه لهم ليقفوا الى جانبنا ويحاربوا معنا . ان هؤلاء البيض الذين خاضوا الحرب من اجلنا بدؤوا يفكرون الآن . ايها السادة لقد ارتكبتم غلطتكم الثانية التي لا تُغتفر عندما تخليتم عن المؤتمر لهؤلاء الزنوج واولئك البيض ، اما غلطتكم الأولى فقد كانت قيامكم بالحرب . لقد قلتم بان المؤتمر سينهار ، الا انه لم يطرأ عليه شيء . لقد اجتمع اعضاؤه مدة قد تزيد عن التسعين يوماً ، أنجزوا وضع الدستور . وقلتم بان الامة ستثور للدفاع عن كرامتها وتسحق هذه المهزلة السخيفة . الا ان الامة لم تثر ، بل على العكس تماماً وهاهم الصحفيون الشماليون لا ينفكون ينشرون الحقائق عن هذا المؤتمر في جميع انحاء البلاد . واثناء حكمنا الارهابي في الفترة التي اعقبت الحرب ، عندما احتفلنا « بالقانون الاسود » ظننا اذ ذاك ان لدينا من الصلابة وقوة العزيمة

مايحقق لنا نصراً ننتزعه من امة لم يمض وقت طويل على اندحارنا امامها في المعركة . لقد اعتمدنا على رجل عديم التفكير كجونسون معتقدين ان الامة ستسير وراءه ، غير ان الكونغرس داسة فتحطم وانهار ... والآن يكسب الزنوج العطف الذي ضحينا نحن به ، وهذا ايها السادة احد اخطائنا ايضاً .

وقال دوبر :

اعتقد انك يا هولمز تحمل فكرة سيئة عنّا .

ــ بصراحة ... نعم ومن ناحية اخرى لديّ رأي عن هذا الزنجي الذي دعوته هذا المساء ، وهو رأي افضل من رأيي بكم ...

ــ اما انا فرأيي يختلف ــ ..

وقال فونتون :

ــ ارجوك يا دوبر .. كرامة للمسيح .. ماذا تقترح يا ستيفان . ارجو ان تنهي هذه المحاضرة الأخلاقية .. لقد رأينا الزنجي .. ووصلت انت الى ماتريد . والآن ماذا تقترح ؟

وهز هولمز رأسه :

ــ نعم لقد رأيتم الزنجي ، ويجب ان نقبله كما هو : رجل

يمثل القوة الكامنة في اربعة ملايين من البشر يعيشون في هذا الجنوب .

ــ حسناً تابع ..

ــ لننظر الآن الى المؤتمر . ما الاعمال التي أنجزها ؟ ..

اولاً : التعليم لقد جعل التعليم عاماً واجبارياً في جميع انحاء الولاية . وهذا يعني ان الزنوج والبيض القذرين سيحاربوننا معاً ، ولكل منهم الاسباب الدافعة ذاتها .

غير أنهم سيبقون زنوجاً وبيضاً قذرين ــ ..

ــ رحمتك يارب ! أمن المستحيل ان اجعلكم تدركون الحقيقة ؟ اذا طُبق هذا التعليم على جيل واحد فاننا سنصبح ذكرى غامضة في ثنايا التاريخ . وانني اؤكد لكم هذا . وهناك نقطة اخرى اريد ان الفت نظركم اليها . ان المؤتمر قد وضع مشروعاً لتقسيم الاراضي وتجزئة المزارع الكبيرة الى اخرى صغيرة . . واذا ما أضفنا هذا إلى التعليم نرى جليا موت المزارع وكبار المزارعين . وان المؤتمر قد جعل المساواة حقا شرعياً لكافة الناس بغض النظر عن اللون او العنصر . فكروا في هذا ايها السادة المحترمون . ان المؤتمر قد اكد لنا بانه سيكون من الزنوج قضاة يجلسون الى جانب القضاة البيض ، لندع هذه الامور تصل الى

نهايتها ايها الاصدقاء ... وان المؤتمر قد ضمن الحياد والنزاهة في الانتخابات ، وهذا يقضي على أي حلم كنتم تحلمون به لاستعادة السلطة . ايها السادة ، عمد المؤتمر إلى الجمع بين البيض والسود على السواء ، ففي كل قانون او تشريع او اقتراح عُمد الى حصر البيض البائسين الفقراء مع الزنوج .. هل هناك مايحرك مشاعركم فيما قلته ايها السادة ؟ ..

وران صمتٌ طويل حطمه الجنرال بقوله :

ـــ لا يمكنهم القيام بذلك يا هولمز . سينهار بناؤهم . وان ميزانية هذه الولاية لن تتمكن من تحمل كل هذا . ففي الانتخابات ـــ .. وقاطعه هولمز

ـــ وفي الانتخابات سيكونون ممثلين بالحكومة كما انهم ممثلون الان في المؤتمر ..

وسأل كارويل :

ـــ وما موقفنا نحن يا ستيفان ؟

ـــ موقفنا لم يعين بعد مطلقاً ...

ـــ لماذا لا نجرّب أن نشاركهم في لعبتهم هذه ؟ .

ـــ وماذا لدينا لنقدمه للناخبين ؟ أهي الاجور التي لا

تتجاوز العشرين سنتاً باليوم ، ام ترى العودة الى العبودية ؟ او حُرمانهم من مزارع صغيرة يعيشون فيها ؟ الجهل ؟

ــ هنالك سبيل لذلك ...

ــ نعم هنالك سبل .. الا انها ليست كما ذكرت . لقد كانت السلطة بأيدينا ــ والآن فقدناها ، ونريد ان نستعيدها ، وهذا شيء بسيط . لقد شاهدتم الزنجي هنا هذا المساء . أبامكانكم التلاعب عليه وإقناعه وخداعه .. ؟

وقال فونتون بعد تفكير .

ــ كلا ... ولكن بامكانك ان تشنقه .

وعلق الجنرال بقوله :

ــ لقد عمدنا الى الارهاب وفشلنا ، لقد اشرت الى ذلك يا ستيفان .

نعم لقد فشلنا اذ انه كان ارهاباً سخيفاً ، ولان الارهاب الذي لا يهدف الا الى الارهاب كغاية محكوم عليه بالفشل . لقد دفعنا الرعاع من الناس على محاربة الشماليين ، وخضنا ثورات وهيّجنا اناس مراهقين ، وارسلنا بعض الذين كانوا جنوداً فيما مضى ينهبون ويقتلون . الا اننا لم نضع لانفسنا خطة نسير

عليها ، او هدفاً نسعى نحوه ، وأسوأ ما في الامر أننا لم ننظم امورنا واعمالنا مطلقاً .

واشعل فونتون سيكاراً جديداً ، وفتحت إحدى النسوة الباب وسألت :

ـــ أتودون البقاء هنا حتى الابدية .. ؟

ودخل خادم زنجي يحمل بعض كؤوس الوسكي فقال له هولمز :

ـــ بعد ان تذهب لا اريد ان يدخل احداً .

وتكاثف الرماد على سيكار استيفان فضربه باصبعه وسقط الرماد على ثيابه فنفخه وقال :

ـــ يلزمنا تنظيم وخطة وتحديد الغاية

وسأل فونتون :

هل فكرت بافراد جمعية « الكلان » .. يا استيفان ؟

ـــ نعم لقد فكرت فيهم الى حدما . وان ماسجلوه في السنتين الماضيتين منذ ان ظهروا لا يعطي دليلا على النجاح او الائتلاف ، غير انه هنالك تنظيماً في اسلوب عملهم على الاقل . وانه لمن الافضل ان نضم قواهم الى قوانا ، ذلك خير من ان ننظم انفسنا بشكل يتعاكس ويتضارب مع تنظيمهم ، واذا ما

قررنا هذا ، فيجب ان يتم التنفيذ بصورة سريعة قبل ان يستنفذوا قواهم .

وقال الجنرال :

ـــ ان قادتهم كانوا ضباطاً في الجيش .

ـــ هذه نقطة لا شك ان لها فوائدها ، وصديقنا دوبر هو احد اعضاء الكلان ، فبامكانه ان يفيدنا من هذه الناحية إن مسألة قمصان النوم البيضاء والصلبان المحترقة لا تتعدى كونها مساً من الجنون الا ان لها فوائدها ، ولا شك ان الخائف الوجل يصبح اكثر شجاعة وإقداماً عندما يغطي وجهه .

ـــ انني لا ارغب في احاديث كهذه .

ـــ انك لا ترغب في ذلك يا دوبر ؟ هل تنوي تغطية رأسك بغطاء ابيض وان تهيم في الليل ؟ كلا ... انها طريقة سنعمد الى استعمالها ، ولكي نتمكن من ذلك فاننا بحاجة الى رجال .. الى الوف الرجال ومن اين لنا بهم ؟ سيكون بعضهم من الرجال الذين كانوا عسكريين في الجيش ، وهم ليسو بالكثيرين ، ولكن مع غض النظر عن كل شيء ، فانه ليس من السهل حملهم على ارتداء قمصان النوم والقيام باعمال الارهاب

والشنق والتقتيل ، اذ انهم لا يخلون من الشجاعة والشرف ، واعني بالشرف ، (الشرف حسب المفهوم المعروف به) .

وقال الجنرال :

ــ انني لا احب هذه الطريقة التي تصف بها هذه الامور يا استيفان .

ــ اهناك طريقة اخرى اتمكن بها من شرح ما اريد ؟ يجب ان نتصارح بالحقائق . اليس كذلك ؟ غير اننا سنجد الرجال ، وهنالك عدد كاف منهم ، ومنهم مثلا القوم الذين كنا نستخدمهم كمراقبين ، وكذلك اولئك الذين كانوا يقومون باعمال النخاسة من بيع وشراء وتربية ، اولئك الذين يفقدون صفات الرجل اذا جردتهم من السوط الذي يحملونه فيصبحون روثا وأقذارا ، ليس لهم سوى حسنة واحدة : بشرتهم البيضاء ... ايها السادة سوف نعزف سمفونيتنا وموسيقانا على الحان البشرة البيضاء ، فنجعل منها علامة يُفتخر بها ، نجعل منها سمعة للشرف .. سوف نجوب المستنقعات ونبحث عن اعضاء نمنحهم هذه السمة ، نمنحهم شرف البشرة البيضاء وهم يعيدون لنا مقابل ذلك ما فقدناه في حربنا الجنوبية ...

وسأل فونتون قائلاً :

ــ ولكن ما الوسيلة يا استيفان ؟ فعندما جربنا في الماضي ..

ــ نعم ، ألا اننا في هذه المرة سوف نعرف كيف نعمل . نبدأ ببطء .. التنظيم ولا شيء غير التنظيم في بادىء الامر . ندخل جمعيات « كلان » ونقوم بتمويلها . نعم ايها السادة سنمولها . وما دامت قوات الاحتلال موجودة هنا ، فاننا لن نبادر الى عمل شيء مطلقاً ، وهكذا لا يجدون امامهم عدواً يقاومونه الا انه عندما يجري حادث ما ، كأن يَقدمُ زنجي على حادثة ضرب او اغتصاب ــ وهذه اعمال قد تحدث بشكل طبيعي ــ عندما تقع حوادث كهذه ، تسرع « الكلان » عندئذ الى مكان الحادث ... وعلى سبيل الاعلان والدعاية بامكانكم القول بان اشباحاً مقنعة ، تجيش في صدورها العواطف والاحساسات النبيلة تندفع في الظلام اننا سننتظر وسننظم انفسنا ولن نقوم باي عمل سابق لاوانه . وبالاضافة الى ذلك ، اقترح على اولئك الذين يمكنهم الانخراط في معترك السياسة بصفتهم مؤيدين للعهد لا معارضين ، اقترح عليهم ألاَّ يتأخروا ، اذ يجب ان يشترك معي الكثير من الآخرين .. » .

وسأل الجنرال :

ـــ والى متى سننتظر ؟ ...

ـــ هذا ما لا علم لي به ، غير انه من المؤكد ان انتظارنا سيستمر سنتين او ثلاث سنوات ، وربما خمساً ، الا اننا سننتظر الى ان نثق من النصر والنجاح ، الى ان تصبح قضية اعادة بناء الجنوب مسألة لها اهميتها في السياسة القومية ، الى ان يسحب آخر جندي شمالي ، وفي هذه الفترة التي سننتظر فيها يجب ان نكون مكتوفي الايدي ، بل نتحمل الآلام بصبر ورجولة ، لا وليس بشكل جنوني هستيري . وندع الشمال يدرك حدود آلامنا وعظمتها . يجب ان لا نصرّح بسخافة ، بل نصرح بعزة وكرامة بان الشمال قد اساء الينا ، وعندما نقول ذلك بشكل كاف وصريح لابد وانهم سيصدقون ما نقول . وهكذا نكسب مناصرين لنا في الشمال حيث يوجد الالوف من الناس الذين كانوا فيما مضى يغبطوننا على نظام مزارعنا ، وعبيدنا ، وضخامتنا وطريقة حياتنا ، لقد غبطونا وحسدونا على هذه الاشياء التي هبّوا يحاربونها ويقاومونها بأسلوب لا تعميهم به تفاهة الاسس الاخلاقية ، واهم من ذلك ، فقد عطف العالم على الزنجي العبد الرقيق ، ولكن ماذا سيحل بهذا العطف عندما نكشف للعالم بان

الزنجي ظالم ، معتد ، وان هذا الاسود المتوحش سيقضي على ما هو انساني ونبيل وحسن في مجتمع السيدات والسادة ؟

وعلق الجنرال قائلاً بهدوء :

ــ هذا ما سيفعله بالواقع ..

ــ حسنا ، سنكسب مناصرين ، وسنتبنى رؤوس الاموال الشمالية . ان مركز الصناعة بدأ ينتقل من انكلترا الى الشمال ، ولا بد لهم من ان يستجيروا بنا طالبين القطن ، فنعطيهم بعضاً منه الا اننا لن نقدم لهم مايكفيهم منه ، ولكننا سنرعرع رؤوس الاموال هذه ، وسنطلب منهم اقامة صناعاتهم في الجنوب ، ونشركهم في مستقبلنا ، وهذا الاشتراك سينسيهم موجة الاخلاق الجنونية التي دفعتهم الى الحرب ، وعندما يبدؤون بالتفكير في ان الحرب التي قاموا بها لم تكن عادلة ، واننا شعب محب للحرية حارب ليستعيد حريته بصفته شعباً اميركياً ..

وقال الجنرال بصوت منخفض :

ــ وهذا ما فعلناه .

ــ .. وحينئذ ، عندما يحين الوقت ، بعد سنتين او خمس ، نضرب ضربتنا بقوة وارهاب . ان القوة والارهاب هما العاملان الوحيدان اللذان يمكنهما تقرير المصير ، وعندئذ

نكون قد بلغنا هدفنا والشمال لا يعلم ، ولن يصدق ما يصل الى مسامعه . وستصبح « الكلان » جيشاً يسحق هذا النظام سحقاً تاماً بحيث لا يتسنى له ان يعود ليحرك رأسه ثانية . ايها السادة . ان الزنجي سيعود فيصبح عبداً كما كان من قبل وكما كتب عليه ان يكون نعم انه سيقاوم ، إلا انه لم يتهيأ لاعمال الارهاب والقوة ، اما نحن فعلى العكس من ذلك . سيقاتل الى جانبه بعض البيض ـــ ولكني اؤكد لكم ان اكثرهم لن يقفوا الى جانبه ، فالخوف وشعار البشرة البيضاء سيتكفلان بهم واننا سنكسب المعركة حين يحين الوقت .

كان هولمز يتكلم وهو يبدي حماسة وعاطفة ثائرة وقوة متفجرة تركت اثرها حتى على الجنرال الذي قد يكون اقل الناس احساساً . الا انه عندما انهى كلامه ، عاد الحماس فذوى ، والعاطفة البادية على الوجوه استحالت الى إصفرار ، إصفرار المدنية والشحوب والجمود . واشعل هولمز سيكاراً آخر ، وبعد ان أبدى الآخرون آراءهم بمشروعه بين مؤيد ومعارض قال :

ـــ هلا ذهبنا لمرافقة السيدات الآن ؟ ..

الفصل السادس

انتهى الامر الآن .. لقد وضع الدستور وتعاقبت مواده الواحدة تلو الاخرى . وبهذا تم تحديد تعاريف للحرية ، والحياة والسعي وراء السعادة كما تقدم بها شعب الولايات المتحدة الاميركية . كان ذلك في ربيع عام ١٨٦٨ في مطلع عام لامع منعش ، انه عهد جديد ، وقد قال القس :

اللهم ياإله الرحمة والمعرفة والغفران .. اننا نطلب ان تباركنا في جهودنا . اننا لم نتعمد الخطأ ، غير اننا رجال غير معصومين عنه .

نهايتنا الموت ونحن معرضون للشر والخطايا التي قد يقترفها جميع الرجال الذين لا يخلدون .

وعندئذ وقف جميع اعضاء المؤتمر وانشدوا باصواتهم الاغنية الفخورة :

يا بلادي ايتها البلاد الجميلة ، بلاد الحرية .

انني انشد باسمك .

وسأل كاردوزو جديون :

ـــ والآن ، ما مشاريعك ؟

ـــ العودة الى بيتي

ـــ لقد مضى عليك مدة طويلة ، أليس كذلك ؟

فابتسم جديون وقال :

ـــ مدة طويلة جداً . ان الشيء المضحك عن القوم السود يا فرانسيس ، هو ان لهم قلباً مملوءاً بالحنين الى الوطن ، واذا ما عدنا بالذاكرة الى الايام الماضية السيئة نرى ان بيع الزنجي الى جانب النهر كان أسوأ من ان تقتله .. كم أشعر بشوق شديد للعودة الى بيتي ..

ـــ وماذا ستفعل بعدئذ ؟

وقال جديون بعد تفكير :

لقد كنت أفكر .. ان قومي يعرفون بعض الشيء عن الارض . يعرفون كيف يزرعون بعض القطن وبعض الحبوب ،

وفيما عدا ذلك فهم لا يعرفون الكثير عنها .. انهم يعيشون الآن في مزرعة كارويل ، غير ان ذلك لن يدوم الى الأبد ، وقد ذهبتُ الى مكتب الاراضي وسألت عن المزرعة . لقد خسرها كارويل بسبب الديون ، وخسرها اصحاب الديون بسبب الضرائب ، وسيأتي يوم ينتهي به أمرها الى لائحة الاراضي المعروضة على المزايدة ، فما الذي سيؤول اليه حال قومي حينئذ ؟

ـــ سيؤول مصيرهم الى الحال التي آل اليها مصير غيرهم من الملونين ، لا ارض لهم ، حفاة ، جائعون . ان هذه المشكلة يا جديون ، هي من اكبر المشاكل التي نواجهها .

ـــ اذن ، فربما تمكنت من ان اعمل شيئاً فأساهم في حل هذه المشكلة ، قد لا أتمكن من ان أعمل الكثير ، الا انني على **الاقل أبين لشعبي كيف يمكنهم شراء قطعة صغيرة من** الارض ، ومع اني لست متأكداً من ذلك غير انه قد يكون هنالك سبيل ، وقد لايكون ، انا لا اعرف ، ولكن على الاقل أستطيع ان أعود الى بيتي وأجرّب .

ـــ ان عملك هذا ياجديون قد يساعد فئة قليلة غير انه ليس بالحل الواقعي للمسألة .

ـــ اني اعلم ذلك .

ـــ هل سبق لك ان فكرت بالسياسة ياجديون ؟

ـــ ماذا تريد ان تقول ؟

وابتسم كاردوزو ، واعاد الى ذاكرة جديون لقاءهم الأول ثم قال :

ـــ لقد ادركت إذذاك بانه يجب عليّ ان اثق باناس مثلك .

ـــ ولماذا باناس مثلي ؟

ـــ لان هذه الولاية ، او بالاحرى منطقة الجنوب هذه فيما عدا الاقلية الضئيلة التي تعارضنا ، ليس لها سوى مستقبل واحد ، وهو ان تنهض بنفسها وليس لها ماتعتمد عليه في نهضتها سوى سيور أحذيتها . لقد فعلت انت ذلك ، وهكذا فعل مئات آخرون اننا نتشابه يا جديون ، فهنالك محيط يفصلنا في كثير من الامور ، فانت رجل شديد المراس ، يؤمن بالقوة ، بالرغم من لطفك ، اما انا فان تفكيري يختلف . غير انك تملك صفات كثيرة تنقصني ، القوة الجبارة ، والقيم العالية ما الطرق التي ستستعمل فيها هذه الصفات ؟

وابتسم جديون وقال :

ـــ اذا كان لهذه الصفات من وجود اذ قد يكون وقد لا

يكون !! وبكل تأكيد انا لا اعرف ، فلا بد لي من ان افكر بها ، واريد ان اتعلم ، انني رجل جاهل يافرانسيس ولو ادركت منذ ثلاثة اشهر خلت ما درجة جهلي لاستسلمت لليأس وتركت عملي .

ـــ قبل ان تأخذ قرارك بالعودة ، فكر قليلا ، يا جديون . بعد ايام قليلة سيجتمع النواب الجمهوريون في الولاية ، وسأكون انا واحداً منهم . فكر يا جديون بان حزب ابراهام لنكولن سيتحمل مسؤولية الحكم في الولاية . اننا نعلم ذلك ، وقد رأينا النتائج في المؤتمر . ان ذلك يعني ان مجلساً تشريعياً للولاية سيؤلف ، وجهازاً حكومياً كاملاً سيشكل ، ثم نواب وشيوخ وكل ما هنالك من الاسفل الى الاعلى .

لقد كنت من البداية يا جديون ، وان جزءاً من دستورنا ، كبيراً كان أم صغيراً لا يهم ، هو من نتاج يديك ، وبامكانك ان تلاحق هذا الجزء وتشرف على تنفيذ القانون .

وسأل جديون :

ـــ وكيف سأتمكن من ذلك ؟

ـــ ان بعضنا يريدونك ان تكون في مجلس النواب ... ان تكون نائباً .

ـــ وهز جديون رأسه اشارة للنفي .

ـــ لا ؟ ولِمَ لا ؟

ـــ ان هذا لا يمكن ان يكون ..

ـــ وهل انت خائف ؟

وابتسم جديون واجاب :

ـــ انا لم اعد خائفاً الآن ، غير انه ليس بامكاني ان اكون نائباً ، اذ انني اعرف من انا . قد اتمكن من ذلك بعد مرور سنة ، او ربما سنوات . اما الآن فاعتقد اني لست كفئاً لذلك .

ـــ لديك من الكفاءة اكثر من كثير من الرجال الذين سيكونون هناك ..

وهز جديون كتفيه وقال :

ـــ ربما يكون ذلك .

ـــ أتريد ان تفكر بالموضوع ؟

ـــ لا انني سأعود الى بيتي .

ـــ ماذا لو قلت انك على خطأ يا جديون ؟

ـــ انني سأعمل الشيء الذي اعتقد انه الافضل

وقال كاردوزو :

ـــ اذن لا فائدة من ذلك على ما اعتقد .

ـــ إني آسف .

قال كاردوزو كلمته الاخيرة هذه بكل اخلاص وصافح جديون مودعاً ثم قال بعد لحظة :

ـــ ان معرفتي بك كانت حدثاً سعيداً في حياتي .

ـــ ولماذا يا سيدي ؟

ـــ ربما أتمكن ان اعود الى بيتي في يوم من الايام .

* * *

عندما حان موعد عودة جديون ، أجهشت السيدة كارتر بالبكاء معبرة ببكائها عن شعورها بصراحة ودون خجل ، ثم طوّقت جديون بذراعيها وقبّلته في فمه وقالت :

ـــ إذا عدت ثانية الى تشارلستون ، فستقيم معنا ياجديون . كانت هي وزوجها يحومان حوله ، وهيئا له صندوقاً صغيراً مملوءاً بالطعام ، وضع له كارتر حذاء أسوداً عالياً هدية لراشيل ، وعندما أراد جديون دفع ثمنه أجابه كارتر : ان هذا الشيء هو هدية يا ولدي جديون ، وقدم كارتر ايضاً هدية اخرى وكانت « الانجيل » .

وقال كارتر :

ـــ قد تجد فيه العزاء . انك ولد صالح يا جديون فالتفت الى الله .

وفكرّ جديون بنفسه .. انهم سيشعران بالوحشة بعد ان يتركهما ، واقاما له حفلة غداء كبيرة قُدِّم فيها دجاج ، ومختلف انواع الخضار ـــ والطعام ، واجتمع الجيران الى ان غص البيت الصغير بالزائرين . لم يكن جديون يتصور بأن وداعه سيكون بهذه الحرارة ، فالجميع كانوا يودون ان يصافحوه وسكبوا من الدموع اكثر مما لو كانوا في جنازة .. لقد كان المؤتمر والدستور بالنسبة لجديون ، يتجسدان امامه مجردين ، لم يكن ليدرك مدى علاقتهما الوثيقة بالشعب .. هذا الشعب الذي يبكي ، ويضحك ويفتخر ...

وفي ساعة امضاها مع اندرسون كلاي قال كلاي :

ـــ انني يا جديون ، قد لا اشبه بعض الناس الذين يأخذ الفرح بألبابهم . فنحن لن ننته بعد .. ان هي الا بداية فقط ، واذا ما انهارت هذه البداية فلا بد لنا ان نبدأ من جديد ، سنكون دائماً هنا وهناك وسنعرف بعضنا ..

وامسك جديون بيد الرجل الطويل النحيل ذي الوجه الاحمر وهز رأسه قائلاً :

ـــ اننا سنعرف بعضنا دون اي شك .

كانت الامور تسير بسرعة ، والحوادث تتطور ، لقد ترك جديون المدينة ، الا ان هذا العالم الذي عاش فيه خمسة عشر اسبوعاً كان في تغير مستمر ، وهيجان دائم ، ومع ان جديون كان شديد الشوق لرؤية قومه ، فقد شعر بالوحشة وهو يجمع كتبه وثيابه ويضعها في كيس . انه يحمل هذه المرة بطاقة لركوب القطار ، كلا انه لن يسير مشياً على الاقدام الى كارويل ، ولكنه كان يحسد نفسه في سره عندما كان ذلك الزنجي الذي سار مئة ميل بخطى واسعة من المناطق البعيدة الى تشارلستون .

* * *

ألم يطرأ اي تغير على كارويل ؟ ..

الا ان الرجل الشيخ الذي كان يقود العربة التي كان يجرها البغل في العشرين ميل الاخيرة من الطريق الى كارويل ، لم يكن ليعلم اي شيء عن المؤتمر ، ولا عن الارض التي كانت تهتز

مضطربة في تشارلستون ، ولا عن جميع الحوادث الجسام التي سبب جديون جزءاً منها ، وقد سبق ان قال لجديون :

ـــ المؤتمر ؟ .. انا لم اسمع عن اي شيء يدعى المؤتمر ...

وبدأ ينقل الى جديون اخبار المنطقة . انها نفس الاخبار لم تتبدل ، ولادات ووفيات ، موجات من السلام والهدوء تطغي على القوم وكأنها مد البحر وجزره ، وثورات من الغضب كالبركان الخامد الذي عاد الى الهيجان ـــ فهذا ابن « ميسي بولير » الصغير فلقد اجتاحت القرية موجة عاصفة من الحزن بسببه ، اذا اخذه خمسة من البيض واشبعوه ضرباً بالعصي ، ثم شنقوه وعلقوه على شجرة قطن . ماذا فعل ؟ ! .

انه لم يفعل شيئاً . واخبر الشيخ جديون ، بأنهم يقومون بمد الخط الحديدي عبر المستنقعات وانهم ينوون بناء محطة بعد المستنقع ، ولذلك فهم يريدون رجالاً للعمل ، ويدفعون دولاراً اجراً ليوم العمل .. وسأل جديون : « ايدفعون دولاراً للزنجي ؟ » نعم دولاراً باليوم . ان هؤلاء الشماليين يشقون لنا الطريق . وتتابعت اسئلة جديون : وكيف حال القوم في كارويل ؟ واجاب الشيخ بانه لم يذهب كثيراً الى كارويل في السنة الفائتة ، وماذا تسمع ؟ وقال الشيخ متفحصاً . كل ما تتوقع ان يحدث ثم اردف :

ـــ ما سبب قلة الصبر هذه ؟ انتظر وسترى . ان ملكوت الله لم يأت بعد ، هذا ما اقوله لك ، فالبقرة تحمل وتلد عجلتها ، والمرأة الزنجية ينتفخ بطنها هي ايضاً . ماذا تتوقع ان يحدث ؟

وهكذا احتفظ جديون بأسئلة في صدره وسكت ، واستمع الى انباء حالة الطقس وكيف كانت منذ ستة اسابيع كل اسبوع بأسبوعه ، وها هو الربيع قد اقبل فالطقس جميل والغلة مازالت في الارض ، وكانت الغربان تطير هنا وهناك ناعقة « كاو ، كاو » كما كانت تفعل منذ الازل ، وفي الحقل رجل يصطاد وبندقيته بيده وكلبه يقفز امامه في المرج .

وبعد الظهر ، ادرك جديون كارويل ، كان الوقت مساء ، والظلال طويلة متعبة ، كان البيت الابيض الكبير اول مابدا فوق موقعه المرتفع ، وقد تساقطت عليه أشعة الشمس فبدا جانبه الواحد المقابل للشمس احمر اللون ذهبياً بينما انعكس الظل على الجانب الآخر . وتعب البغل وبدأ يسير ببطء ، واحتجّ الزنجي الهرم على ذلك بقوله : لقد قطعنا طريقا طويلة .. ويبدو اني سأعود في ظلام الليل المرعب الجبار ..

وكما هي الحال دائماً ، اقبل الاولاد يركضون اولا ، وهم

يصرخون ملء صدورهم ، اولاد يثبون من كل ناحية وكأنهم طيور « الفرّي » تقفز في المرج وكان ماركوس بينهم . لم يكن جديون ليذكر ان ابنه هذا كان طويلاً لهذه الدرجة كما هو الآن اما جيف فقد كان يسير برجولة في الخلف . انه لا يركض بل يظهر الوقار في مشيته . واخيراً ، كان جديون واقفاً وراشيل بين ذراعيه وقد ابتلت عيناه بالدموع ، وكم خجل من ذلك امام الاولاد ...

* * *

لقد استردته راشيل ، انها ايضاً باتت تظهر بدورها الى الزمن كشيء مرن وكأنه قطعة من المطاط يمكن شدها بعيداً فتتمدد ، وارخاؤها ثانية فتعود الى سابق عهدها متكورة متضائلة . لقد كانت هذه الاشهر الثلاثة طويلة وكأنها الابدية وادركت راشيل بطريقتها الخاصة في معرفة الامور بأن جديون الامس سوف لن يعود .

لم تكن هنالك اشكال واضحة لمخاوفها ، فهي دائمة التغير وكأنها ظلال تتحول . كان المجهول الذي يبتدىء من سفح المرتفع في الافق ويمتد فيضم العالم باسره هو مادة مخاوفها . ان

كارويل هي بدء ونهاية كل شيء بالنسبة الى راشيل ، لانها لا تعرف اي مكان آخر سواها ، لقد جيء بأمها فيما مضى من فرجينيا فبيعت بالمزاد بتشارلستون ، وكانت تحمل على يديها طفلة رضيعة مما زاد في ثمنها اربعة واربعين دولاراً ، ولم تكن تلك الرضيعة سوى راشيل التي بدأت ذاكرتها في كارويل ولم تضم اي مكان آخر سواها ، وحتى الحرب التي انتشرت في كل مناطق الجنوب ، فانها لم تترك اثراً قوياً في هذا المكان . فقد جاء مرة رجل احمر الخدين ، ازرق العينين ، اشقر الشعر والسوالف ، يرتدي بزة زرقاء متسخة ، ويمتطي حصانا اسود منهوك القوى ، وهو يقود رتلاً طويلاً من الرجال المتعبين وجميعهم يرتدون البسة زرقاء ، مجتازاً بهم ساحة كارويل المرجية . وكانت هذه هي المرة الاولى التي يقع فيها بصرها على الشماليين ، وحين ناداها — الشاب الابيض بقوله :

ايتها الغبية ، منذ متى رأيت آخر ثائر هنا ؟

لم تتمكن من فهم لهجة « نيوانكلند » المقتضبة ، بسهولة . واختبأ ماركوس وراء « تنورتها » وسيطر عليها تفكير مرعب بأنهم سيأخذون ماركوس منها ويبيعونه الى جانب النهر او اي مكان ، وهكذا هربت راكضة ، وعندما عادت كان الرجال

الشماليون قد انصرفوا . وتمر الايام ، ويأتي شماليون آخرون الى البلدة ، وكذلك جنود من الثائرين ، وموجات الحرب تغسل جانب البلدة هذا حيناً وذاك الجانب تارة أخرى ، وفي إحدى هذه الموجات اختفى جديون وهانيبال واشنطن وغيرهم . ذهبوا ليحملوا السلاح ويحاربوا الى جانب الشماليين من اجل حريتهم . لقد ابتلعهم فم العالم الكبير المفغور ، وتُركت راشيل لوحدها مع طفليها ـــ وكان عليها والحال هذه ان تبني آمالها على عودتهم . وكان جديون واثقاً متأكداً تأكده من بزوغ الشمس ـــ وغروبها بأنه لابد عائد .. واذا مابكت النسوة الاخريات تحبس راشيل دموعها وتقول لهنّ : لقد قال جديون بأنه سيعود .. وكان هذا اليقين يشد من ايمانها ويقوّيه ولكنه لم يكن ليُهدىء مخاوفها ابداً .. لقد كانت تعرف ، انها اذا ما فقدت جديون فان هذا العالم لا يعود له من مبرر او معنى . وهي تعلم ان بعض النساء لم يكنّ كذلك ، فقد يقترفن الخطايا ويسلمن اجسادهن للخطيئة ، وانها هي نفسها لتشعر بالوحدة والرغبة (الجنسية) اللتين تسببان استسلام النساء ... وكثيراً ماكانت تجادل نفسها وتفكر ... ترى ماذا يحدث لو انها خانت جديون ؟ .. غير ان هذه الفكرة الفرضية كانت تضمحل وتترك على فمها ابتسامة

الواثق .. من انها هي جديون وهو هي ... لقد كان زواجهما مغموراً بالاخلاص ، فقد ذهبا تحت جنح الظلام الى الاخ بيتر لاجراء مراسيم الاكليل في الوقت الذي كان فيه الكثير من الرجال والنساء يسلمون اجسادهم الواحد للآخر دون زواج .. اذ انهم كانوا يعلمون ان زواجهم قد لا يدوم يوماً او شهراً او سنة ، وانه لن يكون عهداً امام الله ، بل لحظة سعادة موقتة قبل ان يباعوا او يدنسوا ، ويتاجر بهم .. اما هي وجديون فقد تزوجا معاً وأقسما يمين الاخلاص .

كانت سعيدة بحياتها حتى انه ضربت فيها الامثال ، فكان يقال ــ « سعيد كراشيل » واذا ما انشد بلبل بصوته الرخيم ، قيل انه ينشد كراشيل . انها كانت تعرف زوجها ، ولابد ان الله كان يبتسم عندما اعطاها هذا الرجل . وحينما رحل عنها ، ازدادت آلامها ، اذ ان فهمها للامور كان يختلف عن فهم جديون . فعندما كانت طفلة صغيرة ، قبلت مع غيرها من الاطفال النظرية التي تقول بان اغصان الاشجار المتحركة المهتزة تسبب الرياح ، الا انها قبلت عكس النظرية عندما قال لها جديون ، وقد قبلت ذلك ، لسبب واحد : هكذا تكلم جديون ... وان ازدياد آلامها بسبب ذهابه يعود بدوره الى معرفتها

الجيدة به وتفهمها له . فجديون يعلم لماذا يحدث هذا الشيء او ذلك ، اذ لايوجد عنده شيء دون سبب . اما هي فدمها الحار الذي يتدفق في عروقها وكأنه المد يكون كافياً لان يخلق في اعماقها شعوراً عميقاً قوياً يدرك الاشياء ، وغالباً ما يكون هذا الادراك صحيحاً . وان ادراكها الآن ، بان الرجل الذي تركها ورحل هو غير الرجل الذي عاد اليها ، لا يتطلب منها سابق معرفة بتشارلستون ، والمؤتمر ، ولا العالم الجديد الذي تم صنعه وخلقه . وان انشودة دعوا شعبي يتحرر واتركوه .. كانت لاتعني الا شيئاً واحداً هو ان يكون جديون والاولاد الى جانبها دائماً . ومع ذلك فقد احست بالافق الجديد الذي تسطع عليه الشمس امام زوجها . ان الرسائل الاولى التي ارسلها لها جديون من تشارلستون كان يقرؤها لها الاخ بيتر او جيمس اللنبي ، وكان ان دفعها الشعور بالخجل من ذلك ، الى تعلم القراءة ، فكانت تجلس في الليل مع غيرها من الرجال والنساء ، مجتمعين معاً في كوخ صغير يتلقون التعليم من اللنبي كما يعلم الاولاد الصغار في ساعات النهار . وتعلمت راشيل ببطء ، وكانت تحس ألماً في رأسها في حين كان جديون يبتعد عنها ... يبتعد .. ويبتعد ...

وها هو يعود اخيراً ، ويأخذها بين ذراعيه ، وعلمت

اذذاك اكثر من اية مرة اخرى ماذا يعني القول المألوف : « الحرية شيء يؤخذ بصعوبة . » .

* * *

وفي اليوم التالي لقدوم جديون كان صباح يوم الاحد ، واقام الاخ بيتر اجتماعاً على المرج تحت اشعة الشمس . وانشد القوم بأصوات قوية :

... خذني من يدي ايها الرب الاله ..

خذني من يدي ..

وفتح الأخ بيتر الكتاب المقدس وقرأ : .. هوذا الرب الاله يأتي بيد قوية وستحكم يده الأمم ، انه يحمل مكافأته ، وعمله أمامه ... سيطعم قطيعه وكأنه الراعي سيجمع الحملان الصغار بيده ، ويحضنها على صدره . وسيقود بعطف أولئك الذين مازالوا صغاراً ... آمين ... وهز القوم رؤسهم عند الانتهاء من القراءة . وكان الاولاد يتنقلون ويتمايلون ، ويشدون شعور بعضهم البعض وينقون على الكلاب نقيق الدجاج وجلس جديون وراشيل والى جانبهما جيف وماركوس وجيني ، ولم تشأ راشيل ان يجلس

جديون على العشب بثياب تشارلستون الجميلة ، فمدّت تحته قطعة من القماش . لقد كانوا جميعهم فخورين بهندامه الجميل .

وكانت عينا جيف تتجه بين الفينة والاخرى الى حيث كانت تجلس آلين جونس الفتاة العمياء ، مع السيد اللنبي الشيخ ، وقد لاحظ جديون ذلك ، فقطب مابين حاجبيه . وصرخت طفلة ماريون جيفرسون ، فأنحنى عليها ماريون وأسكتها قائلا : هّس ... اسكتي الآن ... هّس . وردد القوم وهم يهزون رؤسهم الى الامام والوراء : هللويا ... وقال الأخ بيتر :

ـــ سوف لاعظ فيكم اليوم ، اذ ان الاخ جديون قد عاد الينا والحمد لله .. وقد رأى الله « جلّ جلاله » الاله الصالح أن من الخير أن ننال حريتنا وتقبل صلواتنا ، ورأى أنه من المناسب أن يجازينا ببركة الارض الغنية وكانها اللبن والعسل ، بينما هنالك أناس سود آخرون لامأوى لهم ، ولا يملكون مايأكلون . وان الاله الرب قد وجد من الخير ان يمنحنا التصويت ، وقد رافق الاله ، الاخ جديون هناك في تشارلستون . وكيف تم ذلك ؟ ... ان الاخ جديون جلس هناك في المؤتمر مع اناس عظماء وشرفاء ، وقد ساعده الله كما فعل مع الملك داوود ... ليتمجد اسم الله !! ...

وردد القوم قائلين آمين ... وتابع الأخ بيتر :

لقد عاد الأخ جديون ، وانه سيتكلم اليوم بدلا من موعظتي العادية . انه سيخبرنا كيف تم كل شيء . والآن قف ايها الاخ جديون وتقدم الى هنا حيث يتمكن جميع الناس من رؤيتك ...

وتكلم جديون معهم ، ببساطة وصراحة قدر الامكان . واخبرهم كيف حدث كل شيء ، كيف سار الى تشارلستون ، ومعه مخاوفه وآلامه ، كيف عمل « عتالا » في المرفأ ، وكيف اقام مع اسرة كارتر ، واخيراً كيف اخذ مكانه في المؤتمر . وتمكن لاول مرة ان يوضح لهم ماذا تعني كلمة « انتخابات » وماذا يقصد بالتصويت . ماذا يراد بسياسة اعادة البناء ، كما وضعت من قبل الكونغرس ، واعلمهم كيف ـــ ستسير عملية اعادة تعمير البلاد بعد ان تم وضع الدستوز وشرح لهم المواد التي يتضمنها هذا الدستور مادة مادة، ولم يغرب عن باله ان يذكر لهم الفارق بين كتابة مادة وتطبيق هذه المادة عملياً . لقد جاء في الدستور ان التعليم سيكون عاماً في ولاية كارولينا الجنوبية الا انه يجب لذلك ايجاد المال ، والاساتذة ، والابنية اللازمة ، والى ان يتم ايجاد هذه الاشياء يجب ان يتعلم القوم بأية وسيلة ممكنة . واشار جديون

الى ان المادة التي تلغي التمييز العنصري سوف لن تقضي عليه « وان هذا يتطلب سنوات عديدة » ..

ونحن هذا الشعب الذي يعيش هنا ، كيف نتأثر بهذا المستقبل ؟ لقد رحت وأتيت فاستنتجت شيئاً ذا أهمية . لقد باع دودلي كارويل هذا المكان لرجل آخر ولكن هذا الاخير فقده بسبب الضرائب ، وهذا يعني بأن هذا المكان سيعرض في المزاد العلني ان عاجلاً او آجلا ، وسيكون من نصيب من يدفع اعلى ثمن . وعندما يأتي هذا الوقت سنترك المكان ان لم نقم بعمل ما . انني لا اعلم ما ينبغي لنا ان نفعل ، وقد فكرت في الامر .. نعم لقد فكرت فيه كثيراً ، فوصلت الى ان كل عمل نريد القيام به ، سيحتاج الى المال . ومن اين لنا هذا المال ؟ انني لم اعلم بعد الا ان هذا ليس سبباً لليأس . فاسباب اليأس قد ماتت ــ واضمحلت ، وقد انبلج الصبح عن عهد جديد ناصع البياض .. وبامكاننا ان نرى امامنا عالماً جديداً باهراً .

* * *

هنا في كارويل ، لا يشعر جديون بضيق الوقت وتراكم

الاعمال كما كان يشعر عندما كان بتشارلستون .. لا شيء هنا سوى الشمس تبزغ وتغيب . وخلع جديون ثياب المدينة الفاخرة وارتدى بنطاله الازرق وقميصه القديم . ومرت عليه ليلة لم تذق فيها عيناه طعم الكرى ، فهناك في الاسطبل خنزيرة تحاول ان تلد . ان اكواخ العبيد التي كانت تبدو له عند عودته مخيفة قذرة بدأت بالتدريج تعود الى ماكانت عليه سابقاً ، منظراً عادياً مألوفاً ...

وفي كل ليلة كان يقرأ بصوت مرتفع على ضوء الشمعة ، ويجلس الى جانبه ماركوس وجيف وجيني وراشيل مستمعين .. وقد يأتي اللنبي في بعض الاحيان مع آلين جونس والاخ بيتر ، وفي بعض الاحيان يأتي غيرهم . وكان جديون يقرأ لهم من قصائد هويتمان[١] وايمرسون[٢] ، وكلمات جون براون[٣] وقصائد جون غرينليف هويتر[٤] وكان الشعر يشعل خيالهم ، وجديون يقرأ

---

(١) شاعر أميركي ١٨١١ — ١٨٩٩ من مؤلفاته « أوراق الأعشاب .

(٢) فيلسوف وشاعر اميركي ١٨٠٧ — ١٨٨٢ .

(٣) كاتب اميركي من انصار تحرير العبيد شنق في تشارلستون ١٨٠٠ — ١٨٥٩ .

(٤) شاعر اميركي ١٨٠٧ — ١٨٩٢ .

جيداً ، فيهتزون لموسيقى الشعر ويصفقون بايديهم بهدوء . وكان جيف يراقب اباه وهو يقرأ ، وفكر جديون بذلك ... وقرر ان يتكلم معه ويكتشف ماذا يخبىء وراء هاتين العينين السوداوين وهذا الوجه الاسود الذي لا يدل على اي تفكير بليد . لقد كان ماركوس ينظر الى الحياة نظرة سطحية سهلة ، وقد اعجب اللنبي من سرعته في التعلم .. وحان الوقت ليواجه جديون فترة من حب الاطلاع المضني عندما قال له الاخ بيتر مرة :

ـــ اتذكر يا جديون يوم قلت لك بأنك ستعود ممتلئا وكانك الماء البارد النظيف المسحوب من البئر ؟ وهز جديون رأسه واجاب :

ـــ نعم انني أذكر ذلك .

لقد ذهبت الى تشارلستون حيث انعم الله عليك بالذهاب ، ومن ثم عدت وأنت لا تشعر برابطة تربطك بشعبك .

ـــ هذا ليس صحيحا ...

ـــ « ادرت وجهك عن الله فادار وجهه عنك » ...

وفكر الأخ بيتر واضاف قائلاً بحزن :

« هذا ما فعلته يا جديون »

ـــ لا ! لا .. ليس الامر على هذا النحو .. في الامر اكثر من ذلك فانا انما نظرت الى الأمور النظرة التي لا يمكنني ان أنظر اليها بخلافها حسب تفهمي للامور . لقد رأيت الرجال في عهد العبودية ، لم يحررهم الله من عبوديتهم ، بل حررهم الانسان . ورأيت رجالا صالحين وآخرين غير مكترثين يحملون السلاح للدفاع عن غاية شريفة ، وذلك لان الناس الطيبين ، كانت لهم طريقتهم في الحياة وكانت النتيجة أن ظهر من قلب الدماء والآلام شيء له أهميته .

ـــ والخلاص يا جديون ؟[1]

ـــ قد لا اجد خلاصي الا بطريقتي الخاصة . في حقيقة بعض الاشياء ، في المدارس ، في الانظمة والقوانين الجيدة .. في المنازل الجيدة بدلا من هذه الاكواخ التي نعيش فيها .

وفي الليل تهمس راشيل في اذنه قائلة :

ـــ جديون ؟

ـــ ماذا ؟ .

ـــ قل هل تحبني يا جديون ؟ .

---

(١) الخلاص : يعني الخلاص بالايمان بالمسيح

ـــ وهل بامكاني ان احب غيرك ؟

ـــ اذن . ماذا حدث لك يا جديون ؟ فقد طرأ عليك تبدل .. انك تغير كلامك وتغيرت أفعالك ـــ ماذا سيحل بك وبي ؟ .

ـــ لا شيء يا عزيزتي .. لا شيء .

ـــ انك ستتركني قريباً ، انك سترحل ياجديون .

ـــ ان فمك يقول شيئاً وقلبك يقول شيئاً آخر .

ـــ لا .. لا

قال جديون هاتين الكلمتين الأخيرتين مجرباً ان يؤكد لها مايقول .

ـــ وحمل اليه كاب « هولستينج » رسالة من كاردوزو يقول فيها :

« ... هل فكرت بالامر ياجديون . لايمكنك ان تنصرف الى الزراعة حيث انت بينما الأرض تهتز هنا ... ».

* * *

وفي اصيل احد الايام جلسوا وظهورهم مستندة الى

مستودع الحبوب ، وارجلهم ممتدة امامهم كما كانوا يفعلون في الايام الماضية ... جديون والأخ بيتر ، وهانيبال وواشنطن واللنبي، واندرو وفرديناند، وقد اخذا هذان الاخيران اسم لنكولن كنية ... جلسوا جميعهم يقضمون قطعاً من القش ويرفسون الأرض فيتصاعد الغبار ..

ــ يظهر انها ستمطر ..

ــ يظهر كذلك .

ان الاوساخ القديمة والغبار تستفيد من الامطار .

ــ نعم انها تستفيد من ذلك .

ــ ان السماء متلبدة بالغيوم من الناحية الغربية .

ــ نعم انها غيوم كثيفة وقد تمطر بشدة .

وقال جديون

ــ كم كنت ارغب لو تقومون ببذر بعض الافدنة بالقطن .

ــ انني سعيد اذ لم اعد ارى جوزات القطن تتفتح .

انها غلة مؤلمة ...

وقال جديون

ـــ انها غلة هذه الارض ، وهي تباع فتدر نقداً لمن يشتريها ونحن بحاجة الى النقد .

وعلق اللنبي قائلاً :

ـــ انك لا تنفكُّ تقول هذا ..

ـــ ليس هناك ما هو ملكنا . الارض ليست لنا ، حتى ولا الاكواخ التي نعيش فيها ، لا شيء ... وكل شيء يتخبط في الفوضى حتى هذه الساعة ، وليس من يقوّم الامور ، ولا من يتساءل : ماذا يفعل اولئك الزنوج هنا . ولكن ، ستأتي الانتخابات المقبلة ، وسنحكم من قبل حكومة مدنية ، وحينئذ سوف لن يترك فدان واحد مهمل دون ان يحسبوا له حساباً .

ـــ جديون من سيخرجنا من الارض ؟

ـــ كل من يبتاعها ..

ـــ ان الرجل الابيض لا يمكنه زراعة الارض بنفسه ، وسيحتاج الى زنوج لهذا العمل .

ـــ نعم انه سيحتاج الى الزنوج ، وسيعملون بها ويزرعونها مقابل حصص ينالونها كما كان يفعل القوم البيض قبل الحرب . انهم سيزرعون كل فدان بالقطن ، وسيضطر الزنجي الى استجداء قطعة من الشحم يغذي بها اولاده . وكما قال الاخ بيتر : هذه ارض

اللبن والعسل الآن . ولماذا ؟ لاننا نزرع الارض بالمزروعات الغذائية نزرعها بالمواد التي يمكننا اكلها ، وهكذا نعيش دون نقد ، غير ان الشمعة الصغيرة التي نستنير بضوئها لقراءة كتاب ما تحتاج الى نقد ، وكتاب مدرسي للاولاد يتطلب نقداً ....

وسأل هانيبال واشنطن :

ـــ جديون ، أليس من الممكن ان تشتري الحكومة الارض وتمنحها للزنوج ؟

ـــ قد يحدث ذلك ، ولنفرض ان الحكومة فعلت ذلك ـــ والحكومة عبارة عن عدد من الرجال يقارب الالف يسيرون ببطء ـــ ان ذلك سيتطلب سنة او سنتين وقد لا يحدث مطلقاً . وقد تقول الحكومة هنالك قطعة من الارض في منطقة جورجيا انتقلوا اليها . وهذا لا يمكن ، فلطالما عشنا في هذا المكان ، فمكاننا هنا ولابد لنا من امتلاك هذه الارض .

ـــ وكيف ؟

ـــ نشتريها ، نعمل ونجمع بعض المال ونشتري الارض .

وقال اللنبي :

ـــ ان هذا يحتاج الى كثير من المال يا جديون .

ـــ لا شك انه يحتاج الى الكثير من المال . الا انه علينا

ان نبدأ ، والبنك يقرض المال ، نعم حتى الى الزنوج ، اذا مارأوا مشروعاً معقولا ، وأدركوا غايتنا ، ووجدوا بعض النقود معنا ان شركة الخطوط الحديدية ستبني محطة في المستنقع ، ويريدون عمالا باجر دولار في اليوم لكل عامل للابيض والاسود على السواء . فلنفترض اننا نذهب الى هناك ، ونمضي ستة او ثمانية اسابيع بالعمل ..

ــ والغلال ؟ ...

ــ عندما نعود نجمع الغلال .

وخيم صمت طويل الى ان قال الاخ بيتر :

ــ انه لشيء مؤلم يا جديون ان نبعد الرجال عن النساء .

غير ان هانيبال واشنطن قال :

ــ ان جديون لعلى حق .

وقال جديون :

« اذن سنجتمع ونتشاور بالامر .» .

لقد كان الامر مؤلماً بالنسبة للنساء وكنّ ينظرن الى راشيل وهنّ يغسلن في النهر ، وهي تعمل بهدوء . ان التغيير يحمل معه المتاعب ، ومن الآن فصاعداً سيطرأ تبدل وتغير ، وسيكون هذا

التبدل مؤلماً ومتعباً بالرغم من انه جزء من الحرية . لابأس ان يعشن كالاطفال ، الاطفال الذين يتخبطون بالماء وهم عراة ، فتتطاير الفقاعات ، فيضحكون ويضجون بالضحك ولا يشعرون بالخجل . الا انهنّ لسن اطفالاً . ان المستنقعات مملوءة بالملاريا ، وسيمرض الرجال ويموتون والمستنقع مكان ملعون تسكنه الجن والابالسة . وكانت راشيل تضرب الالبسة وتدعكها دون ان تتكلم ، وعندما رأت جيني تسقط صرخت قائلة : جيني ، جيني اخرجي انهضي ... ثم عادت الى سكوتها السابق ، وعندما رأت النسوة ينظرن اليها باستغراب ودهشة لم تنبس ببنت شفه .

وسأل اللنبي جديون :

ـــ هل تنوي اصطحاب جيف معك ؟

ـــ نعم ... انه قوي كأي رجل ..

ـــ اما انا فلا اوافقك على ذلك .

ـــ ولمَ ؟

وكانا في المستودع والنور يتساقط من الفتحة الواسعة في السقف لقد جعل اللنبي من هذا المستودع الذي كان يشغله آنذاك مدرسة ، وعلى صندوق اطعمة فارغ اتخذه اللنبي طاولة

له ، انتشرت بعض قطع الفحم المبرية وطبق من الورق الرخيص . وفي الجو انتشرت رائحة اولاد لم يتمكن جديون من تمييزها ، كان يعبق في الهواء التعطش والتلهف للعلم بالرغم من ان الاولاد كانوا قد انصرفوا . لقد حضر جديون مرة احد الدروس ورأى بنفسه مايتمتع به هذا الشيخ من صبر لا يصدق وقد شبههم اذذاك بقوله : انهم كصغار الحيوان .. فأجابه اللنبي : طبعاً ، وما تنتظر ؟ الا انهم يتعلمون . نعم ان شوقهم للتعليم كان بادياً ، واللنبي معلم صبور جداً ...

لم يكن جديون قد ذكر للنبي شيئاً عن الحديث الذي ينوي بحثه مع جيف فسأل متعجبا :

ــ ولماذا لا اصحب جيف معي الى العمل ؟

ــ قد يكون من الصعب أن اجيبك . ربما لأنه أشبه بشعلة من النار . هل تدرك ماذا يتفاعل في داخله ياجديون ؟

وارتبك جديون ولم يتمكن من الاجابة .

ــ بامكانه القراءة والكتابة الآن . وهو أشبه مايكون باسفنجة تمتص كل ما تصادفه من سائل . وانه يحاول أن يمتص العلم باجمعه بسرعة لاشك تخيفني . انه يعرف ماذا يريد ان يصبح في المستقبل . انه يريد ان يكون طبيبا .

ــ وما دليلك على هذا ؟

ــ لقد أخبرني بذلك .

ــ اما انا فلم يذكر لي ذلك مطلقا .

ــ وهل اقدمت على سؤاله ؟

وهز جديون رأسه اشارة بالنفي وتابع اللنبي حديثه :

ــ هل تفكر في نفسك يا جديون وتتساءل ؟ .. اتذكر الرجل الذي كان يقطع الطريق الى تشارلستون سيراً على الاقدام ؟ لم يمض زمن طويل على ذلك ، الا انك لست ذلك الرجل الآن . هل تتساءل عما يطرأ علينا جميعاً من تغير ؟ عما يحدث لهذا العالم الذي نعيش فيه من تطور ؟ وعندما كنت تجلس في تشارلستون تفكر في وضع مشاريع لتغيير الوضع وتحسينه ، هل خطر ببالك ان هذا التغيير سيكون كالآم المخاض ؟

وسأل جديون ببطء :

ــ وماذا تريد ان تقول عن جيف ؟

ــ ماذا اقول عنه ؟ انه ابنك ... خذه معك الى المستنقع ، وسيكسب دولارا باليوم .. وانا لا اقول ان في ذلك خطأ . الا انه يجب علينا ان نبدأ وهنا في الجنوب لاتوجد

مدارس ، غير انه بامكانه الذهاب الى مدرسة بالشمال ، فهنالك مدارس « بماساشوسيت » ، تقبل اولاد الزنوج وتعلمهم وتدربهم . وقال جديون وهو بادي الذهول والتعجب :

ـــ لا اعرف ... لا اعرف ..

ـــ لديك اصدقاء في تشارلستون . وكاردوزو قد يستطيع أن يجيبك على هذا .

ـــ ونبعده هكذا عنا ؟ ..

* * *

وذهب بها جيف الى غابة الصنوبر ، وبدأ يقص عليها اخباراً شيقة عن كل ما يحيط بها ... هناك ضفدعة تقفز امام قدميك ... واخبرها عن الشمس التي كانت تميل الى الغروب فتظهر وكأنها وردة ذابلة من بين الاغصان .. انها تحس بنسمات الهواء بنفسها ، تحس بنسمـــات الهواء تداعبها كانها يد انسان على حد تعبيرها كانت مخاوف آلين تحيط بها من كل حدب وصوب ، وعندما تجرأ جيف ودخل حياتها بلطف ، كان ذلك بمثابة معجزة من السماء لاتدرك لها سبباً الا بغريزتها .. كانت تعيش في

كهف عميق مظلم لالون فيه ولا نور . ولم يقم جيف بحركة او خطوة ، ولا تلفظ باية كلمة من شأنها ان تخيف هذه الفتاة العمياء التي كانت بالنسبة اليه اجمل مخلوقة وجدت في الكون .. وقادها الى المروج ، وجعلها تتلمس نسيج حشائش المرج ، وفي احدى المرات وضع في يدها حبة من عنب الثعلب وفقسها . وكان اللنبي يقطن في كوخ بناه له رجال القرية ، وما كان ليمانع في ان يأتي جيف ويقرأ في كتبه الى آلين بينما هي تعمل في البيت ، وكان جيف يقرأ من مؤلفات العم « سيكتون » الذي توفي في العام الماضي قصص المستنقعات ، والعصافير والحيوانات والزواحف التي كانت تخاطب بعضها البعض وهي تعيش حياتها الخاصة العجيبة وعلمت راشيل ان ابنها يحب الفتاة وهو مغرم بها ، وادركت سبب عاطفته التي تشبه عاطفة جديون ، وكانت تضرب ماركوس على عقب رجليه عندما كان يسخر من جيف ، ومع ذلك كانت تشعر بالحزن والاسى ، فالفتاة ضريرة ، وفتاة ضريرة لابد من الاعتناء بها ، وهي عبء على الرجل كيفما نظرنا الى الموضوع ، وهذا هو جيف وقد قارب سنه سن جديون يوم تزوجها .. الرجل يحتاج الى المرأة وكذلك المرأة .. ولكن .. يجب ان يكونا متعادلين ككفتي ميزان يحملان معاً حملاً متساوياً ..

وقال لها اللنبي « سيكون الامر خيراً . صدقيني يا راشيل . » .

وهناك حيث تنتهي الحقول في الجنوب ، وعلى بعد نصف ميل في قلب الغابة كان ينفسح فدان من الارض العارية ، قطعت منها الاشجار ، وبقيت الجذوع المقطوعة بارزة بعض الشيء تحت اشعة الشمس المحرقة ، هناك حيث حطت الصقور على جذوع الاشجار العفنة وبدأت تطأطيء رؤوسها لبعضها البعض بشكل رتيب ، وحيث استلقت افاعي الحقول متمددة ، الى هناك ذهب جيف بآلين .. لقد توفر لهما مكان فوق الرمال الدافئة حيث يجلسان وظهراهما الى شجرة مقطوعة .. هنا في هذا المكان كانا يتمتعان بلذة الوحدة العجيبة .. هنا تمر الساعات وجيف يصور العالم بالكلمات الى الفتاة التي لاترى من العالم شيئاً ، من غيوم وطيور تتصاعد وتدور في كبد السماء ، هنا تتتابع الصور فتصبح احلامه وآماله صورا حية .

واحست بتغير بطيء ، هادىء ، لطيف ، يطرأ عليهما ، سببه هؤلاء القوم الطيبون الذين يفيضون حرارة وعاطفة ، وهذا المجتمع المليء بالصداقة واصوات الناس المتصاعدة طيلة النهار ،

من ضحك الاولاد ، الى مناداة الناس بعضهم لبعض من مسافات بعيدة .. سبب هذا التغير من ناحية اخرى هو جيف الذي قال لها مرة : « انني احبك كثيراً يا آلين » . والذي اخذها بين ذراعيه مرة اخرى فقالت : « ارجوك الا تضرّ بي يا جيف » . جيف هذا الذي بدأ يدرك بكل مشاعره ، ماذا تعني الحياة لهذه الفتاة الشقية ، انها فتاة غريبة من نوع خاص ، ولا بد له من ان يعرف كل شيء بنفسه فليس من يجيبه على اسئلته ، في الوقت الذي كان فيه أترابه من الصبية في سنة يختبئون بين شجيرات العليق الصغيره يرقبون الفتيات وهنّ يستحممن ، او يركضون وراءهن ويلقون بهن الى الارض المغطاة بالاعشاب .

وسألته مرة :

ــ اي عمل ستمارس ؟

ــ ان اي عمل سأمتهنه سوف لن يغير من شعوري .

ــ ولكن اي عمل هو ؟

ــ سأكون كوالدك ..

لقد كان أول من تجرأ على الكلام معها عن والدها .

ــ طبيباً ؟

وأجابها نعم .. ان الامر كذلك .. وانطلقت أفكاره ترسم صورا مختلفة .. ها هو طبيب القرية ، كافر مدمن على شرب الوسكي ذو لحية تفوح منها رائحة التبغ .. انه سمع القوم يتكلمون عن الاطباء باشياء متناقضة متضاربة وقد استلقت امرأة على فراش الموت .. وفكر آنئذ أن يسأل جديون ، فلا بد أنه يعلم ، الا انه لم يتمكن أن يسأل اباه ... لقد كان يحبه لدرجة العبادة فلم يجرؤ على ذلك ..

وسأل اللنبي :

ـــ الطبيب .... ماذا يعمل ؟ ..

ـــ انه رجل يشفي المرضى .

ـــ اهذا أكيد ؟ .. وفكر بأمرأة بائسة عجوز كانت تعيش في الغابة على بعد اميال .. انها تصنع التعاويذ وتبيعها ، واراد ان يعلم : ايعمل الطبيب ـــ بهذه الطريقة ؟

واجابه الشيخ شارحا :

ـــ ان الطبيب يشفي المرضى بواسطة العلم ومعرفة العوامل التي تسبب مرض الناس .

ـــ ولماذا يمرضون ؟ ..

وهكذا بدأت الفكرة تأخذ طريقها الى رأس جيف ،

وهاهو الآن يسير بآلين الى غابة الصنوبر ممسكا اياها من يدها ، قال لها :

ـــ انهم سيرسلونني بعيدا عن هذا المكان .

ـــ سيرسلونك بعيدا ؟ .. إلى أين ! ..

ـــ الى الشمال على ماالظن ، لأدرس وأصبح طبيبا .

لم يكن من الممكن تصديق ذلك ، انه لشيء مخيف مرعب .. وسألته بلوعة عما سيحل بها عندما يذهب ، وشعر هو بالظلام يعود فيطبق عليها وكانت هذه الفكرة لم تخطر له من قبل فقال لها :

ـــ انني احبك ، واحبك انت وحدك .

ـــ غير انك تريد الذهاب ..

واجاب ببؤس :

ـــ نعم انني اريد الذهاب ، وسأعود يوماً ما ، سأعود بكل تأكيد . انني اقسم بانني سأعود .

ولم يخبر جديون راشيل بالخبر الى ان استلم جواباً من كاردوزو ، الذي اجابه انه بالامكان تدبير الامر ، فيجب ان يحضر جيف اليه في تشارلستون وهو سيكتب الى فريدريك دوغلاس وبعض اصدقائه الآخرين بالشمال . وقد يكفي مبلغ

خمسة وعشرون دولارا لاول مرة ، وانه اي كاردوزو ، سيعمل لتأمين السفر بحراً الى بوسطن .

وعندئذ اخبر جديون راشيل :

وكم تبعد بوسطن عن هذا المكان .

ـــ اظن انها تبعد نحواً من الف ميل ، ولكن هل تعلمين ماذا يعني هذا ؟ . ان احد اولادنا يا راشيل .. الطفل الذي ولد في العبودية ، سيذهب الى بوسطن ليدرس الطب ..

وهزت راشيل رأسها ، وسأل جديون :

ـــ الا تعتقدين باني اريده ان يبقى هنا معي ؟

وعادت راشيل فهزت رأسها ، واخذها جديون بين ذراعيه وقال :

ـــ انظري ايتها الطفلة ، ايتها الطفلة الصغيرة ، انك ستفتخرين بابنك هذا وستكونين جد فخورة به ، وستعيشين لتريه يسير بخطوات فخورة واسعة .

واجابت راشيل بقولها : انني اعلم ذلك ...

* * *

وقف رئيس العمل الشمالي ، وهو رجل طويل القامة ، ذو لحية طويلة يلبس حذاء جلديا ملطخاً بالاوحال ، وثيابا مبللة ، ولما يمض عليه وقت طويل منذ ان أبلّ من الملاريا ، وقف مخاطباً جديون :

ـ انت تتكلم بأسم هؤلاء الرجال ؟ حسناً .. ما عددهم ؟

ـ اثنان وعشرون .

ـ سيحمل كل واحد رفشا وفأسا ومعولا وندفع له دولارا في اليوم . سبعة ايام في الاسبوع منذ بزوغ الشمس حتى غروبها . واننا ندفع الاجور في يوم الثلاثاء من كل اسبوع ...

وهز جديون رأسه وقال حسناً .

وهز رئيس العمل رأسه مشيراً الى الكوخ حيث تدفع الاجور وقال :

ـ هناك دعهم يوقعون او يضعون علامتهم ...

وكان جديون « وتروبير وفرديناند لنكولن » يعملون جميعا في فرقة قطع الاشجار . وبدؤوا يهوون بفؤوسهم الحادة من الجانبين ، على اشجار يتراوح قطرها بين ست أو ثمان بوصات وقد غاصت ارجلهم في الماء والوحل حتى الركبة ... وكان هذا

اول عمل حر يقوم به اكثر الزنوج الذين يؤلفون العدد الاكبر من عمال الفرقة المختلفة . وعندما اقامت الشركة الشمالية مكاتب تشغيل العمال في المدن المجاورة لتسجل العمال المتطوعين للعمل في بناء الخط الحديدي ، كان ـــ التجار يهزون رؤوسهم ويقولون بأن هذا يتعدى كونه اضاعة للوقت ، فالزنجي لا يعمل دون سوط يلهب ظهره او دون سيد يملكه . وانه لمن العار ان تدفع للزنجي دولاراً في اليوم .. ان هذا سيفسدهم ويحطمهم ... ومن سمع باجور كهذه ؟ ... غير ان رؤساء الشركة الشماليين والمهندسين كانوا يهزون اكتافهم ويتابعون عملية تسجيل العمال واستئجارهم وكان السكان المحليون يقولون بانه في كل الاحوال لا يمكن اقامة طريق مرتفع فوق المستنقعات ، وسيكون هذا عبرة لهؤلاء الشماليين لعنة الله عليهم .. غير ان الطريق كانت ترتفع وتخترق المستنقع . وعندما كانت الاغصان والاخشاب المتقاطعة تغوص كان المهندسون يلقون فوقها الحصى ويعودون فيصنعون الاخشاب المتقاطعة . وعندما كانت الامطار تهطل وتجعل المستنقع بحرا من الاوحال والمياه الآسنة كان الرجال يقفون وقد غطاهم الوحل حتى خصورهم ويفرقون قطع الاخشاب . وعندما كان البعوض يتوالد والملاريا ترسل افواجاً من الرجال المصابين

وهم يرتجفون من البرداء الى المستشفيات كانت اعلانات الاستئجار والتشغيل تعود فترتفع . وذلك الحماس المفاجيء الذي سيطر على بعض سكان المنطقة عندما سمعوا بان القطار سيشق طريقه الى الجنوب لم يلبث ان تلاشى . واما ملاكو المزارع السابقة ووكلاؤهم وتجار العبيد ، فقد وجدوا في هذا الشيء الجديد الذي تقوم انكلترة الجديدة ببنائه شيئاً مخيفاً ، اجنبياً ، غريباً عنهم ولكنهم لا يتمكنون من تجنبه ، ذلك ان انكلترا الجديدة هذه تملك شركة تشق طريقها بتلك السرعة التي شق بها شيرمان طريقه الى البحر ، سرعة مخيفة لا يمكن تصديقها .

أما الامر بالنسبة للزنوج ، فقد كان غير ذلك ، ولاول مرة تتوفر لجديون فكرة عن العلاقة بين العمل من ناحية والحياة المدنية من ناحية أخرى ... فعندما كانوا عبيداً ، كان يعمل هو وشعبه ؛ سنة تتلوها سنة أخرى ، لا أمل عندهم ، ولا كسب ، بل عمل كما يعمل البغل والثور ... وهاهي شركة الخطوط الحديدية الآن ، تعلن عن انتاج سيدفع ثمنه ، وهذا الانتاج هو العمل وجاء جديون وشعبه فباعوا جهد عملهم بدولار في اليوم ، وقد ينتج عن عملهم هذا وجهودهم ، حلم يمكن لكل انسان

تصوره ، قد ينتج عنه طريق عبر المستنقع ، وخطوط حديدية تلمع ، وقطار يصفر في الليل . وسيعودون كرجال احرار ، رجال يملكون دراهماً . وهم بدورهم سيشترون ويدفعون ثمن مايريدون .. سيخلفون وراءهم مابنوه بعرقهم وقوتهم .

هل كان بالامكان بناء طريق كهذه بتشغيل العبيد الارقاء ؟ ان جديون لا يعلم على وجه التحديد الا انه يعلم بأن العبيد لم يصنعوا مطلقاً شيئاً كهذا بالرغم من السياط التي كانت تلتف حول ظهورهم .. وهاهي فرقته الآن تقوم بقطع الاخشاب وتحضيرهم للحزم المتشابكة . كل رجلين منها يقفان متقابلين وبينهما الشجرة ، يهويان عليها بفأسيهما ، واحد للأعلى قليلاً والآخر للأسفل ، وما هي الا ضربات ثمان قوية على شجرة متوسطة الا تهوي ويتردد صدى ، سقوطها ، ويسمع صوت السقوط والأغصان تنكسر متلامسة مع صفحة الماء وبالتالي صوت ضربات الفؤوس تقطع الفروع ، وما ان ينتهي من ذلك ، حتى يرفعها ثمانية رجال ويلقون بها الى الزلاجة التي تجرها البغال ... كان الرجال يعملون وهم نصف عراة ، ظهورهم السوداء تلتمع ، وعضلاتهم تتحرك متراقصة ، كانوا ينشدون في بادىء الامر أغاني العبيد ، أغاني العمل في ظل العبودية ، ولكن

هذه الاناشيد لم تعد تصلح اليوم ، فالحانها لا تناسب المقام ، فكل شيء تغير ، حتى خطواتهم ... ثم ان عملهم الآن ليس مناحة .. وهكذا كان لابد ان تظهر الاناشيد الجديدة ، ابتدأت اولا دون كلمات ، ثم جاءت الكلمات بسيطة وكذلك سلسلة الافكار :

« الشجرة الكبيرة الهرمة لاتحب فأسي ... الشجرة الكبيرة لاتحب فأسي ... ».

وظهرت الكلمات وتكامل اللحن ...

* * *

وكان جديون يشعر بالتعب والألم ، وعندما يجن الليل كان كل عضو من جسمه يؤلمه ، ولا يكون له آنذاك أية رغبة او فكرة الا ان يستلقي على ارض الكوخ الخشبية القاسية وينام . ينام ويعمل ويأكل وهذا كل شيء . وبدأ يسأل نفسه « ... أين التعلم والراحة ، والكتب ؟ لا شيء سوى العمل في حياة كهذه ... » ان الخطوة التي خطوها بعد أن كانوا في العبودية تشكل عصراً كاملا في تاريخ المدنية .. ولكن هل يتوقف الرجال هنا ؟ ..

وكان الطعام يُطبخ ويُقدم ثلاث مرات في اليوم يتألف من لحم وبطاطا وأرز ، فهو جيدٌ من حيث النوع وان لم يكن كثير التنوع وان ساعة الراحة الوحيدة في يوم عمل يدوم أربع عشر ساعة هي تلك التي يقف فيها الرجال صفاً يتناولون طعامهم فيها في صحون معدنية . وكانوا ينامون في مهاجع طويلة خشبية أقيمت بسرعة ، أو في خيام عسكرية قديمة . وقال « كيكي » رئيس فرقة العمل الرابعة الى رئيس المهندسين « ريد » : اعطني عشر فرق كفرقتي وانا مستعد لبناء طريق الى جهنم . واجاب ريد الذي كا يخدم في سلاح الهندسة خلال سنوات الحرب : احتفظ بنشاطك ، وانك ستصدم مقابل هذا النشاط في نفس هذا المكان .. وارسلت الملاريا موجة من موجاتها ، وظهرت صحة كلام ريد ، وانقلب المستنقع الى اتون ملوث مخيف ، وكان البعوض يجوب المنطقة ليلاً نهاراً . واصابت الحمى احد رجال جديون ، وهو جورج رايدر ، وبعد اربعة ايام سقط ميتاً .. وعاد هانيبال واشنطن والاخ بيتر الى القرية يحملان الجثة ، عسى ان تجد النسوة بعض العزاء برؤية الجنازة والبكاء ، وانتقل جديون الى فرقة العمل في الحصى والحجارة . وفي احدى الليالي سمعوا صفيراً وضجيجاً . انه قطار العمل يسير باتجاههم ، لقد تمَّ تجفيف

الطريق ، وازدادت الحرارة صعوداً ، ورغم هذا كله فقد كانت ظروف العمل تتحسن . وان هذه القفف من الحصى والحجارة الكبيرة المكسورة ، وتلك الحزم من الاخشاب المتشابكة والقضبان الحديدية ، تشكل طريقاً لقطار العمل وشعر جديون بالصراع في رأسه ، انه يحاول ان يدرك هذه العوامل التي تتضافر في تكوين هذا العمل . وسأله هنيبال واشنطن مرة :

ــ جديون .. هل يعمل القوم البيض هناك في الشمال هكذا ؟ ..

ــ قد يعمل بعضهم هكذا ..

ــ دون راحة أو لعب او ساعات يقضونها مع النساء ؟ ..

ــ ربما يعملون دون هذه الاشياء ..

ــ وهل تعتقد بأن هذا جيد يا جديون ؟

ــ أنا لا أعلم ، وقد أجد الجواب على ذلك في المستقبل .

* * *

لقد وقع هذا الحادث أثناء غياب الرجال كانت لأترويبد ابنة تدعى جيسي لها من العمر أربعة عشر عاماً. وأنها لتذكر الحادث بصورة غير واضحة ومتقطعة ففي اثناء سيرها على الطريق القديم المعروفة بطريق التبغ ، وهي تحلم احلام اليقظة. جاء رجلان من البيض يركبان عربة يقودها بغل. وصرخا بها قائلين : « هاي .. أنت .. تعالي الى هنا : فركضت عبر الحقول فلاحقاها .. وتعثرت بكومة من الحصى فسقطت .. فادركاها وجرداها من ثيابها واعتديا على عفافها ، وقد تشاورا في امر قتلها ، واخيراً تركاها تذهب ، فانطلقت راكضة الى البيت عارية ، وقد ذهب الخوف بنصف عقلها ...

وعندما سمع ترويبد بالحادث ، غدا هو الآخر ، نصف مجنون وكان رد الفعل الرئيسي القوة والبطش ، فقد أراد ان يقتل. وقال بانه سيقتل رجلا ابيض .. انه متأكد من ذلك تأكده من وجود جهنم .. واقبل عليه جديون والاخ بيتر فناقشاه وتوسلا اليه : « ... انك ستذهب بنفسك الى المشنقة بكل تأكيد .. »

« اذن سأذهب الى المشنقة . » وماذا سيفيد عملك هذا ؟ . » « لابد ان يفيد .. » وقال له جديون اخيراً وقد سيطر عليه

غضب بارد : « انك تتكلم كمجنون . انك لن تقدم على هذا العمل .. لقد عملنا في المستنقع لمدة سبعة اسابيع .. لماذا ؟ اسأل نفسك عن سبب وجودنا هناك ياتروبيد ؟ .. وقد مات رجل بالملاريا واخذوه فدفنوه ... اننا لم نستلق على ظهورنا ولم ننظر الى السماء الزرقاء ، كما اننا لم ننظر الى امرأة في هذه المدة .. إسأل نفسك لماذا ؟ ..

وقال تروبير ببلادة : لماذا ؟ .

ـــ لا شك انك تتكلم كلمات ضخمة كبيرة يا جديون .. تتكلم بعظمة وبصوت مرتفع ... إذهب الى تشارلستون بكبريائك وترفعك ، حيث تأكل من خيرات الارض وتجلس مع زنوج أنيقين وقوم بيض .

ـــ أيها المجنون . لقد ذهبت الى تشارلستون لانني ارغمت على الذهاب الى هناك ، ذهبت الى تشارلستون خائفاً ، مستضعفاً ، حيث كان هنالك امور كثيرة يخاف منها المرء ، ولا يزال بعضها قائماً .. نعم .. ووضع يده حول تروبيد وتابع قوله :

ـــ انظر إلي ايها الرجل ان ماحدث شيء مخيف ، شيء فظيع محزن ، فتاة صغيرة تركت مجروحة جراحاً عميقة .. الا ان هذه الجراح ستشفى .. ان الجراح تشفى .. انها ستنسى لديك

اطفال آخرون وامرأة . إننا سنعود من المستنقعات وقد جمعنا ما يقارب الالف دولار .. هل تسمعني ياترويبد ، نحو الف دولار . ان هذه الكمية من المال لم تجمع على مر التاريخ لدي الزنوج .. انها تكفي للسكر ، ولشراء اشياء خاطعة كثيرة وجميلة ومغرية . ألبسة فخمة ، حلويات وسكاكر والله يعلم ماذا ايضاً ، .. بامكاني متابعة تعداد هذه الاشياء .. ان فيها لتجربة .. وقد تكلمت مع الرجال وقالوا حسناً يا جديون لتحتفظ بالمال فنشتري الارض ولماذا يريدون ذلك ؟ اولئك الزنوج الجهلة الذي كانوا بالامس عبيداً ؟ لماذا يبنون هذه الآمال ، ولـمَ لهم هذه الثقة بالمستقبل ؟

وهز ترويبد رأسه ببؤس .

ــ دعني اخبرك لماذا .. ان المستقبل يأخذ شكله ببطء ، كأنه الغد . وكما ان هذه الشمس العجوز تغيب والرجل الأرق لا يتمكن من النوم ، ويناجي نفسه .. متى ينجلي الصبح .. متى يقبل الغد ؟ هل سيبقى هذا الليل الى الابد ؟ . ويتقلب ويتلوى . وهو يردّد هذه الاشياء طيلة الليل وحيداً ولا يتمكن من النوم . حسناً .. ان هذا الزمن قد قارب النهاية ، وان

الغد سيكون هنا قريباً ، غداً حقيقياً بكل تأكيد . ان جميع الشرور وسيئات الماضي تضمحل ببطء .. زنجي يجلد ، وفتاة زنجية بائسة تعامل معاملة سيئة .. الا ان كل ذلك سيضمحل .

وقرأ جديون لراشيل وصفاً للمدرسة التي يتلقى جيف فيها علومه . وبدا له الامر غريباً ، في ان تكون هذه الورقة المكتوبة كتابة حسنة هي الانعكاس الوحيد لابنه ، وجرّب ان يملأ الفراغ الذي تركه ولده في نفسه ، وعلى الاخص في نفس كلٍ من راشيل وجيني وماركوس . وعندما بادر هذان الاخيران جديون بالسؤال اين تقع « ماسا شوسيت » هذه ، اجابهما بأنها بعيدة جداً ... وبأنها مكان يعيش فيه الأميركيون الشماليون . « الشماليون فقط ؟ » واجابهم جديون : نعم شماليون فقط . وتابع قائلاً : وهنا يخبر عن المدينة فاستمعوا : ان « وورستد » جميلة ، وفيها عدد كبير من الناس ، ومكان كهذا جدير بان يسمى مدينة . قد تخيف المرء في باديء الامر إلا انه لا يلبث ان يعتاد على العيش فيها .

ـــ أتشبه تشارلستون ؟ سأل ماركوس هذا السؤال مع ان الفكرة التي يحملها عن تشارلستون لاتتعدى كونها واهية وأجاب جديون دون ان يكون واثقاً مما يقول :

ـــ نعم تشبه تشارلستون على ماالظن ومن ثم تابع قراءته :

« ... يوجد هنا في الاكاديمية البريسباترينية اربعة عشر طالبا وجميعهم اولاد ملونون مثلي . غير ان اكثرهم ايتام لا أب لهم ولا أُم . وان قداسة تشارلزسميث وقداسة كلودسوتويك ، وهذا الاخير ليس برسباتيرياً بل ليونيتارياً ـــ يعلمنا القراءة والكتابة ، والجمع ، واللاتينية ، والتاريخ ، والجغرافية .

ـــ ما هذا « ليونيتارياً » ؟ ..

ان جديون نفسه لا يعرف ذلك ، الا ان بامكانه ان يخبرهم ما هي الجغرافية ، واللاتينية لغة يتكلمها قوم منذ مئات السنين في بلاد غير هذه البلاد ... « هل يتكلمونها الآن » ولم يكن جديون متأكداً كما انه لم يكن ليعلم ما اذا كانوا يريدون ارسال جيف الى تلك البلاد ... وتابع قراءته :

« ... اننا نتعلم ونعيش في غرفة وراء مذبح الكنيسة ندعوها « الملحق » وان جمعية السيدات تحضر لنا طعامنا ، ويتدبرون لنا الالبسة كي نلبس ، وهي البسة نظيفة وجيدة ، لم تُلبس فيما مضى الا لمدة قصيرة .. اننا نعمل مقابل ذلك ، والآن نقوم بجمع الاعشاب ، وننظف النوافذ ، ونكنس الكنيسة ونحافظ على نظافتها ، ونأخذ مقابل ذلك عشرة سنتات في

الاسبوع كمصروف .. انني وحيد هنا لبعدي عنكم ، الا انني سعيد . اخبروا آلين انني اشعر بالوحشة لها .. » .

ومسحت راشيل عينيها ، اما ماركوس وجيني فقد عاشا لتلك اللحظة مع جيف في الشمال ، يناقشان النقاط المثيرة التي جاء عليها جيف برسالته . وقال جديون : « أترون كم من خير له في هذا .. » اما جديون نفسه ، فقد كان هو كذلك يسير مع جيف في أحلامه ، وقد شعر بقربه منه في رسائله اكثر من اي وقت مضى من حياته . وقد قال له في احداها : اقرأ الكتب التي كتبها تشارلز ديكنز . انها ستعلمك كثيراً عن الاخوة بين بني الانسان ، وعن الرجال الصالحين والطالحين .

* * *

وذهب جديون لرؤية (انبر لايت) قبل ان يبدأ مفاوضاته من اجل الارض ، ففي صباح احد الايام سار الى بيت انبر ، وعندما ادركه وقف متكئاً على الباب منتظراً ان يراه الرجل الابيض ، وجاءت السيدة لايت الى الباب ، فحدقت بنظرها الى

جديون ومن ثم عادت الى الداخل . وأقبل جيمي وأعلم جديون بان أباه يقوم باطعام الحيوانات ، وسأله الصبي قائلاً :

ـــ ما اسمك ايها الزنجي ؟

ـــ جديون جاكسون .

ـــ لقد رأيتك فيما مضى .

وهز جديون رأسه وقال :

ـــ هذا صحيح ، اعتقد بانك تذكر كيف مررت من هنا في العام الماضي .

ـــ هاه ...

ـــ وما عمرك ايها الصبي ؟

ـــ عشرة اعوام ..

ـــ هل ذهبت الى المدرسة ؟

وكشر الولد وهز رأسه وقال :

اني لا اريد الذهاب اليها ..

وجاء ابنر من حظيرة الحيوانات ، وهز رأسه محياً جديون وقال : صباح الخير .

وأجابه جديون :

ـــ صباح الخير ايها السيد ابنر . لديك هنا مكان مزروع

بالحبوب بشكل حسن . وكذلك ارى انه لديك بضعة آفدنة من القطن ايضاً . وهذه ستكون غلة تقبض ثمنها نقداً .. غلة تقدم لك هذا العام ثمناً جيداً من النقد المالي .

وقال ابنر :

ــ اذا تم قطفها وجمعها ...

ــ لاشك انها ستجمع .

ــ انه جميل منك ان تكون متفائلاً بهذا الشكل ، فقد تريد ان تأتي وتساعدنا ..

ــ قد اريد ذلك .

ورفع ابنر بنطاله وبصق ، ثم فرك يديه الى الاعلى والاسفل على طرفي بنطاله وعلى مؤخرته وقال :

ــ لقد سمعت بانكم كنتم تعملون في خط الحديد ياجديون .

وجاء بيتر وابنة ابنر التي لم تكن قد تجاوزت سنتها السادسة ، وتعلقت بنطاق ابيها وحدقت بجديون من ضمن هالة شعرها الاحمر .

ــ نعم هذا صحيح .

ــــ ان في ذلك انحطاطاً اكيداً لزنجي متعجرف كان يأخذ مكانه في المؤتمر .

وابتسم جديون وقال :

ــــ قد يكون ، وقد لا يكون .. ان ذلك يتوقف على الطريقة التي ننظر بها الى الامر .

ــــ يظهر ان الزنوج سيحكمون الولاية .

ــــ انا لا اقول هذا .

ــــ انت لا تقول ؟ ..

وقال جديون :

ــــ أتسمح لي بالدخول ايها السيد أبنر . انني جاف الحلق من العطش .. وسأكون شاكراً لو قدمتم لي كأساً من الماء .

وصرخ بيتر وهو يركض باتجاه البئر : « انني سآتي به » .

وقال ابنر باختصار : ادخل ..

وسار امامه باتجاه شجرة وارفة الظل ، وجلس هناك ، وجلس جديون الى جانبه وجاء ابنر بكأس من القصدير مملوءة بالماء ، وشرب جديون شاكراً . وهز رأسه وقال : لديكم بئر ممتازة .. » وأجاب ابنر : انها تبقى باردة ، واحتفظ بها مغطاة

ومظللة . « ولا شيء يعادل الماء البارد » وخرجت زوجة ابنر ثانية ونظرت اليهما لحظة ثم دخلت . وقال جديون .

ـــ ان الايام السعيدة لا تعود غالباً ، وبامكانك ان تدير لها كتفاً باردة :

ـــ وكيف تنظر انت الى الايام المقبلة ؟

وأجاب جديون ببطء :

ـــ انني اعتقد بانها ستكون اسعد من ايام ماقبل الحرب ، قد تكون متعبة لاصحاب المزارع ، الا ان المُزارع الصغير ستتاح له فرصة العمل التي لم يكن ليحلم بها من قبل .

ـــ اوه ... اوه ...

وأخذ جديون قشة من العشب اليابس وبدأ يمضغ طرفها وهو يفكر ، ثم قال :

ـــ ومع ذلك فان الايام السعيدة الطيبة هي شيء يختلف عن الفردوس الذي يحلم به المجانين . وبقي ابنر صامتاً ، ونظر بطرف عينه الى الشمس ، وكأنه يقدر الوقت الذي قضاه جديون عنده . وجاء كلبه السلوقي ، ونفخ على جديون متطاولا عليه بانفه الى الاعلى ثم تمدد الى جانبه . وذهب الاولاد .. وصرخت

زوجة ابنر منْ داخل البيت قائلة : بيتر .. تعال الى هنا ، تعال ...

وقال جديون :

ــ انظر الى المسألة بهذا الشكل ، ماحدث قد حدث ، والماضي قد مضى ، الا انه لايوجد رجل هنا لم تؤثر عليه الحرب وتتركه بوضع محزن حقا . فالنساء في البيت كنّ يعملن ويتألمن ، يملؤهنّ الامل ، وانت وانا على السواء عندنا ، فشمرنا عن سواعدنا وقلنا اننا سنخلق شيئاً بعد هذا الحزن والالم . كان لدينا بعض البذور وحيوان او اثنان . وقد بذرنا بعض الحبوب ، وزرعنا الحشائش. ولا شك ان العمل الذي قمت به لنفسك كان جباراً ، فقد حرثت الارض وزرعتها حبوباً وقطناً ، وأحسست بظهرك ينكسر من كثرة العمل على ماأظن ، وبذرت غلتك في الارض ، غلة يفتخر بها الانسان . ولكن ، ترى من يملك هذه الارض التي تقوم بحراثتها ايها السيد ابنر ؟ ..

وحدق ابنر النظر في جديون وقال :

ــ من يملكها ؟ .. لعنة الله .. لا اعلم ولا يهمني ان اعلم .. لقد كان يملكها دودلي كارويل في احد الايام ويظهر انه

فقدها فاصبحت لفركسون هوايت ، ويقولون ان هوايت قد رحل الى تكساس .

ــ هذا صحيح ، ان الارض قد صودرت بسبب تراكم الضرائب . صودر كل قدم او فدان كان يملكه كارويل .

حسناً ، ليكن ، ولتصادر . ويعلم الله أني لا أملك درهماً واحداً أدفعه ضريبة . وقال جديون بهدوء :

ــ هذه هي النقطة ، إن مزرعة كارويل ستباع بالمزاد العلني في كولومبيا خلال شهر تشرين الاول . ولقد علمت ذلك من مأمور الاتحاد . وربما تباع قطعاً مساحة كل منها الف فدان . ولن تباع كقطع صغيرة .. فعند ذلك ، أين ستذهب أيها السيد أبنر ؟ والى أين سأذهب أنا ؟ ..

واجاب ابنر بشدة :

ــ انني سابقى هنا حيث أنا الآن . ولا يمكن لاي اميركي شمالي ــ لعنة الله عليه ــ ان يقول لي اخرج من هنا . وليس هناك اي زنجي ــ لعنة الله عليه ــ سيقول لي ذلك هو الآخر . لقد اشتركت في هذه الحرب حتى نهايتها فماذا نالني منها ؟ كلا انني مقيم هنا ، وسأجلس على مؤخرتي ، ولن اسمح لاي انسان ان يأمرني بالرحيل ...

ـــ انني استأذنك ايها السيد ابنر ، وارجو ان تفكر فيما تقول انك لن تسمح لاي انسان ان يأمرك بالرحيل . هذا حسن ، الا انه ليس عملياً . فسيأتي العمدة ، وماذا ستعمل ؟ أتقاوم القانون ؟ انك ستقاوم صاحب المزرعة وبجانبه القانون والنظام ، كيف ستتمكن من ذلك ؟ .

ـــ أنا لست بحاجة الى زنجي ليخبرني كيف ..

ـــ حسناً ! حسناً ! لكن انتظر قليلاً ايها السيد أبنر . ان ما تشعر به تجاه الزنوج هو مسألة خاصة بك ، ولا ندخل في موضوع النقاش الآن . لكن اسمح لي ان اقول بأنه مهما كان شعورك ، فان الزنجي ليس عدواً لك ...

وقال ابنر ببرود :

ـــ بامكانك ان تخرج من هنا وتذهب الى جهنم ..

واجاب جديون وقد انطبقت شفتاه وضاق فمه :

ـــ بامكاني أن أخرج .بكل تأكيد . ان مزرعة كارويل مطروحة الآن في المزاد العلني ، وبعدئذ ستكره العالم بأجمعه . ولكن ماذا ستفعل ؟ انني سأخبرك شيئاً ايها السيد ابنر ، أردت سماعه أم لا . لقد عملت انا وقومي في المستنقعات لنجمع بعض

المال ونشتري به ارضاً . وان الرجل الذي لا ارض له هو اشبه بالرقيق في بلادنا هذه . وليس هناك كبير فرق ان كان الرقيق زنجياً اسود او رجلاً ابيض . لدينا الآن نحو الف دولار ، واذا ما تمكنا من الاتفاق مع مصرف يقدم لنا قرضاً مقابل رهينة ، فبامكاننا الاشتراك في المزايدة ، وشراء بضعة آلاف من الافدنة المعروضة للبيع . وانه لشيء جميل أن تشترك في المزايدة على قطعة ارضك هذه .

وبدأ ابنر يتمايل الى الامام والخلف محدقاً في الارض وهو يرسم عليها اشكالاً مختلفة باصابعه . ومرت دقائق لم يقل خلالها الرجل الابيض شيئاً ، بل انه كان ينظر الى يده الكبيرة ، يكسوها شعر برتقالي اللون قاس اجعد يحيط كالاسلاك الشائكة بأثر جرح قديم مندمل تركته حربة هندي شمالي . وحاول جديون وهو يرقبه ان يتوصل الى ادراك مدى النزاع الداخلي الذي يحتدم في نفس هذا الرجل ، فقد كانت حياة ابنر مليئة بالصدمات والفشل والتناقضات . من هم الناس الذين يبغضهم ؟ .. ومن هم القوم الذين حاربهم ؟ ... ولماذا ؟ لابد لرجل كهذا ، بعد سنوات من الاقتتال ، والسير الطويل ، والجهاد للمحافظة على حياته من القتل ، ان يتغير بعد كل هذه الظروف ، وان يعود

فيقف وراء محراثه ، ويطعم خنازيره ... فما عاد ذلك الرجل الاول .

قال ابنر وقد ظهر عليه الاعياء وفارقت الحدة صوته :

ـ لا مال عندي اقدمه يا جديون . وكل ما املكه اربعة دولارات وستون سنتاً .

ـ لست بحاجة الى المال ، ولكنني اريد أسراً تمتلك الارض . وان ما نملكه من المال ، يكفي للبدء بالعمل . هنا في كارويل سبع وعشرون عائلة من الزنوج وسبع من البيض وجميعهم يعيشون في المزرعة القديمة . وقد يرحلون جميعاً ، او يصبحون شركاء في المزرعة . ولنفترض انه قد يصيب الاسرة الواحدة ، نحو ثمانين او تسعين فداناً تضم حرجاً ، ومرعى ، وارضاً زراعية . وان ثلاثة آلاف فدان تكفينا جميعاً .

وسأل ابنر قائلاً :

ـ ولماذا تريدون مني ان اكون شريكاً لكم ؟ وماذا فعلت من اجلكم ؟ انا لا احب الزنوج ، ولست من انصار الشماليين القذرين ، وها انت ذا تأتي وتلحس مؤخرتي .

ووافق جديون بقوله :

ـ نعم هذا صحيح .

ــ اذن لماذا تريد ان تفعل ذلك ؟

ــ حسناً . لننظر الى هذه القضية كما يلي : ففي هذا الجنوب يعيش اربعة ملايين من الزنوج وثماني ملايين من السكان البيض . وهنا في كارولينا الجنوبية ، يزيد عدد الزنوج عن البيض قليلاً . وان الامور سوف لن تعود مطلقاً الى ما كانت عليه سابقاً . فالحرب قضت على طريقة الحياة القديمة . وبنتيجة المؤتمر والانتخابات ، ستظهر حياة جديدة في مناطق الجنوب هذه .

وما هذه الحياة الجديدة التي تنتظرها ايها السيد ابنر ؟ .. قد لايبدو منها كثير من الخير الآن ، فالاكواخ القذرة القديمة لاتزال قائمة . هذه الاكواخ التي كان يسكنها القوم قبل الحرب ، الشعور السيء ذاته ، وكذلك البغضاء والجهل الاسود . فاين هي الحياة الجديدة ؟ انها لا تأتي هكذا ، ولا تقدم الينا . ولا يتقدم الينا شيء من تلقاء نفسه ، اذ لابد من عمل كل شيء ... لقد وجد الخط الحديدي عبر المستنقعات لان الرجال ذهبوا الى هناك وقاموا بانشائه . وان الكلام لم يظهر الى الوجود . وهذه الارض ..

انها ارض طيبة ، ارض جميلة حلوة ، تفيض باللبن والعسل اذا خدمتها جيداً . ليست باردة في الشمال ، او موبوءة بالامراض كما

في منطقة النهر .. وان سكانها لقوم طيبون ، قوم من السود والبيض وجميعهم طيبون ..

وقال ابنر :

ـــ لقد كانت كذلك الى ان خربها الشماليون لعنة الله عليهم .

ـــ أهكذا ؟ .. ان الحرب شيء مؤلم ، مؤلم وضار . لقد حملت انت سلاحاً وحملت انا سلاحاً . وباختصار كنا انا وانت نحارب احدنا الآخر . ولما فعلنا ذلك ؟ لاشك ان الشماليين جاؤوا الى هنا وحرروا العبيد ، وقد رأى نصف ملاكي المزارع دمارهم بام اعينهم وكم مزرعة كانت هنا ؟ انظر حولك ، ان كل ماتقع عليه عيناك هو جزء من مزرعة كارويل . انني اصبحت حراً بعد ان كنت عبداً رقيقاً . وانت مازلت كما كنت عليه قبل الحرب ، او احسن حالا . ولم يكن بامكان البيض الفقراء امتلاك قطعة ارض الا في مستنقع او غابة صنوبر حيث كانوا يبذرون غلتهم . وقد ترك لنا الشماليون الارض ، واصبحنا اكثر املا من قبل ..

وحرك ابنر الارض باصابعه فارتفع الغبار ، وقال : تابع حديثك .

ـــ حسناً وماذا تنتظر من هذا المستقبل ان يكون سوى ما نريده ان يكون ، وانه سوف لن يكون مستقبلا جيداً ان لم نجعله للسود والبيض على السواء . ان البغض سوف لن ينتهي ان لم يكن المستقبل ملكاً لنا جميعاً . واننا سنكون اشد قدرة على شراء الارض اذا اشتركتم معنا ، انت وماكس بروملي والاخوة كارسون وفريدماك هيو ..

ـــ انهم سوف لن يفعلوا .

ـــ قد يوافقون أيها السيد ابنر فان هذا العالم يتغير . وهنالك مدرسة عندنا يتعلم فيها أطفالنا . ولا ارى سبباً يمنع اطفالك من الذهاب اليها والتعلم فيها . وقد تبني الحكومة في المستقبل مدرسة فخمة في مكان قريب من هنا . ولا شيء يمنع اولادك من التعلم فيها مع اولادي سوى كون احدهم ابيض والآخر اسود .

وهزّ ابنر رأسه .

ـــ يجب ان تفكر بذلك ايها السيد ابنر ، وقد تحتاج الى بعض الوقت ، وأنا اوافقك على ذلك ، الا انه لا يوجد اي سبب يمنعك من الاشتراك معنا في قضية الارض هذه .

وقال ابنر بعناد :

ــ انا لست بحاجة الى احسان من زنجي ملعون .

ــ انها ليست احساناً ، بل تقوية لمركزي وستكون يدي اكثر قوة ان انا اتيت الى المصرف والى جانبي قوم بيض يشتركون معي .

واطرق ابنر برهة ثم قال :

ــ ربما يكون ذلك . وكيف تعرف انهم سيبيعوننا الارض .

ــ لقد تكلمت مع مأمور الاراضي الشمالي . فقال ان المزاد سيكون نزيهاً وستكون الارض نصيب من يدفع احسن ثمن .

ــ ولنفترض انك تكذب . ؟

ــ لنفترض ذلك ..

ونظر كل منهما الى الآخر ولاول مرة ابتسم ابنر

ــ من سيقوم بالشراء ؟

ــ ان قومي خولوني باسمهم ، إلا اننا لم نقرر هذا بعد ، بامكانك بحث هذا الامر .

ــ انا اوكلك انت .

ــ اذن ستشترك معنا ؟ سأل جديون ..

ـــ نعم سأشترك .

ـــ انني سأكون سعيداً وفخوراً بان اضع يدي بيدك مصافحاً ومتفقاً ..

ووضع ابنرليت يده بيد زنجي ، وصافحه ، لاول مرة في حياته .

* * *

وبعد نقاش ساعتين مع الاخوة كارسون ، وافقا على الاشتراك ودفعا الى جديون خمسة وستين دولاراً ليضيفها الى المبلغ . اما ماكس بروملي فقد هز رأسه رافضاً كل نقاط النقاش التي جاء بها جديون . فهو لا يريد ان تكون له اية علاقة بالزنوج . وهنا انتهت المقابلة . اما « فريد ماك هيو » فقد اشترك هو وصهره جاك سوتر . لقد قضى جديون ثلاثة ايام يناقش ويتوسل قومه .. وكانوا يسألون : لماذا نريد قوماً بيضاً ليكونوا شركاء لنا ؟ .. ان المال مالنا الم يمت واحد منا في المستنقعات ؟ ..

واخبرهم جديون عن الاسباب. وعاد فشرح لهم كل شيءٍ

عدة مرات . وعند البدء كان حوالي نصفهم الى جانبه ، ثم توصل الى اقناع الآخرين ، وشعر بانه قد تم له النصر . انتصر لاول مرة منذ شهور .. والآن اخذ راشيل بين ذراعيه وتذكر ايامه الماضية .

وبعد مرور اربعة ايام على زيارة جديون جاء ابنرليت ماشياً فوق الرابية مع ولديه وقال : لقد بحثت الامر مع (هيلين) وهي تعتقد بانه يجب ان يتعلما بعض التهجئة .

وكان الصبيان يزعقان ويتململان ويلبطان الارض بارجلهما . وضربهما ابنر وقال انه يعلم لماذا يمانعان في ذلك ولكن يجب عليه ان يتحمل العار الذي اصابه بمجيئه الى الزنوج على هذا الشكل وقد عرف جديون حالته النفسية فجعل الامر بالنسبة الى ابنر اكثر سهولة اذ قال له :

ـــ شكراً لك ايها السيد ابنر . ان هذه بداية جيدة .

وهز ابنر رأسه . ووقف وهلة دون ان يقول شيئاً . ثم استدار وانصرف ...

الفصل السابع

وهز كارل روبنس نائب رئيس مصرف كولومبيا الوطني رأسه وقال : لا انه لا يرغب في الامر لا انه لا يرغب فيه مطلقاً ، وابتسم ليظهر رأيه في عمل كهذا . وروبنس هذا له رأس اصلع ثقيل ، محاط باطار من الشعر رملي اللون ، وفي وجهه تلمع عينان صغيرتان زرقاوان ، وفي عنقه من الخلف ، تكدست كتلة دائرية من اللحم وكأنها تثبت جمجمته على كتفيه ، وقال :

ـــ انك ترى يا جاكسون ، فالامور لا تسير بهذه السهولة . ولو كان الامر كذلك لدبت عندنا الفوضى . لقد اتيت اليّ تحمل معك الف دولار وتخبرني انك تمثل عدداً من الزنوج والبيض الفقراء، المشتتين في انحاء مزرعة كارويل، وتقترح

بان اعطيك قرضاً من هذا المصرف لتشتري به ارضاً ستعرض بالمزاد العلني . ان هذا لا يتعدى كونه امراً خيالياً ..

ـــ انا لا اطلب قرضاً دون مقابل ، فاني سأقدم لكم رهائن بقيمة القرض .

وقاطعه روبنس قائلا :

ـــ ولكن ... ولكن يا جاكسون فكر بتعقل . ان هذه الايام ، ايام سيئة . وان المرء ليتردد في اخذ الرهائن ، .. فكم بالاحرى به ان يتردد اذا كانت الرهائن ارضاً لم تشتَر بعد . واي نوع من التأمينات تقدم ؟ .. هذا النفر القليل من الزنوج المتشردين .

ـــ عفواً ياسيدي ، اننا لسنا مشردون . لقد عشنا من نتاج الارض ، هذه الارض بالذات ، لقد عملنا فيها طيلة حياتنا وحصدنا غلة ثلاث سنوات . ونحن نعمل وحدنا . ولو انك تأتي الى مزرعة كارويل فتراها ، اذن لفكرت في غير ما تقوله الآن . بكل تأكيد .

ـــ انني لم اتعود ان يخبرني الزنوج كيف افكر .

ـــ ايها السيد روبنس ، ياسيدي ، انا لم اعن هذا . انني اعمل بنية طيبة وبكل شرف .

صدقني في هذا ياسيدي . وان املنا الوحيد ملكية بعض الافدنة من الارض .. ونظر روبنس الى ساعته ، ومن ثم هز رأسه مشيراً الى الحارس الذي كان واقفاً قرب محرسه ، وقال وقد نفذ صبره :

ـــ انني ارى غير ذلك . فان كانت نيتكم حسنة ، لرغبة في العمل ، فان كل من سيشتري الارض سيبقيكم فيها للقيام بحراثتها وزراعتها . في الواقع اني لا اوافق على تمليك الاراضي للزنوج .

انها لا شك ستفسدهم ـــ انني متأسف يا جاكسون ، وانني رجل كثير الاعمال ..

واقبل الحارس ، وأخذ جديون من يده وقاده الى الخارج ..

* * *

وقالت له راشيل : « سيكون الامر خيراً يا جديون . صدقني فيما اقول .. بكل تأكيد سيكون الامر خيراً .. ». واعارها جديون بعض استماعه . كان يسائل نفسه كم عدد الذين

يفكرون مثلها من ابناء شعبه . يفكرون دائماً في الحاضر ولا يعيرون المستقبل اي اهتمام او تفكير ... ان العبودية في قلبها وعظامها ولا يمكنها التخلص منها تماماً بين ليلة وضحاها وكأنها لاتتعدى كونها اغلالاً . لقد عاد يائساً مكسور الخاطر وكانت هي سعيدة بعودته اليها ... وانفجر قائلاً بوحشيته « الا تدركين ما الوضع ؟ . » الا انه تغير فوراً عندما اجابته راشيل : ان كل شيء سينتهي بالخير . انك تفكر بالامر يا عزيزي جديون ، ايها الحبيب .

واذ ذاك بدأ يبتسم وهو ينظر اليها ، الى اطرافها المستديرة ، الى انوثتها ، الى خديها المسطحين ، الى انفها الصغير المرتفع الى الاعلى ، وبشرتها اللامعة قليلاً وهي تعكس ضوء النار ، وتلك النبرة في صوتها وهي تسأل : لماذا تضحك مني ياجديون ؟ ...

ـــ انني لا اضحك ايتها الطفلة الحلوة ... تأمل في غرابة العوامل والوقائع والروابط ... في أن اسلوب الحياة البسيطة قد بدأ يصبح معقداً ... في واقع المرأة، هذه، زوجته التي يحبها بحرارة في تلك اللحظة. واقعها بالنسبة لرجل زنجي بائس خُطف من الشاطىء الافريقي منذ امد بعيد ، واقعها بالنسبة لجيف

ونفسيته ، وبالنسبة للسيل المستمر من الناس الذي يكوّن بني الانسان ، هذا السيل الذي يرتفع وينخفض متعباً جزلاً ..

ـــ وسألته راشيل : « بماذا تفكر يا جديون .. » ؟

وصعدت جيني على ذراعيها ، وكان ماركوس مستلقياً الى جانب النار ، وأردفت :

ـــ لقد حان الوقت لان تذهبي الى فراشك ياجيني ..

وسأل جديون جيني قائلا :

ـــ لماذا لم تنامي حتى هذه الساعة ، ايتها الحمامة ؟ ..

واخذ يقص عليها « .... وأخونا الثعلب ، أخونا الثعلب العجوز ، لقد اخبرتك بكل ما اعرفه ... ».

وارادت جيني ان تعلم لماذا لا يتعامل اخونا الثعلب مع اختنا السلحفاة . وقال لها جديون :

فكري كما فكر هو ، فان اخانا الثعلب ، ذكي ، انيق ، واذكى رجل في غابة الصنوبر ، لم يكن يحترم السلحفاة المسكينة والسلحفاة هذه لها جلد عظمي غليظ ، ولذلك لم يضاهيها احد في الذكاء او الاناقة ... وكانت راشيل ترقب جديون باصغاء جزئي الى الاقصوصة ، وماركوس يستمع قليلاً ، فالقصة قديمة ، الا انها جيدة ولابأس من التأكد من الصفات والتفاصيل

التي تحتوي عليها ، وقُرع الباب . وفتحت راشيل لجيمس اللنبي ... ولم يقل شيئاً حتى انهى جديون قصته ، وكان يحوّر فيها ويقصها على الطفلة التي كانت تغمض عينيها مزمعة النوم ، وعندما وضعها على فراش القش ، تعلقت بعنقه . واغمض ماركوس عينيه وهو يكبو الى جانب النار . ان هذا الحيوان الذي يكبر ، مرتاح بجلوسه هناك .. وقال اللنبي بعد ان علق على حالة الطقس في الخارج وعلى صحة راشيل :

ــ ان ما حدث في كولومبيا ، كان منتظراً ياجديون .

ــ وهذا ما اعتقده انا .

ــ هل فكرت بما يجب عمله الآن ؟

ــ سأذهب الى تشارلستون على ماأظن .

ــ لن يكون استقبالهم لك جيداً هناك ايضاً .

وقال جديون :

ــ هنالك بوسطن ، نيويورك ، فيلادلفيا ...

وفكرت راشيل ، .. انه ذاهب الى مكان غير معين في مقاطعة غير معينة ... وقال اللنبي :

ــ انك ستشتري الارض اليس كذلك ؟

ــ نعم لابد ان افعل ذلك .

ـــ اعتقد انك ستحصل على الارض ، وبعد ان قضيت معي تلك الليلة في الكوخ ، تأكدت من انك ستسير في طريقك حتى النهاية . ماذا سيوقفك ياجديون ؟ اعتقد انه لاشيء . غير انه لا يجوز ان تفعل شيئاً لأنك تحب القيام به فحسب ، فالقوة لا فائدة منها لو اخذناها وحدها ، ولا تنسى ان تثابر على العودة الى البيت .

... ـــ وماذا تريد ان تقول بذلك ؟ ..

وهز اللنبي كتفيه وابتسم قائلا :

ـــ انني رجل عجوز يتكلم ياجديون ؟ وربما اتكلم كثيراً . فاذا ما ذهبت شمالا ورأيت الشماليين تذكر انهم لم يخلقوا من الأقمشة . فمنهم من يكره الزنجي الاسود اكثر مما يكرهه اي جنوبي .

واننا غرباء بالنسبة الى هؤلاء الناس ، اناس غرباء ذوو بشرة سوداء . واما بالنسبة للجنوبيين فنحن لسنا غرباء على الرغم من انهم يكرهوننا ، بل اننا جزء من الارض ، كغابات الصنوبر ، وكالقطن والتبغ انك ستجتمع الى الشماليين ، وقلائل منهم ، لاشك رائعون سيجلسون معك إلى المائدة ، ويصافحونك دون ان يشعروا باختلاف لون يدك . ثق بهؤلاء الناس ، وافهمهم كما

هم . لقد حاربوا وناضلوا مدة جيلين كاملين من اجل تحريرنا لانهم يؤمنون بالاخاء بين بني الانسان ، ولاتصدق الافتراء الذي ستسمعه عنهم .

وهز جديون رأسه ، وانحنى الرجل الشيخ ، ووضع يده على ركبة جديون وقال :

ــ لا تتكبر كثيراً ياجديون ، فترفض ما يعطي لك . فاذا لم يكن هنالك من يعطي ومن يأخذ كنا اشبه بالوحوش . انك ستواجه اموراً اكثر اهمية . الا انك اذا تصادف ان رأيت بعض الكتب او الورق ، او الالواح الحجرية والطباشير لاتنسَ . اننا نحتاج اليها كثيراً ياجديون ..

ــ انني سأذكر ذلك ولا انساه ..

* * *

وازداد جديون معرفة . ففي كولومبيا ، وقعت يده على نسخة من كتاب « تعليقات على قوانين انكلترا » للكاتب بلاكستون . وكانت نسخة قديمة بالية دفع ثمنها ستين سنتاً . وارسل له اندرسون كلاي نسخة من كتاب حقوق الانسان

للكاتب والثوري الاميركي (بين) ، وبالرغم من ان هذا الكتاب الاخير كان غامضاً ، وبعيداً عن مدارك جديون وخبرته . فانه اصبح بالنسبة اليه مثار اعجاب وتقدير لا ينضبان مطلقاً . وكان لدى اللنبي بعض قصائد « ليو » فاعطاها لجديون ، غير انه اضطرب عند قراءتها واختلط عليه الامر . وقال انه لا يوجد اي انسان حي فيها ... وكان يرغب في قراءة ايمرسون اكثر منها . لقد قال له اللنبي : آه .. لو كنت تتمكن من الاجتماع به ياجديون ...

وفي اول الخريف جاء جديون الى تشارلستون ، وعاد الى كارثر وزوجته اللذين رحبا به واستقبلاه جذلين ، ومن ثم الى بيت كاردوز والذي امسك بيده وابتسم باستغراب قائلا : اذن لقد عدت ياجديون ..

ــ نعم لقد عدت .

ــ اكبر سناً واوفر عقلا .

ــ « قليل من كل منهما ... » قال جديون هذا وقد جلس في غرفة الاستقبال في بيت كاردوزو ، متصلباً ويديه بين ركبتيه ، واخذ كأساً من الخمر وقطعة من الكعك المحلى . وبدت له الغرفة اضيق مما كانت عليه ، وكاردوزو نفسه اصغر حجماً .

وتكلم جديون ببطء وانتباه ، ولم يقل كاردوزو شيئاً الى أن جاء جديون على ذكر حادث مصرف كولومبيا .

ـــ هل استغربت ذلك ياجديون ؟

ـــ كلا لم اكن شديد الاستغراب ، اذ انني كنت انتظر حدوث شيء من هذا القبيل .

ـــ وقد يحدث الشيء نفسه هنا . وانك تعلم ياجديون انه اذا اخذنا بعين الاعتبار مدارك روبنز ومعلوماته نرى انه لم يكن ظالماً .. وما الذي تستطيع تقديمه ؟ بعض الدولارات النقدية ، وثقة بعض الاسر البائسة المعدمة من الزنوج والبيض ، ومستقبلاً اشبه بحلم ..

ـــ وقال جديون ، ان اي مستقبل لا يتعدى كونه حلماً .

ـــ نوعاً ما ؛ انني اوافقك على هذا ولكن الا ترى ياجديون بان مسألة الارض هذه هي مسألة عامة ، موجودة في كل ناحية في الجنوب ، وانها أكبر مشكلة يتوقف عليها مستقبلنا . وما الطريقة لحلها ؟ منذ سنة مضت عرض تاديوس سيفنس مشروع تقسيم الاراضي على الكونغرس . وماذا كان يقترح في هذا المشروع ؟ كان يقترح تجريد كبار العصاة من

مزارعهم . وتقسيمها ، وتوزيعها على المحررين حيث يصيب لواحد منهم اربعين فدانا وخمسين دولاراً لبناء بيت في المزرعة .

انتظر قليلاً فاني سأقرأ لك ما كتب سيفنس بهذا الخصوص ، وذهب كاردوزو الى مكتبه ، وفتش بين الاوراق وعاد الى جديون وقرأ :

« .. ان هذا المشروع لابد ان ينتج عنه اصلاح رئيسي في عادات الجنوب واخلاقه .. والغاية منه ، تغير المبادىء التي يؤمنون بها ، والشعور الذي يحسون به تغييراً تاماً . وقد يزعج بعض اصحاب العقول الهزيلة ، ويرتعب ذوو الاعصاب الضعيفة . كما هو الحال بالنسبة لجميع الاصلاحات الكبيرة في الحقلين السياسي والادبي . ان الولايات الجنوبية كانت الطغيان بعينه ، ولم تكن فيها حكومات تمثل الشعب وتخدمه . وانه لمن المستحيل ان تُكتب الحياة للمساواة بالحقوق في بلد يحتكر فيه بعض الآلاف من الرجال جميع ملكية الاراضي . وكيف يمكن للمبادىء الجمهورية ، كحرية التعليم ، وحرية العبادة ، وحرية الزواج كيف يمكن لها ان تعيش في مجتمع مختلط من السادة والعبيد ؟ مجتمع من ملاكي القصور والمزارع التي تزيد مساحاتها

عن العشرين الف فدان ؟ واولئك اصحاب الاكواخ الضيقة .. ».

ووقف كاردوزو امام جديون ، ومد يديه وقال :

ـــ حسناً ، هذه هي القضية ، كما يصنعها سيفنس اننا خلقنا تناقضاً في مؤتمرنا ودستورنا . لأنه اذا لم تكن هنالك اسس كفيلة بتنفيذ هذه المقترحات . فما فائدتها ؟ ما هذه الاسس الا ايجاد مزارعين احرار ، يملكون اراضيهم بدلاً من ان يكونوا عبيداً مشردين لا ارض لهم ولا ملك ..

وسأل جديون :

ـــ وماذا تقترح انت ؟ لديّ انا مشروع لبعض هؤلاء الذين لا يملكون ارضاً . مشروع عملي بامكانه ان يعطي ثمرة .

وابتسم كاردوزو . وتمدد على كرسيه الى الوراء ، واضعاً يديه وراء ظهره وقال :

ـــ اما انا ، فلديّ مشروع لاثني عشر مليوناً منهم . عندما توفي تاديوس سيفنس في الشهر الماضي ، خسرنا مناضلا ممتازاً ، وصديقاً صادقاً . الا انه انار لنا السبيل واضاءه ، وجعله واضحاً للشعب ، وذلك بان تُجمع قوى هذا الشعب

للتصويت ، وان تقف الناس ، ونقدم الى البرلمان ممثلين شرفاء عنهم ، وان نناضل في الندوة النيابية في سبيل هذه الولاية في مجالس التشريع ، وفي الكونغوس من اجل توزيع عام وعادل للاراضي .

ــ حتى يتم ذلك لابد للشعب من ان يتحمل الآلام ؟ ..

ــ سيتألم الشعب الى ان يتم ذلك . ان هذا صحيح . اننا سنخفف آلامهم قدر استطاعتنا ، الا اننا ، اذا تأملنا القضية على نطاقها الواسع نرى انه ليس بامكاننا ان نقدم لها الكثير ...

وقال جديون :

ــ ومع ذلك ، فانا مصمم على شراء الارض ، فان لم اتمكن من الحصول على المال اللازم هنا ، فلا بد اني واجده في بوسطن او نيويورك .

ومرت فترة اكتفى فيها كاردوزو بالنظر الى جديون وهو مستلق على كرسيه الى الوراء ثم انتصب في جلسته وقال :

ــ انني سأعقد معك صفقة ياجديون ، فانا اعرف ، « ايساك وينت » ، وهو صاحب مصرف في بوسطن ، وأحد محرري العبيد القدماء :

رجل لا يتعمد ربط كل دولار ينفقه او يقرضه بخيط

حريري ، سأعطيك كتاباً له واعتقد انه سيكون لكتابي بعض الوزن عنده ، وسأعطيك كتاباً الى فريدريك دوغلاس ، وهو ايضاً يمكنه ان يساعدك في هذه القضية اذا فشلت الامور الاخرى . وفي مقابل ذلك اطلب منك وعداً ان ترشح نفسك للانتخابات النيابية في موعد الانتخابات القادمة .

وقال جديون : لنفترض انني اخبرتك برأيي غداً .

حسناً ، تعال لنتناول طعام العشاء معاً في الغد :..

وفي اليوم التالي قابل جديون رجلين من اصحاب المصارف في تشارلستون . وكان احدهما الكولونيل فونتون ، الذي كان قد اجتمع به في حفلة العشاء التي اقامها استيفان هولمز . وعندما اجتمع جديون بكاردوزو للمرة الثانية ، انتظر ان يوجه هذا الاخير اليه السؤال :

ـــ علام عولت ياجديون ؟

وقال جديون وقد ارتسمت على فمه ابتسامة صغيرة :

ـــ وماذا تظهر انت ؟

ـــ على الاقل يجب ان تحتفظ بما عرف عن مرح الزنجي ، فهو سعيد بفقره ، وسعيد بغناه ...

ـــ هذا ما انا فاعله ، فانا لست تعيساً ...

ـــ وماذا عن المجلس النيابي ؟

ووافق جديون قائلاً :

ـــ اذا كان هنالك من يريد في ان اقوم بذلك ، فاني سأرشح نفسي وسأجرب ان انسى ما كنت عليه قبل سنة او خمس سنوات . واذا ما اخذنا بعين الاعتبار ما قرأت اخيراً عن القوانين وتشريعها فإني اعتقد بأني لن اكون مشرعاً سيئاً .

وقال كاردوزو :

ـــ اما انا فلست كذلك كما ترى . وانا لا ازال اتكلم مثل زنجي من زنوج المستنقعات ، لعلي استطيع ان اسافر الى الشمال بالسرعة التامة ـــ أأسافر غداً ؟ ..

ـــ اعتقد انه باستطاعتك ان تسافر غداً ...

كان القطار الذي أمَّلَ جديون ان يستقله من واشنطن الى الشمال يزأر في الليل متجها الى عالم جديد ، جديد بكل ما في الكلمة من معنى فطيلة السبعة والثلاثين عاما التي عاشها ، سيطرت على عالمه الذي يعرفه ثورات وعواطف ، وان ارض الجنوب التي ولد فيها وانشأته واطعمته ، كانت تجلده وتقطع جلده وتحزه ، الا ان هذه الارض التي كانت هي هي لا تتبدل ، فقد عرفها . عرفها بجهلها ، وظلمتها ، بركامات تربتها وحياتها

وبيوت اقطاعييها الكبيرة القائمة على ظهور الارقاء البيض والسود سواء بسواء . وقد كان يشعر بالدفء والارتياح لمجرد معرفته ...

اما واشنطن ، المدينة الكبيرة ، ذات الابنية البيضاء الجبارة ، والشوارع الموحلة . واشنطن هذه لم تكن لتشبه اي شيء عرفه في حياته . انه يجلس الآن في عربة القطار بين قوم من البيض يقرؤون في صحفهم ، ويتحدثون الى بعضهم دون ان يهتموا او يتضايقوا من وجود زنجي بينهم . وهنا في هذا الاقليم يبرد الطقس في اول الخريف ، وعندما تهطل الامطار ، تتساقط حبات المطر بغضب ووحشية . وعندما يتخاطب الناس يتكلمون بلهجة قاسية مقتضبة ويلفظون كلماتهم بسرعة . وفي القطار تنوعت الاحاديث بين الناس :

غرانت ! .. انه جنرال وليس سياسياً !! « ... وماذا تجد في ان يكون رئيس الجمهورية جنرالاً ايها السيد (... اني لا احب ذلك ...« كلا ... او تحب ان يقضي جونسون مدة اخرى في الحكم ؟ .. » « لا . لا تلقني الكلمات ايها السيد ، فاني افكر لنفسي ... » « انك لا تفكر كثيراً » ...

« القمح .. القمح باثنين وتسعين ؟ هل هذه صحيفتك ايها

السيد ؟ .. اتسمح لي بقراءتها . ؟ » « لي ولدان في شيكاغو .. هما ناجحان تماماً ، صدقني اذا قلت لك ذلك ... » .

وأغمض جديون جفنيه على هذه الاصوات . ومن ثم استيقظ على صوت موزع البطاقات الذي دخل حاملاً مصباح البترول بيده وهو يقول غامزاً بعينيه : « ليس الكرسي مريحاً ، بل انه قاس » ... واثناء كل بضعة اميال كان القطار يتوقف ثم يعود فيزأر ويسير ثانية ، وفي كل مرة كان اناس يجلسون الى جانب جديون ، ثم ينهضون ويتركون القطار . رجل ابيض ، امرأة بيضاء ، وفتاة شابة . وأطلت عليهم في اليوم التالي ابنية مدينة جرزي ومدينة نيويورك البشعة المتمددة ، ومن ثم بصقتهم مدينة جرزي الى نيويورك على الجانب الآخر من النهر . ووقف جديون الى جانب القطار يطيل النظر الى القوارب في النهر وكأنها عصي جافة ، والبواخر تصعّد دخانها الاسود فوق النهر ككتابة بالفحم الاسود على ورق ابيض لامع ، وقوارب البحارة من شتى الحجوم ، وزوارق صغيرة غاضبة . وفي الطرف الآخر من النهر ، لاحت كتل من الابنية والبيوت التي اذا ما اخذت منها حفنة تجد فيها تشارلستون ، واذا ما اخذت حفنة اخرى فانك واجد فيها

كولومبيا ... ان نيويورك ليست بالملكة المتوّجة على رأس المدن الاخرى ، الا انها أُم ترضع غيرها .. وهذا ما اراده (هوتيت مان) بقوله : « انها لحم ودم آلاف لاتعد من البشر .. » .

ونظر جديون حوله .. وعادت به ذاكرته الى جيوش الشمال التي كانت تسير متثاقلة ، جارّة نفسها دون مهارة ، متوغلة في الجنوب ، تلك الجيوش التي تشردت ، وتجزأت الى جماعات غير منظمة مئات المرات فلا تفتأ بعد كل مرة ان تعود فتنظم نفسها ، وكأن هذه المجموعة من البشر كانت تجرب ان تتعلم من الحرب بهذه الطريقة الجنونية حتى تمكنت اخيراً من ان تجتاز بلاد الجنوب وهي تنشد نشيد الحرية . وهكذا ، وبقوة تلك الروح ، كان هؤلاء القوم الذين يبدون وكأنهم لا لون لهم ، يزدحمون فوق الرصيف . وهناك في الشارع ، كانت جماهير منهم تسير مسرعة ، وكل منهم لا يفكر الا بعمله . كل شيء يختلط في هذا الزحام والقرقعة والضجيج والبضائع المكدسة عالياً في المرفأ .. شوارع قذرة ، باعة يجرون عرباتهم ، طنابر ، شاحنات ... كل يصدم الآخر في الشارع ، وفوق ابنية القرميد الحمراء . وثرثرة الالسن ، كانت طبقة من الدخان تخيم فوق كل شيء .. ان الامة كلها مجتمعة في هذا المكان ، وليس هنالك من

يشعر بوجود هذا الزنجي الطويل . لقد توفرت لجديون فترة من الوقت تعادل الساعتين والنصف بين القطار الذي تركه والقطار الذي يليه ، ولقد سار خلالها من النهر الى المنطقة المالية ، ومرّ في افدنة سيدنون بسرعة . ان النهار شديد الحرارة كما ان النهار الذي سبقه كان شديد البرودة . وكأن هذا الطقس يجرب ان يجاري هذه المدينة التي كانت تبدو وكأنها واثقة من انها ستصبح من اروع مدن العالم بالرغم من قذراتها وبؤسها . لقد هطلت الامطار ، ومن ثم انقشعت الغيوم ، وسالت السيول في الطرق المرصوفة ، واجتمعت الوحول في امكنة اخرى حيث لم ترصف بعد . وفي الشارع كان بعض الاطفال بلون الزيتون الاسود ، يجرون قطعاً من الخشب في الساقية ، واطفال آخرون يركضون على الارصفة وهم يبيعون الصحف . وجرب جديون ان يفكر : هذه هي المدينة التي ذبح فيها مئة زنجي في هياج الرعاع الجنوبي ، وفي هذه المدينة نفسها ترك آلاف العمال ادواتهم ودفعوا مايملكون من مال ثمناً لبزاتهم العسكرية وبنادقهم ، وساروا مئات الاميال الى الجنوب ليصبح الرجال الزنوج احراراً . هذه هي المدينة التي كانت تقذف بكتائب الجنود ، الواحدة تلو الاخرى الى حرب الحرية .. وفي هذه المدينة بالذات كانت تحدث الانتفاضات

لايقاف الحرب ، والثورات التي لم تعرف لها البلاد مثيلاً ... ونظر جديون بعجب عميق ... انه يرى اموراً كثيرة ...

* * *

وظهرت له بوسطن اكثر بساطة ، انه تعود ان يرى هذا النوع من المدن البسيطة ، وان شارع الخليج الهادىء ، حيث يسكن (إيساك وينت) يشعر الناظر اليه بانه شارع في تشارلستون ، فهنالك اشجار خضراء كبيرة تظلل الشارع ، والبيوت قديمة العهد ، بعيدة عن روح البناء الحديث ، كما ان النوافذ الخشبية المطلية بالطلاء الابيض ، كانت متشققة ، تنخرها الديدان ... وعندما قرع جديون الباب فتحته له خادمة ممشوقة القوام وقالت بكل تهذيب :

ـــ من تريد أن ترى ؟

ـــ السيد إيساك وينت ، اذا لم يكن ثمة مانع .

وقالت الخادمة ذات العينين الزرقاوين والشعر الاشقر شُقرة القمح اليابس بصوت لطيف :

ـــ ألا تتفضل بالدخول ياسيدي ؟

ودخل جديون البيت ممسكاً قبعته بيديه الاثنتين ، وهنالك وراء الباب كانت بعض قطع الاثاث منتثرة . علاّقة للثياب وإلى جانبها رأى مرآتين بيضاوين ، وأربع كراسي وطاولتين سوداوين صغيرتين مغطاتين بقماش ذي حياكة صينية . وعندما فتحت الخادمة الابواب المصنوعة من خشب الجوز ، ظهر في الجانب سلم قديم جميل . وكان هنالك حاجز يفصل بين غرفة الجلوس وغرفة الطعام ، وهما غرفتان واسعتان ولكن سقفيهما قليلا الارتفاع اذا ما قوبلا بغرف بيوت الجنوب . وادرك جديون بان هذا البيت لا يقل ثراءً عن بيت ستيفان هولمز ، ولكن كم كان الفارق كبيراً بين استقباله هنا واستقباله هناك ، فبالرغم من ان اصحاب هذا البيت لم يكونوا على علم بتحديد ساعة قدومه فقد قالت له الخادمة :

ــ تفضل بالجلوس هنا ياسيدي حتى اذهب الى السيد وينت وأعلمه بانك قد أتيت . ماأسمك ؟

ــ جديون جاكسون .

ــ أأنبئه فقط ، بان السيد جاكسون هنا ؟

ــ نعم وإضافة الى ذلك ، فانا احمل كتاباً من فرانسيس كاردوزو .

ـــ آه ـــ حسناً . تفضل ياسيدي ، تفضل بالجلوس .

لقد كانت الخادمة مهذبة بالفطرة ، حاولت ألاّ تجعله يشعر بأنه غريب دون ان تتعمد ذلك ، لان عقلية الشمال لاتشبه ما تعوّد عليه الجنوب . كما ان جديون شعر بارتياح في هذا البيت لم يسبق ان شعر بمثله في بيت اي رجل آخر . وجال بنظره في ارجاء الغرفة ، ولاحظ الكرسيين المريحين اللذين كانا الى جانب الموقد فأزاحهما جانباً ، وتقدم خطوة الى الامام نحو الاريكة التي كانت بجانب الحائط المقابل وجلس عليها ، وبدأ يتفحص كرسياً اثرياً من صنع الهنود الحمر كان الى جانبه ، ونهض ثانية فوقف على رجليه عندما سمع وقع خطوات مقبلة . كانت الساعة تقارب الخامسة بعد الظهر ، وتساءل في نفسه : هل يبدو من اللائق ان يزور رجلاً في مثل هذه الساعة ؟ .. وعندما دخل السيد وينت الى الغرفة ، استقبله جديون بقامته المتصلبة المشدودة وقد بدا عليه شيء من الارتباك .

كان ايساك وينت صغير الحجم ، واذ وقف الى جانب زائره كان رأسه الاصلع لا يكاد يحاذي ربطة العنق السوداء التي كان يضعها جديون . كان الرجل ذا شارب دقيق لا يكاد يرى ، وفم صغير وذقن بارزة . يرتدي سترة السهرة السوداء وتحتها بنطال

اسود ، وينتعل خفاً من الحرير ، ويضع في عنقه ربطة سوداء فوق قميص ابيض ذي ياقة قاسية . وكان في مشيته ينقل رجليه بعصبية ظاهرة كما يتنقل الطير . وتقدم نحو جديون ماداً يده وصافحه بقوة وهو يقول :

ــ ما اسمك ؟ جاكسون ؟ جديون جاكسون ؟ لقد قالت الفتاة بانك تحمل رسالة من رجل ما . ولم تتذكر من هو ، انه لمن العجيب حقاً كيف تتذكر هذه الصغيرة بأن رأسها مثبت على كتفيها .

واجاب جديون :

ــ ان الرسالة ياسيدي هي من فرانسيس كاردوزو .

ــ كاردوزو ؟ هل انت من الجنوب ؟

ــ نعم ، من كارولينا الجنوبية .

ــ حسناً . وماذا يعمل كاردوزو الآن ، ايسعى في ان يجعل لنفسه مركزاً هاماً باشتغاله بالسياسة ؟ اين الرسالة ؟ ..

وناوله جديون الرسالة ، ففضها بسرعة وقرأها ، ومن ثم نظر الى جديون وقال :

ــ ان كاردوزو يفكر فيك كثيراً ، لماذا لا تتفضل بالجلوس ؟ هل تشرب شيئاً ؟ واشار برأسه الى احد الكراسي

الكبيرة المريحة واخذ بيده زجاجة وكأسين وتقدم نحو جديون . اما جديون فقد جلس .

ــ ان هذا المشروب هو « شيري » هل تحب هذا الشيري ؟

وهز جديون رأسه .

وسأله وينت وهو يهز كتفيه :

ــ ماذا عنيت ؟ نعم ام لا ؟

ــ ان اكثر الزنوج لا يهتمون كثيراً بالخمر . كما تعلم ... اذ ان الظروف لم تسمح لهم بتذوقها .

ــ كل مافيها انها قضية تذوق . وانا ، كنت اشرب الوسكي سابقاً ، اما الآن فاني اشرب الشيري . والسبب في ذلك يعود الى انحراف في صحتي . هل تريد ان تدخن لفافة ؟ ...

وهز جديون رأسه بالنفي .

ــ حسناً . هل من مانع في ان ادخن انا ؟

ــ لا لا تهمني كثيراً ممانعتك . عندما كانت زوجتي على قيد الحياة ، كنت احتفظ بهذه الاشياء اللعينة لما بعد العشاء .

واخرجَ ايساك سيكاراً كبيراً اسود واشعله ، وتمدد على الكرسي الكبير ونفخ الدخان في الهواء واشار الى الرسالة في يده وقال :

ـــ يقول كاردوزو في رسالته هذه انه قد سبق لك ان انتُخِبْتَ نائباً في المؤتمر يجب ان تخبرني عن ذلك ، فالمرء لا يتمكن من ان يستقي المعلومات الصحيحة من القصص التي تكتبها الصحف ، اولا اخبرني عن مشروعك لتوزيع الاراضي ـــ عفواً لنحتفظ بهذا البحث الى وقت العشاء . اني اريد ان يشاركني هذا المشروع الطبيب « ايمري » اذ انه سيتناول العشاء معنا ، فهو بليد لدرجة انه بامكانه ان يجعل كفتنا راجحة في الكونغرس . والآن اخبرني عن المؤتمر .

واخبره جديون . كان الرجل الاصلع الضئيل الحجم لا يتعالى على محدثة ، وهو يثور ويبصق ويناقش ويصرخ بوجه جديون ، الا ان الحديث كان لايعدو ان يكون حديث الند للند . وشعر جديون للمرة الاولى في حياته بأنه لم يعد رجلاً اسود ، ولم يسبق لهذا الشعور ان سيطر عليه ، سواء اكان ذلك في مجتمع اسود ام ابيض ... لقد نسي جديون جلده تماماً ، ولأول مرة في حياته كان يتكلم مع رجل يؤمن بديموقراطية لا مكان للتمييز العنصري فيها ، ديموقراطية بسيطة ظاهرة ، قد يكون

اكتسبها نتيجة لدراسات نفسانية طويلة ، او نتيجة لفترة تدرب بدأت في المرحلة الاولى من طفولته . فجديون بالنسبة لوينت لا يعدو كونه رجلاً ، وليس بأمكانه ان يفكر فيه فيما عدا ذلك شاء ام ابى ، وعندما شرح جديون مشروعه بخصوص توزيع الاراضي ، ـــ وهو المشروع الذي عرضه على المؤتمر ، ـــ صرخ ايساك بوجهه وقال :

ـــ لقد كنت معتوهاً يا جاكسون ، انت ورفاقك جميعاً .

كان ستيفنس لم يزل على قيد الحياة آنذاك ، فهل استشرته بذلك ؟ هل طلبت عونا ومساعدة من واشنطن ؟ كلّا . فقد حسبتم انه بامكانكم اعادة بناء المدينة لوحدكم . هذا هو كاردوزو ... هؤلاء هم المثقفون السطحيون المجانين . نعم . لقد فقدتم مناسبة تاريخية لن تعود . لقد كان بامكانكم ان تحطموا المزارع الكبيرة . واصحابها وقتذاك . الا انكم لم تفعلوا ...

وعندما كان إيساك يصرخ بوجه جديون ، كمن يصرخ بوجه زميل له ، لا برجل زنجي او برجل ابيض ، فلا آداب مصطنعة هنا ولا حواجز . وقد شرح لجديون بعدئذ اسباب تصرفه هذا فقال :

ـــ انني احذر ياسيد جاكسون من قوم يكرهون التمييز

العنصري ، وقد لا اكون خير ما انتجوا . فقد كنت جالساً عندما كان الآخرون يحاربون ويموتون . غير اني قمت بخدمات قليلة . فقد كان لاموالي بعض الفائدة . هل تعلم بان (براون) جلس فيما مضى حيث تجلس انت الان ، وكان يطلب إعطاءه المال اللازم وتزويده بالاسلحة والمدافع والبارود — ليحمل لواء النصر والمجد الى الجنوب ويزيل العبودية وكأنها غضب الله ؟ .. وقد اعطيته المال والمدافع . قد يبدو كأن ذلك قد حدث منذ آلاف السنين ، اليس كذلك يوم كان القوم يجلسون ويتكلمون عن إزالة المرض الخبيث . وعندئذ تحملنا الجراح مدّة اربع سنوات جفت فيها آخر قطرة من دمائنا . نعم ان براون كان يجلس حيث انت الان . براون ، ذلك الشيخ ، بلحيته المتدلية ، وعينيه اللامعتين ، هل تريد ان تسمع كلماته ؟ ... « ان الله لم يتركنا ايها السيد وينت ، اما نحن الآثمون الخطاة ، فقد ابتعدنا عنه تعالى ... » تلك كانت كلماته ، واني اتذكرها حتى الان ياجاكسون . لقد كان جالساً حيث تجلس انت ، وايمرسون حيث اجلس انا ؟ اما انا فقد كنت واقفاً . ونظر اليّ « والدو » ونظرت انا بدوري اليه . انك تدرك ياجاكسون بان ذلك الشيخ جون براون كان رجلاً عظيماً ، عظيماً ولم يحسنوا فهمه . كانت

لذلك الشيخ المقدرة على حَمْلِ الناس على الايمان بالله . انا لست مؤمناً ، واني افتخر بكوني ملحداً ، اكثر مما يفتخر السيد (ايمري) بإلحاده . الا انني في ذلك الوقت ، وهنا تماماً ، يوم كان براون يتكلم ، آمنت ... لقد كان الله نصيري ، الله ، إله آبائي واجدادي ، ذلك الرجل المخيف الكبير المدعو الله ، الذي جاء الى هذه الارض مع الآباء الاولين . هل اغيظك ايها السيد جاكسون ؟ لا اعلم فيما اذا كنت مؤمناً ، فاكثر الزنوج يؤمنون .

وقال جديون ببطء :

ــ انك لم تغظني .

وامضيا فترة اخرى يتكلمان معاً ، ثم اقترح وينت بان يتمددا قليلاً قبل العشاء ، فقد اصبح عجوزاً ، وجديون قد يرغب في ان يستريح قليلاً . واشار جديون بانه لم يجد مكاناً ينام فيه بعد ، وهل هناك فندق للزنوج ينصحه وينت بالمبيت فيه ، الا ان هذا الاخير اجاب قائلاً « بالطبع ، انك ستبيت عندي ، هنا » . وعارض جديون . الا ان وينت لم يأبه لأعتراضه وقال : ان دوغلاس يقيم عندي ، ولا شك انك ستكون مرتاحاً هنا ..

ومن ثم جاءت الخادمة وقادت جديون الى غرفته في الطابق الثاني .

* * *

قال جديون :

كان من اثر السنتين اللتين تلتا الحرب مباشرة ، أن ادركنا ان القوانين السوداء كان من شأنها ان تعود بنا الى العبودية . فقد فكر اصحاب المزارع انه بامكانهم تحطيم النصر الذي احرزه الشماليون ، وقد كادوا ان ينالوا بغيتهم ، الا ان ذلك لم يحدث مرة اخرى . لقد توصلنا الى اتفاق جيد ومشرِّف مع البيض الفقراء ، ونحن متفقون معاً ، وقد تفتحت اعيننا ، وان السلطة بايدينا ونحن نريد الاحتفاظ بها .

كان ثلاثة رجال يجلسون حول المائدة ــ إيساك وينت صاحب المصرف ، والطبيب نورمان ايمري الذي كسب شهرة لنفسه وللمدينة بوسطن باكتشافاته الطبية في جراحة الامراض المستعصية ، وثالثهم جديون . وكان ايمري رجلا طويل القامة نحيلها ، ذا عينين سوداوين ، ولحية بارزة ، ترتكز على انفه فقط

نظارتان معلقتان بشريط أسود . وكان منظره يخدع الناظر ، فلا يوحي له بالثقة والاطمئنان ، وهو ممن تجري في عروقهم دماء الاسر القديمة : لويلس ، وايمرس ، ولودجس . وهو يتمتع بعقل كبير يقظ ، وروح مرحة ونكتة سريعة يستعملها دائماً ضد وينت ، ولكن جديون لاحظ بسرعة بانه رجل انساني ، بالرغم من انه لا يريد ان يُظهر انسانيته . وكانت تربطه بوينت ، وكلاهما قد فقد زوجته ، روابط حارة قديمة . وسأل ايمري جديون :

ـــ ولكن باية وسيلة ستتمكنون من الاحتفاظ بالسلطة ايها السيد جاكسون ؟

واجابه جديون :

ـــ هناك ثلاث طرق . اولها : الانتخابات : ففي كل انتخاب نستطيع ان نتغلب على اصحاب المزارع اذ لدينا عشرون صوتاً مقابل كل صوت من اصواتهم . وثانيها يعود الى اننا سنعمد الى نشر العلم . وكل المدة التي نحتاج اليها لا تتجاوز عشر سنوات ، يظهر خلالها جيل الشباب المتعلم . وهذا سيكون ياسيد ايمري اقوى اسلحتنا . وان اصحاب المزارع كانوا يقولون عكس هذا تماماً . فقد كانت جريمة يعاقب عليها بشدة ان يطلب العبد العلم او أن يتعلم بنفسه . وثالث هذه الطرق

الارض كما قلت لكم واخبرتكم . اننا في الجنوب لا نعمل الا في الزراعة ، وليست لدينا المعامل الموجودة عندكم هنا . فالقوم يعيشون من نتاج الارض . يمسك الرجل المحراث بيده ويتناول بفمه لقمة من الخبز والزبدة . وعندما نملك الارض ، ونقسمها ، ونقيم امة من صغار المزارعين الاحرار ، كما هو موجود لديكم هنا ، حينئذ نتمكن من الوقوف على اقدامنا ، ومن التكلم بثقة وبصوت قوي مرتفع . عندما نملك الارض وتصبح لنا ، لن نتنازل عنها مطلقاً ..

وقال « وينت » :

ـــ حسناً ، ستكون لكم هذه « ايوتوبيا » هذا الجنوب الذي تحلمون به . وستكون لكم احلامكم ومدارسكم .

« ايمري » هل تريد بعض البراندي ؟

ـــ لقد اعلمتك بانك تضر قلبك .. وقد سئمت من تكرار قولي هذا لك ...

ـــ حسناً ، حسناً ، لا يزال لديّ بعض القلب .

ـــ لنفترض ان كل ما قلته سيكون لكم . ياجاكسون . الا ان ذلك يستدعي معاملات قانونية للمستقبل . فالاعمال

المالية والتجارية مسألة اخرى . فان كنت قادماً اليّ تطلب الصدقة ، فاني قد اساعدك وقد لا اساعدك . وهنالك عوامل كثيرة . ويجب ان تعلم باني لست محسناً كريماً رقيق القلب .

وقال ايمري :

ــ اعتقد بانه يدرك ذلك يا « إيساك » وتابع وينت :

ــ ان ما لديك مشروع خيالي . فقومك جمعوا بعض المال . وانت تريد ان تشتري الارض . والمغامرة التي انت مقدم عليها تتلخص في انك تطلب خمسة عشر دولاراً مقابل دولار تضعه لديّ . وما التأمينات التي سأحصل عليها عدا مجموعة العبيد السابقين ، وهؤلاء البيض البؤساء الذين كانوا بالامس اعضاء في جيش من العصابات ، واخيراً عدا عن النية الحسنة ؟ انت تطلب مني صرف مبلغ لا اعرف كميته . فهل هذا من المعقول ؟ يا جاكسون ؟ اني اترك ذلك لك ... واشعل سيكاراً ، واتكأ ايمري بكرسيه الى الوراء وهو يرقب جديون الذي كان يبتسم قليلا . وقد شعر جديون بحمل ثقيل محرق في اعماقه بسبب يأسه ومخاوفه من الفشل . لقد سافر مسافة طويلة وصرف جزءاً من المال . والدولار شيء له اهميته ينكسر له ظهر العامل . لقد مات رجل من اجل دولار . وبطاقة القطار كلفته عدداً من

الدولارات ! . فالى اية نتيجة توصل حتى الان ؟ واية نقطة سيدرك ؟ هل كان كاردوزو على حق تماماً ؟ وهلا يتم النجاح الا بعد تحمل الالآم ؟ آلام لا نهاية لها ؟ ما اثقل هذا الحمل المخيف الذي يحمله الفقير المعدم دائماً وابداً .

وقال جديون :

— قد لا يكون ذلك معقولاً. ومعلوماتي في هذا الحقل قد تكون قليلة جداً أو معدومة . هذا فيما يتعلق بالأعمال المالية والتجارية . أنني أعرف القطن والارز . وقد أمضيت كل حياتي أرى نبتة القطن تنمو . والجوزات تتفجر . ورأيت الرجل الأسود في الحقل يقوم بقطفها . أرني بذرة قطن وانا اخبرك عن نوعها . أرني حفنة من الأرز وأنا اخبرك في أي ارض نمت ، في أرض مرتفعة أو في منخفض . صدقني اذا قلت لك انني أعلم هذا . ثمة شيء آخر اعرفه ، فانتم الشماليون تحسنون صنع الاقمشة القطنية وارى ان المصانع منتشرة في جميع ارجاء انكلترا الجديدة . فكيف ستقومون بحلج القطن اذا لم يكن هناك من يزرع القطن ويبيعكم الانتاج . اتريدون ان يقوم اصحاب المزارع بزراعته بانفسهم ؟ ان هذا يتطلب وقتاً طويلا ، ولابد لهم من ان يعودوا الى تحطيمنا قبل ان يعودوا لزراعة القطن بالطريقة القديمة . ثم وما

السعر الذي سيباع به هذا القطن اذا كان هؤلاء الناس سيحتفظون بزراعته ؟ .. انك تطلب تأمينات من شعبي فاليك هي :

هذه البلاد مفتقرة الى القطن ، او بالاحرى عالم مفتقر الى القطن . منذ اربع سنوات ، لم يكن هنالك موسم جيد للقطن ، ولا شك ان سوق القطن ستكون رابحة . اعط شعبي الأرض وهم يقدمون المثال الطيب . وسيرى اهالي كارولينا انه بالامكان القيام بالعمل كما اراهم الزنجي سابقاً عندما زرع الارز في جزر البحر الى ان اجلته الحكومة ، وهي الارض نفسها التي احتلتها قوات الحكومة فيما بعد ، بعد ان اجلت قوات المتمردين عنها ، اولئك الذين ارادوا القضاء على الاتحاد . اذا قمت انت بالعمل ولم تكن خائفاً سيتجرأ غيرك دون خوف او وجل . امهلنا خمس سنوات نتصرف اثناءها بالارض ، سنعقم ظهورنا بزراعة القطن وقطافه . اننا سندفع لك كل سنت وندفع لك الفائدة ايضا . هل رأيت في حياتك الزنوج وهم يعملون ؟ اذا كنت قد ذهبت الى الجنوب قبل الحرب ، فلا بد انك رأيت كيف يعمل الزنوج ، والسوط يلهب ظهورهم . انني اقول لك الان بان الزنجي الحر يعمل في ارضه ضعف ماكان يعمل آنذاك لسيده . وصدقني

ايها السيد وينت باني لم آت الى هنا طالبا حسنة او صدقة . انا لست متكبراً . وان المعلم الشيخ الذي يقوم بتعليم الاطفال هناك بعيداً في قريتي قال لي : لاتكن متكبراً ياجديون ، ان التلاميذ بحاجة الى الكتب والدفاتر ، فاذا ما قُدمتْ لك فلا ترفضها ، ولا تتكبر . اما ما نحن بصدده فانه يختلف . انا لااطلب حسنة . انني اتعهد لك بشرفي :

وانهى جديون حديثه ، انه لم يسبق له ان خاض احاديثاً بحماسة كهذه الى رجال بيض من قبل . وجلس مرتبكاً مضطرباً يطيل النظر الى غطاء الطاولة . اما الدكتور ايمري فقد كان منهمكاً بدراسة اظافر يده . وخيم السكوت ، وكان لا يسمع اذذاك الا صوت دقات الساعة الكبيرة المدلاة في الزاوية وعندئذ نفض وينت الرماد من سيكاره وقال :

ــ ما مساحة مزرعة كارويل هذه ؟ يا جاكسون ؟

ــ اثنان وعشرون الف فدان وبعض الشيء ...

وصفر ايمري مستغرباً ، وهز وينت رأسه بهدوء وقال :

ــ انك لا تعلم ، وان كنت تعلم فانك تنسى . ان هذه الحرب ــ لعنة الله عليها ــ قد اصبحت نسيا منسياً . وقال ايمري :

ـــ في البلاد القديمة ، تشكل هذه الارض الواسعة دوقية . دوقية واسعة وجميلة .

ـــ ما نوع التربة والارض .

ـــ ان نحواً من نصفها ارض صالحة للزراعة ، والقسم الآخر غابات من الصنوبر والعليق ، وبعض المراعي ، وجزء منها مستنقع .

ـــ هنالك بيت قائم في المزرعة اليس كذلك ؟

ـــ نعم بيت صاحب المزرعة الكبير ، وكانت اسرة كارويل تسكنه بين الحين والآخر ، الا انها كانت تمضي اكثر ايام السنة في تشارلستون .

ـــ هل تعتقد بان هنالك من ينوي شراء البيت ، لاستعماله بيتاً للسكن في المزرعة ؟

وهز جديون رأسه واجاب :

ـــ انه كبير جداً . وان اصحاب المزارع الذين لم يفقدوا اراضيهم مازالوا يتمسكون بما لديهم ، ولا اعتقد ان هنالك اموالا كثيرة في الولاية .

ـــ هل تعلم ما الثمن المقدر للارض والبيت جميعاً ؟

ـــ ان موظف الاتحاد قدر الثمن حسب سعر ما قبل

الحرب باربعماية وخمسين الف دولار . هذا دون العبيد طبعاً ، وهو يعتقد ان سعر الفدان سيبلغ خمس دولارات في المزاد . انهم سيقسمون المزرعة الى اثنين وعشرين قطعة ، كل واحدة منها تتكون من الف فدان وقد يكون بعضها اكثر من ذلك او اقل .

ــ لقد قلت ان هنالك نحواً من ثلاثين عائلة ، وان ثلاثة آلاف فدان هي ارض كبيرة لا يستهان بها . واعرف اسراً من (ماسا شوسيت) تملك واحدتها مزرعة لاتزيد مساحتها على عشرين او ثلاثين فداناً ، ومع ذلك فحالتها جيدة ولها اموال في البنك ، ولا يمكننا القول ان اراضي (ماسا شوسيت) هي اخصب تربة في العالم .

ووافقه جديون وقال :

ــ هذا صحيح ياسيدي وتربتنا نحن ايضاً خصبة . الا انه لا يمكننا ان نعتبر اكثر من نصف الارض صالحاً للزراعة . قد يتمكن الرجال من اصلاحها ، الا انه سيكون عملاً بطيئاً يحتاج الى الوقت . ونحن نقوم بزراعات شتى تختلف عن زراعاتكم هنا في الشمال . ان اراضيكم هنا صالحة لتربية المواشي أما نحن فبالاضافة الى القمح والخضار التي نزرعها وتربية بعض الخنازير ،

فاننا نزرع القطن وليس من المستطاع ان تربح من زراعة القطن الا اذا زرعت خمسة عشر او عشرين فداناً على الاقل .

ـ وكيف ستبيعون هذا القطن ؟

ـ اننا سنشتري محلجة ومكابس للبالات ، وسننقل الانتاج بالقطار الذي يمر قريباً من كارويل .

ـ هل عندكم بغالا لنقله ؟

ـ عندنا بعضها . وبأمكاننا ان نشتري البعض الآخر .

والتفت وينت الى « ايمري » وقال له :

ـ ما قولك يا دكتور ؟

ـ لقد رأيتك تصرف اموالك على امور اتفه من هذه

ـ هل تريد ان تشترك معي بالثلث ؟

ـ انا ؟ انا لست صاحب مصرف .

ـ انك تملك من الاموال اكثر مما املك انا ... وسوف لن تأخذ شيئاً معك ...

ـ نعم . الا انه من المستحسن ان يملكها المرء الآن .

ـ هل تشترك معي بالثلث اذا كفَلت الصفقة انا ؟

ـ اذا كفلت انت ، فلماذا تريدني ، اذن ان اشترك معك بالثلث ؟

وقال وينت بعد تفكير :

ـــ أريد من يرافقني في هذا الأمر . ان هذا الأمر لايعدو كونه اكثر مشروع جنوني قمت به في حياتي .

ـــ وأنت ايضاً سوف لن تأخذ معك شيئاً .

ـــ حسناً . أنظر ياجاكسون . انك ستكلفني ثلاث اضعاف ما كلفني الشيخ براون . ولست أدري ان كنت انت تعادل نصف ما كان يوازيه ذلك الرجل . حسناً ـــ سأعطيك أمراً يخولك قبض خمسة عشر ألف دولار لا تشكرني .. والآن اخبرنا شيئاً عن نفسك لنغير الحديث .

كان السيد وينت يتحلى بصفات اخرى كثيرة قلما يتحلى بها غيره من الرجال . فبعد ان ذهب ايمري بقي جالساً مع جديون حتى ضُحى اليوم التالي يدخن سيكاره الاسود ويجرع كؤوس البراندي الواحد تلو الآخر . وقصّ على جديون وهو ملتف بجلبابه :

ـــ لقد بلغت السابعة والستين من العمر يابني ، ارى نفسي وحيداً ، فافكر بالماضي اكثر الاحيان . عندما كنت في مثل عمرك ، كان بعض جنود الثورة لايزالون على قيد الحياة ، وكنا جيلا يفيض حيوية آنذاك في انكلترا الجديدة . فكر

ياجديون اننا اتينا الى هنا بكلمة الله وشريعته ، عصانا في يدنا ولا ترتسم على شفاهنا ابتسامة ، حفرنا هذه الارض الصخرية الجحود لكسب حاجاتنا . وقد قمنا باعمال جبارة ياجديون . ففي البيوت التي كنا نجتمع فيها كانت الديموقراطية تعيش وتتنفس ، ولعل الانبياء القدماء كانوا يسيرون الى جانبنا ، وكان الفلاحون وصيادو الاسماك يحاربون معنا في الثورة بكل حيوية ، وكأن الله كان يراقبهم من وراء اكتافهم . ان جميع تلك الأشياء أصبحت الآن نسياً منسياً . أليس كذلك ؟ انني سأموت قريباً ، وكذلك أيمري . وان « والدو » أصبح شيخا . و « ثورو » منقطع عن العالم يعيش في بيته وكأنه الناسك ، و (هويتر) مختبيء بعيداً عن البشر « ولو نكفيلو » في طريقه الى الخَرَف .. اين أمجادنا ؟ وهويتمان هذا الرجل من بروكلين ، يجأر بصوت عالي وواضح تماما كأنه حيوان متوجش وهكذا يظهر آخرون بينما نجلس نحن ونراقب انهيارنا . لايزال هنالك وميض من الأمل يبرق . لقد كان « تاد ستيفنس » على صواب عندما ترك انكلترا الجديدة ورحل الى بنسلفانيا . ولا تنس أننا قمنا باعمال جباره في حياتنا وكانت أنشودتنا : « ان عيوننا قد ابصرت مجد الرب .. » حسناً اصعد معي ...

ومشى وينت ببطء وتعب ، وهو لا يفتأ يتوقف في صعوده على السلم ليلتقط أنفاسه ، وتبعه جديون . ودخلا غرفة صبي صغير ، ولاحظ جديون بأن ثمة وقت طويل قد مضى على هجرانها . وكانت هنالك اكوام من الكتب والدفاتر ومجموعة من المواد المعدنية المختلفة ، وبوَمتّان مصبرتان محشوتان ، ورسم بالفحم لفتاة صبية .

وقال وينت :

لقد مات في البراري ، وفي اليوم الثاني للمعركة . وقد تحدثتُ بعدئذ الى رئيسه فأخبرني عن ذلك . لقد جُرح الصبي ثلاث مرات ، جرحين في ذراعه وثالثاً برأسه ، الا انه بقي في المعركة . ربما جلست أكثر من خمسماية مرة ، ياجديون ، الى جانب موقد النار محاولاً ان أفهم ، مجرباً ان ادرك ، ما الذي كان يرمي اليه الصبي ... وان اسبر اغوار نفسه لأرى السبب الذي حمله على البقاء في المعركة تتقطع اطرافه ، وينزف دمه ، ويموت منتصباً على قدميه . أنت لا تزال شاباً يا جديون ، غير ان هنالك شيئاً ما يتأجج في نفسك . ستكون قائداً لشعبك — جرب ان تفهمنا ولا تعزل نفسك عنا ... مهما حدث ...

وهز جديون رأسه وتمتم :

ـــ نعم مهما حدث ...

ـــ حسناً والآن سأهب ، وهذه الكتب فقد انتهى عهدي بها . انني أهبها جميعها : دُماه ، وكتب الاطفال . بإمكانك ان تاخذها جميعاً .. وبدأ جديون كلامه قائلاً :

ـــ لا اشعر بالارتياح لأخذ .. ،

ـــ هراء ، انني لم ادخل الى هذه الغرفة منذ اكثر من سنة . وانني احتفظ بما يخصني من ولدي في اعماق نفسي ، ولست بحاجة الى هذه الاشياء . بامكانك انت الاستفادة منها ، وهذا مايجب عمله بها . لقد تعهدت بدفع خمسة عشر الف دولار . وانا الآن اتعهد بشراء عشرين لوحاً حجرياً وبعض الطباشير . اخبرني فقط الى أين تود ارسالها وانا اقوم بكل ما تبقى .

وجرب جديون ان يشكره ، الا ان ذلك لم يكن سهلاً . فاستسلم للنوم في السرير القديم ، ذي الاعمدة الاربعة . ومن النافذة التي تتصل بها اخشاب السقف ، كان ضوء القمر يتسلل الى الغرفة . وفكر جديون طويلاً وهو مشتت الذهن ، في كل ما جرى له ، وفي الوجوه الكثيرة التي قد تكون للناس ،

بغضّ النظر عن اختلاف لون بشرتهم ، وفي الاتجاهات الكثيرة التي يسيرون عليها . ان نشيد « هاليلويا » لم يكن مرتفعاً كأنه الزئير ، بل كان هادئاً ، بطيئاً ، ومن خلال تحليل منطقي ، توصل الى اجابة مقنعة لجميع الوسائل المعارضة الا واحدة : تلك التي تتلخص بالسبب الذي من اجله يجد بعض الناس سعادتهم في حلم الاخوة بين البشر .

وفي اليوم الثاني ، وقبل ان يذهب الى « وورسستر » لرؤية جيف ، قام بزيارة الدكتور ايمري في عيادته . هناك في العيادة لا وجود للرجل الظريف الانيق ، رجل يرتدي رداء ابيض ، عالمٌ له من المعرفة ما يجعله جديراً بهذا اللقب . يساعده في عمله ممرضان ، فتيّان ، يروحان ويجيئان في الغرفة والايوان الغاص بالمرضى . ان هذا الجزء من بوسطن يذكر جديون بأكواخ نيويورك ، تلك الأكواخ المتراكمة ، والأزقة القذرة ، بالفقر .. بالايرلنديين ، والبولونيين البؤساء والايطاليين المعوزين . وكان بيت ايمري قديماً ، وقد رُممّ ودُهن بلون أصفر كاشف من الداخل والخارج وجلس جديون في غرفة المعاينة وراقب الطبيب في عمله وهو يفحص ولداً ذا صدر غائر وعظام مشوهة ...

ـــ هل ترى هذا يا جاكسون ؟

وكان الطفل الذي لا يزيد عمره عن الثماني سنوات عاريا ، وقد وقف مرتجفاً ويداه متصالبتان . وتابع الدكتور كلامه :

ــ اننا لا نعرف ماهذا . انني أرى اسبوعياً مايزيد عن العشرين حادثة متشابهة . وهي لاتحدث الا مع الطبقة الفقيرة . وقد اصطلحت لها اسماً خاصاً أدعوه « التشويه في الأعضاء » اسم لايدل الا على وصف المرض .

ومر بيده فوق جلد الصبي ، وقال : « حسناً يابني . ارتد ملابسك » انك ترى ياجاكسون ، ان امراض المجتمع لها وجوه عديدة . لقد حاربنا ، ومتنا لنحرر شعبك ، بينما تتفشى الامراض بيننا . ان هذا ليس شيئاً جميلاً كما ترى ، اننا نحن الذين نعتبر انفسنا متمدنين ، لا نتمكن من تأمين العلاج والطب المجانيين لشعبنا . حتى اننا لا نتمكن من تأمين بعض البحث والدراسة لتفهم هذا الفن الاسود الذي ندعوه « الطب . » هنا في هذه الارض الغنية ، يمرض الناس ويموتون جوعاً . يموتون لعدم توفر الهواء النقي ، واشعة الشمس . ان الحياة المبنية على الاحسان ، وعلى هذا الطب الذي ازاوله انا هي اشبه بتورم موضعي خبيث في جسم كائن حي .

كما اعتقد احياناً ، ان جيراني الاشرار ، هم على حق في الاحتفاظ بجيوبهم مخيطة ... واخيراً سأل ايمري عن جيف :

ــ هل انت متأكد ياجديون ، بانه يود ان يكون طبيباً ؟

ــ متأكد ؟ ما درجة التأكد التي يمكن للمرء ان يحصل عليها من صبي لم يتجاوز السادسة عشر بعد ؟ انه طفل ذكي ونشيط وانا لا اقول هذا لانه ولدي .

ــ ان الحصول على العلم في هذه البلاد ، امر مستحيل . ان كليات الطب عندنا لا تعتقد ، او لا تريد ان تعتقد ان بامكان الرجل الاسود ان يشفي مريضاً او ان يمرض هو نفسه . وفي المستقبل ، عندما تنتهون انتم من خلق فردوسكم الموعود « ايتوبيا » في جنوب كارولينا ، ستهتمون بهذا الامر . على كل حال ، هذا امر يتعلق بالمستقبل . واذا مانجح جيف في الامتحان فانه سيُقبل في جامعة ادنبره في اسكتلندا .

وهز جديون رأسه بشك وقال :

ــ اسكتلندا ، هذه بلاد بعيدة اليس كذلك ؟

ــ بعيدة جداً ، ولحسن الحظ . لم يُدركوا في تلك البلاد القديمة بعد ، ان بشرة الانسان السوداء تجعله من احط الكائنات البشرية .

وقال جديون :

ـــ لا اعلم . انه مازال صبياً ، أأرسله لمثل هذه المسافة البعيدة وحده .. قد يتطلب ذلك سنة ..

ـــ على الاقل ثلاث سنوات .

قال ايمري ذلك وهو يهز رأسه ، ويراقب بغرابة ، علائم الألم ترتسم على وجه الزنجي .

وجرّب جديون ان يجد لنفسه مخرجاً . قال :

ـــ ليست القضية اني لا اعلم ما الافضل له ، بل ان راشيل والدته ...

ـــ اذن ، اقترح عليك ان تضرب صفحا عن فكرة مستقبله كطبيب .

وقال جديون :

ـــ انه يريد ان يكون طبيبا .

ـــ ان ذلك يكلف بعض المال .

وقال جديون :

ـــ عندما اعود الى الجنوب ، انوي الاشتراك في الانتخابات ، والدخول في المجلس التشريعي ... وتردد قليلاً ثم تابع قوله : عندما كنت في المؤتمر كان اجري ثلاثة دولارات

وخمسين سنتا في اليوم ، وكنت اوفر منها دولاراً وخمسين سنتا ... هل يكفي هذا ؟ .

واستدار ايمري جانبا وقال :

ـــ « قد تكفي » ... أجاب بهدوء ، ومشى الى النافذة ، ونظر الى الخارج ، وعاد الى جديون متابعاً حديثه :

« انظر يا جاكسون ، اين يوجد ولدك الآن ؟ »

ـــ في مدرسة البرسبيتريين في وورستر .

انني اعرف هذا المكان . انه سيتعلم القراءة والكتابة ، ولا اكثر من ذلك . متى ذهب الى هناك ؟

ـــ منذ اربعة اشهر .

ـــ دعه يبقى هناك ستة اشهر . انك تقول بان عمره ستة عشر عاماً . بامكانه ان يأتي الى هنا بعد شهرين من الزمن . وسوف اعلمه في سنة اكثر مما يتعلمون هم في عشر سنوات. وألفت نظرك الى انه سيعمل ليكسب عيشه . فانا بحاجة الى ولد يكنس المكان ، ويغسل المختبر ، وينظف الادوات والاوعية . وانا لست من مؤيدي إلغاء العبودية بقدر نصف وينت . اذا كان الولد ذكياً ، واذا اظهر قابلية للتعلم ، ورغبة في

العمل ، فاني سأزوده بمعلومات كافية لاجتياز مسابقة ادنبره .

اما اذا لم يكن كذلك ...

* * *

وجلس جديون في مكتب القس تشارلس سميث في وورسستر ، وأعاد الحديث الذي قاله الدكتور ايمري . وقال سميث ، وسميث هذا رجل حييّ ، وديع ، غير واثق من نفسه ، قال : « نعم ان جيف ولد طيب ، طيب جداً ، مخلص ولا يتعبهم . ولكن يجب ان يدرك جديون ان العلم مسألة بطيئة ، شاقة ، طويلة ، ويجب ان لا ينسى ان الصبي كان يجهل القراءة والكتابة منذ مدة وجيزة .

نعم انه يبدي مقدرة كبيرة في التعلم ، وانه يفهم الاشياء بسرعة ، غير ان الطب مهنة تتطلب ثقافة مدرسية عالية . ألم يكن من غير المجدي ان يقول ايمري ان بامكانه تهيئة الصبي للدخول في جامعة ادنبره خلال سنتين ؟ إن جديون لا يعلم أمن الضروري ان يجزم المرء على ان الطب هو المهنة الوحيدة التي يتمكن الانسان من خلالها ان يخدم شعبه ؟ ما رأيه بالكهنوت ؟

ان هنالك ناحية روحية في الصبي قد يستنتج منها انها بادرة حسنة تؤهله لذلك .

ــ « ارجو الا تظن اني لست شكوراً لكل ما قمتم به ... » قال جديون ذلك وتواردت الى رأسه الخواطر . ايخبر سميث ماذا يعني فراق جيف بالنسبة اليه ولراشيل ؟ هل يدرك القوم البيض اهمية الطفل عند الرجل الاسود ؟ وتابع قوله : « انني اريد للصبي ان يتعلم مايريده هو .. »

ــ طبعاً ، بقدر ما يعرف الصبي .

ــ سأتكلم معه .

* * *

وبدا لجديون ان جيف اطول مما كان يعرفه . اطول واكثر شبهاً بابيه . فبعد ان عاشا غريبين بعيدين عن بعضهما مدة من الزمن ، اصبحا يجدان الشبه بين كل منهما اكثر وضوحاً . ورأى جديون ان بامكانه ان يتكلم الآن ، ولم يكن ليتمكن من الكلام معه من قبل . وعند الاصيل سارا معاً . وكان جيف قد تعرّف الى الكثيرين من سكان البلدة ، وسيقدم جديون لهم

بفخر قائلاً : « هذا هو والدي .. » لقد تعود جديون ان يرى التغير في الناس . فقد عاش في عالم من التغير والتطور ، حتى بات باستطاعته تقدير درجة التغير التي طرأت على جيف دون ان يقف مشدوهاً من هذا .

وتركا البلدة ، وانحدرا على طريق ريفية ، وهنا في الريف لقد كانت الاراضي في الريف حمراء اللون ، تبدو كأنها قديمة العهد غارقة في التفكير ، والحقول مقسمة تقسيماً جيداً وكأنها رزمٌ مربعة حسنة الترتيب ، والمستودعات حمر ... والبيوت بيضاء نظيفة .. وكذلك المراعي .. وسأل جديون :

ـــ أأنت مسرور هنا ؟

واجاب جيف بالايجاب ، انه مسرور هنا ، ولا يعود ذلك الى طيبه القوم فحسب . بل ان الامر اعمق من هذا . لم يكونوا جميعاً قديسين . فمنهم من يدعوه زنجياً قذراً ، وكثيرون من سكان البلدة يكرهون الرجل الاسود . لقد كانوا كذلك دائماً . الا ان الشعور يختلف هنا كثيراً عن الجنوب ، بصورة عامة .

وهز جديون رأسه . لقد فهم منهم ما قاله ابنه ومع ذلك فانه اذا ما عاش هنا فانه سيشعر وكأنه في المنفى . وهذا ما

لايمكن وصفه تماماً ، وبالاضافة الى هذا وذاك ، فان المنطقة باردة . وقال جيف :

ـــ انني ادرس كثيراً .

ـــ هذا امر جيد . ومضت برهة عاد جديون بعدها فسأل :

ـــ هل فكرت كثيراً فيما تريد ان تعمل بعد انتهائك من المدرسة؟

ـــ نعم ، ولا ازال افكر في ان اكون طبيباً .

وصعدا الى قمة الهضبة ، وكانت الشمس تنحدر نحو المغيب تحتهم ، وثمة فلاح يقود بقرته خارجاً من المرعى ، وكلبه يقفز ثائراً . قال جديون :

ـــ والآن يستحسن ان نعود

وسارا ببطء .. وجرب جيف ان يعبّر عن الاشياء التي تختلج في نفسه بسبكها كلماتٍ وجُملاً .. اما جديون فقد بقي صامتا « .. اننا شعب وُلد من جديد ، انت تعلم ما اعني ؟ .. » فهز جديونَ رأسه .. اعني ان الولد الابيض يعمل ما يريد ، او ما طُلب اليه ان يعمل .. وليس عليه ان يمعن التفكير بخدمة شعبه .

وهز جديون رأسه ثانية وتابع جيف حديثه :

ـــ لقد بدأت افكر . انني هنا في هذا المكان . كيف اتيت ولماذا ؟ ماركوس ، وكاري ، ولنكولن ، وجميع الآخرين ، لم يأتوا الى هذا المكان ... من الممكن ان يكون قد اصابني حظ خاص . ولذا فانا اود ان اجعل لهذا الحظ بعض الفائدة التي تعود بالخير على قومي ، فاعود اليهم احمل شيئا وأقول : انظروا لديّ هذه الاشياء ... لقد عدت بها . اني قد اتمكن من ان اجعل الرجل المريض احسن حالا ..

وقال جديون :

ـــ ان القس سميث يريد منك ان تصبح كاهنا يصلي في الناس . وهذا العمل قد يكون خدمة كذلك .

ـــ ربما ، ولكن الاخ بيتر يعتبر رجل دين ممتازاً على ما اظن . ثم ان الكهنوت ليس علما . ان القس سميث رجل طيب ، رجل ممتاز ، الا ان عمله ليس لي ..

وقص عليه جديون كيف تعرّف بايمري، وحدثه عن عيادته والعرض الذي تقدم به ، وكيف انه بامكان الزنجي ان يكون طبيبا في جامعة ادنبره ، واستمع جيف وهو مرهف السمع ، متشوق ، ومضطرب . ورسم له جديون الصورة من وجهيها .

فقد يغير ايمري فكره وقد لا تكفي سنتان لتثقيف جيف ، وقد يسأم ايمري القضية باجمعها .

وقال جيف :

سنتان تكفيان . أقسم لك بذلك ، وسأقوم بأي عمل يُطلب اليّ ، سأعمل كل شيء . سأكنس له عيادته وانظفها باتقان حتى تلمع كالذهب . اني أقول هذا بكل تأكيد يا والدي واقسم لك ، ان هذا لن يسبب لي المتاعب . يقولون بأني اقوى ولد هنا في البلدة . ان عربة السيد « جارفيس » هوت مرة في حفرة ، فرفعتها بنفسي وحيداً . ان هذا الطبيب الأبيض لن ينهكني بالعمل . سأعمل طيلة النهار ، واتعلم ايضاً ...

وسارا جنبا الى جنب ، وكان جديون يفكر في الطريقة التي سينقل بها الخبر الى راشيل . واراد ان يطوق جيف بذراعيه ويضمه اليه بحرارة ، الا انه لم يفعل . وأحس بفخر عظيم خفي يملأ نفسه . وشعر برغبة ملحة تدفعه الى الجلوس مع جيف والتحدث معه عن جميع الأشياء التي يجب ان يعرفها ، وعن كل ما يجيش في نفسه من أفكار . وقال جيف فجأة :

ــ انك ستسمح لي بان أقوم بهذا . أليس كذلك ؟ ارجوك .

ــ ساسمح لك ..

وكان الظلام يكاد ان يخيم في تلك الاثناء فاسرعا عائدين ...

وقبل ان يغادر جديون وورسستر قال لابنه :

ــ بنيّ ! جيف ! كلانا قد خرج من الأيام المظلمة والذكريات القاتمة . وقد تكونت لدينا فكرة عن المسافة وكأنها شيء موحش ، تقاس بالمدى الذي يسيره المرء باليوم الا ان هذا ليس صحيحا ياجيف . ففي استطاعتك الانتقال من هنا الى كارولينا في بضعة ايام اذا اردتني ان آتي لرؤيتك ، فاني سافعل ذلك . وان اردت العودة الى البيت ، فلا تخف . اكتب لي وسارسل لك ماتحتاج اليد من المال لتعود ... » .

واعطى جيف ، الهدايا القليلة التي أحضرها معه وصافحه بحرارة ومن ثم قبّله ... ولقد كانت تلك هي المرة الاولى التي يقبله فيها منذ سنوات .

* * *

وعاد جديون الى موطنه في كارويل . عاد وهو يشعر بانه قد أنجز أعمالاً جبارة ، وقام بالمستحيل . وكان أول مارآه عند

وصوله ، قضباناً سوداً منتصبة ، وهي كل ماتبقى من الحظائر والمستودعات ، وثمة مدخنتان طويلتان صمدتا للخطب وبقيتا للدلالة على الاكواخ . وقد كان ذلك أول خبر نقل اليه . وقد سمعه عندما كان يُحيي ذويه ويرفع جيني الصغيرة في الهواء كان القوم ساكتين مضطربين ، لاترتسم ابتسامة على افواههم . وتمسكت به راشيل . اما هو فصرخ :

ـــ اين ماركوس ؟

الا ان ماركوس كان بصحة جيدة ، وشق طريقه اليه ، وسأل جديون : « حسنا ما الخطب ؟ » متى حدث ذلك ؟ كيف ؟ واحس بذلك الشعور الغريب ، الغامض الشعور بالموت . وأجال النظر فيما حوله ليرى الوجه المفقود . ولاحظ ان ذراع « ماريون جيفرسون » كانت مضمدة . وان « آن » زوجة هانيبال واشنطن تحمل على ذراعيها مولودها الجديد « الذي ولد اثناء غياب جديون ، ها ان الحياة والموت يمشيان جنبا الى جنب . وسأل : « ياللشيطان ، ماذا حدث ؟ » .

واجهشت لوسي زوجة اندرو شيرمان بالبكاء ، وجرّب اندرو ان يهدأها وهو يربت على ظهرها قائلاً : اهدئي يالوسي . وادرك جديون انه ابنها جاكي الذي بلغ سنواته التسع والذي

تفخر به وبلونه الاسمر الفاتح ، وجماله الملائكي الناتج عن امتزاج دم أسرتين كبيرتين من كارولينا الجنوبية . ونظر الى الاخ بيتر وقال بهدوء :

ـــ الرب أعطى والرب اخذ ..

وسأل جديون : وكيف حدث ذلك ؟ كيف ؟ .

وقص عليه الاخ بيتر الحادث ، واشترك معه احيانا بعض الآخرين ، كل منهم شاهد جزءاً منه لم يره الاخر . كان ذلك بعد اربعة ايام من رحيله . لقد ترامى الى مسامعهم بأن اموراً مشابهة تحدث في المنطقة المجاورة لكارويل . الا انهم لم يروها باعينهم .

ففي نحو الساعة التاسعة مساء ، كانوا عائدين من صلاة المساء التي اقامها لهم الاخ بيتر في احد المستودعات وفي الهواء لسعة من البرد . وكانت الصلاة موضوعا دينيا وعظة في آية من مزامير داوود :

« هلليّ وافرحي بالرب الاله ايتها الارض ، ويا بلدان العالم . واخدموا الله بسرور وغبطة .. » وألمح الأخ بيتر الى انه لن ينسى هذه الآية بسبب اقترانها بما حدث ; اذ انهم عندما خرجوا من المستودع ، لم يذهبوا تواً الى بيوتهم . بل تلكؤوا جماعات

صغيره كما يفعل الناس عند خروجهم من الكنيسة . وصرخت احدى النسوة ، فلفتت انظار الآخرين .. وعندئذ ابصروا على الهضبة المرتفعة وراء المرج الغربي ، صليبا جباراً يشتعل مومضا بالضياء برهة من الزمن..

وصرخ غيرها من النساء ، وكاد الخوف والرعب يقتلان بعض الاطفال . وفكر جديون لنفسه : « نعم انه ليدرك مدى خوف الاطفال في وقت كانت الشمس فيه تقارب المغيب بهدوء وسلام ، وعندما ومض الصليب المشتعل » . ومع ذلك ، فقد تمكن الرجال من تهدئة النساء والاطفال ، وقد قال الاخ بيتر آنئذ : « ان منظر الصليب المقدس في الحقيقة ، لا يمكن ان يجلب البلاء والشر لأي انسان كان ، حتى ولو كان مصطبغا بالدماء ، او ملتهبا بالنار . » وقد وجد البعض التعزية بما قاله بيتر ، اما الاخرون ممن سمعوا بعصابات .. الكلو كلوكس كلان .. فقد اطبقوا شفاههم ، واحتفظوا بما يعرفون في قلوبهم . ووقف القوم حتى خبا وميض الصليب المشتعل ، وعادوا الى بيوتهم ، وقد سيطر على البعض اضطراب وغضب شديدين .

وانبرى هانيبال واشنطن فقص على جديون :

« .. حينئذ ، قدرت ان شيئا ما سيحدث ، فالصلبان لا

تشتعل في الهواء دون ان يكون هنالك من يشعلها ، وبدا لي الامر غريبا ، وطلبت الى تروبير ان يذهب معي ، لنرى سبب هذه النار في رأس الهضبة ... ».

وتحدث آخر فقال :

.. « واخذ كل منهما بندقيته ، ودارا حول المرعى ، وصعدا الى الهضبة . لم يكن في المكان احد ، غير انه كان هنالك ــ كما توقعا ــ صليبا من الخشب ، ورائحة البترول القوية تعبق في الجو وبقايا اعشاب يابسة ملقاة على الارض . ولم يكن من الصعب عليهما ان يستنتجا ماحدث : هنالك من نصب الصليب ، ووضع فوقه الاعشاب واشعلها بعد ان صب عليها البترول . وان هذا الشبيه بالاشاعات التي سمعاها عن طريقة صبيانية جنونية لدب الرعب في النفوس ، ارعبتهما اكثر من اي تهديد حقيقي ، لا لشيء الا لانها صبيانية في نوعها .

وعندما عادا ، كان الرجال بالانتظار ، واخبرهم هانيبال واشنطن عما رأياه . وقال اللنبي لجديون : « اننا لم ننل بعد ، نصيبنا من شر الجنوب وقذارته هنا في كارويل » وفي هذه الاثناء جاء ابنرليت ومعه الاخوان كارسون : فرانك ويلزلي وجميعهم

مسلحون ، وابتدروا القوم بالسلام وهم سائرون في الظلام . لقد رأوا الصليب من بيوتهم ، فجاؤوا ليعرفوا ما هي القضية .

واجابهم هانيبال واشنطن : ــ ربما لا تكون شيئا . وقال آخر :

ــ او قد تكون عصابة « الكلان » او بعض المجانين من جوارنا .

ــ « لا اعتقد بان احداً من هنا ، يقوم بعمل جنوني لعين كهذا ... » .

قال ابنرليت ذلك ، وتبع قوله كثير من الاراء والاقاويل والمناقشات حول مايجب عمله .

كان القوم يريدون من جديون ، ان يدرك انه لم تكن لديهم اية وسيلة فماذا يتمكن المرء ان يفعل إزاء حادث جنوني كهذا ؟ لقد بحثوا الأمر ، وكانت الاراء متضاربة . منهم من قال بوجوب إقامة حرس ، ومنهم من صرّح بان الناس انما يعيشون في بلاد متحضرة ، وهم لذلك خاضعون للقانون ، وانه لمن المستحيل اقامة حرس في كل ليلة .

وانبرى الاخ بيتر متكلما وهو يشك في قوله .

ــ ليس بامكانك ان تؤيد سلوكنا ، أليس كذلك ياجديون ؟

ـــ لقد كنتم على حق . وماذا حدث بعد ذلك ؟

ـــ لقد عادوا الى بيوتهم في ساعة متأخرة اكثر مما اعتادوا عليه ، وناموا جميعا . وبعد منتصف الليل وقع الحادث . وتابع جديون استماعه ، واشترك الجميع في اخباره بالقصة نفسها ... لقد استفاقوا على ضجيج حوافر الخيل ، وصرخت بعض النسوة وكأنهنّ رأين احلاما مزعجة ، وبقي بعض الرجال في مضاجعهم وهم يرتعدون . وهب كل من هانيبال واشنطن . واندروشيرمان ، وفرديناد لنكولن وتروبير ، فاخذوا بنادقهم التي كانوا قد تركوها مرميه الى جانبهم وبادروا الى الخروج ، وخرج الاخ بيتر واللنبي وعشرة آخرون دون سلاح . وقصوا على جديون جميعا نفس القصة ، فقالوا : « كانوا اثني عشر فارسا بأردية بيضاء ، يحملون المشاعل . وعندما مروا كان مستودع العلف وراءهم يحترق ، وألسنة اللهيب تتصاعد من الاعشاب المخزونة والنفل اليابس ، بينما كانت الابقار تخور والبغال تصهل من الرعب . واعترف تروبير بانه هو الذي واجه الفرسان باطلاق النار ، إذ انه لم يتمالك نفسه عندما سمع خوار البقر ، فاطلق النار على احد الفرسان المقنعين ، ولكنه مقتنع كالآخرين ، بانه لم يصب احداً ، وبانه لم يطلق النار الا بسبب غضبه الشديد .

وعلى الاثر « ـــ وقد يكون السبب طلقة تروبير ـــ » القى المقنعون مشاعلهم على الاكواخ ، واطلقوا رشا من الرصاص على القوم واسرعوا بالعودة .

وقال اللنبي : « يجب ان تدرك الان يا جديون ، اي نوع من الجبناء القذرين كانوا . كانت طلقة واحدة كافية لان يلوذوا باذيال الفرار . انهم بالرغم من قمصانهم البيضاء ، واغاراتهم الليلية . وصلبانهم المشتعلة ، كانوا وجلين واذ ان علموا باننا مسلحون . لقد كانوا يتراكضون ويتدافعون كالارانب . وبعد برهة راينا جاكي شيرمان متمدداً في الظلمة ، وقد استقرت رصاصة بين عينيه ، بفعل احدى الطلقات الوحشية التي اطلقوها ... وكنا نحن نعمل على اخماد النيران لانقاذ المستودع ، في حين كان الطفل المسكين ساكنا ، لا يستطيع ان يبدي حراكا .

وعادت لوسي شيرمان ، فانخرطت بالبكاء ، واخذ الاخ بيتر يتابع لجديون سرد ماتبقى من القصة : « .. ان الطفل الميت اوقفهم عن اخماد النيران ، لقد تمكنوا من انقاذ المستودع ، الا انهم لم يتمكنوا من انقاذ حظيرتين للمواشي ، وكوخين فاكلتها النار . وجاء ابنرليت وولده فريد ماكهيو ، وجاك سوتر والاخوان كارسون عندما راوا النيران المشتعلة . وتدخل هانيبال واشنطن

فقص على جديون ، كيف ان ابنر ليت نظر الى الطفل ، وصعدّ سيلاً من الشتائم لم يسبق ان سُمع لها مثيلا . وقال هانيبال : « انك ترى ياجديون ، كيف ان موقف ابنر هذا ، قد قضى على ظنوننا ، فليغفر لنا الله ، لقد كنا نشك ولا نستبعد ، قبل مجيء ابنر ورفاقه ، ان يكونوا ممّن اشترك في القيام بهذا العمل . ان مجيئهم قد اكد لنا انهم ليسوا اولئك المجرمين . ومن الطبيعي انهم لم يكونوا ليستطيعون اعادة الحياة الى الطفل ، غير انه كانت لنا بعض التعزية في اقوالهم .

ــ وما الاجراء الذي اتخذتموه آنئذ ؟ تلفظ جديون بذلك ، وفي صوته بحة مريرة ، وكأن المتكلم كان رجلاً آخر .

وقال اللنبي : « وماذا كان باستطاعتنا ان نفعل ياجديون ؟ لقد ركب ابنرليت بغلته في اليوم التالي وقصد البلدة . وسمعنا انه طلب الى عمدة المدينة ان يقوم بعمل ما . غير ان هذا الاخير ضحك منه . انك تعرف هذا الرجل . انه « جاسون هوكار » . وقد كان يتاجر بالعبيد في الايام الغابرة .

ــ نعم انني اعرفه .

ــ حسناً . وقد سمع ابنر شائعات مفادها ، ان العمدة هو رئيس عصابة « الكلان » . وقد اتهمه ابنر بذلك ، فشتمه

ونعته بقوله : « يا من تحب الزنوج القذرين » . وقد تعاركا معاً ، وتذهب الرواية الى ان ابنر كاد يقتله . فتراكض الجمهور ، فشهر ابنر مسدسه قائلا : نعم . من منكم يريد ان يكون الضحية الاولى ؟ ووقف تشارلي قائلا كنت احد الذين خدموا اثناء الحرب في سرية ابنر الى جانب هذا الاخير ، وعاد ابنر راكباً بغلته الى بيته . وفي اليوم التالي ذهب هانيبال في عربة عابرة الى كولومبيا ، وهناك تكلم مع الميجر شيلتون .

ـــ وماذا قال شيلتون .

ـــ لقد قال بانه سيتخذ الاجراءات اللازمة . انها مجرد جملة تقليدية يا جديون ... سأتخذ الاجراءات .

* * *

وعندما ذهب جديون الى كولومبيا ، قال له الميجر شيلتون الكلمات نفسها : « .. بامكانك ان تكون واثقاً ، بان الاجراءات اللازمة ستتخذ . » وكان شيلتون طويل القامة ، شديداً ذا عينين صغيرتين . وقد مضى على تخرجه من كلية ويست بوينت الحربية تسع سنوات فقط ، ولا يزال فيه من الشباب مايجعله يشعر بالرضا عما كتب له القدر من حيث

وجوده هنا في الجنوب بعيداً جداً عن اي مكان . وان عمله الذي كان يشغله بصفته رئيسا للشرطة ، جعله يحس بمرارة في نفسه تجاه القوم الذين يحترمهم ، واكسبه العطف والشفقة على اولئك الذين يحتقرهم .

وسأل جديون ما الاجراءات التي ستتخذها ؟ » .

ـــ اجراءات عسكرية ليس في نيتي ان ادلي بها اليك ، كما اني لست مجبراً على بحثها معك يكفي ان تعلم ان محضر الادعاء قد تم ، وقد سجلت شكواك ، وسنعمل مايجب عمله .

ـــ والى ان يقضي الله امراً ، يبقى الطفل الميت ميتاً ، وهكذا تنتهي القضية ..

وقال شيلتون وقد نفد صبره :

ـــ كلا ، طبعاً ، لم تنته القضية . ولا تجرب ان تلقنني الكلمات التي يجب ان اقولها ايها السيد جاكسون ، ثم اني كما فهمت ، كان موت الصبي قضاء وقدراً ، ومع ذلك فاننا نعمل كل ما باستطاعتنا للبحث عن المجرمين .

ـــ قضاء وقدراً !! حادث عرضي ! .. واولئك الفرسان البيض المقنعون ، الذين اشعلوا الصليب ، واغاروا على قريتنا ، واحرقوا المستودعات ؟ ان هذه المستودعات ليست ملكاً لنا ايها

الميجر شيلتون . انها ملك لحكومة الولايات المتحدة . فأي حادث عرضي ؟ اي قضاء وقدر ؟

ـ انا آسف ..

ـ آسف جداً على ماالظن . هل بحثت عن منظمة « كلان » في هذه المنطقة ؟ هل حققت مع رجال كـ« جاسون هوكار » ؟ هل قمت بذلك ؟

ـ لا تصرخ بوجهي ياجاكسون . فانا لن اعدو ضمن دائرة كلما اتاني زنجي يطلب الحماية .

وقال جديون بوضوح :

ـ انظر ياسيدي ، انا لست غاضباً فاقد الوعي ، ولن اكون كذلك . انا لا استجدي حقاً . ان كل ما اطلبه هو من حقنا . لقد اقام الكونغرس في هذه المنطقة حكما عسكريا لحمايتنا حتى يسلم الحكم الى السلطات المدنية . فاما ان تؤمن انت هذه الحماية ، او نؤمنها نحن بوسائلنا الخاصة . لقد قاتلت في الحرب انا ايضاً . وكنت برتبة رقيب اول في الكتيبة الخامسة والخمسين السوداء .. كلا لم نكن فوجا من حفاري الخنادق وبناة الجدران ، لم نكن فوج اشغال ... كنا زنوجاً احراراً هربنا من هذه الولاية ، وخضنا تسع معارك ، وسقط على ارض المعركة

ثمانية من كل عشرة من رجالنا . هل تذكر كيف هاجمنا « فورت واكنر » ؟ لقد تركنا في ساحة المعركة اربعمئة قتيل ، منهم الكولونيل « شو » وقد قطّع الثوار جسمه ودفنوه في حفرة مع اشلاء الزنوج ، قطعوه لانه سيد ابيض ، سيد ابيض قديس قاد كتيبة من الزنوج . وهل تذكر نشيدنا ؟ لو انك حاربت في هذه الولاية ، لكنت سمعته ولا شك . انه النشيد الذي مطلعه « انا لا اريد التحدث عن تلك الاشياء ، فلقد ذهبت مع الماضي البغيض . غير اني اقولها لك : اذا لم تؤمن لنا الحماية ، فسنؤمنها نحن .

وقال الماجور بصوته القاسي :

ـ انني سأقمع اية اضطرابات قد تحدث ، أكان البيض هم القائمين بها او السود .

ـ ونحن سنحمي انفسنا .

* * *

وعندما عاد جديون الى كارويل ، جمع القوم جميعاً ، بيضاً وسوداً ، يخبرهم بما جرى له فقال سأعلمكم نتيجة رحلتي الى

الشمال . لقد اعطاني « ايساك وينت » وهو صاحب مصرف في بوسطن ، حوالة بقيمة خمسة عشر الف دولار . اننا سنشتري الارض ، ونحتفظ بها . ان قوى الشر التي بدأت تظهر هنا ، سوف تعارضنا . اننا سنتمسك بحقنا وسننظم حرسنا الوطني ، وسنقوم بالتدريب مرة في الاسبوع الى ان نصبح في حاله لا نكون فيها بحاجة الى هذا الاجراء ...

وتبعت كلام جديون مناقشات طويلة . وقال فرانك كارسون بانه في الواقع لا يوافق على فكرة تدربه تحت امرة زنجي بعد ان كان فارساً تحت امرة ستوارت ، وهو لا يشعر بالارتياح الى هذا العمل باجمعه . واقترح جديون « فريدماك هيو » الذي كان رقيبا في سنوات الحرب أن يكون مدربا . وقد صُوت على الاقتراح وأُقر . واقترح فريد بدوره ان يكون هانيبال واشنطن وابنر ليت مساعدين مدربين . وسأل اللنبي عن شرعية هذا العمل . غير ان جديون اجابه بانهم يمارسون حقهم المنصوص عليه في الدستور ، وهو يسمح لهم بحمل السلاح ، وهم في الواقع يحملون السلاح جميعا منذ انتهاء الحرب ، وان تنظيم تدريبهم لن يهدف الا لشيء واحد ، وهو ان يشعر فرسان الليل المقنعون بانه ليس من السهل القضاء عليهم . وقد كان جديون مصيبا

فيما ذهب اليه . ومضى وقت طويل قبل ان يعود رجال « الكلان » الى الظهور في ضواحيهم .

وسألت آلن جونس الفتاة العمياء ، عن اخبار جيف ، فاخبرها جديون عما حدث له وكيف ان الحظ قد يساعده اثناء عمله عند الدكتور ايمري على الذهاب للدراسة في ادنبره ، هناك في الطرف الآخر من العالم . وادرك جديون ان هذه الفتاة تحب جيف ، فكيف تخفي عنه امور كثيرة كهذه ؟ لماذا ؟ وقالت آلن : « قد يكون ذلك لمدة خمس سنوات » . وكان في صوتها لحن غريب حدّد النهاية لكل شيء .. واجاب « ربما » . وحاول ، وهو غارق في سيل من التفكير في الامر الذي جعل جيف يَقدمُ على حب كهذا ، وان يكون لطيفا معها بقدر الامكان ... ان جديون يفكر كثيراً في هذه الايام ، وبصورة خاصة يفكر بجيف ، عندما يرى الشبان يغازلون البنات ، وعندما يرى ماركوس راكضا ، مندفعا ، كأنه الايل .

وكانت آلن تأتي وتجلس الى جانب راشيل . ولم تكن راشيل تفضي الا بالنذر القليل من الاحاديث الطويلة التي كانت تدور بينهما الى جديون . وقال لها مرة : ان هذا الحب هو خير له دون شك . وقبلت راشيل قوله .. وكان جديون يشعر احيانا

وقد تملكه شعور ذاتي ، بان اشياء كثيرة كانت تبعده عن راشيل ، فيحاول ان يكون لطيفا معها بصورة خاصة ، مبديا انتباها غريبا لاشياء صغيرة تافهة ، فتجيبه مرة : « جديون .. جديون ، لا تهتم بي كثيراً » . ويقول لها :

ـــ انني احبك ايتها العزيزة راشيل .

الا ان قوله الاخير هذا ، قد قاله بشكل يختلف عن الماضي ايضاً . لقد شمل التطور الذي تعرض له ، حتى كلامه ، وتفكيره ، وتصرفاته . وعندما علمت راشيل بان بعض النسوة يتكلمن عنها وعن جديون كثيراً ، كانت اكثر اندفاعاً في اظهار ما تمّ على ايدي جديون من أعمال ، فتقول لهنَّ : ليس في العالم رجلٌ كجديون ، فتقضي بذلك على حسدهنّ واعجابهنّ او بالاحرى على غيرتهن . الا انها لم تكن لتتمكن من ان تقول هذا لنفسها بالطريقة نفسها . وكثيراً ماكانت تستيقظ في الليل وتبقى مضطجعة الى جانب جديون دون حراك لساعات طويلة . واحس بها مرة وهي مستيقظة فسألها :

ـــ ما الذي ألمّ بك ايتها الطفلة ، ياحبيبتي ؟

ـــ لا شيء .

وقالت بعد برهة من الصمت :

ـــ لقد ذهب جيف ... ياالله !! انني اريد طفلاً آخر .

ـــ لنا صبيان ممتازان وابنة .

ـــ انني أريد طفلاً ... فانا فارغة من الداخل .

وهمس جديون قائلاً : « ان الطفل من عند الله ، وهذه مشيئته ... أجاء الطفل ام لم يجيء ، فنحن لا يمكننا ان نفعل شيئاً .

وقالت راشيل : « انت لاتؤمن بالله .. » .

ـــ حبيبتي ... حبيبتي !!

ـــ ان الله يرزق الاطفال للذين يحبان بعضهما .

ـــ انني احبك ياطفلتي ، أحبك من كل قلبي .

وقالت راشيل بألم :

ـــ لقد ذهب جيف ، لقد ذهب . وهذا كل ما في الأمر .

* * *

كان قد تقرر ان يذهب ابنرليت ، وجديون ، وجيمس

اللنبي للاشتراك في المزايدة وشراء الارض . وقدم الاثنان الآخران وكالتهما الى جديون ، واستحصل دانيال غرين ـــ وهو محام من الشمال ، كان قد بدأ عمله في كولومبيا حديثاً ـــ على وثيقة مساحة واستهلاك لجديون . وقد أمضوا الوقت الذي سبق المزايدة بتقسيم الارض وتوزيعها الى حصص مختلفة . لم تكن لديهم فكرة واضحة عن كيفية قيام مهندسي الحكومة بتقسيم الاراضي الى قطع تبلغ مساحة الواحدة منها الف فدان ، غير أنهم جربوا ان يحتاطوا لكل شيء .

وقد امضى جديون وابنر وفرانك كارسون اسبوعاً كاملاً يطوفون ارض كارويل المكونة من اثنين وعشرين الف فدان وقد عثروا على أمكنة لم يعلموا بوجودها من قبل . واشار فرانك كارسون الى انه بالأمكان وضع دولاب ومروحة ، واقامة طاحون بتكاليف رخيصة في المكان الذي ينحدر فيه الماء شلالاً من ارتفاع سبعة اقدام . ووجدوا مكاناً جيداً مشجراً ومرتفعاً ظليلا يصلح للسكنى . وعندما اشار ابنرليت الى قطعة مساحتها سبعمئة فدان من المستنقعات ، وقال إنه يستحسن الابتعاد عنها ، اجاب جديون ، بان هذا الموضوع يحتاج الى دراسة . وبان الاشجار الكبيرة يمكن قطعها والتخلص منها ، وان الارض

سوداء ، وهي تربة رسوبية خصبة جداً تعطي موسمين جيدين من الارز في السنة . واعقب جديون : ــ اذا كان المرء يملك قطعة من الأرض مزروعة ارزاً ، فانه لا يموت جوعاً . واستسلم جديون لآماله واحلامه فأوضح لهم كيف انه اذا ما شقت طريق عبر المستنقع ، فانهم سيصبحون على مسافة اربعة اميال من الخط الحديدي . واخذ فرانك كارسون حفنة من التراب ، وضغطها بيده وقال :

« سأبني بيتاً جيداً ، هناك في المكان المشجر تماماً . سأزرع الارز ، واحصل على غلةٍ تباع بثمن طيب ، خير لي من القطن الملعون . لعنة الله عليه ، لم ار رجلاً يعيش سعيداً من زراعة القطن . » .

وقال جديون : « اما انا ، فسأزرع القطن ، فان هذه البلاد ستكون بأشد الحاجة اليه ، وسأنظر الى الجوزات وهي تتفتح واقول : انها لي .. » وقال ابنرليت : « لم ارَ ارضاً منخفضة كهذه الا فيها البعوض والملاريا . » .

وساروا معاً ، واجتازوا اميالاً كثيرة في غابات الصنوبر ، ووقفوا على رؤوس التلال ينظرون الى الارض تحتهم وكأنها بحر لا نهاية له . ونظر اليها فرانك كارسون بغرابة ، وقال بهدوء . لقد

رأيت الارض من قبل ، الا اني لم ارها على هذا الشكل . قد تبدو لي تماماً كما رآها جدي ، عندما جاء الى هنا يسير ببطء ودون كثير عناء ، حاملاً بندقية على كتف ومقلاة على الكتف الآخر .

وهكذا امضوا ما تبقى من الوقت في رؤية ما تبقى من الارض . لقد تم حصاد الموسم ، وكانت سنة خير جيدة . وهذه هي السنابل الصفراء مكدسة في كوم كأنها البناء . وثمة سقيفة سيئة كانت تظلل كمية كبيرة من الاعشاب المخزونة لعلف الدواب ، وعاد البيض الى احياء اسواق القطن وشحن الانتاج الى الشمال ، وهكذا سمع الناس في احدى الليالي صفيراً حاداً لاول قطار للنقل يمر من هناك .

* * *

وفي الثاني والعشرين من شهر اكتوبر ، ترجل ابنرليت وجديون ، وجيمس اللنبي من العربة التي اقلتهم الى مدينة كولومبيا . وساروا مع الجمهور لحضور المزاد العلني الكبير . ولوّح « دانيال غرين » ــ الذي كانوا قد اتفقوا معه ــ بيده

لجديون ، اثناء دخوله وخروجه من بين الجمهور المزدحم ــ كان دانيال يلبس ــ رداء ذا نقوش مربعة وقبعة من القش ؛ وفي احدى زوايا فمه انتصب سيكار اسود سمين . وقال لجديون : « سوف اراك عما قليل يا جاكسون ، سوف اراك . » وكانت تبرز من جيوبه قطع مختلفة من الاوراق وغيرها .

لقد توارد القوم من جميع انحاء الولاية للاشتراك في المزايدة وكانت الامطار ، قد انهمرت منذ زمن ليس ببعيد، وامتلأت شوارع المدينة الموحلة بالعربات والخيول المسرجة . وفوق . درجات عدة ، انتصب برج للدلاّل يشرف على ساحة واسعة في جميع الاتجاهات . وعلى الجانب الآخر ، علقت على لوح خرائط الاراضي المختلفة باقسامها وقد خططت حدودها بخطوط ملونة وازدحم جمهور من الرجال من جميع المناطق ، بينهم سادة من تشارلستون ، وعمال وفلاحون ، وزنوج متفرجون من الشمال ، ومزارعون من المرتفعات البعيدة ، وملاّكو مزارع من مناطق قاصية كـ « نيواورليانز » و « تكساس » . ومن بينهم ايضاً ، ممثلون عن مورغان ، ومندوبون عن الكنيسة ، ووكلاء لشركات زراعية انكليزية . هناك مئة وستة عشر الف فدان من الاراضي معروضة للبيع في المزاد .

وأحس جديون بقرصة في كمه ، فاستدار ليرى عيني « ستيفان هولمز » الضاحكتين . وابدى هولمز كثيراً من التأدب واللطف عندما قدم له جديون « ابنرليت » و« جيمس اللنبي » . وسأله هولمز :

ـــ هل جئت لتشتري يا جديون ؟

ـــ انه كذلك .

ـــ اذن كلانا ، موفد لمهمة واحدة . وانا امثل دودلي كارويل والكولونيل فانتون ، والى درجة ما ، امثل نفسي .

ـــ اتعني انك ستشتري مزرعة كارويل ؟

ـــ ذلك ممكن ... او قد اشتري اية قطعة اخرى من الاراضي ... فدورلي لا يريد البيت ويقول انه كان شؤماً عليه كالفيل الابيض ، سمعت بانك كنت تحاول ان تحصل على قرض من تشارلستون .

وقال جديون :

ـــ بل اني حصلت عليه من بوسطن .

ـــ اهكذا ؟ حسناً . فلنعمل على ان لا يضارب احدنا على الآخر ، وهناك عدد كبير من الغرباء لا شك انهم

سيزاحموننا . هل حدث لقومك منذ مدة وجيزة اي مكروه ياجديون مع ...

ــ مع عصابة الكلان ، قاطعه جديون بذلك .

وقال هولمز :

ــ انهم قوم فقراء من الرعاع البيض ، وغيرهم . انني سعيد برؤيتك ياجديون ؛ والتفت نحو الرجلين الآخرين وقال : وبمعرفتك ايضاً ياسيدي .

وعندما ابتعد عنهم ، علق « ليت » على ذلك بقوله :

ــ انني اعرف هذا النوع من البشر يا جديون . هل كان ضابطاً ؟

ــ اعتقد ذلك .

ــ رجل ممتاز جداً . كم زنجيا كان يمتلك في الايام الماضية ؟ اعتقد بأنه لا يحجم عن طعن امه بسكين من الخلف .

وبعد برهة من الزمن ابتدأت المزايدة . وشعر جديون وصديقاه كما شعر كثيرون غيرهم من الجمهور المزدحم ، ان الامر لايعدو عن كونه فوضى تبعث اليأس . وكان يتناوب الصراخ دلاّلان وهما يجأران بأعلى صوتيهما : « القطعة الرابعة » ، اسمها

« شيب دين » ، الجزء الثاني والعشرين منها ، شمالاً وجنوباً ، السعر الادنى بتعرفة الحكومة دولاران ، دولاران ، دولاران .. على اونا .. على اونا .. ثلاث دولارات .. ثلاث دولارات وعشرة سنتات ... وخمسة عشر سنتاً ... « وكان غرين محنيّ الظهر ، يلهث وسيكاره مازال في فمه ، وكأنه فاقد الحياة . وعندما وجد جديون قال له : » انظر الى هذا المُخطط . لقد قسمت الارض الى اثنين وعشرين قطعة ، مساحة الواحدة منها نحو الف فدان . اما البيت فيشكل قسما مستقلا مؤلفاً من مئتي فدان . والحد الادنى بتسعيرة الحكومة دولار واحد للفدان » .

وانسحب جديون وليت واللنبي من بين الجمهور ، ونظروا الى المُخطط . وقال لهم غرين : « اختاروا ثلاث قطع اولاً ، والقطع الاخرى تتبع . » .

ـــ ماذا تعني بذلك ؟

ـــ اعني ان نبدأ اولا بالقطعة الجيدة ، فاشيروا اليها بحرف (آ) وهكذا . اشاروا الى احسن ثلاث قطع في المنطقة . وفكر جديون وابنر في الحسنات والسيئات ، وعدّا القطع الباقية وقالا : ـــ « فليكن السعر الاقصى خمسة دولارات . » وهز جديون رأسه وقال لغرين : « خمسة دولارات ، وجرب ان يكون

السعر ارخص من ذلك . » وهز غرين رأسه بدوره قائلاً : « سأعمل جهدي . » وعاد مختفيا بين الجمهور . وكان صوت الدلاّل يرتفع وينخفض ، والقوم يتزايدون بصورة متتالية ، ووكلاء الاراضي يزاحمون غيرهم شاقين طريقهم الى كراسي الدلاّل . كانت المزايدة قد بدأت في الساعة التاسعة صباحاً ، وعندما جاء وقت الظهيرة ، كان اسم مزرعة كارويل لم يذكر بعد . وفي الساعة الثانية ، عرضت القطعتان الاوليتان من مزرعة كارويل . وشاهد جديون « غرين » الى جانب المنصة مشتركاً بالمزايدة . ولم يتمكن جديون من متابعة ما يجري . وعند الساعة الخامسة ، انتهى كل شيء . وعاد المحامي منهوك القوى ، محدودب الظهر ، وابتسامة النصر على وجهه ، وشق طريقه خارجا من بين الجمهور المزدحم « ... لقد حصلت عليهما . » .

ـــ وما هما ؟

ـــ القطعتان المشار اليهما بحرف (آ) . ونشر المحامي المُخطط على الارض ، وجثا الى جانبه ، وتجمع حوله جديون وابنر واللنبي ، وقال غرين : « ان ثمن الفدان الواحِدِ من هاتين القطعتين اربع دولارات . » وصرخ ليت فرحا ، واخذ ينط في الهواء وهو يضرب فخذيه بيديه ويقول : يا الله .. يالعنة الله .. يا

بركات الله .. انظر يا جديون الى هذه القطعة ، انها ذات المرتفع ذي الشجرة المنفردة ، وهذه هي السفوح المستوية ذات التربة الناعمة كإليتي فتاة . » وجثا جديون بدوره الى جانب غرين وهو يتمتم بفرح : « وما القطعة الثالثة ؟ » وقال غرين : « وما هي القطعة الرابعة ... ياللغرابة ، لقد ارتفع سعرها حتى الخمسة دولارات هل انتم متأكدون من انكم تعرفون الارض » وقال ابنر :

ـــ نعم اننا نعرفها .. وانا شخصياً اعرفها كما اعرف جهنم . انها قطعة خصبة جداً .

ـــ سبعة آلاف وثلاثمئة دولار ثمن القطعتين الاوليتين . انها صفقة رابحة ، صفقة رابحة ولا شك . واربعة آلاف وسبعمئة وخمسين دولاراً ثمن القطعة الثالثة . لقد اصبح لديكم ارض واسعة تبلغ نحواً من ثلاثة الآف فدان .

* * *

وعادوا ظافرين وجيمس اللنبي يقود العربة التي تجرها البغال ، وجديون وابنر يغنيان وهما مخموران ..

زهرات الليلك تنمو في حقل اخضر

بللّها الندى

وانا وحيد افكر فيكِ يا حبيبتي

لقد ملأ ابنر جرة بالخمر ، ودفع ثمنها دولارين . وشرب جديون جزءاً منها اثناء الرحلة الطويلة . ولم يكن جديون قد اعتاد على الشراب ، واذا ماشرب ، فلا يشرب الا كمية ضئيلة ، يشربها في فترات متقطعة . وهكذا ، استقر ثلاثة ارباع ما تحويه الجرة في جوف ابنرليت ، الا انهما اصبحا على مستوى واحد من المجد .

* * *

وزأر جديون في القوم قائلا : « اننا في الغد ... اننا بكل تأكيد ... » وقص اللنبي عليهم ماحدث لهم في رحلتهم . وكانت راشيل تضحك من جديون وآوته الى فراشه ، فتعلق بعنقها وأسقطها معه وهي تحتج قائلة : « يجب ان تخجل من نفسك ياجديون . » وكالايام الماضية كان جديون يضحك ويغني بصوته الاجش العميق الى ان أغمض عينيه واستسلم للرقاد .

وفي اليوم التالي ، عقد الاخ بيتر اجتماعا خاصا وقال لجديون :

ـــ « لقد نسيت الله » ايها الاخ . ولم تكن متواضعا بل متعجرفاً متعاليا ، ولا شك ان الرب الاله سيبتعد عنك ...

وخفض صوته وقال بلهجة اكثر لطفا :

ـــ ... انك ستقود هذا الشعب ياجديون ، وتقع على عاتقك مسؤولية كبيرة . ويجب ان تدرك هذا . يجب ان تدرك ذلك بتواضع ياجديون . وعندما تقوم بعمل الخير ، يثق بك الشعب لقد وثقت انا بك منذ زمن بعيد ، فلا تخيب املي فيك . انت رجل متعلم ، ترتقي في سلم المعرفة ، انظر الى اسفل ياجديون .. انظر الى تحت ..

وقال جديون :

ـــ اني آسف . صدقني ايها الاخ بيتر اني آسف .

ـــ آسف ؟ .. بكل تأكيد انك آسف . ولك قلب كبير . استمع لي ياجديون . انظر الى دخيلة نفسك ، وفكر بالله . فكر به تعالى وثق به .

فقال جديون بصوت هادىء :

ـــ لك طريقك ولي طريقي ، وليس في هذا العالم من احترمه اكثر منك ايها الاخ بيتر . يجب ان تصدقني فيما اقول .

ـــ نعم يجب ان اصدقك ياجديون . وتابع الاخ بيتر مراسم الاجتماع الديني وقال : « ان موضوع بحثنا في هذا الاجتماع هو فصل من سفر العدد ، لقد اتينا الى الارض التي ارسلتنا اليها ، وحقاً انها تفيض باللبن والعسل ، وهذه هي فاكهتها . » وقدم موعظته ببطء واشار الى انهم كانوا ولا ارض لهم فاصبحوا وقد ملكوا ارضاً . انها نعمة من الله ويجب ان يحسنوا استعمالها ، فالزنجي اذا امتلك ارضاً اتجهت اليه الف عين .

وابتدأ توزيع الارض وفصلها بعد الاجتماع . اذ لابد من انهاء هذا العمل بسرعة حتى ينتقل كل امرىء الى القطعة التي سيمتلكها ليبني فيها ملجأ يقيه برد الشتاء . لقد فكر جديون بان الامر سيكون شاقاً ، الا انه لم يكن يعتقد بأنه سيكون شاقاً الى هذا الحد . فقد احتدم النقاش والاحتجاج والخصام ، كل يقدّر الفرق مابين قطعة واخرى ، وقد سيطر عليهم الحسد فبدؤوا يتشاتمون وتكتل البيض ضد الزنوج ، والزنوج بطبعهم تكاتفوا ضد البيض واخيراً جأر جديون قائلاً :

ـــ اوقفوا هذا النقاش والخصام ... وليذهب بكم الشيطان ايها المجانين . لقد قطعنا شوطاً بعيداً وجميعنا يد واحدة ، والآن ينقض كل منكم على الآخر ليقطع عنقه . اننا

سننتقي رجلا نجمع عليه ونطلب منه ان يقسم الارض بيننا . والآن . من تريدون ان يكون هذا الرجل ؟

أرادوا ان يكون هذا الشخص جديون ، الا انه رفض ذلك . ومن ثم اقترحوا « اللنبي » والاخ بيتر ، غير ان الاخ بيتر فاز على اللنبي بثلاثة اصوات . وسأله ترويير : « ومن الذي سينتقي لك ارضك ؟ » فاجاب الاخ بيتر : « ان الارض التي ستبقى اخيراً ستكون من نصيبي » . وعندئذ نظر كل واحد الى الآخر وقد ارتسمت على وجوههم علامات الخجل وهم يئنون كالخراف . وتم الامر على احسن وجه بعد ذلك .

* * *

كانت الامور تأخذ مجراها ، وكان من الطبيعي ان يحين وقت الانتخابات . ولم يفكروا في عوامل التغير الكثيرة التي طرأت عليهم . فمنذ سنة مضت ، ذهبوا الى الاقتراح يحملون بنادقهم .. اما الآن فقد تغيرت الامور . لقد تغيرت الارض وتبدل الشعب كذلك سيطر عليهم المستقبل فاصبحوا جزءاً منه . وفي صباح الثلاثاء ، في اليوم الاول من شهر نوفمبر ، ذهبوا

جميعاً الى المدينة ، السود والبيض جنبا الى جنب . وكانت في الجو بشائر الشتاء القادم ، واوراق الاشجار الميتة تتراكض فوق الطريق المغبرة . ان الزنوج سيصوتون للحزب الجمهوري جميعاً . اما ابنرليت فقد عزم ان يصوت للحزب الديموقراطي . لقد صوت لهذا الحزب ابوه وجده من قبله ، وهو لا يريد ان يخالفهم في ذلك . ومع هذا ساروا جميعاً الى المدينة للاشتراك في الانتخابات .

* * *

الجزء الثاني

القتال

الفصل الثامن

نظر جديون الى ساعته ، وكانت الثانية والدقيقة الاربعين ، انه ينتظر هنا منذ الساعة الثانية ، وكم كان يود أن ينتهي من هذه المقابلة ليذهب الى المحطة ، حيث يكون هناك في الساعة الخامسة والدقيقة السادسة للقاء ابنه جيف الذي كان قادماً من نيويورك . وعلى كل حال فانه قد يتمكن من الوصول الى المحطة في الوقت المحدد ، فمقابلته لن تطول ، وليس لديه من الاخبار والامور الشيء الكثير ليدلي به . ولا يعتقد ان النتيجة التي سيحصل عليها ستكون كبيرة الاهمية .

كان يوماً قاتماً من ايام شهر فبراير ، والثلج يتساقط في الخارج ، تلك هي ثلوج واشنطن ، تدفعها الريح قطعا كبيرة فتلتصق بزجاج النافذة ، ثم تذوب فتصبح قطرات كبيرة من

المطر تتدحرج سائلة على الزجاج . واسترخى جديون على كرسي الجلد مكتوف اليدين ، وشعر في تلك اللحظة برغبة ملحة في النوم . لقد مرت شهور طويلة لم ينم اثناءها نوماً طويلا هادئاً ، وكم يشتهي لو انه ينام وينقطع عن التفكير ، ثم يستيقظ صحيحاً نشيطاً . ولكن ما درجة النشاط التي يتمتع بها رجل بلغ الخامسة والاربعين ؟ وهز جديون رأسه وابتسم وبدأ يفكر في جيف ، والتفكير في جيف خير له من ان يفكر في امور اخرى ، اذ انه حقيقة واقعة ، انه سيقفز من القطار ويركض مسرعاً نحوه . هل سيفعل ذلك حقاً ؟ قد يقف وقفة من لا يثق بنفسه ، وينظر الى جديون او ربما قد لا يفعل هذا ولا ذاك . الا ان ذلك ضرب من المستحيل ، فسبع سنوات بالرغم من طولها لا يمكنها ان تحدث كل هذا التغيير في رجل كجيف . غير انها سبع سنوات في ادنبره ، سنوات غريبة ، اصبح فيها الطفل الاسود المذعور طبيباً . ان سبع سنوات كهذه ، جديرة ان تؤخذ بعين الاعتبار . وعاد الى ذاكرة جديون ذلك اليوم الذي شرح له فيه الدكتور ايمري قضية ابنه وهو يبتسم ابتسامته الجافة . بماذا كان يفكر آنئذ ؟ وما الذي قاله هو للدكتور ايمري ؟ لقد قال له شيئا عن المال ، وبان ذلك يكلف اموالاً كثيرة وها قد مضى على

ذلك زمن طويل ، اهي ثماني سنوات ام تسع ؟ كما كان يود لو انه عرف ايمري ووينت معرفة عميقة اكثر من تلك المعرفة البسيطة التي تمت بينه وبينهما ،اما الآن فقد اصبح كلاهما في عالم الاموات . وعادت تلك الصورة الى مخيلته . يوم كان واقفا في المستوصف يتكلم مع الدكتور ايمري ويراقب طفلا عاريا مرتجفا . وهكذا تواردت خواطره، الواحدة تلو الأخرى، والصورة تتلو الصورة . وتوقفت سلسلة الصور عندما دقت الساعة الكبيرة المعلقة على الحائط : واحد ، اثنين ، ثلاثة . لا شك انه امضى الوقت نائما ، وكان يقف امامه احد الموظفين وهو يقول .

ــ ان رئيس الجمهورية سيقابلك الآن ايها السيد جاكسون . ونهض جديون واقفاً ، يفتح عينيه ويغلقهما ثم تبع الموظف . كان غرانت جالساً وراء مكتبه محدودب الظهر ، متعباً ، محمر العينين كأنه رجل تائه اصيب بفشل كبير ، ينظر الى السنوات الطويلة الفارغة التي تنتظره . وقد فقد الامل والرغبة ، وهز رأسه وقال :

ــ تفضل اجلس يا جديون

ثم التفت الى سكرتيره وقال : لا اريد ان ارى احداً الآن .

ـــ حتى ولو كان الشيخ غوردون ؟

ـــ فليذهب الى الجحيم . انني لا اريد التحدث اليه . هل تفهم ما اقول ؟ لا اريد ان يقاطعني احد . ولما انهى غرانت حديثه هذا ، اغلق السكرتير الباب وراءه وذهب .

وسأل الرئيس جديون :

ـــ هل تريد سيكاراً ، او .. عفواً ، لقد نسيت انك لا تدخن . انك لن تمانع في ان ادخن انا ؟ وقضم نهاية السيكار باسنانه واشعل عوداً من الثقاب وسحب نفسا طويلا عميقا من الدخان .

كان جديون يحدق النظر فيه ، والرئيس يتجنب نظراته . لقد تراكمت السنوات فجأة ودون رحمة فوق ظهر سمسون غرانت فغارت عيناه ووخط الشيب ذقنه ، حتى لقد بدا ذلك واضحاً من خلال موجات الدخان القصيرة التي كان يصعدها من فمه ومن حركاته العصبية . وعندما بدأ حديثه كان كلامه اشبه بالنباح وتابع قائلا :

ـــ انني اعلم ماذا تريد ان تقول .

فسأله جديون بكثير من اللطف :

ــ اذن لماذا سمحت لي بالدخول الى هنا لأقول لك ما تعرفه ؟

ــ لماذا ؟ ... ونظر اليه غرانت بدهشة مفاجئة ، واحس جديون بشفقة تجتاحه ، شفقة على هذا الرجل العاثر الحظ ، الذي لا يفهمه الا عدد قليل من الناس ، ولا يحبه الا العدد الضئيل ، والذي يستغله الكثيرون . وتحتقره الفئات الكثيرة من البشر . هذا الرجل الذي دفعته الاقدار والظروف المختلفة الى مرتبة من المجد ميئوس منها .

وقال غرانت ببلادة :

ــ ولماذا جئت الى هنا ؟

فاجابه جديون بعد تفكير وبحذر :

ــ لانك مازلت رئيساً للولايات المتحدة ، لانك صديقي وانا صديقك ايضاً .

ــ اذاً لا يزال لي اصدقاء ؟

ــ وبالرغم من كل ما يقال عنك ان هذه هي بلادك ، ولا شك انك تحبها ولا يوجد الا عدد ضئيل يحبها بقدر ما تحبها انت . انت تحبها بطريقة افهمها انا ، وهي فوق مدارك صغار النفوس الكاذبين المختالين ، الذين عملوا جهدهم لتخريب البلاد

والقضاء عليها . هل تذكر القصة التي كتبها (ايفريت هيل) بعنوان « الرجل الذي لا وطن له » ؟ وهل تذكر كيف ان (فيليب نولان) بدأ يتفهّم قضية بلاده ويحققها ؟

وابتسم غرانت بألم :

ـــ هل تريد ان تلقي علي موعظة ياجديون ؟

ـــ لا ، سأتكلم معك عن هذه البلاد . سأتكلم معك لانها الفرصة الاخيرة التي تتاح لي ان اتكلم مع رئيس الولايات المتحدة . لقد امضيت اسبوعين مجرباً ان تتاح لي مقابلتك .

ـــ لقد كنت كثير الانشغال يا جديون .

ـــ لقد كنت منشغلاً ، فليساعدنا الله فهناك جمل واصطلاحات كثيرة يمكن للمرء ان يستعملها ، منشغلاً ... منهمكاً ... عندي الف عمل . لماذا لا ينشغل اعداؤنا ؟ لماذا ؟

وقال غرانت ببرود :

ـــ لقد سبق لي ان سمعت هذا .

ـــ وانت لا تريد سماعه مرة ثانية ، وقد تريدني ان انصرف الآن . حسناً قد اضع القضية امامك بشكل يختلف الان . وسأتجنب التطرق الى كل ما كتبته الصحف . والى كل ما

سيقوله المؤرخون عن الثماني سنوات التي كنت فيها رئيساً . والآن ما هي الحقيقة ؟

وصرخ غرانت قائلا :

ــ قلتها ... لقد اعتدت سماع كلمات كهذه .

ــ لن ابحث ذلك على التو . ياالهي ... ياحضرة الرئيس ، ان هذه هي بلادنا ولنقلها بلغة اولاد المدارس : انها وطننا ، وقد حاربنا في سبيله ولهذا نحن نحيا من اجله وإلا فلماذا استشهد الرجال في معركة « غتسبرغ » ؟ . لا وجود لنا دون الوطن او دون اتحاد وتضامن ، فكل شيء يرتبط بالآخر ليكون وحدة متينة الاجزاء . وما الوطن ؟ ... وتردد جديون ثم تابع حديثه : ما الولايات المتحدة الاميركية ؟ أحلم هي أم مثل اعلى ، أهي قصاصة من الورق ندعوها الدستور ، ام اصحاب رؤوس الاموال الكبيرة ؟ اهي المحتالون ام سادة الكوتشوك ؟ هل الوطن « مورغن » او « ج غولد » او الشيخ « غوردون » ؟ ام هي رجل الشارع الذي يقف بعيداً متطلعاً الى البيت الابيض ؟ أهو كنيسة رسولية ام كنيسة مشيخية ؟ أهي صلاة ام فكرة جنونية او هي خمسون مليوناً من البشر ؟ هل هي الكونغوس ؟ في جميع السفرات التي كنت اجلس فيها نائباً في الكونغرس كنت لا

انفك افكر في هذا . ارى صغار القوم وكبارهم ، استمع الى معتوهين امثال « بترسون » وابطال خالدين امثال « صومتر » قد يكون الوطن أنت وأنا ، ومن يماثلنا من قوم لما قمنا به من أعمال في اميريكا ، وما حلمنا به من احلام . وكاد السيكار الذي كان يمسكه غرانت بيده ان ينتهي فقد كان يمسكه بين اصابعه المعروقة وقد استقرت عليه عيناه . وبصورة آلية وبكل بطء هز رأسه وقال :

ـــ انني انتهيت يا جديون .

ـــ ولكنك رئيس للجمهورية .

ـــ نعم رئيس ، ولم يبق لي الا ايام قليلة معدودة ...

ـــ ولكن هذه الايام القليلة كافية للقضاء عليهم .

وقال غرانت متعباً :

ـــ انني لا اعلم ياجديون ، انني متعب وقد انتهيت ، وأود ان اعود الى بيتي واستريح هناك . لقد جروني الى هذا المكان والافضل لي ان اعود الى بيتي وانسى .

ـــ الا انك لن تنسى .

ـــ ربما وانا لست سليمان الحكيم ، ولست اله الدينونة والعقاب ولم اطلب هذا العمل . لقد انتصرت في المعارك لانني لم

اكن خائفاً ، وكنت دائما على استعداد لدفع الثمن . هل يكفي هذا لان اكون رئيساً للجمهورية ، وهل يجعلني كل ذلك اهلا لان اقوم بتمثيل العابهم السياسية القذرة ؟

فقال جديون :

ــ هناك معارك اخرى كثيرة ايضاً .

ــ ماذا تستطيع ان تفعل اذا لم تتمكن من معرفة العدد ، واذا لم تتمكن من معرفة من يحارب الى جانبك ..

ــ وعندما يصل « هيز » الى هذا الكرسي الذي تجلس عليه انت ، ورجلاه مغمورتان بالدماء حتى الركبتين ، هل تستطيع ان تقف بعيداً وتجلس في بيتك هادئاً هانئاً ؟

ــ فلتحل عليهم لعنة الله ، ولكن اين البراهين على ماتقول ياجديون ؟ وان « هيز » هذا جمهوري مثلي ومثلك . وقد انتخب لرئاسة الجمهورية شرعياً . انني يائس من مشيعي الخوف والاضطرابات ولابد للحياة من ان تأخذ مجراها ، وكذلك هذه البلاد ...

قال جديون وهو ينهض :

ــ « حسناً » .

ــ اذهب انت ؟

ـــ نعم .

ـــ وماذا كنت تريد ان تقول ؟

ـــ ولم تسأل يا اخي ؟ فالامر لا يهم كثيراً الآن .

وردد غرانت قائلا :

ـــ قلها فليذهب بك الشيطان . قلها فانه يكون لك ما تريد .

ـــ هل تريد ان تسمع ذلك حقاً ؟

ـــ كفاك حذراً وقل ماتريد .

وهز جديون رأسه وقال :

ـــ حسناً لقد تم اتفاق بين بعض الناس .

ـــ وما البرهان على ذلك ؟

ـــ ان البرهان موجود لدي . قال جديون هذه الكلمات الاخيرة بهدوء وتابع قوله : « ولكن هل يمكنك الاستماع الي .

ـــ « انني لا ازال مصغياً » . واشعل غرانت سيكاراً وعاد جديون الى الجلوس . واشارت الساعة التي كانت على مكتب غرانت الى الرابعة والربع ، وكان الثلج لا يزال يتساقط في الخارج نتفاً بيضاء ما تزال تذوب على الواح الزجاج . وقد بدأ الظلام يملأ مكتب الرئيس ، وكان المصباح الوحيد المنتصب امامه يرسل

دائرة صفراء من النور ، وكلما اشتدت ظلمة الليل ازداد وجه « غرانت » نحولاً واصبح شكله اكثر انهاكاً ، واصعب تمييزاً وكاد دخان سيكاره يتراءى في ضوء المصباح متصاعداً في حلقات تدور وترتفع آخذة طريقها نحو الغطاء الكبير الذي يظلل المصباح .

وقال جديون :

ـــ سأعود بك الى فترة من الزمن مضت . هل تذكر مؤتمر جنوب كارولينا ؟ ان هذا منذ تسع سنوات خلت .

ـــ نعم اذكر ذلك

ـــ لقد كان ذلك اشارة لإعادة تعمير البلاد بعد الحرب وقد اشتركت في ذلك المؤتمر . وبعد ذلك بسنتين انتخبت لمجلس نواب الولاية . ومنذ خمس سنوات فقط اصبحت عضواً في الكونغرس . واذا ما اخذنا هذه الحوادث التي جدّت لي بعين الاعتبار فاني استطيع ان اتكلم وانا ابصر امامي نوراً واشعر بان لي معرفة ببعض ماحدث . ان كلمة اعادة التعمير التي كانت تستعمل لكل ما كان يحدث في الجنوب منذ عام ١٨٦٨ هي مبهمة او لا معنى لها ولم تكن المشكلة الحيوية هي مشكلة اعادة التعمير حتى ولم تكن قضية اعادة الولايات المتحدة الى حصن

الاتحاد . لقد قلت كل هذا في المجلس . وقد قلت هذا واعدت قوله طوال السنوات الخمس الماضية ، وها انذا اعود فاقوله ، واعتقد باني اقوله آخر مرة ، وستمر حقبة كبيرة من الزمن لا يتمكن فيها رجل زنجي يمثل هذه الفئة من الشعب ان يجلس في مكتب رئيس الولايات المتحدة الاميركية .

ونفض غرانت الرماد عن سيكاره ، وقد غابت معالم وجهه في الظلمة . وتابع جديون كلامه :

ــ وما مسألة اعادة التعمير ؟ ما يقصد بها ؟ ولماذا كتب لهذه الفكرة ان تموت ؟ انني اسألك هذا لانك انت الرجل الوحيد في هذه البلاد الذي يمكنه اعادة الحياة اليها وبذلك ينقذ هذا الوطن من بؤس المستقبل وآلامه .

فقال غرانت :

ــ حسناً .. تابع .

ــ لقد كانت قضية اعادة التعمير نتيجة لتلك الحرب المخيفة ... وفي الواقع كانت اختباراً لابد منه للديموقراطية . اختباراً للزنوج المحرّرين والبيض المحرّرين ــ اذ ان البيض الفقراء كانوا قبل الحرب ارقاء كالزنوج ــ فيما اذا كان بامكانهم ان يعيشوا ويعملوا معاً .. وانا اقول ان الاختبار قد اعطى نتيجة طيبة وثبتت

صحته . فقد تمكنت الديموقراطية من ان تعيش في الجنوب . بالرغم من جميع اخطائها وهفواتها وتبجحها ، ومن أنها ، تضم مجانين ورجال يكثرون من الصراخ — ولاول مرة في تاريخ هذه الأمة تعاون السود والبيض على السواء في بناء الديموقراطية في الجنوب . وامامك البراهين ، المدارس ، والمزارع ، ومحاكم القضاء . جيل كامل من المتعلمين والمتشوقين للعلم . الا ان هذا لم يكن ليتم بسهولة كما انه لم يكتمل . فقد قام اصحاب المزارع ونظموا جيشهم . وما كان هذا الجيش الا قوم يرتدون القمصان البيضاء ، ويعدون بالالوف . انهم لم يستسلموا بعد . لقد قلت انت ياحضرة الرئيس انه لا يمكن المحافظة على الامن في الجنوب الا بوجود جيش الاتحاد هناك . وانني اقول لك الآن انه في اليوم الذي يصل فيه « روتفور » و« هيز » الى كرسي الرئاسة فان هذه القوات ستنسحب ، وستضرب عصابة الكلان ضربتها . وستتم هذه الضربة بشكل مافي كل مكان . وسينتشر الرعب في هذه البلاد ، رعب لم يعرفه الجنوب بعد من قتل وتخريب وحرق ونهب الى ان تهدم جميع اعمدة الديموقراطية التي تعبنا كثيراً في بنائها وسنعود مئة سنة الى الوراء . وستمر اجيال واجيال يتألم فيها كثير من القوم ويموتون ...

وجاء صوت غرانت متعباً كأنه صادر من بعيد : « وعلى افتراض اني وافقت على ما قلت ـــ ولن اوافق عليه ـــ فهل لديك شيء آخر ؟ اتعتقد انه بالامكان ان نحتفظ بجيوشنا في الجنوب الى الابد ؟

ـــ انا لا اقول الى الابد . لنقل عشر سنوات .. وبذلك تتوفر لدينا فترة من الزمن يكون قد ظهر فيها جيل جديد من البيض والسود الفوا العمل معاً فيستطيعون الوقوف صفاً واحداً . حينئذ لن تتمكن اية قوة في العالم ان تختطف منا ما بنيناه .

ـــ اما انا فلا اوافق على ذلك يا جديون . ولا اقبل اتهامك « لهيز » كما اني لا اقرك على رأيك الوهمي في قوة عصابة « الكلان » فنحن في عام ١٨٧٧ .

وقال جديون :

ـــ اتريد دليلاً على ما اقول ؟ لديّ الدليل على ذلك .

واخرج بعض الاوراق من جيبه ، وبسطها امامه تحت ضوء المصباح . « انك تجد هنا ، احصاء دقيقاً لنتائج الانتخابات . وقد نال « تلدن » اربعة ملايين وثلاثمائة الف صوت . اما « هيز » فقد نال اربعة ملايين وستة وثلاثين الف صوت ، وهذه هي اول كذبة . فانا اقول ان نصف مليون من الزنوج والبيض قد

اعطوا اصواتهم في الجنوب للجمهوريين . الا ان بطاقاتهم الانتخابية قد اتلفت او عمد الى الخطأ في عدها . كلا ليس بامكاني ان اثبت ذلك . غير اني سأثبت اشياء اخرى . وهذا امر ليس بكثير الاهمية . فهذان الرجلان « تلان وهيز » ليسا الا مجرد رجلين فاسدين يعتبران نتيجة مؤسفة للحضيض الذي انحدرت اليه رئاسة جمهوريتنا .

وقال غرانت : « انك مافتئت توجه اتهامات لا صحة لها ولا اريد الاستماع الى اكثر من هذا » .

ــ لقد قلت لي بانك ستصغي الى ما اقول . والآن سأقدم لك الدليل ، واسمح لي اولاً ان اعرض الحقائق المختلفة فالكونغرس الذي يخشى الديموقراطية والشعب اكثر من اي شيء آخر يسمح لي بابداء الحقائق عندما اقف لاتكلم . انني سانهي حديثي بسرعة ، فان ابني الذي لم اره منذ مدة طويلة سيعود الى نيويورك في قطار الساعة الخامسة والدقيقة الثالثة عشرة ولا بد لي من ان انتهي قبل هذا الموعد .

كان الظلام وقتئذ قد ملأ الغرفة ، ماخلا تلك الدائرة من الضوء الاصفر الخافت .

وقال غرانت .

ـــ تابع .

ـــ عندما ذهبنا الى الانتخابات كان لـ « هيز » مرشح الديموقراطيين مئة واربعة وثمانون ناخباً ، ومئة وستة وستون ناخباً للجمهوريين ، هذا مما لا شك فيه . واننا نعلم بان « تلدن » كان ينقصه صوت واحد ليصبح رئيساً للجمهورية ، غير ان « هيز » ادعى بانه سيحصل على مئة وخمس وثمانين صوتاً من جنوبي كارولينا ولويزيانا وفلوريدا وبذلك ينال اكثرية توصله الى سدة الرئاسة. لقد كان «هيز» محقاً. وقد كانت تلك الاصوات من نصيبه . ذلك ان الاوراق قد زورت واتلفت . وماذا كانت النتيجة ؟ .. مجلس نواب من الحزب الديموقراطي ومجلس شيوخ من الحزب الجمهوري . احدهما يصوت بالرئاسة الى « تلدن » والآخر إلى « هيز » والبلاد من أقصاها إلى أقصاها تصرخ خوفاً من حرب أهلية ثانية أو من هجوم جنوبي على واشنطن . هل صدقت هذا الخلاف بين هذين الرجلين الفاسدين ؟

وقال غرانت : فلتذهب الى الشيطان يا جديون لقد اطلت الاصغاء اليك .

وقال جديون : والآن لنقدم الدليل ياسيدي الرئيس .

ساقدمه اليك وانصرف . اعتقد ان كلانا قد انتهى . وكما قلت انت ، لم تبق لك الا ايام معدودات كرئيس للجمهورية وانا الاخر لم يبق لي سوى فسحة ضئيلة من الوقت .

وتمتم غرانت : « حسناً تابع . » .

ــ نعم ، لا شك ان الديموقراطيين في الجنوب كانوا يعرفون جيداً أن الرجلين من طينة واحدة ، وقد تخلوا عن « تلدن » لأنه سيسبب لهم كثيراً من المتاعب . لقد غامروا بخوض حربٍ أهلية مرة ، ولا يمكنهم المغامرة مرة ثانية . فعمدوا الى الاتفاق مع « هيز » واتفقوا معه على أن ينال أصوات جنوب كارولينا ، وفلوريدا ، ولويزيانا ، وأريغون ، أيضاً على أن يتعهد هو مقابل ذلك بأن يسحب قوات الاتحاد من الجنوب ، ويطلق ايديهم للسيطرة على جنوب كارولينا ولويزيانا . فهل يقف أمر تافه كهذا عقبة ويحول بين رجل والرئاسة ؟ بين حزب لنكولن الجمهوري والحكم ؟ وبيدي الآن دليل خطي ، كتبه اثنان من أصدقاء « هيز » وهما « ستانلي ماتيوس » و « شار لزفوستر » وهو يوضح حديثاً تم بينهما وبين السناتور « جون غوردون » من جورجيا وعضو آخر من أعضاء الكونغرس يدعى « يونغ براون »

من كانتولي . وهذا هو الدليل الخطي ، انه نسخة طبق الأُصل نقلها اليّ خادم زنجي يعمل في بيت فوستر .

« .... بالاشارة الى الحديث الذي جرى البارحة بيننا ، والذي بحثنا فيه سياسة « هيز » فيما يتعلق في بعض الولايات الجنوبية ، نود الآن ان نقول انه بامكاننا ان نؤكد لكم رغبتنا الشديدة في حملة على اتباع هذه السياسة ، وبهذا يصبح الحق لأهالي ولايتي جنوبي كارولينا ولويزيانا بادارة شؤون ولايتهم بأسلوبهم الخاص ضمن نطاق دستور الولايات المتحدة . ونضيف الى ذلك بانه بما عرف عن صداقتنا مع « هيز » ومعرفتنا لارائه . لنا الثقة التامة بأن سياسته وحكمه سيتجهان في هذا السبيل ... » ..

هذه هي الوثيقة ياسيدي الرئيس .

وران صمت طويل ، وسأله غرانت أخيراً بكلمات انطلقت على وتيرة واحدة . « لماذا لاتقدم هذه الوثيقة الى المجلس ؟ » .

ـــ لانني لا املك النسخة الاصلية ، ولاني لا أتمكن من ان أثبت صحتها بالرغم من اني على استعداد تام لان اقسم بأغلظ الايمان على أكداس كثيرة من الاناجيل . ولاني كذلك لا أتمكن من أن أجعل العالم يصدق كلمة خادم زنجي بائس ويكذّبون

رئيساً للجمهورية انتخبتة الولايات المتحدة . واذا ما وقفت انا في المجلس لاقول ما قلته لك الآن فسيصرخ عشرة من أعضاء المجلس المثقفين الذي تجري في عروقهم دماء آل بوربون سيصرخون بملء حناجرهم بضرورة جلد هذا الزنجي الكاذب اللعين الوقح .

ـــ ولماذا تريدني أن أصدقك أنا ؟

ـــ لانها مسألة حياة أو موت بالنسبة لمستقبل هذه البلاد . لاننا عندما خضنا غمار الثورة ، وحاربنا في الحرب الاهلية كنا نسير في طريق كلها مفاخر ، طريق براقة مضاءة ، كان قومي يدعونها طريق المجد « هليلويا » كنا نسير ويغمرنا شعور بأن جميع الرجال الطيبين يسيرون وراءنا ، وقد أدرنا وجوهنا الى الله . هل تصغي الي ياسيدي الرئيس؟ والآن سنترك هذا الطريق ونسلك طريقاً أخرى وسندير وجهنا الى الظلام ، ولكن ، الى متى سيطول ذلك ياسيدي الرئيس ؟ ولا بد من أن يضحي الكثيرون بحياتهم قبل ان نتمكن من ان نسمي هذه الحكومة ، حكومة من الشعب والى الشعب وفي سبيل خدمه الشعب .

وبدأ غرانت حديثه قائلاً :

ـــ ليس الامر سيئاً الى هذا الحد ..

ـــ غير أنه سيء .

وانتصب غرانت واقفاً ، ورفع نفسه عن الكرسي الذي كان يجلس عليه معتمداً على يديه ، منحنياً الى الامام نحو المصباح ، محدقاً في جديون ومن ثم ابتعد عن المنضدة وبدأ يزرع الغرفة ذهاباً واياباً وهو بادي الغضب

وسأل جديون :

ـــ اهذا كل شيء ؟

وصرخ غرانت في وجهه قائلاً : « وماذا بامكاني ان افعل ؟ وعلى افتراض ان قصتك الجنونية هذه ـــ التي ماهي الا احدى اساطير الجن ـــ كانت صحيحة ، فماذا استطيع ان اعمل الآن ؟ ... اخبرني بحق الله ؟ ...

ـــ بامكانك ان تعمل كل شيء . فانك مازلت رئيساً للجمهورية اعط هذه الوثيقة الى الشعب .

بامكانك ان تعقد مؤتمراً صحفياً غداً . وما زالت هنالك بعض الصحف التي تملك بعض الجرأة فتطبعها على صفحاتها . وليعمل « هيز » على رد التهمة ان كانت كاذبة : اكشف عن هذه المسألة القذرة ودع الشعب يراها كما هي . ان هذا الشعب سيعرف ماذا يفعل . نحن هنا في اميركا ، لسنا شعباً سيئاً ،

ولسنا شعباً جاهلاً . فمنذ مدة وثبنا وثبتنا التي اهتز لها العالم . ربما قمنا ببعض الاعمال السيئة ، الا ان حسناتنا ترجح على سيئاتنا . اذهب وقف امام الكونغرس، واطلب ان تتوصل الى الحقيقة ...

وهز غرانت رأسه وقال : « جديون ... » .

فقاطعه جديون صارخاً : « أخائف انت ؟ ما الذي بقي لك لتخسره ؟ وان الذين يذكرونك يوم كنت تسير امامهم غير هياب من الموت ، فقدتهم الى النصر ، سيقفون الى جانبك ، اما الاخرون ... وانخفض صوت جديون ثم كف عن الكلام وجمع اوراقه ووضعها في جيبه وقال : « حسناً سأذهب الان . » ..

ومضت برهة طويلة بعد ذهاب جديون ، وغرانت غارق في بحر من التفكير ، وجهه بين يديه ، ينظر الى الباب المغلق ، ولا يتمكن من النهوض ..

* * *

وصل جديون الى المحطة متأخراً وكان القطار قد توقف . ورأى جيف منتصباً على رصيف المحطة ، بقامته الطويلة وكتفيه

العريضين ، وكأنه مرآة تعكس له صورته . كان يقف الى جانب كيسين ويداه في جيبه . ونظر كل منهما الى الاخر فعرفه بالرغم من انهما كانا قد اصبحا اكبر سناً الا ان كليهما ادرك بان الشبه بينه وبين الاخر مازال ماثلا . واقتربا من بعضهما وتصافحا . وبلع جديون لعابه ، وارتسمت على فم جيف ابتسامة ساذجة وهو يأخذ يد والده بقوة .

ــ لقد كبرت عما كنت اعرفك .

ــ وانت ايضا ، قال جديون ذلك وهز رأسه .

ــ هل عرفتني بسهولة ؟

ــ نعم واني لسعيد بعودتك ياجيف .

ــ وانا سعيد لعودتي . وانحنى جديون يريد اخذ الكيسين بيديه ، فقال جيف :

ــ سأحملها انا .

ــ بل كل منا يحمل كيسا .

ــ حسنا ، قال جيف ، وابتسم وهو ينظر الى جديون ، ويحدق فيه من رأسه حتى قدميه ، مكرراً ذلك بين الفينة والاخرى فيشعر جديون ببعض الفخر . وسارا متحاذيين كلاهما

عريض المنكبين ، يكاد كتفاهما يتلامسان. وكانا يتحركان ببطء وكل منهما يجرب ان ينظم افكاره ورغباته وحركاته بعد هذا الغياب الطويل . وانحدرا في الطريق المتصل برصيف المحطة وقال جيف وقد انتابه شعور بخطئه واهماله : « كيف حال امي ؟ » فأجابه جديون انها على احسن حال ، وكلانا قد بدأ يكبر . وقال جيف « غير انك لاتبدو مسناً » واخذا العربة التي كانت بانتظارهما وملآ فراغها الضيق بجسديهما الكبيرين عندما صعدا اليها .

وكان الشبح يتطاير حولهما وكأنه شبكة صيد بيضاء . وقال جيف : « كنت اعتقد ان الطقس سيكون دافئاً في واشنطن ، ولم ار هذه المدينة من قبل ... وقال جديون « كلا انك لم ترها . » قال هذا وهو يفكر في السنوات الطويلة التي جعلت من هذه المدينة المتعجرفة المتمددة جزءاً من حياته . وكان الحصان منطلقاً وصوت حوافره المصطدمة بالأرض يؤلف ايقاعاً مريحاً ..

وقال جديون :

ـــ لقد اصبح لي هنا بيت صغير في هاتين السنتين .

ـــ واي .

ـــ لقد جربت العيش هنا في العام المنصرم ، الا انك تشعر بانك اكثر سعادة وارتياحاً في كارويل .

ـــ الا زلتم تدعون ذلك المكان كارويل ؟

ـــ ونظر جديون اليه ببعض الدهشة وقال :

ـــ نعم .. كارويل ، ولم نفكر ان نطلق عليها اسماً آخر . هل المكان الذي تجلس فيه كاف لك ؟ .. وكان الكيسان يضغطان على ركبتيهما .

ـــ شكراً فانا مرتاح جداً .

ـــ لابد انك جائع ؟

ـــ نعم جائع قليلاً .

ـــ سنتناول الطعام معاً ، انت وانا بمفردنا ولم أدع احداً .

وفكر جيف فيما دعا والده لان يقول هذا ..

كان البيت الذي يسكنه جديون صغيراً ، ابيض يضم اربع غرف . تقوم بخدمته وتحضر الطعام له امرأة عجوز زنجية كان جديون يدعوها « الام جون » وقال لها : هذا هو ابني جيف ايتها الام جون » واجابته هي .

« انه ولد .. شاب . ممتاز .. ياجاكسون .. وانت فخور

به ... » وقال جديون : « اني فخور جداً » . وتناولا عشاء بسيطاً ، حساء من الفاصوليا ، وبعض اللحم والخضار ـــ وحبوب مجروشة بالسمن . وقال جيف وهو يبتسم : لقد مضت مدة طويلة لم اذق فيها طعم الحبوب المجروشة .

وقال جديون :

انهم لا يأكلونها في سكوتلندا . وكان من الطبيعي ان لا يفضي كلاهما بكل ما يجيش في صدريهما في الحال .. ان ذلك سيأتي بالتتالي ، شيئا فشيئا ، عندما يجلس الاثنان معاً .. ان سبع سنوات مدة طويلة من الزمن حتى ان كلاً منهما قد تغير في كل شيء وقد اصبحت لكلام جيف نبرة قوية ولهجة قاسية ولكنة اجنبية غريبة .

وقال جيف :

ـــ لقد عملت مع الدكتور كيندريك مدة عام كامل وهو يملك مستوصفاً ممتازاً في المناجم . لقد نلت بذلك خبرة جيدة فالحوادث المؤلمة كثيرة ، كالارجل المكسورة والايدي المهشمة والحروق والجروح . وكذلك الامراض العادية ، والنكاف والالتهابات وغير ذلك من الامراض التي ليس من السهل علاجها .

ــ أهم قوم بيض ؟

لقد كنت الزنجي الوحيد في المنطقة ، وهذا يخلق بعض الاختلاف .

ــ ألم يكن هنالك شعور بالتمييز ؟

ــ ان الشعور بالتمييز هناك ليس كالذي نراه هنا . اذ ربما كنت اثير الاهتمام فقط . والقوم ليسوا معقدين ، وبامكانك ان تزيل مخاوفهم ، اذ انها بسيطة ...

وذهبا الى مكتب جديون ، وهو عبارة عن غرفة مملوءة بالكتب وجلسا وارجلهما ممتدة نحو الموقد الذي كان يشتعل فيه الفحم ، وتكلما عن اشياء كثيرة وقد اصبح الامر اقل صعوبة الآن وقال جيف :

ــ هل تعلم انني فخور جداً .

ــ وبماذا انت فخور ؟

ــ لكونك نائباً في الكونغرس . لا اعلم كيف اقل لك ذلك الا انه شيء جميل .

وظهرت على عيني جديون علامات التفكير وقال : ان المسألة لاتعدو كونها قضية ظروف . ان الرجال لا يخلقون ولكنهم يصنعون . وقد تضافرت العوامل لتجعل مني هذا الرجل او

ذاك ، وهذه الظروف تعمل وحدها . وسأله جيف عن الانتخابات واخبره جديون وهو يلقي كلماته ببطء وهدوء اولا ومن ثم اصبح حديثه اكثر اندفاعا وعاطفة . وقص عليه سير الحوادث في السنوات الثماني الماضية وكيف ذهب هذا اليوم للاجتماع برئيس الجمهورية . وقال جديون :

« الا انني فشلت هذه المرة » .

ـــ امتأكد انت ؟ وهل بالامكان ان تنتهي قضيتنا بهذا الشكل المفاجىء وكأنها قنبلة تنفجر ؟ وهل يمكن ان تجري الحوادث بهذا الشكل ؟

ـــ ليس من الضروري أن يحدث ذلك فجأة فقد بدأت الحوادث منذ امد بعيد فمنذ نحو ثماني سنوات أغارت عصابة « الكلان » على كارويل . غير ان عملهم كان فاشلاً ، وكانوا خائفين فأحرقوا المستودعات وقتلوا صبياً صغيراً . لقد كانت بداية الحوادث . ومنذ ذلك الحين قرروا القضاء علينا وأبادتنا . وماكادت الحرب أن تنتهي حتى عاد أولئك الذين أشعلوها لمصلحتهم الخاصة الى التفكير في حرب جديدة ، حرب تختلف عن تلك ، لا تبسير جيوشها الا ليلاً ، وهي ليست سوى

منظمات سريه تنشر الرعب والخوف . والان وقد تم تحضيرها وتنظيمها أصبحت على أتم الاستعداد للعمل .

ـــ اني لا اتمكن من تصديق ذلك .

ـــ آه لو كنت اتمكن من الاعتقاد باني مخطىء الا انني على صواب ..

ـــ وماذا ستفعل ؟

ـــ لا اعرف حتى الان وعلى كل حال سأفكر بالامر . سأعود الى البيت واكون مع قومي ... « وهز جيف برأسه وتابع جديون قوله : .. سيكون هذا افضل لي على ما اعتقد . وما هو صالح لي ليس من الضروري ان يكون صالحا لك . هل تدرك ما اقول يا جيف ؟

ـــ وماذا تريد ان تقول تماماً ؟

وهز جديون رأسه وقال : « تروّ ياجيف .. واستمع الي ، لقد كنت تصغي فيما مضى لما اقول لك ... » ونهض واقفاً وفرك أصابع يديه الطويلة ، وانحنى نحو ابنه ، وعاد فجلس على الكرسي بشكل مفاجىء . جلس صامتا ، يحدق امامه ووهج النار يرسل النور الى الاعلى على وجهه المستطيل ذي التقاطيع البارزة. ونظر اليه جيف ، ولاحظ فمه الكبير وعينيه الغائرين المتعبتين تحيط بهما

دوائر تميل الى الحمرة . لقد اصبح الرجل اكبر سنا وكان عمره يزيد عن الخامسة والاربعين ، لقد بدا اكبر سنا مما يفرضه العقل والمنطق ، وان الكتفين العريضتين اللتين كان يراهما جيف يوم كان فتى ، تحرقهما شمس الهاجرة ، ويغطيهما العرق ، ذينك المنكابين القويين المشدودين بالعضلات القوية المفتولة ، اصبحا الان منحنيتين مرتخيتين . وان الشعر المتجعد القصير الذي كان يغطي رأسه كقبعة ضيقة ، وقد علاه المشيب ، حتى لقد كاد جيف ألا يعرفه مطلقا ، فيوم كان جيف فتى يافعا لايزيد عمره عن الخامسة عشر كان اشبه ما يكون بكتلة لينة من الطين سهلة الانطباع يصنع منها ما يراد ، وان السنوات السبع الطوال قد زادت في افقه ، الا انها لم تغير في نفسه شيئا . لقد تعلم ونما في القامة والفكر ، تألم وشفي من آلامه ، ووجد لنفسه الهاً في العلوم ، وتحت عدسة المجهر لا لون لبشرة الانسان ، بل انها تتألف من خلايا جمعت معا بشكل عجيب . والعالم باجمعه ماهو الا العقل ، لقد ازاح ذلك الرجل المدعو داروين ، كل ما علق بالانسان من اوهام وغموض خلال عصور التاريخ ، وان اعادة جبر الساق المكسورة تتم بهذا الشكل او ذاك بغض النظر عن لون الجلد الذي يكسوها ، ففي غرفة صغيرة منعزلة على

الشاطىء حيث ترسو السفن ، قام بتوليد امرأة بيضاء وضعت طفلاً امسكه بيديه الاثنتين والوليد يصرخ مستغربا عملية الولادة المزعجة لقد كان العالم بالنسبة لجيف مكانا يمكن تفهمه ، كوكبا يدور في الفراغ تحيط به طبقة لطيفة من الهواء ، وهؤلاء الرجال الذين نعتبرهم اشراراً سيئين ، ما اصبحوا كذلك الالنقص في معلوماتهم ومعرفتهم ، اما الرجل الذي كرس حياته لطلب المعرفة بكل ما في هذه الكلمة من معنى ، هذا الرجل لن تعتريه المخاوف . قد تنطبق هذه الحالة الاخيرة عليه هو ، ولكن ماذا عساه ان يقول عن ابيه ؟ وعادت الى ذكراته صورة عامل الحقل بيديه القويتين ، ذلك الرجل الطويل القامة الواضع على رأسه قبعة عالية متكسرة الاطراف ، وفي جيبه الاعلى منديل مربع الالوان زاه ، السائر في طريقه من كارويل الى تشارلستون مشياً على الاقدام ليمثل قومه في المجلس التأسيسي . لقد عاد ذلك الرجل آنئذ ، ولكنه عاد رجلا آخر ، وما المصاعب والآلام المخيفة التي خلقت منه هذا الرجل الثاني ؟ وما التفاعلات والعوامل التي خلقت من جديون جاكسون الرجل الثالث والرابع ؟ الرجل الذي قال عنه الدكتور ايمري . انه يمثل عظمة الانسان بكل مافي الكلمة من معنى حتى انه لا يمكنني ان اجدله تعريفا علميا ، الا

انك اذا ما انتهيت من دراسة المنطق ، فكر في هذا الرجل .
« وفكر جيف في هذا الكائن البشري الذي كان نائبا في مجلس نواب جنوبي كارولينا ومن ثم اصبح عضواً في الكونغرس ، والذي اجاب مرة نائبا من جورجيا بهذا القول البليغ الذي اصبح يعرفه كل طفل في طول البلاد وعرضها :

« ... نعم ، لقد كنت عبداً رقيقا منذ زمن ليس ببعيد ، كما يقول السيد نائب جورجيا واليوم ارد عليه كرجل حر ، يمثل شعبه في الكونغرس ، الندوة النيابية لهذه الامة ، ان وجودي هنا ايها السادة ، وهو اكبر دليل واقوى شهادة على الحياة الحرة في اميركا ، الشهادة الكافية باني اميركي ، واعتقد باني في غنى عن الانخراط في مناقشات وطنية . فمجرد وجودي هنا ، حيث اقف الآن ، يقدم خير دليل ، وافضل وصف للبلاد التي اقوم بخدمتها ، وصف يفوق كل وسيلة يستخدمها المرء للتعبير عن ذلك بالكتابة او الكلام ... » .

لقد رأى جيف هذا التصريح مطبوعاً في الصحف السكوتلاندية وقد اشار اليه نائب بريطاني في مجلس العموم ، واثار هذا التصريح نفسه نقاشاً حاداً لمدة ثلاث ساعات في مجلس النواب الافرنسي ، اما في المانيا ، وروسيا ، وهنغاريا ، فقد

قامت فئات من الجمعيات السرية الثورية بترجمته وطباعته ووزعت منه الاف المناشير ...

وعندما كان جيف ينظر الى جديون ،احس اذ ذاك ، بموجة من العاطفة وعزة النفس ، وبشوق ورغبة في ان يدنوا من هذا الرجل ، والده ، ان يقترب منه فيتعمق كل منهما في فهم الآخر ، ولكن كان هنالك شعور آخر يتملكه ، شعوره بفرديته ، شعوره بان مداركه اضحت تفوق مدارك جديون بعد ان اصبح في صعيد آخر من المعرفة والعلم ...

وقال :

ــ سأصغي إليك ، مهما اعترضني من خطوب ومحن ، سأستمع إليك .

وشرح جديون مايريد بكلمات بطيئة هادئة ناعمة قال :

ــ سأعود الى هناك يا جيف لانني جزء منهم ، لا يمكن ان يكون مكاني الا بينهم وان كل ما بلغته ، يا ولدي جيف ، وما خلقت من أجله ، يعود لشعبي . فانا منهم واليهم تعود قوتي وحياتي . لقد امضيت زمنا طويلا لاتوصل الى معرفة ما اقوله لك الآن ، فقد أمتاز بموهبة ، تساعدني على التعلم ، والكلام ، والتعمق في تفهم الامور ، الا اني لا املك من صنعة الا اجدها

اصيلة في نفوسهم وفي أعماقهم . سأعود اليهم لان في ذلك اعظم سعادة لنفسي ، وطبيعة الانسان ، ياجيف ، تدفعه دائما للبحث عن سعادته سواء كان ذلك في الامور الصغيرة او الكبيرة ...

الامر يختلف بالنسبة اليك ، لقد اقمت بعيداً لمدة طويلة . وقد درست وتعلمت واصبحت الآن طبيباً . والطبيب أشبه بكتاب جيد ، وفائدته تنحصر في من تعب وانهك قواه ليأتي به ، الى حيز الوجود . فانا لا فائدة ترجى مني الا في الوسط الذي نشأت فيه . اما انت فبأمكانك ان تفيد في كل مكان ، وسيجد قومي جديون آخر غيري عندما تضطرهم الحاجة الى ذلك ، اما الامر فيختلف بالنسبة لك . عندما اخبرت الرئيس غرانت هذا اليوم باني أعتقد ان هذه آخر مرة تتاح لزنجي التحدث مع رئيس الولايات المتحدة الاميركية ، كنت أقول ما اؤمن به ولا أشك في حدوثه وأني اعتقد ايضاً بأنه سوف لن تتاح الظروف الا لفئة قليلة من الزنوج كي يتعلموا كما تعلمت انت : فابق هنا ياجيف . ويمكنك العيش في هذا المنزل ، وستجد من الاجسام المهشمة ما يكفيك للعمل المتواصل . وستكون عودتك معي ضياعاً للوقت والفائدة .

وبعد ان انهى جديون حديثه . جلسا صامتين دقائق عدة . ونفض جيف غليونه وملأه ثانية ، واخذ جمرة بالملقط من نار الموقد الملتهبة وأسقطها فوق التبغ اللين الرطب . وصب جديون بعض الخمر . وأجال جيف نظره في انحاء الغرفة وقال : هذه غرفة جيدة ، غرفة دافئة وكم اود قراءة بعض هذه الكتب .

وهز جديون رأسه . وتابع جيف :

ــ انني افكر دائما في قراءة الكتب ، فاترك ذلك للغد فقد يتوفر لي بعض الوقت فاذا جاء الغد ، اجد ان الوقت يضيق بالاعمال .

فقال جديون :

ــ سيتوفر لك الوقت فيما بعد

ــ وسأل جيف :

ــ اخبرني ، اذا ما جرت الامور على الشكل الذي اخبرتني به والذي تعتقد انه سيحدث ، فهل تحاربون ؟

ــ ذلك ما لا اعرفه الآن .

ــ لقد كتب لي اخي ماركوس قائلاً ، انه عندما يمرض احد من قومنا فانكم تطلبون الدكتور « ليبد » وان هذا الاخير يأتي احياناً وقد لا يأتي .

ــ انه يأتي في اكثر الاحيان .

وقال جيف :

ــ لن يجيء بعد الآن ، وعلى الاخص اذا كان ما اخبرتني به امراً واقعاً ، فانه سيرفض ان يأتي في المستقبل .. ونهض جيف وسار الى النافذة ومسح قطرات الماء والبخار المتراكمة على الزجاج وقال : لايزال الثلج يتساقط . انه لامر عجيب فبالرغم من السنوات الطويلة التي قضيتها بعيداً ، لم اتمكن من محبة العيش في مكان آخر ..

هل اراك الشيخ اللنبي بعض الرسائل التي كنت ارسلها له ليقرأها الى آلن ... ؟

وهز جديون رأسه باشارة النفي وقال :

ــ لقد توفي الرجل في الشهر الماضي ، وظننت انك علمت بذلك .

ــ لا ، لم يخبرني احد بذلك . لم يخبرني احد بذلك . واني سأعود معك يا والدي .

* * *

كانت الاعمال القليلة التي شغلت جديون في الايام الاخيرة التي قضاها في واشنطن ، نتيجة للتوفيق بين فكرة الرحيل عن المدينة دون عودة ، وبين الامل الضعيف في العودة لحضور جلسة الكونغرس الربيعية . وكان يفكر احياناً بان جيف على صواب فيما ذهب اليه من ان الامور تنفجر كالقنبلة . فترك البيت كما كان ، وطلب الى الام جون ان تحافظ على ترتيب البيت ونظافته . وحضر اجتماعاً للجنة فرعية في الكونغرس ، وخاض نقاشاً حاداً في امر يتعلق بمشروع امتلاك الاراضي لمد الخطوط الحديدية فيها . وكان يقوم بالاعمال الضرورية بشكل طبيعي يرتدي البسته ويحلق ذقنه ، ويأكل وينام . وقد اخبره السكرتير الخاص مرة بان السناتور ستيفان هولمز ، يود مقابلتك فأجابه :

ــ اخبر السيد هولمز ، بانني كثير الانشغال . وليس لديّ سوى ايام قلائل قبل ان اترك واشنطن ، ولا يمكنني ان أعد أحداً بالمقابلة .

وعاد السكرتير يقول : إن السناتور هولمز شديد الاصرار على مقابلتك .

وهز جديون رأسه وقال : « حسناً ، فليدخل » ودخل هولمز ، فلم يجرب جديون ان ينهض ، ولم يمد له يده . وتقدم

هولمز مبتسما ولمس قبعته باطراف أصابعه ، ثم خلع معطفه بهدوء ، ووضع عكازه وقفازيه على طرف الطاولة التي كان يجلس وراءها جديون ، وجلس ، فبادره جديون بالسؤال :

ـــ حسناً ماذا تريد ؟

ـــ اردت ان اراك ياجديون لاننا مخلوقان بشريان نعتبر انفسنا متمدنين وعلى هذا الاساس نتمكن من بحث بعض الامور . ففي عالم مملوء بالمعتوهين وصغار النفوس والعقول ، نتمكن انا وانت من ان نتباحث في حقيقة الامور ، ونتوصل الى تلك الحقيقة وعلى ضوئها نعيش بسلام .

ـــ انت مؤمن بما تقول اليس كذلك ؟ . سأل جديون هذا السؤال وهو يراقب الرجل الممشوق القوام ، الدقيق القسمات ، وقد جلس بكل هدوء وراحة على الكرسي امامه ، مرتدياً ثياباً نظيفة حسنة التفصيل ، وقد بدت معالم الثقة بالنفس في كل جزء من مظهره ، وان ذقنه اللامعة ، الناعمة ، المائلة بلونها الى الاصفرار لم تتأثر بالسنوات الطويلة الماضية ، وذلك الوجه الهادىء ، وكأنه اللغز ، تظهر عليه علامات التأثر عند كل كلمة او اشارة من جديون . لاشك ان هذا الرجل هو نتاج المدينة ، اعتاد ان يكون صادقاً ، يقول ما يريد قوله بطريقة

مباشرة غريبة ، غير انه يعيش في عالم اغرب مافيه كذبه ومواجهته للامور بطريقة غير مباشرة . الا ان جديون احس بكراهية نحو هذا الرجل لم يشعر بمثلها نحو اي مخلوق بشري طوال حياته ، كراهية واشمئزاز ، وبغضاء . هذا هو جديون جاكسون الذي ما انفك يقاوم سيطرة البغضاء على نفسه منذ ان كان عبدا ، جديون الذي كان يجرب ان يدرك العوامل التي من شانها ان تجعل من الانسان رجلاً صالحاً او سيئاً ، ان يدرك ما الذي يجعل هذا الرجل لطيفاً وهذا الآخر قاسياً ، جديون هذا الرجل الذي كان يعلل الامور بشكل منطقي صحيح ليتوصل الى الحقيقة ، يوم كان السوط يلهب ظهره ، هذا الرجل الذي خاض غمار الحرب وقتل الكثيرين دونما شعور بالعداء او البغضاء نحو من يحارب ومن يقتل . هذا الانسان جديون جاكسون ، كان يشعر برغبة ملحة في ان يقتل ستيفان هولمز . وكرر جديون ما قاله :

ـــ انت تعتقد بما تقول . اليس كذلك ؟

ـــ « نعم انني اعتقد بذلك ياجديون » قال هولمز ذلك بهدوء . واضاف باخلاص تام : « انني اذكر لك ياجديون بانني احد القلائل من طبقتي الذين لاينفرون باشمئزاز من منظر زنجي . فانا كما ترى رجل منطقي . احكم عقلي الى حد ما . وانت لا

تختلف عني في هذه الناحية . اننا نعرف تماما بان جمعية سرية قد بدأت تتألف ، وانا لا يسعني ان اضحك من هؤلاء الصغار العقول المعتوهين انهم اصدقائي ، وانا اقر بذلك وهم ينظرون الى جميع المخلوقات من ابناء عرقك والى عدد كبير من ابناء عرقي كمخلوقات وجدت لتكون احط منهم مرتبة واصغر منزلة . الله يعلم ، فأنا ادرك تماما نفوسهم وما تنطوي عليه . وانا بصورة عامة لا استطيع فصل مصيري عن مصيرهم ، ويعود ذلك الى عامل خُلق معي يوم ولدت وآخر اخترته لنفسي . والآن لنواجه الواقع ، فقومي قد خسروا كثيراً في الحرب . انهم لم يخسروا السيطرة والنفوذ فحسب ، وهما شيئان هامان ، بل انهم خسروا أيضا أشياء مادية كانت مرتبطة ارتباطا وثيقاً بالسيطرة . خسروا طريقة حياتهم الخاصة لقد أردت انا ان أستعيد هذه الأشياء ، وحاربت من اجل ماأردت باندفاع وإخلاص .

ــ وهل استعدت هذه الاشياء الآن ؟

ــ نعم لقد استعدت بعضها . غير ان هنالك أموراً لابد من تصفيتها . اننا نجحنا الى درجة ما . ولا مجال للادعاء هنا فأنت تعلم السببِ الذي من اجله سيكون « روتغورد هيز » رئيسا للولايات المتحدة الاميركية . وأنت تدرك تماما بانه سيد

محترم سيبرُ بما وعد . وعلى كل حال فاننا قد توصلنا الى حالة من السلم مع الحزب الجمهوري ، وستأخذ بعض الامور مجراها .

وقال جديون وهو يحدق بهولمز باستغراب شديد :

ـــ انك صادق ومتعقل ، هل تفتخر بما تقول ؟

ـــ نعم ويعود ذلك الى عادة في نفسي .

ـــ وإنك لم تأت الى هنا لتظهر شماتتك ، فانت اكثر أدباً من ان تسمح لنفسك بذلك ؟

ـــ نعم انني مهذب جداً يا جديون ، وانا اكثر ثقافة من ان اؤخذ بكلمات رجل اسود . وانت ايضاً ، اعتقد بانك اكثر أدباً من ان تقذف بي خارجاً .

وأجاب جديون بصوت منخفض :

ـــ اريد ان اصغي لماتريد ان تقول :

ـــ لقد اعتقدت بانك تود ذلك : والآن دعنا نبتعد عن هذه التلميحات . فانا معجب بك يا جديون ، لقد كنت اراقبك منذ كنت في المؤتمر التأسيسي وعلى كر السنوات التي تلت ، فكنت اجد فيك دائماً تطوراً عجيباً . فانت رجل ذو مقدرة كبيرة ومواهب كثيرة ، وتتمتع بعقل حصيف . انك كنت عبداً فيما مضى ، لا تحسن اللغة وتتكلم لهجة الزنوج

المتخلفين بجمل متقطعة وانت الآن رجل مثقف اتكلم معك حتى انه ليكاد ان يكون امراً لا يصدق . لقد كنت اصغي اليك باعجاب في الكونغرس . وان إلقاءك الذي يجمع بين بساطة اللغة الصحيحة والعاطفة المتدفقة له وقع كبير التأثير على الناس .

وقال جديون :

ــ انك تحسن الاطراء . اكمل .

ــ وانا اعتقد بانك لو كنت تملك النسخة الأصلية للوثيقة السخيفة التي اريتها للرئيس غرانت ، فلا بد انك كنت قد ابرزتها للكونغرس فتغير بذلك مجرى التاريخ . او ربما لا تغير شيئاً . فحزبنا يمثل الأكثرية في الكونغرس ، واني لأشك في ان يتمكن رجل يعمل وحده من احداث اي تغير يذكر في التاريخ .

ــ اذن انك قد علمت بذلك ايضاً . وانك بعيد النظر على الاقل ؟

ــ لقد كان من الضروري بالنسبة لقضيتنا ان نكون بعيدي النظر ياجديون ، فقد كنا المغلوبين ومناطقنا بلاد مفتوحة ...

ــ هل تفكرون بها وكأنها بلادكم ؟

ــ نحن مبدئياً ، نفكر بها كذلك . بلاد فئة قليلة

منتخبة . رجال يصلحون للحكم . كان يجب ان تدرك ذلك يا جديون . فالبيض البؤساء القذرون الذين نستعملهم في عصابات الكلان لا يصلحون للحكم . وكذلك انتم ، معشر الاطفال الزنوج ، فانتم لستم سوى ايد عاملة ... مكانها في الحقل . اما انت فانك تشكل حالة خاصة . وقد اكون انا كذلك . ولهذا تراني انا مشتركا باخلاص وبطريقة منطقية . لا شك ان هنالك سبلاً أخرى ، الا ان الامر يكون اكثر سهولة اذا ما كنت انت معنا . وكذلك بعض زملائك . وان الزنوج سيتبعونكم . لقد فعلوا ذلك فيما مضى . وان المستقبل البعيد ، سيكشف لكم بان طريقنا في الحياة هي الأصلح ، وأنا أكره القوة والعنف ، صدقني فيما اقول . الا اننا سوف لن نحجم عن استعمالهما ، ولكن مما لا شك فيه ان الامور ستكون خيراً فيما اذا توصلنا الى مانريد بطريقة سلمية . وستكون بلاداً نعيش فيها برخاء وامن ينعم بهما الجميع ، ويكون لكل رجل يعمل في الحقل ، ما يكفيه من الطعام بحيث ينام هادئاً دون تفكير لما يحتاج اليه من الخبز في غده .

وقال جديون بلهجة قاسية :

ـــ وهل تتقدم بهذا الاقتراح لي ؟

ـــ هل تقبل ذلك ؟

ـــ أأعود بشعبي الى العبودية ؟

ـــ ليكن ذلك اذا اردت ان تعبر عن رأيك بهذا الشكل .

ـــ انت رجل مخيف ، يمكن للمرء ان يثق بك . كان لزاماً علي ان اعرف ذلك منذ ان زرتك اول مرة في بيتك . غير اني كنت انظر اليك بصفتك انساناً وانظر الى جميع الناس بوصفهم بشراً وكنت اجهل ان المرض قد يدخل دماغ الرجل وعقله ، هذا المرض الذي لا امل في شفائه ، ولكن لم اكن اعلم ان بعض المرضى ينقلون امراضهم المخيفة الى غيرهم من سكان الارض . نعم ، جميعنا نخطىء . اليس كذلك ؟ واعتقد بان اكبر خطأ ، هو ذلك الذي اقترفته الفئة التي انتمي اليها ، فعندما تغطت الارض بسيل من الدماء ابان الحرب اعتقدنا بان الشر قد استؤصل ، الا ان دماء المرضى المنحطين بشكل لا يصدقه الانسان ، لم تجر مطلقاً ، انما كانت دماء الأبرياء الطيبين ، رجال خدعوا فاقتيدوا الى المجزرة وكذب عليهم فساروا صاغرين . ان الخطأ اننا تركنا امثالك يعيشون ...

لم يسبق لجديون ان رأى السناتور هولمز بادي الغضب

قبل الآن ، فقد ضاقت شفتاه ، وتقطب جبينه وبدت فوق حاجبيه خطوط عمودية ، ومن ثم نهض وارتدى معطفه ووضع قبعته ، واخذ قفازيه وعصاه وقال :

ــ انني اعتبر كلامك هذا جواباً .

ــ نعم بامكانك ان تعتبره كذلك .

* * *

واستقل جديون وجيف قطار الجنوب في الساعة الثالثة من اليوم التالي . ولم يصطحب جديون اشياء كثيرة ، فقد حمل معه كيساً صغيراً ، وحقيبة صغيرة تحوي مجموعة قصائد لـ « هويتمان » وصورة فوتوغرافية « لتشارلز صومتر » عليها توقيعه وكان قد اهداها لجديون قبل وفاته ، ودفتر مذكرات ، فقد كان يفكر في كتابة تقرير مفصل عن قضية « هيز وتيلدن » وخطر له ان بامكانه ان يبدأ بها في القطار ليقطع الوقت . وسار مع جيف على رصيف المحطة من اول القطار حتى آخره ثم قال :

ــ ستأخذ المركبة الاخيرة .

ــ ولماذا ؟

ـــ الا تعرف سبب ذلك ؟ الا تذكر اني قلت لك بان النهاية لا تأتي كانفجار قنبلة ولكن هذه هي القنبلة . كانت قد بدأت تشتعل عندما جاء الى المركبة الاخيرة التي هي اشبه بصندوق بعيد العهد ، وتشبه الى حد بعيد المحارب القديم ، جاء اليها بنوافذها القذرة وقد استبدلت اثنتان منها بالواح من ورق المقوي ، وفوق بابها انتصبت لوحة كتب عليها بكل بساطة : « الملونون » وقرأها جيف واستدار نحو والده وقال :

ـــ لا .. ان هذا مستحيل . هذا هو الفساد المرعب . وانت ... نائب في الكونغرس .

ـــ ادخل ياجيف ، هذا ليس بالامر الجديد ، وقد اصبح معروفاً ، ولابد للحر ان يعتاد الامور . ودخلا فجلسا على المقعد الخشبي الهرم ، ودخل غيرهما من الزنوج . وعندما بدأ القطار سيره قال جديون :

ـــ وايا كان امره فهذا لن يطول ، وسنبلغ كارويل قريباً .

الفصل التاسع

كان ماركوس ينتظرهما في المحطة ، وبدا لجيف غريباً وهو الشاب الزنجي الممشوق القوام ، الجميل الطلعة ، والاقل سواداً من أي فرد من اسرة جاكسون . وهو بقامته لا يزيد عن مستوى كتفي والده ، متناسق الاعضاء ذو خصر نحيل وكتفين عريضتين ، يتحرك بسهولة ورشاقة وتراءى لجيف كحيوان بري ، واثق من نفسه لا يعتريه خوف . كان يرتدي بنطالا ازرق ، ورداء بنياً من الجلد ، ويقف الى جانب عربة ربطت الى حصان واحد . وابتسم لجديون ، ولوح له بيده ، ثم انصرف الى دراسة اخيه بشكل غريب مثير .

ــ « مرحبا يا ولدي ! » . قال جديون هذا وابتدأ يلقي الاكياس في صندوق العربة . لقد كان جديون وماركوس ،

مرتبطين بعاطفة حارة قوية ، لاحظها جيف عندما كانا يتصافحان وكل منهما يضغط على يد الآخر بحرارة . وقال ماركوس :

ــ « لقد اخترتما يوماً جميلاً للعودة » والتفت الى جيف مرحباً وهو يقول : « جيف . الا تعرفني ؟ »٠.

ــ « لقد كبرت » . قال جيف هذا ووضع اكياسه مع اكياس جديون وصافح اخاه ووقف الاثنان كل منهما ينظر الى الاخر وقد ارتسمت على فم ماركوس ابتسامة خفيفة . وجاء جديون من وراء العربة ، واخذ يراقبهما وهو يشعر بعظمة الحدث الذي جمع الاثنين معاً ، بين جيف بقلبه الطيب الكبير ، وجسمه الضخم ، وماركوس ، الصبي الجميل بابتسامته العذبة ثم قال ، جديون :

ــ سأقود العربة بنفسي .

وابتسم ماركوس وقال :

ــ تفضل بالركوب ايها الطبيب جاكسون .

فقال جيف :

ــ حسناً . ياالهي !! كم بلغت من العمر ؟

ــ وهل نسيت هذا ايضاً ؟ لقد بلغت العشرين .

وردد جيف لنفسه :

ــ عشرين ... « اركبا » .

وقال جديون : « هيا اركبا » والتفت ماركوس الى اخيه وقال : « تفضل انت اولاً يا حضرة الطبيب » وانحنى له وهو يشير بيده . فقال جديون : « حسناً ، هيا اركبا » وجلس الثلاثة معاً على كرسي واحد . ووضع جيف ذراعه حول ماركوس .

ــ وكيف اسكتلندا ؟ ..

ــ كنت اشعر بالوحدة هناك

وابتدره ماركوس على الفور :

ــ انك تتكلم وكأنك اجنبي . اتنوي البقاء عندنا ؟

ــ ربما كان ذلك .

ــ ستجد ان الامور قد تغيرت ، الا اننا لم نستقر تماماً .

كان جديون يصغي اليهما ، وقد أحس بابتهاج وسعادة لوجوده في العربة القديمة وقد جلس الى جانبه ولداه . وهو يقود الحصان الاسود ، على هذه الطريق المنحدرة ، ممسكاً الأعنة بيده .

ذلك اليوم كان من ايام آذار التي تسبق الربيع ، وتكون السماء فيها صافية الاديم ، عليلة الهواء ، تحمل معها بعض البرد

وبعض الدفء ... هذه الايام الجميلة التي تبلغ أوج البهجة في جنوب كارولينا ، وتزيد في الروعة هنالك عن اي مكان آخر في العالم . وكانت الفرس التي لم يزد عمرها عن الخمس سنوات ، والتي مضى على شراء جديون لها صيفان ، صغيرة الحجم ، يقظة ، تعدو بخطوات هادئة موزونة . وكان جديون كثير الشغف بسوق هذه الراحلة وهي تجر وراءها العربة ، لقد كان يفكر في هذه طوال اشهر الشتاء في واشنطن ، يفكر في الجلوس وراءها مستمعاً الى وقع حوافرها الرتيب . وعندما ادركوا نهاية الطريق المغبرة وبدأوا السير على طريق معبدة ممتدة كالعنق فوق مستنقع يحيط بها من اليمين واليسار ، قال مخاطباً جيف بفخر :

ــ لقد قمنا ببناء هذه الطريق منذ اربع سنوات وبذلك اصبحت المسافة التي تفصلنا عن محطة القطار نصف ما كانت عليه .

ــ « لقد قمنا ايضا ببناء اشياء اخرى » . قال ماركوس ذلك ، معلقا دون ان يتمكن من اخفاء شعوره بالرضا . فظهر ذلك جلياً في صوته . لقد عاش جيف بعيداً ، وقام باعمال كم كان يود ماركوس لو يقوم بها .

ورمقهما جديون بعينيه وقال :

ــ ان جيف يعود الآن ليعيش معنا .

ــ أهكذا ؟ ولكنه سيشعر بالوحشة والوحدة هنا في كارويل .

وأخبر جديون جيف كيف قاموا ببناء الطريق ، وكيف انهم خططوها بانفسهم اذ ان اكثرهم كان قد عمل في مد الخط الحديدي سابقاً وتعلم بذلك تعبيد الطرق . وها هي الطريق الآن ، تبدو مستقيمة كالسهم على طول ميل ونصف الميل . لقد قاموا بهذا العمل دون الاستعانة بمهندس . وقال جديون :

ــ عندما ذكرت ذلك في الكونغرس ، علق احد زملائي متسائلاً : بأي حق سمحنا لانفسنا بالعمل في املاك الدولة .

وكان ماركوس ينظر الى والده ، وجيف يغني بصوته الهادىء :

ذهب والدي الى الصيد
يـا الهــي يــا الهــي
ذهــب والدي الى الصيــد
يـا الهــي يــا الهــي

وقال جديون :

ـــ أما زلت تذكر هذه الاغنية ؟

ـــ انني مازلت اذكر أشياء أخرى كثيرة .

* * *

وعانق جيف اخته وأمه.واحاطهما بذراعيه ، وكانت الأولى قد كبرت فأصبحت امرأة كاملة التكوين ، وقد برز نهداها مرتفعين من تحت ردائها . وكانت الاثنتان تقولان معاً :

« لقد كبرت ، كبرت جداً .. » وهو يجيبهما مبتسماً : « لا ، هذا انا لم اكبر » وبكت راشيل مغمورة بفيض من السعادة الكاملة . انها هي الاخرى قد كبرت ، حتى لقد بدا عليها ذلك بوضوح اكثر مما كان يبدو الكبر على جيف ، وكانت تلمس وجه ابنها وتمر باصابعها على شعره الكث الاجعد .

ووقف جديون وماركوس بعيدين عنهم ، وقال ماركوس :

لقد قرأت الصحف ...

ـــ نعم ماذا قرأت ؟

ـــ كيف كان ذلك ؟ هل يعني ذلك ان ... وقاطعه جديون :

ـــ لست متأكداً مما يعنيه ذلك ، غير اننا سنبحث هذا الموضوع في مرة اخرى .

وقال ماركوس :

ـــ اذا كانوا يعتقدون في واشنطن ، انه بالاستطاعة القضاء علينا ، ومحونا بشطبة قلم فلا بد انهم لا يعرفوننا كما يجب .

ـــ سنتكلم في هذا الموضوع في مرة اخرى .

ـــ نعم انهم لم يعرفونا بعد .

وتجول الجميع في البيت من مكان الى آخر . لقد تغير كل شيء بشكل مفاجىء . ورأى جيف البيت المؤلف من خمس غرف ، وقد طلي من الخارج بالابيض . وكانت المدفئة والمدخنة من القرميد الاحمر ، وأرته راشيل المطبخ . لقد اصبحوا الان يملكون الاواني المعدنية وطناجر نحاسية لامعة ، اذ كانت سلسلة متدرجة في الحجوم منها معلقة على الحائط ، ومضخة للماء في جانب آخر . ونشلت له راشيل ماء نظيفاً بارداً وقالت : « خذ ، وذق هذا الماء . جرب فقط . » فأخذ جيف

الكأس فشربها وقال : « ياله من ماء عذب قراح » وسأل : « هل يملك الاخرون بيوتاً كهذا البيت ، او ان هذا بيت النائب في الكونغرس ؟ ..

ـــ ان البيت مرآة صاحبه ، يختلف واحده عن الآخر . اننا لم نتذمر وان هذه الارض ، هي ارض طيبة تحسن الى من يدرك قيمتها . واستفهم جيف عن اكواخ الزنوج القديمة وماذا حدث لها . واجابه جديون انها مازالت قائمة حيث كانت ، ولا يعيش فيها احد الان . واستطرد جديون ، نعم لا يسكنها احد ، وكذلك لم يقدم احد على شراء البيت الكبير فالجميع لا يريدونه وكانت في صوت جديون ، نبرة خاصة ، جعلت جيف ينظر اليه باستغراب . واضاف ماركوس ، انه من الممكن السير نحو البيت الكبير فيما اذا وجد الطبيب لديه متسعا من الوقت .

ـــ وكانت راشيل قد هيأت طعام العشاء المؤلف من الخبز الساخن والدجاج ، وكانت تنتابها رغبتان احداهما ان تحضر لابنها طعام العشاء ، ورغبة اخرى في ان تأخذ جيف من يده وتدور به في انحاء البيت كي تريه معالمه واجزاءه ، دون ان تذكر له شيئاً عن غرف النوم والاسرة ذات النوابض المعدنية فهو سيرى ذلك بنفسه . وعندما قادته الى غرفة النوم سألها :

ــــ اين تسكن « آلن » .

ــــ انها تسكن مع الاخ بيتر . جميع ابناء اللنبي يعيشون مع الاخ بيتر .

ــــ هل كان موت الشيخ شديد الوقع عليها ؟

وقال ماركوس :

ــــ لقد جاءت الى هنا وأرادت ان تسكن عندنا .

ــــ الا انها عادت ؟

ــــ نعم لقد عادت .

ــــ هل علمت بعودتي ؟

ــــ نعم لقد عرفت ذلك وجميع القوم يعرفون ذلك ايضاً ، وانهم سيفدون الى هنا للترحيب بك .

ولمست راشيل بيديها فراش السرير وقالت : « انه ناعم ومريح ، وكأنه سرير طفل صغير ألمس بيديك هنا . » ووضع يده فوق الفراش . وقالت : « اجلس فوقه » فجلس وهو ينظر اليها مبتسماً وأضافت : « اجلس وتحرك صاعداً هابطاً ... » وترجح جيف يمنة ويسرة وارتفع وهبط ثم نهض وطوق امه بذراعيه . ولم تتمكن راشيل من ان تقاوم رغبتها فأخذته الى غرفة النوم الاخرى ومن ثم الى غرفة الاستقبال المؤلفة من غرفة صغيرة

وضع فيها أثاث على طراز الاثاث الفيكتوري ، ومكتب ، وكتب جديون وجلسا في المطبخ الى المائدة ، ولم يخف اعجابه بجودة الخبز وقال : « لا يوجد خبز ذرة في سكوتلندا ان البلاد تخلو منه من اقصاها الى اقصاها ، ولكي يدخل السرور الى قلب امه راشيل ، فقد أكل اكثر مما يستطيع ، وابتدأت هي بالبكاء وهي تراقبه وتلمس يديه . وقال لها : « حسنا ياأماه . سيكون كل شيء حسنا . » الا انها لم تنقطع عن البكاء .

وخرج جديون وماركوس الى الرواق وقال جديون وهو بادي الاضطراب :

« لا يجوز ان تظهري بهذا المظهر .. » ولكن الحاجة ، والشوق المكبوت المتألم ، كان واضحين عليها ولا يمكن اخفاؤهما .

وقال ماركوس .

ـــ سأحل وثاق الفرس ، انه يود ان يذهب لزيارة آلن .

ـــ هل يود ذلك ؟

ـــ اعتقد كذلك ... ولكن يمكنه الانتظار وانهم سوف يأتون جميعاً الى هنا ... سأحل وثاق الفرس . وهز جديون رأسه ، وقاد ماركوس الفرس ومضى ، ووقف جديون في الرواق

مستنداً الى احد الأعمدة وقد ارتسمت على وجهه علامات الاسى والوحدة .. كان يجب ان يكون هذا الحدث نقطة بدء ، الا انه سيكون النهاية ... وهز رأسه بوحشية وكأنه يقول لنفسه : من يفكر بالامور على هذا الشكل فانه ليس الا مجنوناً فاقد العقل . ان واشنطن بلد موبوءً ، مملوء بصغار القوم ، صغار النفوس الذين تتملكهم رغبات الطمع ، والجوع ، والاساءة .. ولكن الامر يختلف هنا ، فهذا هو بيته . وان واشنطن ليست وحدها اميركا . وان هذا المكان ، هذا البيت الصغير ، والاثاث البسيط الذي يملؤه ، واشجار البلوط « واللوكوست » التي تحيط به وتغطي جدرانه وتظللها من حرارة الشمس وسفوح الجبال وقممها ، والحقول التي ستكون مغطاة بالقطن والتبغ والحبوب وان المحراث الذي تركه ماركوس ملقى هناك على مسافة بضعة مئات من الامتار من المنزل وقد علقت به كتل من التراب الرطب القاسي ، وغطت سكته طبقة من الثرى بللتها امطار شهر آذار ... ان كل هذه الاشياء ملك له ... لقد حارب من اجل هذا المنزل وما يحيط به ، وتحمل في سبيل ذلك ضراوة سنوات الرق والعبودية ، وعمل كادحاً من اجلها ، ورسم لنفسه صوراً للمستقبل ، واهدافاً واحلاماً ... ومن المحال ان يبتعد امرؤ عن الارض التي

شربت تربتها من دمه ونعمت بخطواته يسير عليها حراً طليقاً . انه ليشعر وقدماه لا صقتان بالتراب الذي هو تراب ارضه بأنه جزء منها فيقف هناك صامداً ..

* * *

ودخل ماركوس المنزل وقال لجيف : « انها قادمة الان وأومأ مشيراً برأسه من فوق كتفه ، ثم خرج وحيداً . وكان الاخ بيتر يسير في الظل المتقطع متجها نحو المنزل ممسكا بيد آلن » لقد اطلق الاخ بيتر لحيته منذ ان رآه جيف آخر مرة . وقد قارب عمره الستين الان ، وجلال الكهنوت يخيم على قامته الطويلة الناحلة . وبدت لحيته بيضاء تهتز وهو يعرج . لقد قال جديون ان الرجل يرزح تحت وطأة الألم ، وان رجلاً مثل الاخ بيتر ، قضى جزءاً كبيراً من حياته عبداً يعمل في الارض ، لا يعود صالحاً لاي شيء عندما يقارب سن الشيخوخة لقد تسلل « الروماتزم » الى عظامه وحمى الملاريا تهدد جسمه ، وتضخم القلب يدل على ساعات العمل المرهق والكدح المضني التي

خلفها وراءه . اما الفتاة التي كانت تسير الى جانبه ، فقد كانت كما عرفها جيف كانت تبدو مستديرة الاعضاء ممتلئة الجسم ، كاملة النضج ، وكما يذكرها جيف مرفوعة الرأس ابداً وشعرها الاسود متهدل على كتفيها . ومشى جيف نحو الاخ بيتر والفتاة فتوقفا . ورأى الشيخ ينحني نحوها ويهمس شيئاً ، فتوقفت الفتاة اذ ذاك دون حراك ، وابتسم الاخ بيتر وهو ينظر الى جيف وقال :

ــ اننا نرحب بعودتك الى قريتك يا ولدي .

وتوقف جيف ، تفصله عنهما خطوات قليلة ، ووجه « آلن » متجه نحوه فتقدم نحوها واخذ يدها وقال :

« هاي آلن ... مرحباً ... اتذكرين .. ؟ » فهزت راسها قليلاً والتفت الاخ بيتر وقال :

ــ سأترككما انا واذهب لرؤية الاخ جديون وبامكانكما ان تأتيا عندما يروق لكما .

ــ وهز جيف رأسه ، وابتعد الرجل الشيخ عنهما . ولم يبرح جيف مكانه وكان ممسكاً « آلن » بيده وهي لا تبدي حراكاً منقبضة الجسم هادئة . وكانت مرتدية ثوباً اخضر اللون

ووضعت على كتفيها شالاً ازرق تضع في قدميها زوجاً من الجراب الاسود وحذاء من اللون نفسه . وقالت اخيراً :

ــ هل ابدو كما كنت تراني سابقا ؟ وهل يروقك منظري ؟

ــ انك تماماً كما كنت ...

ــ الا يبدو عليّ ايُ تغير ؟

ــ ان التغير لابد منه ، الا انك تبدين كما اريدك ان تكوني .

ــ الا انني اكبر سناً ياجيف .

ــ كلانا اصبح اكبر سناً .

واخذها من يدها ، وسارا معاً ، وابتعد بها متجها نحو السفح ، حيث كان ماركوس يحرث الحقل ، وابتدأ يخبرها كما كان يفعل منذ سنوات ، بان الشمس تقارب المغيب لقد كانت مناظر كارويل تملأ نفسه ، وكان يحس بانه يكاد يختنق باندفاع ملؤه احساس تحيط به مكتشفات يراها جديدة وقد امتزجت بذكريات الحداثة والطفولة . ان سماء اسكتلندا المتلبدة بالغيوم ، المتكاثفة الدخان والضباب ، لم تعد الان سوى جزء من الماضي ، وهنا في كارويل تبدو السماء كصفحة زرقاء تزينها الوان الشمس

المنعكسة من وراء الافق حيث تغيب وترسل اشعة حمراء ذهبية . تنبعث الحرارة من الارض ، الناعمة ، الرطبة ، وانه هو لم يُخلق للارض الصخرية الجرداء المتوجة بالتلال والجبال . لقد عاد اخيراً الى وطنه ، وهو يشعر كما يشعر جديون ، بان في ذلك تعزية لنفسه ، تعزية مريحة كافية .

واخبر « آلن » كيف تبدو السماء بمنظرها الجميل ، ولكنه لم يذكر لها كيف كانت تبدو في سكوتلاندا . وانحنى نحو المحراث ، واخذ بيده كتلة قاسية من التراب وسحقها بقبضة يده ، فانتشرت رائحة التراب قوية ، ووضع التراب وضغط به يد «آلن» . وارادت ان تعرف المسافة التي تفصل سكوتلاندا عن هذا المكان ، وأعلمها بانها تقارب الاربعة آلاف ميل . الا ان مفهوم هذه المسافة يخرج عن محيط ادراكها ، فالمسافة ، مسافة ، .. بُعد يتراكم فوقه بُعد آخر دون نهاية .

ـــ ان عودتك لامر جيد جميل . الا انه يبدو عليك التغير ياجيف . لقد اصبحت رجلاً . وانت الان طبيب . لقد كان ابي طبيباً . هل تعرف هذا ياجيف ؟

ـــ طبعاً كنت اعرف ذلك .

وصعدا الرابية عائدين الى البيت ، وتوقفا ليستريحا قليلاً

على المقعد الخشن الذي اقامه ماركوس قريبا من هناك . وكان البيت يبدو كصندوق صغير تغطيه اشعة الغسق من فوقهما . وكان القوم يتوافدون اليه ، وهما يسمعان وقع اقدامهم ، واختلاط اصواتهم وكان يسمع وقع حوافر خيل في الطرف الآخر من الرابية . حيث يلتف طريق يؤدي الى المنزل . ونادى احدهم من هناك قائلاً :

ـــ اين انت ياجيف ؟

ـــ وقالت آلن :

ـــ انهم ينادوننا .

ـــ سنعود اليهم بعد برهة قصيرة .

وجلسا هناك ـــ وقد بدأ الظلام يرخي فوقهما رداءه الاسود القاتم . نبح كلب .. وعاد فنبح ايضاً وبعد فترة من السكون الشامل قال جيف :

ـــ هل فكرت في الزواج مني عندما علمتِ بعودتي ؟

ـــ وهل تريد انتَ ان تتزوجني ؟

ـــ نعم . اريد ذلك .

ـــ اتريد الزواج من امرأة عمياء ؟

ـــ سأتعلم يوماً كيف أُعيد اليك بصرك .

وقالت هي :

ــ انهم ينادوننا . فلنعد .

واخذها من يدها وعاد بها الى البيت .

* * *

وجاء جميع سكان كارويل وتجمعت الخيول والبغال هنا وهناك في الساحة . وكانت النساء قد جَلَبنَ معهن الاولاد ؛ وهم اطفال صغار لم يرهم جيف قبل ذلك . وغص البيت والرواق بالزائرين ، تجمع القوم حوله ، وكان الكبار يطرحون عليه اسئلة كثيرة فلا يتمكن من الاجابة عليها جميعاً . اما الفتيان الذين كانوا صغاراً يوم رحل جيف ، فقد وقفوا جانباً ، وراحت الفتيات يطلن النظر اليه . وشاركت النساء راشيل في بكائها . وقد دهش جيف اذ راى الكثيرين من القوم البيض يروحون ويجيئون مختلطين بالزنوج دون تكلف وبسهولة تامة . وكان يعرف بعضهم كابنرليت ذي الشعر الاحمر وفرانك كارسون بعينيه الصغيرتين . اما الآخرون فلم يكن يعرفهم . وكان بين هؤلاء شبان في مثل

سنه ، لفحت الشمس وجوههم ، كانوا ينظرون اليه بدهشة وبراءة . وكان هنالك ايضاً معلم المدرسة « بنجمان دينتروب » وهو اميركي شمالي من جزيرة « ود » وقال له هذا الاخير .

ــ ان الفائدة من وجودك هنا في هذه البيئة ايها الدكتور جاكسون لا تقدر واعتقد بأنك ستقيم هنا . وهز جيف رأسه واجاب :

ــ انني آمل ذلك .

وكان هنالك رجل ابيض ، متعب ، صغير الحجم ، يدعى « فريد ماكهيو » قال لجيف :

ــ ان زوجتي تقاسي آلاما شديدة ... فهل يمكنك ان تاتي لتعودها ؟ وقال جيف « نعم ، بامكاني ان اقوم بذلك غداً . » وعاد ماكهيو فقال : « انها تشعر بالم في بطنها وكأنه افعى تنهش جوفها . وعاد جيف فقال : انني سأعودها غداً . ».

وكان ماركوس يملك « اكورديونا » . فجلس الى جانب الرواق يعزف ويغني :

« امي عادت بي الى اتلانتا الى اتلانتا.

الى اتلانتا .. الى اتلانتا ...

وكان الفتيان يضربون الارض بأرجلهم على ايقاع

الموسيقى ، ويصفقون بأيديهم . وقدم جديون شرابا لكل الحاضرين . وكانت راشيل والنساء الاخريات يقفن الى جانب الفرن يحملن القدور والمقالي وهن ينقرن عليها . وتردد صدى الاصوات القوية المرتفعة بالغناء فوق الحقول المظلمة ...

امي عادت الى اتلانتا .. الى اتلانتا ...

وقال الاخ بيتر لجديون :

ـــ وأخيراً نلنا مكافأتنا ، فاننا نتذوق الآن السعادة .

وقال بعض الرجال الواقفون الى جانبه وهم يهزون رؤوسهم : « آمين » .

* * *

وقال جيف لماركوس في اليوم التالي :

ـــ تعال . اتبعني .

وقال جديون :

ـــ اذهب معه ، وسآخذ انا محراثك .

كان جديون ينتعل حذاءه القديم الذي كان قد فقد

شكله ، ويرتدي قميصه البني وسترته الصوفية واعاد جملته الاخيرة وقال :

ـــ اذهب معه .

وقطر ماركوس العربة الى الفرس ، واستقلاها معاً الى المدرسة . كانت المدرسة مؤلفة من غرفة واحدة وقد طليت باللون الابيض . وفي طرفها الآخر كانت تنتصب قبة قليلة الارتفاع ، وهكذا فقد كانت تستعمل لغرضين ، مدرسة او كنيسة . وكان يجلس هنالك نحو من ثلاثين طالباً من بنين وبنات ومن مختلف الاعمار . وكان دينتروب موجلاً بمسألة معقدة وهي اعطاء جميع الدروس المختلفة لطلاب متفاوتي السن بوقت واحد ، وكان من طراز الذين يعملون كل شيء بسرعة . وأحس بفخر وأعجاب اذ جاءت زيارة جيف مسرعة . وكان من نتيجة الزيارة ان فقد النظام . فانصرف دينتروب الى اقرار النظام من جهة ، والى شرح طريقته في التعليم الى جيف من جهة اخرى هذه الطريقة التي تتلخص بأنه يشغل صفاً من الطلاب بالتحضير والدراسة ، بينما يلقي هو درساً للصف الآخر ..

وقال : ان الامر صعب ، وانه لمن الافضل ان يقوم بهذا العمل معلمان في غرفتين منفصلتين ، غير انه يجد بأن بعض

الامور تحل بنفسها وليس من الضرر في شيء ان يلقي درساً في الادب على كبار الطلاب فيستمع اليه صغارهم :

وأجاب جيف : طبعاً لا يضرهم ذلك .

ــ لا شك اني حديث العهد بهذا المكان وان الشيخ اللنبي الذي كان يعمل هنا قبلي كان له اسلوبه الخاص . وهو اسلوب قديم كما تعلم .

ــ نعم . غير اني اذكر بأن المدرسة لم تكن في الماضي الا حلما ..

وسارت بهم العربة وقال جيف :

اريد ان اتوقف في بيت ماك هيو . وانك تعرف أين يقع هذا البيت .

ــ نعم . اني اعرف ذلك .. وان زوجته مريضة .

ــ انه يريدني ان اعودها .

ــ اذن عندنا طبيب الان .

ــ قد تحدث امور اكثر سوءاً من هذا . كما تعلم .

ــ نعم قد يحدث ذلك .

ونظر جيف الى ماركوس . فلم يجب هذا بكلمة . كان بيت ماك هيو يطل على البيت الابيض الكبير . وهو بناء

صغير ، شيد باعتناء ، وقد غرست حوله الاشجار والعليق ، ولم يكن ذلك من الامور المألوفة في هذا المكان ، وقد عاش ماك هيو وزوجته في هذا البيت وحيدين اكثر ايامهما ، وقلما كانا يختلطان بأحد ، ولم يكن لهما اولاد . وعندما جاء جيف ولاحظ الاهمال البالغ سأل عن المدة التي مضت عليها وهي مريضة ..

ــ كانت تترجح بين الصحة والمرض لمدة سنة ، غير انها تلزم فراشها الآن . ولم تصرخ من الالم ليلة البارحة ولكنها كانت تئن بصورة متواصلة .

وأخذ ماك هيو جيف من يده ودخل به الى غرفة النوم وكانت تستلقي هناك امرأة مسنة تبلغ الاربعين من العمر ، هزيلة ، لا لون لها . خاطبها قائلاً :

ــ هذا هو جيف ابن جديون ، وهو طبيب تعلم في البلاد القديمة ، وهو ولد طيب يا سالي ، وسوف يفحصك ، ارجوك يا سالي ...

ولم تجب المرأة بكلمة . بل بقيت شاخصة بعينيها نحو السقف . فسأل جيف ماك هيو ان يخرج .

وبعد ان خرج هذا الاخير ، لم تبد زوجته حراكاً . وقال لها جيف :

ـــ ارجوك ياسيدتي ، انا طبيب . فهل بامكاني مساعدتك ؟

ـــ اذا كان باستطاعتك ... باستطاعتك ...

ولمس جيف بطنها ، فأنّت متألمة . وعندما خرج ، كان ماك هيو ينتظره فسأله :

ـــ هل استدعيتم الطبيب ليبد من المدينة ؟

ـــ نعم لقد حضر الى هنا .

ـــ وماذا قال عنها ؟

وتمتم ماك هيو قائلاً :

ـــ لقد قال انها ستموت .

ـــ وهل كان يعرف مرضها ؟

ـــ لا يمكنني ان اوجه الى الدكتور ليبد الاسئلة ، وهو لا يطيق سكان كارويل ، لقد قال انها ستموت وهذا كل ما في الأمر .

وكان ماركوس يقف الى جانب اخيه ، فسأله :

ـــ وهل تعلم ما هو مرضها يا جيف ؟

ـــ اعتقد باني اعرف ذلك ، انه يسمى تيفليتيس . وهو عبارة عن التهاب في جزء من الامعاء ، في قطعة صغيرة لا تتجاوز

طول الاصبع . وان هذا الالتهاب يحدث بسبب لم يعرف بعد ، فاذا لم تتخذ الاجراءات لمعالجته يتقيح . وهو يعالج بالثلج في احدى مراحله . اما في هذه المرحلة فان هذا العلاج لا يفيد .

وسأل ماك هيو :

ـــ اتعني بذلك انها ستموت ؟

وهز جيف رأسه ...

ـــ أليس بامكانك ان تعمل شيئاً ؟ ياالهي . يايسوع المسيح !! اليس بامكانك ان تفعل شيئاً ؟

وقال جيف :

ـــ اني اذكر عندما كنت اعمل مع الدكتور ايمري ، كيف ان احد الاطباء الجراحيين قام بقطع الجزء الملتهب ، وقد شفي المريض بعد اجراء العملية . ولم ار عملية اخرى كهذه بعدئذ . وفي ادنبره يعتقدون بانها خطيرة مميتة .

وسأله ماركوس :

ـــ وهل يمكنك ان تجريها انت ؟

ـــ لا اعلم ...

آه ... ياالهي !! بامكانك ان تجرب ... اذا كانت لا بد ميتة .

واجاب جيف :

ــ الا اني لا اعرف كيف تجري العملية ، ولا يمكنك ان تقوم بجراحة لا تعلم كيف تتم .

ــ ولماذا ؟

وحدق جيف بنظره الى ماركوس . وكان ماك هيو يرقبهما معاً وشفته العليا لا تفتأ ترتجف وقال :

ــ انظر اليّ ياجيف ، انني اعرف جديون جيداً ... اعرفه منذ امد بعيد ... وقد كانوا يقولون لي فيما مضى : « ابتعد عن هذا الزنجي ياماك هيو ، لعنة الله عليك » . وانك تعلم كيف كانت الامور تسير . فارسلوا لي ورقة ملطخة بالدم يقولون فيها : « ابتعد عن هذا الزنجي » . وفي ذلك الوقت جاء جديون اليّ ، وحدثني عن شراء الارض . وذهبت معه . وكنت بجانبه دائماً كنت أقف على صندوق الانتخاب بصفتي شاهداً في اليوم الذي كانوا يقطعون فيه الرجل الابيض اربا اربا اذا ما اعطى صوته لزنجي . وبامكانك ان تسأل جديون عن ذلك . اسأله ، هل تخليت عنه ، اسأله ماذا قلت لابن الخنزير جاسون هوكار ...

وهز جيف رأسه وقال :

ــ حسناً ... اننا اذا تركناها كما هي ، فانها لن تعيش

اكثر من ايام قلائل ، وستبقى تحت وطأة الالم ... هذا الالم المخيف الفظيع ... عُد يا ماركوس الى البيت وائتني بحقيبتي ، واحضر معك بعض الاغطية النظيفة والمناشف . واخبر امي ان تأتي معك . وسأل ماك هيو : « هل لديك هنا بعض الويسكي » . واومأ الرجل برأسه أن : نعم .

ـــ حسناً ، ادخل واجعلها تضطجع براحة ، وأسقها بعض الويسكي ، قليلاً ، قليلاً . وجرب الا تجعلها تسكر ، ويكفي لذلك نصف كأس . انتظر دقيقة ، اشعل النار في الموقد وضع عليها قدراً مملوءاً بالماء ودعه يغلي . من المرأة التي تثق بها زوجتك من بين النساء ؟ ونظر اليه ماك هيو شاحب الوجه مرتعباً وقال :

ـــ هيلين ليت .

ـــ احضر هذه المرأة معك يا ماركوس . هل يمكنها الوقوف ؟ وهل تعلم يا ماك هيو ماذا انا فاعل ؟

ـــ انني سأفتح بطن امرأتك وأقطع الجزء المصاب من الامعاء . ان ذلك سيؤلمها دون شك ، وسيكون من الصعب عليك ان تراقبها إبان العملية . ولا بد لي من ان اجريها حالا .

وهز ماك هيو رأسه ...

ـــ انني اريد اولاً ان تسمح لي باجراء العملية . اريد ان تقول بانك تود ذلك .

وهمس ماك هيو قائلاً :

ـــ انني اريد .

ـــ يجب ان تدرك بانني لم اجر جراحة كهذه من قبل . حتى انني لا اعرف كيف يتم ذلك . واذا ما وقعت في خطأ فقد تموت زوجتك . وقد اجري الجراحة بشكل صحيح الا ان الألتهاب قد لا يزول وقد تموت ايضاً . لابد للمرء ان يتوقع المخاطر عند اجراء اي جراحة . وهنا لا تتوفر الا الوسائل البدائية وبالتالي قد تكون المجازفة اكبر .

وقال ماك هيو : « انني اوافق على كل ما تفعله .

* * *

وكان جديون واقفاً في الرواق منتظراً امام البيت . وعندما عاد جيف ، والشمس تشرف على الاشراق ، قال وهو بادي التعب :

ـــ ألم تنم ؟

ـــ لا ... فقد كنت افكر في امور كثيرة . اما زالت على قيد الحياة ؟

وهز جيف رأسه وقال :

ـــ انها تنام الآن بهدوء . وهي بحالة حسنة على ما اعتقد ... لا بل انها كذلك .

ـــ جرب ان تصيب قليلاً من النوم .

وابتسم جيف ، واشار برأسه اشارة النفي ، وجلس مستنداً الى الرواق قرب جديون . ان مصائب الكون تبدو اقل مما كانت عليه . وها ان طرف قرص الشمس يظهر من وراء التلال وصاح ديك في مكان ما ... وقال جيف بصوت هادىء عذب : « ياالهي .. عندما افكر بان رجلين فقط في جميع انحاء العالم قد اجريا هذه العملية . وعندما افكر كيف ان الامر يبدو سهلاً حينما تكون لك معرفة به ، عندما افكر بانني قد اجريتها في هذا المكان حيث لا تتوفر لديّ الادوات والوسائل الكافية ... وقد اجريتها دون اي شيء ... هل تفهم ما اقول ... دون اي شيء . » .

فقال جديون : « لقد كنت افكر بهذا . » .

ـــ هل تعلم كم من القوم يموتون في كل سنة بالتهاب

الكولون ؟ ربما يتجاوز عددهم الآلاف وقد يدعو اطباء الارياف هذا المرض بسوء الهضم الشديد ، او بالتسمم ، او بالاضطرابات المعوية .. وما هو في الواقع الا التهاب في الكولون ، وهزّ جديون رأسه واضعا يده على كتف جيف :

ـــ انك لم تكن راضياً عن قدومي الى هنا .

ـــ نعم لم أكن ... لأرغب في حضورك . ولديَّ من الاسباب ما يحملني على ذلك يا جيف .

ـــ انا لا احب اسباباً مبررة لذلك هل تعلم انني كنت احسدك يوم كنت صبياً ؟ لقد كانت تتملكك رغبات كثيرة .

كنت اذ ذاك تبني عالماً جديداً . ولكني لا احسدك الآن . واعتقد باني اعرفك جيداً . وسوف اتابع البناء في هذا المكان ... سوف اتابع البناء ...

ـــ جرب ان تنام قليلاً يا جيف . وابتسم جيف وقال :

لا يمكنني ان انام الآن ... ياالهي كيف اتمكن من النوم ..

* * *

وبعد انقضاء اسبوع ، تزوج جيف من آلن . وازدحم سكان كارويل في المدرسة . وقال الاخ بيتر وقد ارتدى رداءه الاسود الجديد : « هل تقبل ياجيف جاكسون هذه المرأة ... ؟ وكان جديون يرقبهما وقد راودته افكار غريبه ... فهذا الزمن يسير بخطوات ثابتة بطيئة ... وأحس بأنه أضحى شيخاً منهكاً وقد نفذت قواه .. ووقف مطوقاً راشيل بذراعيه ، مستمعاً الى صوت الاخ بيتر هذا الصوت الذي رافقه طول حياته ، الصوت الرنان المملوء بالثقة ..

وانتقى جيف لنفسه قطعة من الارض الى جانب المدرسة كانت ملكا مشاعاً لسكان كارويل وبنى فيها بيته . وكانت تقع الى جانب المدرسة والمقبرة ، وقد قال جيف بانه يفضل ان يكون الى جانب هذين المكانين . واتخذ جديون التدابير لتشييد البناء . وان الايدي التي تبني الآن ، هي الايدي القديمة نفسها ، وان اخشاب شجر الصنوبر ذي الرائحة الذكية ، والاخشاب الكبيرة التي صنعت منها ارض المنزل ، واخشاب البلوط التي صنع منها الاثاث ، ان كل هذه الاخشاب هي ملكهم الآن ، وقد قطعت في المعمل . ونقلت الى مكان البناء ، وقال هنيبال واشنطن ، وكان بنّاءً ماهراً ببناء المواقد والمداخن . وامضى جيف ساعات

طوالاً يصنع فيها تصاميم البناء المؤلف من غرفة عيادة تملؤها اشعة الشمس . وغرفة تتسع لسريرين واخرى كبيرة قد تكون يوماً ما غرفة العمليات واخيراً قال لجديون : « انه سيكون اكبر منزل في كارويل . فأجاب جديون :

ـــ يجب ان يكون كذلك .

ـــ ولكن من اين لنا المال الكافي ؟

ـــ واعتقد بان لديَّ من المال مايكفي لانهاء البناء ؟ .

قال جديون ذلك مبتسما .

ـــ لا يمكنني ان آخذ المال منك الآن ، فقد كنت افعل ذلك في السنوات الكثيرة الماضية .

ـــ يجب ان لا تهتم بذلك ياجيف ، فانت بحاجة الى ادوات واثاث واسرة واشياء اخرى ايضاً .

ولكنها تكلف كثيراً .

ـــ سأتدبر الامر . واعتقد انك قد تتمكن من الحصول عليها في كولومبيا . غير اني افكر انه قد يكون من الاسهل الحصول عليها في تشارلستون . وسنذهب الى هناك معاً .

لقد كانت لديه اسباب اخرى تدفعه للذهاب الى

تشارلستون . الا انه ظن ان من المستحسن ان يذهبا معاً . وكان جيف يعيش مع آلن في بيت جديون ، وكانت راشيل ترتبط بآلن بروابط وثيقة وتبادلها ثقة عميقة لا حدَّ لها ، وتلك هي الناحية التي لم يكن جديون يشترك بها . وقال جيف لأبيه مرة : « انك لم تكن راضياً تماماً عند زواجي بآلن . » فاجاب : « ان الرجل يتزوج المرأة التي يُحب . » قال هذا وكأنه كان يسره الى نفسه ، مجرباً ان يحملها على الاعتقاد بصحة مايقول . وادرك بعدئذ بأن العالم الذي كان يعيش فيه ، وخاصة أبَّان شهر آذار من عام ١٨٧٧ . كان عالماً مخبولا مملوءاً بالجنون . ولقد كان يصعب على جديون كثيراً ان يرى الزمن يتوقف عن المسير والتقدم ، وان يرى الشمس تقف ثابتة في كبد السماء ، وانه لمن الغريب ان يشعر جديون بسعادة تغمره في تلك الاسابيع القليلة ، سعادة تتخللها عقبات صغيرة ، ولكن لا شك في انها كانت سعادة حقيقية . ولأول مرة في حقبة من الزمن ، ابتعد جديون عن كتبه ... انه لا يريد أن يقرأ ، ولا يريد ان يدرس ... ولا يريد ان يفكر . وقدم لجيف مكتبه ليكون له عيادة يستقبل فيها مرضاه الذين كانوا يتكاثرون ، اما هو فقد كان يقضي بياض نهاره بالعمل مع ماركوس . وكان كل منهما يفهم الآخر فهما جيداً بالرغم من

تباعدهما . وخلافهما في المسائل الاساسية . لقد كان ينقص ماركوس الاحساس بالالم الذي يدفع المرء الى العمل . ذلك الاحساس الذي كان جزءاً من جديون ومن جيف اللذين كانا يفكران في العالم ، بمعجزاته واحاجيه أما ماركوس فقد كان عالمه ضيقاً يفهم بسهولة ، عالم كامل الى حد ما . فما هو الا رجل يرتكب الخطايا ، وقد صرح الاخ بيتر بذلك بأسف ولكن بتفهم ، ان ماركوس يحب المرأة كما هي بجسمها ، بصدرها ، بفخذيها ، دون خجل ، ولكن دون شهوة عارمة . وان الصحة الحيوانية ، والحرية ، كانتا تملآنه ، وكأنه كأس مُلئت بسائل حتى طفحت . وكان صغير الجسم ممشوق القوام ، غير انه يبز جديون في العمل . وهو يعاقر الخمرة مع الرجال البيض ، فيشرب كما يشربون . مبارياً بذلك ابن ليزلي كارسون في الشراب ، فاذا ما اخذ هذا الاخير كأساً ، تصدى له فأخذ كأساً . وكان يحب الرقص ، ويعزف على أكورديونه فيجعل من الانغام القديمة اخرى جديدة ، وان انغام المستنقع البالية ، وانغام العبودية ، كانت تخرج من بين اصابعه وقد اضحت جديدة تماماً . كان يهبها الحاناً حديثة ، وحياة جديدة . كان يعبد جديون ، انه يعرف الكثير عن القطن ، الا ان جديون يعرف اكثر منه وكذلك له

معرفة وثيقة بتربة الارض ، وفي هذا المجال ايضاً كان يطأطىء الرأس لجديون . كانا يعملان في الاسطبل يطرقان عجلة العربة ، وقد تعريا الى وسطيهما ، وكان جديون يهوي بمطرقته كحداد بارع ، فالخمسة والاربعون عاماً التي خلفها وراءه لم تستنفذ القوة من ذراعيه ، وكلما هوت المطرقة ، ثم عادت فهوت ثانية ، كانت تملأ العالم بما ينبعث من صوتها . والصبي يغني وجديون يهوي بمطرقته وقطرات العرق تسيل منحدرة على وجهه ، ثم قاما معاً بتكويم التبن اليابس جانباً وكلّ يضرب بمذراته بايقاع واحد هادىء وهما يغنيان معاً : « لقد قسم ظهري ... انني عجوز منهك » .

وكان ينظفان المستنقع من الاعشاب ويهيئانه للزراعة . وكل يعمل بفأسه موجهاً الى الارض ضربات قوية ، ثم يعودان الى البيت ضاحكين بسعادة ، وقد تلطخا بالاقذار ، الا ان ذلك كان يَغمرهما بالحبور . وقد قال جيف لجديون : « لا اعتقد انه من الحكمة بمكان ان تزاول العمل وانت في هذا العمر » ..

وابتسم جديون وقال : « وانا في هذا العمر ؟ » . وأردف جيف : « ان حالك يختلف عن حال امرىء لم ينقطع عن

العمل ، وانك كنت تعيش اكثر ايام السنة وانت جالس في مقعدك ... » .

* * *

وذهب جديون وماركوس معاً الى الصيد . وكان جديون يحمل بارودة حربية آملاً ان يصادف غزالا ، اما ماركوس فقد كان يحمل بارودة صيد قانعاً بصيد الارانب . وصفّرا لكلبيهما فتبعاهُما . وكانا قد ملآ جيوبهما بالخبز ... وسارا معاً في صباح بارد اشتد فيه الزمهرير . واجتازا الحقول الواسعة وانشدا اغنيتهما برقة وسعادة ... « ذهب والدي الى الصيد ... يا الهي .. يا الهي ... ذهب والدي الى الصيد ... ياالهي .. ياالهي .. ياالهي .. » وكان الكلبان يقفزان هنا وهناك فوق المرج مبتعدين عنهما ثم يعودان . ولم يتحادث الاب مع ابنه كثيراً ، غير ان الامر كان يبدو طبيعياً ، وكلاهما لا يجد الا القليل من الاشياء التي تستحق ان يخبر بها الآخر .

وعندما عادا كان الظلام قد خيم ، ولم تقع عين جديون على اثر الغزال ، غير ان ماركوس كان يحمل في كيسه عدداً من الارانب السمينة . وذهب هذا الاخير الى الاسطبل كي يسلخها وينظفها ويعطي الكلبين حصتيهما من الصيد . اما جديون فقد

دخل الى المنزل . وكان جيف واقفاً ينتظره ، ووجهه اشبه بقطعة صلبة من الحجر الصلد ، وبعينين حادتين قاسيتين . لم يسبق لجديون ان رآهما على هذا الشكل من قبل . قاد جيف أباه الى المكتب حيث كان يجلس هناك ابنر ليت ويداه الكبيرتان تمسكان ركبتيه بشدة . وسأل جديون مستفهماً :

ــ ما الخطب ؟ ماذا جرى ؟

ونظر اليه ابنر ليت باستغراب ، وقال جديون :

ــ استحلفكم بالله ... ماذا جرى ؟ ... واشار جيف الى السرير وكانت راشيل تجلس الى جانبه وقد تصلب وجهها ففقد القدرة على التعبير ، وعليه كان يستلقي رجل وهو يئن وتحرك قليلاً ، فبدا جسمه المربط بالضمادات .

وهمس جديون قائلاً : « ماك هيو ؟ » فقال جيف : « نعم ... انه هو . » .

وتقدم جديون نحو السرير وقال : « فريد ... مابك يافريد .. » امّا ماك هيو فقد بقي كما كان ، يتقلب قليلا ويئن قليلاً ... واخذ جديون يده وقال : « هذا انا جديون ».،

وحضر ماركوس بعد قليل ، فسأل جديون : « هل جلدوه ؟ » .

نعم . تستطيع تسمية عملهم هذا جلداً .

ـــ وزوجته ؟

واجاب ابنرليت بهدوء :

ـــ انها قد ماتت ، لقد قتلها اولاد الخنازير . اولئك الاوغاد القذرون . اخرجوها من فراشها وذبحوها . وهمس جديون قائلا :

ـــ « ومن هم ؟ »

وقصّ عليه جيف كل ما أمكنهم الحصول عليه من هذا الرجل المعذب الفاقد العقل ماك هيو . لقد جاء الى بيته ليلة البارحة ستة رجال يرتدون البسة بيضاء تحمل اشارة عصابة الكلان ، وجروه الى الخارج ، وسحبوا زوجته من فراشها بالرغم من توسلاته وقوله لهم بانها مريضة ، وبأن عملهم هذا سيقضي عليها . وسحبوهما الى الاسطبل ، وقيدوا ايديهما الى العمود وجلدوهما . فقال جيف :

ـــ لا اعتقد ان زوجته قد تألمت كثيراً ، فقد اعمي عليها فوراً وانفتح جرحها وماتت . وبقي فريد مربوطاً الى جانبها يرقبها حتى الساعة الثالثة عندما وجدناهما ..

وسأل جديون :

ـــ وهل سيعيش هو ؟

فابتسم جيف بحزن واستغراب واجاب :

ـــ انه لسؤال مدرسي . انه فاقد الوعي . ويداه معطلتان ، وسوف لن يتمكن من العمل ثانية .

وقال ابنرليت :

ـــ انك تعرف تماماً ياجديون ماذا اريد ان افعل انا . والآن اريد معرفة ما تريد ان تفعله انت .

فقال جيف :

ـــ لقد حان الوقت لتخبر القوم . أليس كذلك ؟

ـــ لم اكن فيما مضى اجد نفعاً في نقل خبر كهذا اليهم .

ـــ ولكن اعتقد ان الوقت قد حان .

وهزَّ جديون رأسه وقال :

ـــ حسناً سيكون ذلك غداً ... غداً سنعقد اجتماعاً .

* * *

وكان جيف واقفاً في الرواق ينتظر ماركوس . وامسكه من ذراعه ، فاوقفه وقال له :

ـــ ماركوس ؟

ـــ نعم ... ؟

ـــ لماذا انت غاضب مني وما هو سبب ذلك ؟

ـــ غاضب منك ؟ انا لست غاضباً .

ـــ اتستمر في حياتنا بهذا الاسلوب ؟؟ .

ـــ اننا نعيش عيشة حسنة .

ـــ وما الخطأ الذي اقترفتة ؟

ـــ انك لم تقترف خطأً .

ـــ ايعود ذلك لابتعادي عنكم ، وانك تركت انت هنا ؟ اهذا هو السبب ؟

لا ...

ـــ ما السبب اذن ؟

وقال ماركوس :

ـــ ليس هنالك اي سبب ... كم من المرّات يجب ان اعيد قولي هذا ؟

ـــ حسناً . لاتغضب .

ـــ انا لست غاضباً .

ـــ اتذكر يوم كنا طفلين ، فقد كان الامر يختلف .

كل شيء مختلف بالنسبة للأطفال .

ـــ اتعتقد باني اقف ضد ... جديون ؟

ولزم ماركوس السكوت .

ـــ انك تعتقد ذلك . اليس كذلك ؟

وبقي ماركوس صامتاً .

ـــ هل تعرف ماذا سيحدث ؟ هل اخبرك جديون بما ينتظرنا ؟ وبما يعتقد انه لابد سيحدث .

ـــ أنا لم أسأله . وهو بدوره لم يخبرني .

ـــ انه يعتقد بان هذه هي نهاية كل شيء ... هل كنت تعرف هذا ؟

وهز ماركوس رأسه مشيراً بالايجاب .

ـــ وما ستفعل ؟

فاجاب ماركوس :

ـــ انه يعرف ما الذي يجب علينا ان نفعله .

* * *

وملأ الرجال غرفة المدرسة وكانوا رجالاً بيضاً وسوداً على السواء . يرتدي بعضهم البسة العمل الزرقاء ، والاحذية الجلدية الثقيلة ويرتدي بعضهم الآخر قمصاناً بنية او حمراء . وكان تأثير اشعة الشمس يترك خطاً بيّناً على رقاب الرجال البيض وسواعدهم . وكذلك بدا هذا التأثير واضحاً في اللون المحروق الغامق الذي كان يلازم وجوههم .. حتى ان الرجال الزنوج ايضاً ، كانوا يختلفون فيما بينهم باللون بين أسود بلون الخوخ الى اسود بلون العاج . واذا ما احصي (ونيثروب) ، معلم المدرسة مع القوم المجتمعين ، فان العدد كان يزيد على الخمسين . وكلهم في سن الثامنة عشرة وما فوق . ومن بينهم طبيب ، وواعظ ، ومعلم ، ونائب في الكونغرس ، واما الباقون فقد كانوا فلاحين ، زراعتهم الرئيسية القطن ، يزرعون الى جانبها التبغ والارز والحبوب ، ويربون الماشية والخيول . لقد ألفوا جماعة تعيش في بيئتها الخاصة ، تدعى جماعة كارويل . لم يكن لما خلقوه وجود قبل فترة قصيرة من الزمن ، ولم يسبق ان وجد له مثيل في اي مكان آخر خارج الجنوب . ان جميع المصائب ، من حرب ودمار وموت وسلب قد جمعتهم معاً ، فشيدوا مجتمعهم من اللاشيء بكل ما في الكلمة من معنى ، حتى باتوا يستطيعون ان

ينظروا حولهم ، وان يقولوا ان هذا او ذاك وتلك من نتاج عملنا ، وتعب ايدينا . انهم هم الذين خلقوا كل ماعندهم : مدارسهم ، بيوتهم ، معاملهم ، افكارهم ، ولم يكن هنالك اي شيء قبل ذلك . وانهم اجتازوا القرون الطويلة التي تفصل الاقطاعية عن الديموقراطية . اجتازوها بخطوة واحدة ...

وعندما وقف جديون جاكسون امامهم . كان ينظر اليهم . ويتفحصهم جميعاً . متذكراً هذه الوجوه المختلفة ، الحياة التي عاشها كل واحد منهم . ان جيف يود ان يبني على حد قوله . وكان جديون يشعر باحساس من اليأس المرعب يصور له كيف يقوم الرجال بالبناء . وقال للشعب :

ـــ انكم تعرفونني جميعاً . وقد تحدثت اليكم فيما مضى ...

نعم انهم يعرفونه ، وقد صوتوا له ، وانهم ساقوا عرباتهم مسافة تزيد عن العشرين ميلاً في كل اتجاه ، معلنين للناس ، ان اعطاء اصواتهم الى جاكسون هو أمرٌ له اهميته .

ـــ انكم تعلمون ماذا جرى لفريد ماك هيو ، وقد دَفَنّا زوجته هذا الصباح . وفي مقبرتنا الصغيرة بالقرب من هذا المكان ، يوجد اربعة من الناس ، ذهبوا ضحية العنف ، قُتلوا هنا

في كارويل في الثماني سنوات الماضية . انه لامر فظيع مخيف ... القضاء على حياة انسان مهما كان السبب ، ولكن بعض الناس يصبحون وحوشاً مفترسة ، فيفتكون ليخلقوا جواً من الرعب في نفوس الاحرار من الرجال . انكم تعلمون لماذا جلد فريد ماك هيو ، ولماذا عُذبت زوجته حتى لاقت حتفها ... حدث ذلك لسبب واحد ، وغاية واحدة وهي ان يدرك الرجال البيض هنا في كارويل ، بانه لا يجوز لهم ان يعيشوا ويعملوا مع الزنوج بعد الآن ...

وما اهمية هذا الامر ؟ وما الضرورة التي تقضي بان يتعلم الرجل الابيض كراهية الزنجي واحتقاره واذلاله ، وان يتعلم الزنجي بدوره الخوف من الابيض واجتنابه ، وعدم الثقة به ؟ . ايعود ذلك لان الابيض والاسود لا يتمكنان من العمل والعيش معاً ؟ ولكن كارويل وألف مكان آخر مثل كارويل في هذا الجنوب ، اثبتت خلاف ذلك . ايعود ذلك لان الدم سيختلط ، فيضطجع الاسود مع البيضاء كما تصرح عصابة الكلان في كل مكان في الجنوب ؟ اننا عشنا هنا حقبة من الزمن تقرب من عشر سنوات ، ولم يحدث خلالها شيء من هذا . فما السبب اذن ؟ وما الجريمة الكبرى التي ارتكبناها نحن هنا في كارويل وارتكبها

جميع السود والبيض في كل مكان في الجنوب ؟ أعندما صافح كل منا يمين اخيه وتعاون معه ؟ ان الامر هام جداً ، ويجب ان نعرفه جميعاً . ان ذلك لا يخص السود فقط ، بل البيض ايضاً .

ـــ انا لا اريد ان اخيفكم يا اصدقائي . والله يعلم . اني واجهت اموراً كانت كافية لان تدخل الرعب في نفسي يوم كنت في واشنطن . ولكن عندما عدت الى كارويل ، كان كل شيء يبدو مختلفاً . فعادت ثقتي بنفسي اليّ . فهذا هو موطني ، وأولاء هم اصدقائي . انهم يعرفونني يوم كنت رقيقاً ، يوم هربت من سيدي ! دودلي كارويل ، ويوم عدت كما عاد الكثير منكم الى منطقة عظيمة فقدت صاحبها ومراقبيها ، وسياطها ، واعمال الارهاق . ونظرت حولي ، فأحسست بقوم عقلاء يحيطون بي ، وشعرت بأنه هنا ، في هذا المكان تتوفر شروط الحياة الطيبة . فقلت لنفسي ، ان اعمال الشر التي كنت اتصور حدوثها ، واخشى وقوعها لا يمكن ان تحدث هنا ، هنا حيث تعاونا معاً على البناء . وعشت فترة قصيرة في فردوسي الجنوبي ...

ولكن ذلك اضحى جزءاً من الماضي ايها الاصدقاء . واريد ان اخبركم الحقيقة الان . واريدكم ان تدركوا لماذا يتمدد فريد ماك هيو الان في بيتي وقد خُلعت ذراعاه من مقرهما بحيث لن

يكون له منهما فائدة بعد الان ، ولماذا ترقد زوجته ميتة ، ولماذا فقد زوجها عقله ... وسأخبركم لماذا ارغمنا انا وابني على الركوب في مركبة خاصة كتب عليها « الملونون » عندما عدنا من واشنطن وأود ان اخبركم ، لماذا ترتفع صيحات الالم فتملأ الفضاء في هذا الجنوب من تكساس الى فرجينيا . واهم من اي شيء آخر ، سأخبركم لماذا سيقف الابيض ضد الاسود ككلب يناوىء الشاة وانهم اذا ما نجحوا فيما يبتغون ، فستكون هذه الفترة التي وجدت فيها كارويل حلماً من احلام الماضي ...

ولماذا لا ينتمي احد من سكان كارويل الى عصابة الكلان ؟ ولماذا يقوم الفلاحون الكادحون الشرفاء في جميع مناطق الجنوب بحراثة اراضيهم ولا ينتمون الى الكلان ؟ ومن هم الذين ينتمون الى هذه العصابة ؟ ان صحفنا هنا تقول ، بأن اعمال الكلان انما هي احتجاج شريف يقوم به هذا الجنوب المتألم المعتدى عليه . ولكن من اين يأتي هذا الاحتجاج ؟ ومن نظّم هذه العصابة ؟ اذا كانت غايتها انقاذ الجنوب من الزنوج المتوحشين ، فلماذا تضرب رجلين من البيض ، مقابل كل زنجي تعتدي عليه ؟ ولماذا جاءت الى كارويل فقتلت زوجة فريد ماك هيو المريضة ؟

لقد امضيت وقتاً طويلاً الى ان ادركت ما عصابة الكلان ، وما الغاية من نشاطها ، وتنظيمها . والان أعرفها تماماً كما تعرفونها انتم. فهنالك غاية واحدة تنشدها هذه الجماعة، وهي القضاء على الديموقراطية في الجنوب ، وقتل المزارعين المستقلين . وهكذا ، تفرق ما بين الاسود والابيض . وسيكون الزنجي اجيراً لا يختلف كثيراً عن الرقيق قبل الحرب . واذ اصبح عبداً في واقع الأمر والممارسة ، ان لم يكن عبداً حقيقياً ، فالرجل الابيض لابد ان ينحدر معه ... وستصبح فئة قليلة ، عظيمة الجاه ، قوية الجانب ، كما كانت عليه قبل الحرب ولكنها تبقى قليلة ... اما نحن الآخرون ، فيصيبنا الجوع والفقر ، والبغضاء ... وهذه البغضاء ستبقى داء الامة العضال ...

هذه هي الخطيئة التي اقترفها فريد ماك هيو في كارويل . وقد عذب بهذا الشكل المخزي كي يقوم كل من ابنرليت ، وجان سوتر ، وفرانك كارسون ، وليزلي كارسون ، وويل بون ، وكل رجل ابيض في هذا المكان ، بدوره الصحيح في يوم الواقعة ... وهذا الامر يعود اليكم ... هنالك ثمة طريق للخلاص ، وان لم تكن في حقيقتها طريقاً للخلاص . انضموا لعصابة الكلان وتعاونوا معهم ، دون مقاومة ودمروا نفوسكم بذلك ... انكم

تعرفون اولئك الناس القذرين المرضى ، الجبناء ، تجار الرقيق ، المراقبين ، وحاملي السياط المتسكعين ، المقامرين ، المخادعين العملاء... الذين يصبحون بواسل حينما يكون المسدس في يدهم ، ولكنهم يفقدون بسالتهم وشجاعتهم فلا يظهرون في خطوط القتال ، ولا يملكون الشجاعة الكافية لان يموتوا كما مات آلاف الجنوبيين الذين احبوا بلادهم وارضهم . لا ضرورة لوصفهم يوم جاؤوا كي يجروا سالي ماك هيو من فراشها ، ويعلقوها من يديها ويجلدوها حتى الموت ، انهم بهذا العمل انما يصفون انفسهم . انهم حثالة هذه البلاد وقذارتها. هنالك مئة رجل شريف طيب من ابناء هذا الجنوب مقابل كل واحد منهم . الا ان هذه الحثالة منظمة . اما الطيبون فليسوا كذلك . ولديهم المال ، والمأجورون يؤيدون قضيتهم في واشنطن . وهنا المزارعون الكبار يؤيدونهم كذلك ويقودونهم ، اما نحن فلا نملك شيئاً من هذا ... وانا اقول الحمد لله ... ولكن ماذا يجب علينا عمله ؟ اني اعلم ماذا اراد صاحبي ابنرليت ان يفعل . انه يريد أن يتناول بندقية ، ويقتل جاسون هوكار . الا انها ليست طريقاً سوية ان نفقد صوابنا ، فنقتل كما يقتلون ... كلا ليست هذه هي الطريق السوية ..

وصرخ ابنرليت قائلاً : ولكن ما العمل ؟ وما السبيل الذي يجب علينا ان نسلكه يا جديون ؟ لماذا لا تخبرنا عما حدث في واشنطن ؟

ـــ ساخبركم بذلك . لقد بُعنا في واشنطن . لقد باعنا الحزب الديموقراطي . الحزب الذي انتمي اليه انا .. حزب ابراهام لنكولن ... وكان الثمن كرسي الرئاسة .. وقد دفع اصحاب المزارع هذا الثمن ، وعندما يستلم هيز ، سيدفع لهم مقابل ذلك .. سيقوم بسحب قوات الشمال من كولومبيا ومن تشارلستون ، ومن كل مكان في الجنوب ، وستصبح الكلان هي القانون ...

ـــ اذن انت تعترف بذلك ؟ ...

ـــ نعم انني اعترف بذلك . وقد اخبرتكم بأني سأقول لكم الحقيقة . ولكن ماذا سنفعل ؟ انفقد وعينا ، ونضيع رؤوسنا ؟ انقتل ؟ أيقطع بعضنا بعضاً ارباً ارباً ، فنقوم نحن بما يزعمون عمله ونقدمه لهم قبل ان يكونوا على استعداد للقيام به ؟ اهذا ما تريدون ؟ وتوقف جديون ونظر اليهم ...

اهذا ماتريدون ... اذا كان هذا ما تريدونه فلا فائدة ترجى مني ... وسأنصرف .

واعقب ذلك لحظة طويلة من السكوت وقال فرانك كارسون بعدها :

تابع حديثك ياجديون ، واخبرنا بما يجول في خاطرك .

ـــ حسناً : تذكروا باننا مازلنا اقوياء . فنحن هنا في هذه الغرفة نعد خمسون رجلاً ، نملك اسلحتنا ، وذخيرتنا ، وقد تدربنا معاً ، وعملنا معاً . واعتقد انه بامكاننا ان ندافع عن انفسنا اذا ما حافظنا على رباطة جأشنا دون ان تطيش رؤوسنا . وعلينا من ناحية اخرى ان ننظم عملنا بالاتفاق مع آخرين غيرنا . ففي هذا الجنوب آلاف من الرجال امثالنا . وقد تهيأت للذهاب الى تشارلستون لاقابل فرانسيس كاردوزو وغيره من زعماء الزنوج ، واندرسون كلاي وآرنولد مورفي من زعماء البيض . وقد نتمكن معاً من ان نجد سبيلاً للقضاء على محاولات خصومنا . واني لا اعدكم بشيء فأملي ضئيل جداً . لست اعلم .. وسأعمل جهدي . ولندع جاسون هوكار يعيش ، فان وجوده لا يغير شيئاً من الأمور . اذا سمحتم لي ...

وكان الرجال يجلسون هناك ، فاهتزت بعض الرؤوس بالايجاب ، وقال انبرليت بصوت خفيض :

ـــ حسناً . حسناً . جرب .

ولم تتمكن آلن من النوم . فقد كانت تسمع طيلة الليل انات ماك هيو من خلال الحائط . وكأنه حيوان يصعد انينه بهدوء . انه الرعب في جسده وصوته وذكرياته ... وتذكرت الاشياء التي لم تكن راغبة في تذكرها . تذكرت اختفاءها في الغابات ، وتذكرت الموت ، والصراخ والعويل .

وبقيت مضطجعة هنالك ترتجف وتصغي الى ان باتت في حالة لا تتمكن فيها من المقاومة فايقظت جيف . وقال هذا :

ـــ ماذا ، ماذا دهاك ياعزيزتي ؟

ـــ انني مرعوبة .

ـــ ليس هناك مايُرعب .

ـــ الا اني خائفة ، مرتعبة ... وكانت تتحسس جسمه بيديها ، فخذيه القويتين ، صدره الكبير المتسع ، عضلاته المسترخية المحيطة بجسمه من كل جانب ، عنقه ، وذقنه ، وعينيه ، وفمه ... ففي الليل ، في الظلام والعتمة ، يتساويان ، ولا يختلف احدهما عن الآخر .. وتعلقت به وهمست قائلة : جيف ... جيف ... جيف ...

ـــ انني هنا . الى جانبكِ ياآلن ، اتدركين ذلك ؟ وسأبقى هنا دائماً ...

غير ان مخاوفها لم تزاولها ، وبقيت مضطجعة هناك تصغي الى انين الرجل المتألم ، تلك الانات القصيرة الحادة التي كان يصعدها وهو نائم .. وفجأة تفتحت امامها اعماق الظلام ؛ بئر من الظلام ، يدخله الناس ويخرجون منه ، اناس كأنهم اخيلة معتمة ، اللنبي والآخرون ، يروحون ، ويجيئون . وتمسكت بجيف بكل قوتها ، الا ان ذلك لم يجدها نفعاً .

* * *

وقال كاردوزو لجديون :

ــ انا لا انكر عليك صحة استنتاجاتك الاساسية . الا انني انكر النمط المسرحي الذي تصورها به .

ــ انا لا اهتم بالمجردات . وكل ما يهمني هو النمط . وانا اعيش بهذا الشكل الواقعي .

وقال اندرسون كلاي :

ــ انني اوافق جديون على هذه الناحية .

وكان ثمانية من القوم . خمسة من الزنوج وثلاثة من البيض جلسوا معاً في مكتب كاردوزو . اربعة منهم من كارولينا

الجنوبية ، وواحد من جورجيا ، واثنان من لويزيانا ، وواحد من فلوريدا . وقد امضوا في مناقشاتهم نحواً من ثلاث ساعات دون ان يتوصلوا الى اي نتيجة . كان بعضهم متحمساً ، وبعضهم الآخر خائفاً . وكان نحو نصفهم يلتجؤون الى الكلام لينقذهم . فكانوا يتحدثون ضمن حلقات مفرغة ، فيذكرون ما قاموا به ، وما ربحوه . الى ان صرخ فيهم جديون قائلا :

ــ لقد انتهى ذلك الآن ، واقول لكم ان ذلك قد اصبح جزءاً من الماضي ، انتهى ولا فائدة ترجى منه للحاضر .

ــ ولكن خُذ قضية الارقام بعين الاعتبار ... فهنالك عشرات الزنوج والبيض الفقراء في المجلس ، وفي مجلس الشيوخ ، وفي حكومة الولاية ، وهنالك بعض الحكام ايضاً ...

وقال جديون :

ــ انني اقول لكم بان الامر قد انتهى .

وسأل كاردوزو بهدوء . وكان صوته الهادىء القضائي ، يخلق حجة من حيث لا وجود لها :

ــ وما حجتك في ذلك ؟ لا اعتقد انه يوجد من يحترمك اكثر مني . وانت تدرك ذلك . ولكن الا توافق معي على ان استنتاجاتك ليست صحيحة ، وانك تعطيها اهمية كبرى ؟

ــ حجتي في ان رجلاً يجلد هنا ، وآخر يُعذب ويُهدد هناك . وفي ان السناتور هولمز اسرّ لي ذلك . الا يجوز لي ان استخلص النتائج ؟ أأكون بهذا مشوشاً منذراً ؟

ــ نعم . الى درجة ما .

ــ ومع ذلك فقد كنت انت اميناً للصندوق يافرانسيس منذ سنة مضت ، والآن لست كذلك ، ثم من تكون القوى التي تفاعلت فكان هذا من نتيجتها ؟ . واذا ماقلت لكم انه سوف لن يسمح لي بأن اكون عضواً في الكونغرس مرة ثانية ، فهل تصدقون هذا ؟ أيجوز الاّ ارى أبعد من انفي ؟ اذا كان الامر كذلك ، فحريّ بي ان اعود عبداً رقيقاً وكذلك اربعة ملايين من الزنوج مثلي .

وقال كايرا ، وهو رجل زنجي عجوز ، صغير الجسم ، كان فيما مضى نائباً عن فلوريدا :

ــ لا ينكر احد نزاهتك ياجديون .

ــ انا لا يهمني امر نزاهتي الشخصية . ولتذهب هذه النزاهة الى الشيطان .

ــ ولكنك ياجديون ، تقول بأن الحزب الديمقراطي قد تخلى عن الاصلاحات في سبيل الفوز في الانتخابات . ولكننا

نحن الحزب . وقد نذرنا انفسنا لهذا الحزب . وقد حارب الحزب من اجلنا ومنحنا حريتنا . وانت لا دليل لديك ، غير انك تقول بان القوات ستنسحب من الجنوب خلال عشرة ايام ، الا انه ليس لديك البرهان على ماتذهب اليه في قولك . وتقول بان موجة من الرعب ستنتشر وسيهدم كل مابنيناه . فأين دليلك على ذلك ؟

وقال جديون متعباً :

ــ لقد هدم بناؤنا . انظروا حولكم . لا زنوج في هذا القطار ... لا زنوج على هذا المعقد ... للبيض فقط .. لا زنوج في هذه المدرسة ... لقد شيدنا المدارس ، ولكنه لا يقبل فيها ابناء الزنوج .. لا زنوج في القضاء ... وان محامي الدفاع يحتج على ذلك لقد كان القاضي في العام الماضي زنجياً او ابيض فقيراً ، الا انه اليوم اضحى مزارعاً كبيراً ، أو ممن يؤيدون المزارعين ، وهو يوافق على احتجاج الدفاع . ان الزنجي يُقدم للمحاكمة ، ولكن لايجوز له العمل في دوائر القضاء ...

وهز كاردوزو رأسه ، وقال :

ــ انا اوافق على ماتقول . ففي واقع الأمر ، اننا أُرغمنا

على ان نأخذ حلاً وسطاً في امور كثيرة ... وابتسم اندرسون كلاي وقال :

ـ اهكذا يكون الحل الوسط ؟ انتنازل عن الهواء الذي نستنشقه ؟ والطعام الذي نأكله ؟ ان هذه الامور هي دم ولحم وعظام الحياة التي نحياها . انك لا تتمكن من الوصول الى حل وسط مع ابن خنزير يتوق الى شرب دمك .

ـ انك تتكلم مثل رجل ابيض ... سل الزنجي ...

ـ لعنة الله ... انني سئمت سماع هذه الاقوال .. فكل ما لدينا قد توصلنا اليه لان الابيض والاسود وقفا معاً . وان جديون لعلى حق ... واذا بقيتم تفكرون على هذا المنوال فسننحدر جميعنا معاً ... وسيكون انحدارنا الى الجحيم ...

وسأل ايلز الذي كان يقوم بوظيفة سكرتير منذ ثلاث سنوات :

ـ ولكن لماذا اراد الحزب بيعنا ؟ وما السبب على وجه الدقة ؟ وما الغاية من ذلك ؟

لاننا قمنا بما يتفق مع مصلحتنا ، وقصمنا ظهور المزارعين فلقد اصبحنا في السنوات الثمان الماضية امة صناعية كبرى . اكبر امة صناعية في العالم . وان الشمال يملك الغرب والجنوب

الغربي ، حتى ان المعامل ، هنا ، عندنا في الجنوب قد بدأت بالانتاج ، فليعد المزارعون الى مزارعهم ، وعبيدهم ... وينقذ بذلك الشمال .

ــ وحزبنا . حزب الشعب ...

وزمجر كلاي قائلاً :

ــ لا وجود لحزب الشعب اليوم .

وأجاب كاردوزو منهمكاً :

ــ وبالرغم من ذلك . لا يمكننا ان نعمل ما تطلبه ياجديون . أنعيد تنظيم الميليشيا في صفوف الزنوج والبيض الفقراء بعد ان أُلغيت ... وكيف ؟ أنخالفُ القانون ؟ ...

ــ ان احدى مواد الدستور تعطي الحق للشعب بحمل السلاح وتنظم الحرس الوطني .

ــ بامكاننا ان نرفع الامر الى المحكمة العليا . إلا ان ذلك يتطلب اشهراً . وانت تقترح عقد مؤتمر لاتحاد جميع قوى الاصلاح في الجنوب . انه سينتج عن ذلك اعمال عنف بكل تأكيد ياجديون .

ــ انا ادرك تماماً ، باننا اذا ما رفعنا اصواتنا بالدفاع عن انفسنا فان ذلك سيزيد العنف .

ـــ نعم .

وقال جديون :

ـــ وماذا اذا حدثت اعمال العنف ، دون اي شيء كما حدث فعلاً ؟ .

وهز ايلز رأسه :

ـــ وما الفائدة يا جاكسون ؟ لقد بحثنا هذا الامر ، وأعدنا بحثه .

وسأل جديون وقد انهارت قواه : وكأنه رجل ادركته النهاية :

ـــ اتشعرون جميعكم بهذا الشعور ؟ أهذه هي النهاية ايها السادة ؟ حسناً ـــ ان الامر يختلف بين ان تصرخ كل صحيفة في البلاد باكاذيبها عن المباصق الذهبية التي نبصق فيها ، والملايين التي تنفق لالصاق المرايا على جدران ندوتنا التشريعية ، ولتوشيتها بماء الذهب . والآلاف التي حصلنا عليها بأساليب غير مشروعة ، من اراض ليس فيها من يدافع عنها . والسبيل التي اتبعناها في هتك اعراض نساء الجنوب ، واهانةِ رجولته ، وعن البيض البؤساء من اصدقاء الزنوج والشر واتباعه ، والشماليين

المجانين بجمع المال ، الذين يعملون من وراء الستار . كل هذا اقرأوه في صحيفتي .

ــ هذا امر يختلف ايها السادة عن جلوسنا هنا وقولكم لي يجب الا نرفع اصواتنا بالدفاع عن انفسنا . وانه يجب الا نوحد بين سكان هذا الجنوب الذي نُكِبَ مرتين . انني احب بلادي ايها السادة . وما كنت اود ان أتكلم هكذا ... ولكنني ارى نفسي مرغماً . انني احب هذه البلاد ، لانها بلادي ، لانها كانت طيبة معي، وقد منحتني عزة النفس واحترام الذات... منحتني الشجاعة والأمل ... أأشعر وحدي بهذا الشعور ايها السادة ؟

وجلسوا صامتين ، وكان بعضهم يحدق في الأرض ، وبعضهم يرقب جديون بحذر وشك ، وابتسم اندرسون كلاي قليلاً .

ــ اذن . انتم جميعاً ، توافقون السيد ابليز ؟

وبقي الصمت مخيماً . فقال جديون بهدوء :

ــ ولعل الغريب في الامر ، ان هذه الاشياء الصغيرة التي تتمسكون بها ، ستصبح نسياً منسياً ، والرجال السود الذين جلسوا في الندوة النيابية ومجلس الشيوخ ، لن يذكرهم احد ،

اولئك الزنوج الذين شيدوا المدارس ، واقاموا العدل والقضاء وكل شيء يا أصدقائي ، اننا لن نُعتبر رجالاً بعد الان . سوف يطحنوننا حتى نفقد انسانيتنا ، الى ان نكره الرجل الابيض ، كما يكرهوننا هم . وسيجعلون منا شعباً معذباً ، محتقراً لا مثيل له في شعب آخر في العالم . ومتى سيعود النور فنبصر ضياء الشمس ؟ متى ؟ ارجو ان تسألوا انفسكم عن ذلك .

* * *

وسأل جديون ، اندرسون كلاي ، ان يعود معه ويتعرف الى جيف . وسارا معاً في شوارع تشارلستون الهادئة البيضاء وقد انارتها اشعة الشمس . وكان يوماً جميلاً من ايام الربيع لم يذكر جديون انه نعم بيوم مثله منذ زمن بعيد . وكانت اشجار النخيل تبدو خضراء نظيفة جميلة متباعدة الاغصان في اعلاها ، والعصافير تصدح وتنفش ريشها ، وأديم السماء الازرق ، تتخلله خيوط من الغيوم . ان الاشياء التي يراها جديون ، والتي سبق له ان رآها في السنوات العديدة الماضية اضحت مألوفة لديه ، وقد

صبغت معرفته بها بمسحة من الكآبة غير انها حديثة جميلة وكثيرة التحدق ، ويشعر المرء فيها بالاطمئنان والهدوء دون كثير عناء .

وقال كلاي :

ـــ اعتقد باني اود ان اعيش هنا في يوم من الايام ...

ـــ انه مكان جميل للعيش به ..

وقال كلاي بعد برهة :

ـــ اتعلم ياجديون ، هناك ناحية كنت مخطئاً فيها وكانوا هم على صواب . انهم سيعيشون بالرغم من ذلك ولكنك انت ...

ـــ انهم سيعيشون ويتغيرون ببطء .. قال جديون ذلك مفكراً واردف :

ـــ ففي كل سنة تزداد وطأة الظلم قليلاً ، وتؤخذ بعض هذه الحقوق او تلك . وسوف لا يعلمون ... اهذا هو الافضل ؟

ـــ انا لا اقول انه الافضل .

ـــ ولكنك كنت تظن ان لا امل يُرجى منذ البداية .

ـــ انك تدرك ياجديون بأننا لم نكن نعلم . بدأنا من الشمال ، نجتمع في الظلام معا ، تجمعنا فكرة واحدة . فكرة

بناء المدارس ، والمحاكم ، والمستشفيات ، والطرق ، وبناء الاشخاص ايضاً . وبامكاننا جميعاً ، ان نقول ، ان شعبك وشعبي قد انتابهما جنون عندما رأوا الحرية تتمدد امامهما وكأنها ستعيش الى الابد . وكان البناء كل مافكرا به اما الآخرون ، فقد فكروا بالهدم ، وتهيئوا لذلك . وأنا أرى ، ان عشرة ايام لا تكفي لتنظيم انفسنا . حتى ان سنة لا تكفينا يا جديون .

ــ اذن ؟

وانتفض كلاي وقال :

ــ اما نحن فسنحارب . سنحارب لاننا قد حاربنا من قبل . ونحن مدربون على القتال . غير انهم قد ادخلوا هذا في حسابهم . فسنحارب لوحدنا ...

وكان جيف ينتظرهما على الرصيف الى جانب البحر . وقال جديون :

ــ هذا هو ولدي الدكتور جاكسون . جيف ، اقدم اليك السيد اندرسون كلاي احد اصدقائي القدامى ... واخذ جيف يد الرجل الابيض الطويل وتصافحا .

ــ سمعت انك اتيت الى تشارلستون ايها الطبيب ، لشراء بعض الادوية والمؤن .

ــ اننا نقوم ببناء مستشفى صغير في كارويل .

وقال كلاي :

ــ انني انوي زيارة كارويل في العام القادم .

وابتسم جديون وقال :

ــ لقد قلت لي هذا القول مراراً ، وفي كل عام ننتظر العام القادم .

ــ هذا صحيح . غير اني سأزوركم هذه المرة في العام القادم ياجديون .

وساروا معاً الى جانب الماء ، ومشوا ببطء . وتكلم كلاي وجيف عن اسكتلندا ، وعن الطب ونقص التسهيلات الكافية لمستشفيات الولاية . وقال كلاي :

ــ لابد ان تمهلنا بعض الوقت يابني .

وقال جيف :

ــ ان بعض بيوت اصحاب المزارع الكبيرة ، كالبيت الموجود في كارويل ، لا تزال فارغة دونما فائدة ... ويجب ان يكون المستشفى في الارياف كهذه البيوت كبيراً ونظيفاً .

ونظر جديون الى اندرسون كلاي ، وقال جيف :

ــ بامكان السياسي ان يقوم باعمال أسوأ من هذه .

وهز كلاي رأسه وقال :

ــ نعم بامكانه ذلك . لقد سمعت انك قد تزوجت حديثا ، فاقبل تهاني .

ــ « شكراً .. شكراً .. » قال جيف هذا واعقب بعد برهة .. من الغريب انني مازلت اجهل النتيجة التي آل اليها اجتماعكم .. ولا اعلم لماذا اهتم كثيراً بهذا الامر فانك تدرك اننا نسير قدماً الى الامام ، حتى ان الرجل الذي باع نفسه كي يعيش في البيت الابيض ، حتى هذا الرجل لن يستطيع تغيير طريقنا ...

وساروا ببطء ، والشمس تقترب من المغيب ، فتضفي على الخليج صفحة من الوان دائمة التغير . والنوارس تنقض على الماءثم تعود فترتفع بطيرانها ظافرة ، وعلى جانب الحاجز كانت. تتدلى لافتة صغيرة كتب عليها : « للبيض فقط » وفي البحر كانت تصعد باخرة دخانها وتقترب من المرفأ لترسو هناك .

ويتمدد على ظهر مركب قريب ربطت حباله الى الشاطىء ، عدد من الاولاد يضحكون . بينما كانت عربة تنحدر على الطريق

مقرقعة ، وطفلان يقفزان على الحبل في بروز من الرصيف محاط بقضبان من الحديد .

* * *

بدت الاشياء هادئة لاول مرة في كارويل ، وبشكل مفاجىء موحش . وعندما كان الاخ بيتر عائداً الى بيته في اليوم التالي لعودة جديون ، رآه جالساً الى جانب الرواق ، وقد اسند يديه الى ركبتيه . واحاط ذقنه براحتيه . وقال له ماركوس : « انه مازال هكذا منذ ساعات » .

* * *

واجاب جديون : « نعمت مساء ايها الاخ بيتر » .

وقال الاخ بيتر :

ـــ هل انت متعب ياجديون ؟

ـــ او ... وه ...

وجلس الاخ بيتر الى جانبه بعد ان ازاح ذيل رداء الكهنوت الاسود جانباً . واسند عصاه التي كان قد بدأ يتوكأ عليها منذ مدة ليست ببعيدة ، على العمود الى جانبه ، ووضع قبعته العالية بالقرب منها ، وجلس . وتأوه ، ومدد رجليه وقال : « لقد سرت طويلاً . واني لم اعد نشيطاً كما كنت » .

ــ لا .

ــ لا بل اني بعيد جداً عن النشاط ياجديون .

ولم يجب جديون . وجاءت راشيل الى الرواق . وحاول الاخ بيتر ان ينهض واقفاً .

ــ كلا ، فلتبق جالساً ، انني سعيدة جداً برؤيتك .

ــ شكراً يا اختاه .

ــ هلا بقيت عندنا لتناول العشاء ؟ واجاب الاخ بيتر :

ــ الآن . لا أمانع في ذلك ، واشكرك .

ورمقت راشيل جديون بنظرة ، فلم يبد التفاتة . وهزّ الأخ بيتر رأسه . وبقيت راشيل لحظة ثم عادت الى البيت .

ــ إن الاخت راشيل امرأة ممتازة ، وارى نفسي سعيداً إذ آكل طعامها ، وتتملكني السعادة إذ اجلس الى مائدتها. وعندما

تكونان في واشنطن احس بالوحشة ، واشعر ان هناك شيئاً افقده بكل تأكيد ..

ـــ نعم

ـــ وتابع الاخ بيتر حديثه بعد لحظة :

ـــ انه لمن الخير لك ان تتكلم يا جديون ، وان الكلام يفيد كل انسان ، فقد يخرج معه الغضب والأسى ، صدقني فيما اقول . هل كان الامر سيئاً لهذه الدرجة في تشارلستون ؟

ـــ نوعاً ما .

ـــ ولِمَ كل هذا إذن ياجديون ؟ ما درجة السوء التي يبلغها اي شيء ؟ والإله الصالح يعطينا ، ويأخذ ما يعطينا ، كيلاً بكيل . انت لست مؤمناً ياجديون .

وابتسم جديون وقال :

ـــ كم كنت ارغب ان يكون الامر امر ايمان .

ـــ كيف يكون إذن ؟ والمرء يأتي الى هذا العالم طفلاً صغيراً عارياً . هنالك الدينونة ... والادلة ياجديون . انا لا اتكلم عن الله ، فقد يئست من ايمانك به منذ زمن بعيد . لديك قوة عظيمة مدخرة ياجديون ، وقد كانت تزيد كثيراً ، عمّا هي عليه لو كان الايمان يملأ قلبك . حسناً سأتكلم لك عن الناس ،

ولنترك الله جانباً ، ياجديون . واعتقد انه لن يقول شيئا اذا ما تركناه جانباً وتكلمنا عن الناس . هل تؤمن بالانسان يا جديون ؟

ــ انني أؤمن به .

نعم هذا ما اريد معرفته ياجديون .

ونظر جديون مفكراً الى الرجل الشيخ . ومسح الأخ بيتر بعض الغبار عن قبعته العالية . هذه القبعة التي قدمتها له رعيته . وكان يعتمر بها يومياً عدا الايام الممطرة لمدة اربع سنوات . ولا تزال وكأنها جديدة . وقال جديون :

ــ اعتقد بأني أؤمن بالانسان ... لست اعلم ...

ــ وكيف لاتعلم ؟ قد يكون هناك حمل من الخطايا يثقل ظهر الانسان . ولكن كيف يصبح هذا الزنجي الرقيق حراً بين ليلة وضحاها ؟

وقال جديون :

ــ ثم يعود فيصبح عبداً ثانية .

ــ اتعتقد بذلك ؟ وافترض اننا نموت جميعنا ، جميع الموجودين هنا ياجديون . الا تعتقد بان هنالك ذرة ضئيلة يؤمل بها ؟ ذرة اكبر قليلاً عما كانت عليه من قبل ؟ أتعتقد انه لن

تكون هناك اناشيد السرور ، أنشودة هليلويا تتجاوب نغماتها في الفضاء بعد الآن ؟

وما قال جديون شيئاً .. غابت الشمس والقى الليل وشاحه ، وخرج ماركوس ، ونظر اليهما ، وعاد فدخل الى البيت . وأخيراً قال جديون :

ــ سيكون العشاء جاهزاً بعد لحظة ايها الاخ بيتر .

ــ لا شك وبالمناسبة اريد ان أسرّ إليك شيئاً ... فقابليتي جيدة جداً ، اكثر مما يجب ان تكون عليه قابلية سيد عجوز بلغ ما بلغته من العمر . ان سبب ذلك هو المشي على الاقدام . ادخل وسألحق بك يا أخي .

ونهض جديون ، ودخل . وكان جيف قد انتهى من غسل يديه على مضخة المطبخ ، وقالت راشيل :

ــ ان الأخ بيتر سيكون معنا على العشاء ياجديون .

ــ اعلم ذلك .

وخرج جيف من المطبخ ، والتفتت راشيل الى جديون ، وحدّقت به لحظة وتقدمت نحوه وقالت :

ــ جديون ؟

ــ نعم .

ومدّت يدها ، فلمست قميصه . وارختها تنحدر على طول ذراعه وقالت برقة :

ــ قد اتمكن من تحمل أي شيء ياجديون ، ولكني لا اتحمل رؤيتك تعساً ، لقد اصبحت اقل فائدة ولكني لا اتمكن من ان أراك في حالتك هذه من التعاسة :

واخذها جديون بين ذراعيه ، واطبق عليها كأنه دب يائس ، أطبق عليها فجاءت كلماتها متقطعة :

لااتحمل ذلك ... لا .. لا أتحمل ...

ــ راشيل راشيل ياطفلتي الحبيبة .

ــ ارجو ان تبتسم ياجديون ؟

وابتسم لها ، فاستندت اليه متراخية واصابعها متمسكةّ بقميصه ...

* * *

وفي اليوم التالي ، وقف جديون مع جيف وآلن يراقبون هانيبال واشنطن وهو يصف قرميدَ مداخن البيت الجديد ويبنيها ، وتوقف ابنرليت وهو عائد في طريقه من المدينة، فأرخى اعنّة

الخيل ، ونزل من العربة ووقف حيث كان يقف جديون . وسأل :

ــ اين تعلمت مزج الطين بهذا الشكل ؟

ــ لقد تعلمت ذلك من والدي . فقد ذهب الى البيت الابيض الكبير وبنى المداخن السبع التي تراها هناك ..

ــ أصحيح ما تقول ؟

ــ بكل تأكيد ، لقد مضى على ذلك زمن طويل جداً .

ــ ومتى بني ذلك البيت الكبير ؟

ــ منذ خمسين عاماً .. وانا متأكد من ذلك .

« انه يبدو وكأنه كان هناك منذ الازل » . قال ابنرِ ذلك ولمس كُم جديون . وسار جديون معه وراء العربة وقال الرجل الابيض : « انني عائد من المدينة ياجديون ، ولا شك انك كنت على حق فقد عقد الرئيس صفقة مع ويد هامبتون ابن الخنزير لعنة الله عليه ، وان القطعات المتمركزة في كولومبيا قد اخذت امرها بالمسير ، وعندما يحين العاشر من نيسان ، فإنها سترحل الى الشمال .

ــ حسناً . انظر الى هذه الصحيفة . قال ابنرذلك ، وتطاول الى العربة . واخذ منها صحيفة وأشار الى العنوان الكبير

« الجنوب ينعم بعتقه من العبودية ثانية » واردف قائلاً : ـــ هذه هي القصة بكاملها ، والمدينة ملأى بالاقاويل . وان جاسون هوكار ، يتبختر ببزته العسكرية ، وسيترأس العرض العسكري في كولومبيا . لقد قلت لي ان لا احدث اضطراباً ، وهكذا فإني لم أقم بأي شغب بل كنت أراقب ابن الكلبة هوكار القذر . انه سيقاتل ، ولكن في اي مكان سيحارب ؟ لقد سبق لي ان وجدت في ساحات قتال متعددة . ولكنني لم ار مطلقاً رجلاً يدعى هوكار .

ـــ وكان جديون يقرأ الخبر بسرعة وقد قطب مابين حاجبيه بعصبية « ... بموجب اتفاق ودي مع الحاكم وقّع الرئيس هيز على أمر سيكون من نتيجته اقرار الامن والديموقراطية والحكم الذاتي في الجنوب وستنسحب آخر الجيوش الاتحادية في العاشر من نيسان ... » .

وتمتم ابنرليت قائلاً :

ـــ ستكون نزهة ممتعة

ـــ ماذا ؟ ...

ـــ اتعلم يا جديون ؟ كان يجب على جدي أن يذهب غرباً . لقد جاء الشيخ دان بون الى هنا ، وتوسل الى جدي ان

يذهب الى كينتوك . فاجاب ذلك الجد الظريف ، لا وحق الجنة والنار ... ياإلهي كم كنت اود لو ذهب ... الى كينتول والى ايلنونير ، وعبر افاق هذه البلاد التي حلَّ عليها لعنة الله ، كم كنت اود لو انه ذهب بعيداً عن هذا المكان ، لو انه رحل من هنا الى المحيط الباسيفيكي الازرق .. كم كنت أو ...

ـــ اسكت الآن . قال جديون ذلك ، واشار برأسه الى حيث كانت آلن تقف ، وكان هانيبال واشنطن ، وجيف ينظران اليهما .

ـــ وماذا ستعمل ياجديون ؟

ـــ اليوم هو السادس من الشهر ، أليس كذلك ؟ اما منا اربعة ايام ، وسأذهب الى كولومبيا . لا أعلم ماذا سأفعل هناك ، الا اني سأجرب ان اعمل شيئاً ..

* * *

عندما انهى جديون كتابة البرقية في مكتب البريد الغربي في شارع ضومتر بكولومبيا ، ناولها الى الكاتب الجالس وراء

حاجز المكتب . وكان ذا وجه منتفخ ، في التاسعة عشرة من عمره ، وقال له جديون :

ــ ارجو ان تعيد قراءتها لي . إلا أنَّ الصبي لم يبد حراكاً :

ــ لقد قلت لك ان تقرأها لي . فقرأ الصبي :

روثر فورد ب هيز
البيت الابيض
واشنطن دث

حضرة الرئيس ، الرجاء تأجيل مفعول امركم بسحب القوات الاتحادية من كولومبيا . الغاء الحرس الوطني للزنوج والبيض الفقراء ترك انصار الاصلاح واعادة التعمير معتمدين على حماية القوات الاتحادية . هنالك خوف من الاضطرابات واعمال العنف . الجمهوريون المخلصون هنا لا يتمكنون من الاعتقاد بأن جميع العناصر الاتحادية سترحل من الجنوب . نرجو مساعدتكم وعطفكم .

جديون جاكسون
نائب جنوب كارولينا

وسأل جديون عن أجر البرقية .

وتردد الولد ثم قال : عشرة دولارات .

وحدّق جديون فيه ممعناً النظر برهة ثم دفع له وانصرف .

وذهب الولد الى العامل المختص وقال بزهو :

ـــ لم أر في حياتي زنجياً له اطلاع على أجور البرقيات .

ـــ لعنة الله عليك ، سأعمل على طردك من اجل هذا !! وكم دفع لك ؟

ـــ عشرة

ـــ حسناً . سنقتسمها معاً . يا لغضب الله ... هيا اعطنيها .

وناوله الصبي البرقية ، وأطال العامل فيها النظر ، وكان يصفر وهو يقرؤها باعتناء . ومن اعطاك اياها ؟

ـــ زنجي كبير .

ـــ حسناً . خذها الى القاضي كلايتون . وقل له انني اريد ان اعرف ما اذا كان يجب عليَّ ان ارسلها ، واحتفظ بفمك الكبير مغلقاً ...

وعاد الولد بعد عشرين دقيقة وقال :

ـــ لقد احتفظ القاضي بالبرقية واعطاني دولاراً .

ـــ وسنقتسم هذا ايضاً .

ـــ لقد قال القاضي بانه من الخير لكلينا ان نبقى صامتين ، وإلا فإنه سيعرف سبب عدم سكوتنا .

وذهب جديون من مركز البريد لرؤية الكولونيل ج.ل. وليامز قائد القوات الاتحادية . وكان الكولونيل كثير الاعمال في ذلك اليوم ، ومرت ساعة ونصف ساعة قبل ان يسمح له بالمثول امامه وعندئذ قال : ايها النائب ، انني آسف . فكل رجل في الجنوب يريد ان يتحدث اليّ اليوم .

وهزّ جديون رأسه وقال :

ـــ انني اعلم ذلك . ولا اعلم ما الدرجة التي تختلف بها قضيتي عن غيرها . هاهي ذي نسخة عن برقية ارسلتها الى رئيس الجمهورية . وقد يأتي الجواب بعد يومين اوْ عشرة ايام .. والى ان يصل الجواب ارجو منك ان لا تسيّر جميع قواتك .

وقرأ الكولونيل . وهزّ رأسة اشارة بالنفي وقال :

ـــ لقد اخذت اوامري ..

ـــ نعم ، انا اعلم بانك أُمرت بذلك ايها الكولونيل . وانا لا اطلب منك ان تؤدي لي خدمة شخصية . بل انها مسألة حياة او موت لعدد كبير من الناس .

ـــ لا . لا يمكنني ذلك . وانا آسف .

ـــ الا تعلم ماذا سيحدث عندما ترحل قوّاتك ؟

ـــ قد افكر بانه سيعقب ذلك اي شيء ، ولكن يجب عليَّ ان انفذ الاوامر التي اعطيت اليَّ .

واذا بحثت هذا الامر مع الجنرال هامبتون قائد المنطقة ...

فقاطعه جديون قائلاً :

ـــ هذا امر لا يجدي نفعاً . انه سيرفض ذلك . انني اعرف ما الاوامر . وقد خدمت في الجيش انا ايضاً ايها الكولونيل .

ـــ لا فائدة ...

ـــ الا تدرك بان الرئيس لا يمكنه ان يتجاهل البرقية ويهملها ؟

ـــ الا انني قد احال الى المحكمة العسكرية .

ـــ لي بعض النفوذ في واشنطن .

ـــ ورفع الكولونيل صوته وقال :

ـــ لا يمكنني ان اقوم بذلك . صدقني فيما اقول ياسيدي ، لا يمكنني ان اقوم به بالرغم من اني اريده . الا تعتقد بان لي عينين ارى بهما ؟ وانا جندي ولست سياسياً .

ووقف جديون لحظة ، مذهولاً ، مريضاً ، مرتعباً . وهز رأسه بعدئذ وقال :

ـــ انني آسف .

ـــ وانا آسف ايضاً .

وتركه جديون وانصرف .

وبقي في كولومبيا حتى العاشر من الشهر ، متردداً باستمرار على مركز البريد . وارسل برقية ثانية في اليوم التاسع . وفي العاشر من الشهر وقف يراقب القوات تسير الى القطار المنتظر في المحطة . وعاد بعدئذ الى كارويل .

* * *

وفي اصيل اليوم الخامس عشر من شهر نيسان ، سمع سكان كارويل امرأة تصرخ مولولة ، وتجمع الناس من اتجاهات مختلفة عند سماع صراخها الذي تردد صداه في كل ناحية من المكان . وكان الفتى « جودي هيل » يسير في الغابات مرتعداً ، وقد وقع تحت تأثير رعب مخيف ، وهو ينشج ويقول : عاد

الحصان . لقد عاد . لقد عاد . وتبع القوم « جودي هيل » الفتى الصغير الى مزرعة ابيه وكان ابوه « زكي هيل » رجلاً أسوداً، سالماً ، هادئاً يحب اسرته ويحسن مهنته بصفته فلاحاً ، ويكسب من زراعة القطن اكثر من اي رجل آخر في المكان . وهناك وجدوا زوجته «فاني هيل » تصرخ بصوت عالٍ ، وبشكل جنوني ، وهناك ايضاً ، رأوا عربة رُبطت الى حصان . وعندما شاهدوا ما كان فيها عادوا مسرعين ...

وتجمعّت اجزاء القصة . لقد ذهب « زكي هيل » الى البلدة ليشتري حذاء جديداً وهدية لولده البالغ العاشرة من عمره . كان يسوق عربته ببطء ، مستمتعاً بجمال فصل الربيع وقت الظهيرة ، وكان بطبعه ، يحب ان يدعَ حصانه يسير الهويناء ، وخاصة عندما يكون في الجو بعض العلائم التي تنبىء بالقيظ .

وفي منعطف من الطريق ، عند أوبته من البلدة ، انقضّ رجل على العربة البطيئة . وأفرغ عياريّ بندقيته الناريين في رأس زكي هيل . وَجفِلَ الحصان ، فانطلق يعدو وزكي معلق بالعربة . وتابع الحصان عدوه الى ان بلغ البيت . ورأت فاني هيل ، زوجته ، ما تفعله رصاصتان في رأس رجل .

ودفنوا زكي هيل ... وبدأ رجال كارويل يذهبون الى اعمالهم متقلدين اسلحتهم لأول مرة بعد انقضاء تسع سنوات .

* * *

الفصل العاشر

طلَعَ صباح الثامن عشر من شهر نيسان على كارويل والضباب يتكاثف في الاودية . وينساب ابيض كالحليب في غابات الأرز . وكانت كلاب اربعة تتواثب عائدة بين اشجار الصنوبر وهي منهوكة القوى بعد ليلة حافلة بالصيد ، واصوات الطيور الجاثمة على الاغصان تستقبلها بانغام حادة ، بينما كانت الغربان تحوم فوقها ، مصفقة باجنحتها ، مستقبلة الفجر بنعيقها : كاو ، كاو ، كاو . وفي مختلف المزارع . أنهمك الرجال في حلب ابقارهم وفي تأدية اعمال البكور ، والافكار تتناوشهم ، هذه الافكار التي كانت تشكل جزءاً لا يتجزأ من اعمالهم الصباحية : تُرى ، هل ترفس البقرة (نيلي) سطل الحليب ، فتقلبه رأساً على عقب ، كما اعتادت ان تفعل ذلك

احياناً ؟ أيكون النهار معتدلاً جميلاً ، أم كئيباً متجهماً ؟ وهل ملَّ ذلك الكلب المعتوه ، نباحه العميق ، في الطرف الآخر من الوادي ؟ وهذه الغربان كم هي حلوة اصواتها ، فما ابسطها وما اعظمها من تعبير عن الحنين الى الوطن ، هذا الحنين المفرح الذي يلازمها صباحاً بعد صباح . وطعام الصباح ؟ ممَّ سيكون ؟ أشرائح من اللحم ام فراخ مقلية من الدجاج ؟ ايواصل العجل المريض تقيؤه على هذا النحو ؟ أتعود آلام الروماتزم المزمن في مؤخرة الظهر الى الظهور ؟ هواجس وافكار ، ليست مربكة او هامة . غير انه في الوقت نفسه ، لا يوجد من يصفها بان لا اهمية لها .

وأطلت الشمس من وراء الهضبة ، فسطع نورها فجأة ، فغمر كل شيء ، وانتشر الضياء على ارض متموجة بالتلال ، فأنار منحدراتها المقبلة بينما بقيت منحدراتها المدبرة تنعم بالظل . واخذ الضباب يتصاعد في الاودية ، ويتلاشى ، ولم يبق منه الا ما لازم ارض الوادي في منحدرات الماء والمستنقعات . وزحفت الافاعي ذات الرؤوس النحاسية اللون ، والثعابين السود مسرورة تستقبل الدفء ، واخرج النور السلاحف من مخابئها وهي تحبو ، وتواثبت الارانب بين ادغال الديس ، وتسابقت السناجب

صعوداً ونزولاً على اشجار الجوز ، وانزوى ظبيٌ بعيداً بين الادغال الكثيفة حيث يتمدد ويستريح ...

ويهبط الصباح على كارويل ، فيلتقي بالرجال ، جالسين لتناول طعام الافطار بعد انتهائهم من اعمال البكور . ويتألف طعام الافطار في كارويل من الكعك الساخن والدبس ، او من الخبز الساخن والزبدة الباردة الصفراء تنتشر على صفحتها قطرات من الماء . او قد يتألف من شرائح الخنزير والبيض ، ويكون في بعض الاحايين فراخاً مقلية من الدجاج او سمكاً مقلياً ، او حليباً وبعض البطاطا . او حساء الحبوب الاصفر ، وهذا الطعام او بعضه كان يكوّن وجبة الافطار وليس بكثير على رجال امضوا ساعات في العمل ، ودّق جرس المدرسة ، فذهب الاطفال مسرعين سالكين اقصر الطرق اليها ، وكانوا يحسون بالحياة تملأ عليهم نفوسهم وهم يتوافدون في الساعة الثامنة ، فيغوصون حتى الكواحل في التربة المحروقة ، ويعوون مع بعضهم عواء الذئاب ، ويتصايحون وهم يتسابقون في صعود الرابية ، ويتدافعون وهم يجتازون عنقاً من الارض المغطاة باشجار الصنوبر . وكان نشاطهم الثائر الشديد على هذا الشكل الذي لا يُصدق ، يجعل من كل يوم مغامرة محزنة (لبنجامان وينثروب) ، فكان شده حبل الجرس

ليعزز الشجاعة في نفسه ، وانه ليجد التعزية لنفسه في فكرته الفلسفية التي تتخلص في انه بإمكان كل انسان ان يعلم التلاميذ الجيدي السلوك المهذبين . وكانت ابنة فرانك كارسون البالغة السادسة عشرة من عمرها تشغل تفكيره اذ هي تحدق فيه بوقاحة بعينيها الصامتتين الزرقاوين المستديرتين . وكان يفكر في جميع الاشياء التي تعتمل في داخله .. ان جمعية الثقافة الدينية التي اوفدته الى هذا المكان ، اشارت الى ان مهمته عمل في سبيل الله . وبعد مرور بضعة اشهر على ذلك ، ادرك لماذا اناط الله هذه المهمة به . وكان يجد التعزية في الاطفال القلائل الذين نالوا الجوائز كأبن هانيبال واشنطن ، وابنة ابنرليت واثنين او ثلاثة آخرين . واليوم سيقدم الصف العالي الى ايمرسون . وكرر لنفسه ايمرسون وهو واقف امام المدرسة ، يصغي الى صراخ الاولاد . ونقل نظره بين الاحراج والحقول ، وقال لنفسه بثقة « ايمرسون » .

* * *

كان جديون يتكلم مع ماركوس عند تناول طعام

الصباح ، بعد ان فكر في الكائن البشري وسرعة تلائمه مع الواقع ، وكيف ان الامر الغريب يصبح بعد وهلة طبيعياً ، وان التلاؤم مع اي ظرف يبدو تاماً كاملاً . وكان يقول لماركوس :

ـــ سأضيف فدانا الى زراعة التبغ لا الى زراعة القطن

كان يقول ذلك ، والى جانبه بارودتان حربيتان اسندتا الى الباب .

ـــ ان هذه البلاد لا تصلح لزراعة التبغ .

وقال جديون :

ـــ ومع ذلك فإن الاوراق التي تعطيها هذه الزراعة جيدة . وان لم تبلغ من الجودة ما بلغته في فرجينيا . او بيرامونت . انا اعترف بهذا إلا أن سوق التبغ رائجة . وان هذا الشيء الجديد الذي يدعونه لفائف التبغ سيزيد في عدد المدخنين .

ـــ إلا أن التبغ يضر التربة .

ـــ والقطن كذلك . انك تضر أرضك في الحالتين الا اذا عدت فتركتها بوراً ولم تحرثها . وقد كنت ابشر بهذا لسنوات عديدة . وقالت راشيل :

ـــ اذا ما اخذ رأيي أنا فاني افضل زراعة الحبوب .

ـــ لسنا مزارعين نحتكر الانتاج .

ـــ أمِنَ الضروري ان نعمل ماكان يعمله اجدادنا ؟

وقالت جيني :

سأذهب بعد ظهر هذا اليوم الى البلدة لشراء بعض الاغراض .

ـــ الى المدينة ؟

ـــ نعم ...

وهزّ ماركوس رأسه علامة النفي .

ـــ ولماذا ؟

وقال لها جديون :

ـــ سيذهب بعض القوم بعد ايام في بحر هذا الاسبوع .

ـــ الا انه يوم جميل . وقال لها ماركوس .

ـــ يجب ان تبقي هنا .

ـــ حسناً . انا لا اتلقى الاوامر منك . ولست على استعداد لان ابقى في اي مكان لمجرد انك اوعزت بذلك .

ـــ يجب عليكِ ان تبقي هنا .

وبدأت جيني بالبكاء ، فأخذت آلن التي كانت تجلس الى جانبها ، يدها ، وفركتها بحنان . ونهض جديون ، وتبعه

ماركوس وقبل ان يترك هذا الاخير الغرفة ، التفت الى البارودتين وتردد ، ثم اخذ واحدة منهما وانصرف .

* * *

في الساعة العاشرة ، كان جيف في بيت ماريون جيفر سون ، فقد ظهر على يدي زوجته اندفاعات جلدية ، ولم يكن الأمر هاماً ، إلا أن ذلك كان مؤلماً ويدعو الى الحكاك مما يجعلها في حالة أرق طيلة الليل . وأفهمها جيف كيف تمزج المرهم المهدىء ، ومن ثم ذهب الى الرواق ليقضي بعض الوقت مع ماريون لأنه كان من اصدقاء طفولة جيف الاعزاء ، أما الآن وقد اصبح طبيباً ــ فقد غدا ماريون يراه وكأنه إله . وبينما كانا واقفين يتكلمان عن هذا الشيء او ذاك ، جاء تروبير راكضاً من بيته . وتوقف وهو يلهث ، وازدرد لعابه ثم قال :

ــ جيف ، لقد رأيت جاسون هوكار والعمدة بنتلي ، انهما متجهان نحو بيت ابيك ، وكنت واقفاً الى جانب السياج ولا يمكنني ان اخطىء عربة العمدة والرجل الآخر جاسون هوكار . انا متأكد من ذلك .

وقال له جيف :

ـــ ليس هناك ما يدعو الى الخوف والحذر . فلنركب عربتك ولنذهب الى هناك . ودخل الى البيت . واخذ بارودته . وسألته زوجته خائفة :

ـــ ما الامر ؟ وماذا تريد ان تفعل .

ـــ ليس في الامر شيئا سوى ان العمدة قادم الى جديون . وها نحن ذاهبون للتأكد من الأمر .

ـــ لاتُحدث المتاعب يا ماريون ، فلقد حدث لنا مافيه الكفاية .

واجابها بهدوء :

ـــ لا شك انه قد حدث لنا ما فيه الكفاية ، امّا هذه المرة فلن تحدث متاعب . اذهبي الى ابنرليت وأخبريه ان العمدة قادم الى بيت جديون .

* * *

منذ ان ترك جديون وماركوس البيت بعد الافطار ، انهمكا معاً في قطع شجرة صنوبر عالية ، فاقتلعاها من جذورها

بعد ان حفرا حولها وقطعا الجذور الرطبة الكبيرة . وقد كان عملهما هذا مناسباً لبرد الصباح ، وقد يستسلم المرء لفأسه ويصب فيه جماح غضبه باحسن شكل على اشياء لا حياة فيها ولا تحس بشيء وعندما تهوي شجرة الصنوبر ، فانهما سيتركانها ملقاة حيث هي طيلة فصل الربيع والصيف ، وعندما يجف العود ، وينشف الجذع ، ستُقطَّع ولن تبلغُ القطعة الواحدة اكثر من اربعة اقدام طولاً ، وستُحرق ولن يكون هنالك اسهل من اشتعالها وكأنها الورق . هاهي ذي قد بدأت تتمايل في الوقت الذي لمح فيه ماركوس عربة العمدة وهي تلف المنعطف بجانب المستنقع ، وتصعد الطريق المؤدية الى بيت جديون . وطرح ماركوس فأسه ارضاً واشار قائلا :

ـــ انه العمدة .

ـــ تبدو العربة وكأنها عربته دون شك . سأذهب لأرى ..

وهزّ جديون رأسه ، وأخذا بندقيتيهما . وسارا بسرعة نحو البيت ، وعندما حجبهما منحدر الرابية عن الطريق ، انطلقا يعدوان وادركا البيت وهما يلهثان ، وكان وصولهما بعد وصول العربة بدقيقة او دقيقتين . وفي العربة كان يجلس جاسون هوكار والعمدة وقد شمّرا الاكمام عن ساعديهما، وارتدى كل منهما

صدرية من الجلد وحمل بندقية صيد مزدوجة فوق ركبتيه ، وكانت راشيل تقف في الرواق منتصبة ، وما عتمت ان سحبت نفساً طويلا وصعدت آهة الفرح إذ رأت جديون وماركوس .

وقال جديون :

صباح الخير أيها العمدة . وخرجت جيني وآلن الى الرواق ووقفتا وراء راشيل وأقبل كلبهم « فراكوس » ، وأخذ يقفز حول ماركوس وكأنه أُصيب بالجنون ، وظلّ يقفز ويقفز الى ان ادرك ان لا احد يشعر بوجوده ، وان لا احد بحاجة اليه ، فتمدد عند ذاك ارضاً متحفزاً مراقباً . ووقف ماركوس وبندقيته معلقة الى كتفه ، وقف وقد احنى ظهره قليلا وشدَّ عضلاته . وكانت راشيل وحدها تشعر بانه اشبه شيء بكيس من البارود ، وكان هادئاً ، ثابتاً ، غير انه كان على استعداد للانفجار . واشار العمدة برأسه الى بندقية جديون وقال :

ــ أذاهب انت الى الصيد ياجديون ؟

ــ واجاب ماركوس بحدة :

ــ ربما كان الامر كِذلك . وعندما توجه الكلام الى ابي ناديه بالسيد ، افاهم انت ؟

وقال جاسون هوكار وهو يمط صوته :

ــ نعم ، السيد .

وابتسم هوكار وقال : ــ حسناً السيد ..

وسأل جديون برقة :

ــ اية خدمة استطيع ان اؤديها لك ايها العمدة .

وهز بنتلي رأسه وقال :

ــ ها ، هذا انت !! أتيت من اجل تحصيل اموالي !!! إنك رجل متعقل ياجديون ، وحق الله هذه فضيلة نادرة في هذه الايام . ولا فائدة من اضاعة صوابنا ، وان لديّ عملاً هنا .. لقد أتيت لتأديه مهمة صغيرة .. وها انا ذا اراك تهدد القانون بالسلاح ... يا يسوع المسيح ، ليست هذه عادة الزنوج ياجديون ، وقد تودي الى المتاعب ...

وقال ماركوس :

ــ اطبق هذا الفم الملعون ..

وقار هوكار :

ــ انظر الى هنا ايها الصغير ، انتبه ايها الزنجي ، ياابن الزنى . انك اذا ما ابديت حركة واحدة ببندقية الصيد هذه التي

تحملها ، فسأنتزع منك روحك اللعينة ... وكان قد وضع اصبعه على زنادي البندقية .

وصرخت راشيل صاعقة ، وامسك جديون ماركوس من كتفه ، فأحسَّ الصبي وكأن اصابع ابيه تغرز فيه كمخالب حديدية . وقال جديون : تروَّ قليلاً ايها السيد هوكار ليس من سبب للخصومات وان العمدة بنتلي يعرف ذلك . انه يعرف باننا مواطنون صالحون نخضع للقانون . ولم نَخلقَ له اية متاعب فيما مضى ، وان كنا نحمل الاسلحة فلا يعود ذلك لعدم خضوعنا للقانون ، بل لأن احد جيراننا قُتل منذ ايام قليلة مضت .

وقال بنتلي :

ـــ سأخبرك شيئاً ياجديون . عندما يرتقي الزنجي مركزاً عالياً ، فلا بد وان يكون ذلك سبباً في خلق المتاعب . وان قومك يعتقدون بأنهم اصبحوا كذلك . ان هذا الزنجي الذي تتحدث عنه ، كان يسوق عربته في الطريق ، فانقضَّ عليه احد الرجال وقتله ... ياإلهي ان هذا لايبدو فيه اي منطق ، كلا لا يبدو فيه اي منطق . وكيف اتمكن من معرفة سبب ذلك ؟ إعطِ الزنجي بوصة وهو يتجاوز حقه فينتزع عنك قميصك .

ــ وعلق هوكار قائلا :

ــ ولهذا فإننا جئنا الى هنا .

وسأل جديون :

ــ ولماذا جئتما الى هنا ؟

ــ لعنة الله عليك نحن نوجه الاسئلة .

وقال العمدة بحدة :

ــ تروَّ الآن ياجاسون ، يحق لجديون ان يسأل الاسئلة ، فنحن فوق ارضه ، وهذا حق ضمنه القانون . ولكن يحق لنا ايضاً ان نوجه الاسئلة ، ونود ان ننهي ما جئنا من اجله بهدوء وسلام . لقد جاء بعد ظهر البارحة ثلاثة من الزنوج يا جديون ، جاؤوا الى الباب الخلفي لبيت كلارك هارستنغ ، وكان كلارك في المستودع . اما سالي زوجته وابنتها الصغيرة ، فقد كانتا في البيت ، وكان كل شيء هادئاً وجميلاً وكأنه كعكة طيبة . فقال احد الزنوج : ارجوكِ ايتها السيدة سالي ، إننا رجال جياع ، هل لديك قطعة من الخبز . وقد عُرف عن سالي انها لا ترد زنجياً جائعاً . ودخلت كي تأتي لهم بشيء يأكلونه ، دون ان يراودها اي فكر . وكانت ابنة كلارك البالغة من العمر تسعاً تقف هناك تنظر الى الزنوج ...

وقَدُمَ اذ ذاك ترويير وجيف وماريون جيفرسون، يركبون جميعاً في عربة. وشعر جديون بقوة توافيه عندما رآهم. ونزل ماريون وجيف وبقي ترويير جالساً في العربة ممسكاً ببارودته. البارودة التي حارب بها في سنوات الحرب، وصرخ قائلاً بصوته البطيء العميق :

ــ ارفع اصبعك عن زناد بندقيتك يا هوكار .

فاحمرّ وجه الرجل وانتفض في جبهته شريان انتصب عمودياً فوق حاجبه، وبدأ جسمه المربع يضيق . وقال ترويير :

ــ إرفعها فوراً وبسرعة .

وهمس بنتلي قائلاً : لا تكن مجنوناً واعمل كما يقول لك ...

وجاء في هذه الاثناء ابنرليت راكباً على حصانه متقلداً بارودة صيد على كتفه وعاد بنتلي فقال لهوكار : « افعل كما يقول لك » .

وتراخت أصابع هوكار عن الزناد ...

وقال ترويير ــ ضع هذه البندقية ارضاً عند قدميك، وانت ايضاً ايها العمدة .

ــ لا يمكنك ان تتكلم ...

ـــ ضعها ارضاً عند قدميك ، صرخ تروبير بهذا ، واشار برأسه .

ووضعا بندقيتيهما ارضاً عند اقدامهما ، وجاء أبنرليت ووقف مع الجماعة الى جنب العربة . ودارت عربة فرانك كارسون منعطف الطريق عند المستنقع وقال هوكار :

ـــ لا بد لنا من تذكر بعض الاشياء ياليت :

ـــ هناك ماتذكره .

ـــ وقال جديون :

ـــ كان العمدة يخبرنا عن السبب الذي دفعه للمجيء الى هنا .. واعاد ماروإه العمدة ثم قال له : تابع القصة ياسيدي فإننا نريد ان نستمع الى ماتبقى منها .

ووصل فرانك كارسون ، وحدجهم بنتلي بنظرة وقال :

ـــ كانت الابنة الصغيرة واقفة هناك تنظر اليهم . وتقدم احد الزنوج نحوها ، ونزع عنها ثيابها ، وبدأت تصرخ مستجيرة . وجاءت ساللي مسرعة ، فضربّها زنجي آخر ، فانسحبت الى الغرفة التي يحفظ فيها فرانك مسدسه ، وعندئذ اطلق الزنوج ارجلهم للريح .

وسأل جديون : « وما علاقتنا نحن بهذا الأمر ؟ » .

ـــ لقد توصلنا الى معرفة الزنوج ، وجميعهم يقطنون هنا في كارويل .

وخيم صمتٌ مميتٌ لأول وهلة ، وعندئذ ضحك ابنرليت وقال جيف : « كل هذا الجنون ... » .

فقال جديون مقاطعاً : « اسكت ياجيف ، انا اتكلم . » والتفت الى بنتلي :

ـــ وماذا تريد ؟

ـــ اننا نريد الزنوج الثلاثة ياجديون .

ـــ وبأية تهمة ؟

ـــ مهاجمة فتاة ومحاولة ...

ـــ ومن هم اولئك الرجال ؟

ـــ هانيبال واشنطن ، واندرو شيرمان ، وزنجي آخر تقول سالي انها رأته في كارويل إلا انها لا تذكر اسمه .

وقال جديون :

ـــ حسناً لن نتطرق الى قصتك ، لانها لا تهمني ، ذلك انه لم يذهب احد من الرجلين الى المدينة منذ اسبوع . وقد امضى هانيبال واشنطن نهار البارحة في العمل الى جانب المدرسة ، وهو يبني قطع القرميد . اما اندرو شيرمان فإنه يحرث

ارضه هناك ، ويشهد على ماأقول عشرات الشهود . هذه هي اتهاماتك ايها العمدة . في حين انه لم يذهب احد من سكان كارويل الى البلدة البارحة .

وقال هوكار :

ــ اننا لا نقبل شهادات الزنوج .

وتقلص فم جديون ، وتقدم ابنرليت من العربة وقال :

ــ انا لست زنجياً يا هوكار ، تمعن فيَّ جيداً .

ــ وانت ايضاً لا نقبل شهادتك .

فقال ابنر بهدوء :

ــ لقد صممت منذ زمن طويل على قتلك يا ابن الخنزير القذر .

وقال بنتلي :

ــ اننا لن نتوصل الى اي شيء من خلال هذه الاقوال . ونحن لا نبحث عن المتاعب ياجديون .

ــ ونحن لا نريد المتاعب ايضاً .

ــ الا اننا نريد ان نأخذ هؤلاء الرجال معنا ، وسيحاكمون بشكل قانوني ويقدمون شهودهم .

وقال جديون :

ــ امامك هنا ، شهود ، وانهم صادقون .

ــ انني سأوقف بعض الرجال ، وهل تريد انت ان تمنعني من اداء مهمتي ؟

وهزّ جديون رأسه وقال :

ــ بامكانك ان تعتبر الامر كما تقول .

ــ وانني سأعتبره هكذا . وقد جئنا الى هنا مسالمين ، نريد تأدية مهمتنا لحفظ الامن والنظام . الا انكم احطتمونا واظهرتم مقاومة مسلحة . وان هذا الشيء خطير وأيم الحق ياجديون .

وقال جديون :

ــ انك ستعود دون هؤلاء الرجال . واذا كنت تريد ان يكون الامر على هذا الشكل الذي تصورت فسوف يكون لك بالطريقة التي تفهمها . انك تكذب ، واقول لك ، لا يمكن لأي انسان يتمتع بقواه العقلية ان يصدق قصة الديك والثور هذه التي رويتها

وهز العمدة رأسه وقال :

ــ انني سمعت ماقلت . بامكاني ان اسمع صوت زنجي

عن خمسة اميال ، لا بل بامكاني ان اشم رائحته ، وسوف آخذ هؤلاء الرجال ياجديون ، حتى ولو اضطررت لان يتدخل كل رجل في البلاد في هذا الامر .

وقال جديون وهو يهز رأسه :

ـــ او خارج البلاد ايضاً ، وكل مجرم قذر تقع يد هوكار عليه . والآن اخرج من كارويل يابنتلي فأنت تقف فوق ارضنا ، اخرج ولتذهب الى جهنم .

ووقف الرجال مجتمعين يراقبون العربة وهي تعود . وران الصمت برهة . ومن ثم بدأ ابنرليت يشتم بهدوء وطلاقة ، ولم يدع شتيمة الا وذكرها وقال جيف .

ـــ انني اتساءل ما اذا كان يجب عليك ان تخاطبه باللغة والاسلوب اللذين خاطبته بهما .

وقال فرانك كارسون وهو يهز كتفيه :

ـــ الامر لا يهم كثيراً . كان لابد لما حدث ان يأتي ، وان ما يقوله المرء لا يؤثر قليلاً او كثيراً ، وعلق جديون قائلا :

ـــ كنت استيقظ كل صباح وأنتظر حدوث ذلك ، وانك لا تفتأ تفكر . بما سيحدث ، لأسبوع كامل لا بل لكل يوم ،

تنتظر وتنتظر ، ومن ثم لابد ان يحدث ذلك في يوم من هذه الايام .

* * *

ووقف التلاميذ هادئين ، مطرقين ، لايدركون تماماً لماذا صُرم النهار الدراسي فأُخرجوا من غرفتهم ، يراقبون الرجال وهم يدخلون الى المدرسة ، واندفع بعض التلامذة الكبار في اثرهم فلم يوقفهم احد . وكان اكثر الرجال يحملون اسلحة مختلفة ، وجميعهم يتحركون ببطء ، كما يحدث للرجال عندما لا يتمكنون من التوفيق بين افكارهم واعمالهم وآمالهم . ووقف بنجامان وينتروب في زاوية من القاعة يراقبهم . وكان مضطرباً وخائفاً ، وهو الشاب المنحدر من أُسرة متمدنة ، متوسطة الحال في نيوانكلند يعود نسبها الى حاكم قديم ، وإنه إذ ينحدر من هذه الاسرة ، التي تنتهي بنفسها ، كان الحب الذي يكنه للجنس البشري مجرداً اكثر منه واقعياً . وقد مكنّه بقاؤه هنا بين هؤلاء القوم الغرباء الهادئين الثائرين ، قوة ارادة لا تُهزم ، ونضالا بينه وبين نفسه لا يهدأ . وهو الآن يدرك بينما كان يراقبهم كما يدركون هم انفسهم ، ان شيئاً قد قارب نهايته . ان عمله قد انتهى ، وسيذهب الى المحطة فيستقبل القطار هذا اليوم اذا كان ذلك ممكناً .

وافتتح الأخ بيتر الاجتماع بقوله :

أيها الاخوان ، لقد اجتمعنا هنا اليوم ، وجميعنا نشعر بغضب يتملكنا ، وخوف يسيطر علينا . وانا نطلب من الله ان يساعدنا على اجتياز الطريق السوية ، واذا ما اخترنا طريقنا هذه نطلب اليه تعالى ان يعطينا القوة لاجتيازها . والآن ستتكلم انت ياجديون .

ونهض جديون من حيث كان جالساً في الصفوف الخلفية فأجاب :

ـــ ان هذا الامر ليس لي وحدي ، وليس باستطاعتي ان اتكلم خيراً من غيري ، ولا اعلم مايجب ان نعمله اكثر مما يعلم جاري فليتكلم الشعب . ليتكلم كل عن نفسه .

واستدارت الرؤوس لتنظر الى جديون . وبدا اكبر مما كان يبدو عليه سابقاً . وتكلم هانيبال واشنطن : « ربما يكون من الافضل ان تتكلم انت عن الشعب ياجديون ، القضية قضية رجل ينحدر من بيننا او لا ينحدر ، وأنت منا ، وانك لم تهجرنا مطلقاً . لك اخطاؤك ، والله يعلم ذلك . الا انك تسير وديعاً متواضعاً ، والله يعرف ذلك ياجدينون فتكلم .

وقال جديون :

ـــ ليس لديّ الكثير لأقوله . انكم جميعاً تعلمون ماذا حدث . وتدركون سبب ذلك . وتعلمون انهم اذا ما اخذوا ثلاثة من رجالنا ، وعلقوهم على اعواد المشانق ، فان ذلك لن يكون سوى البداية .

فقال اندرو شيرمان تعباً :

ـــ انا لا اريد ان اسبب المتاعب للجميع ياجديون ، اما لاقينا مايكفينا منها ؟ وربما كانوا لا يريدون ان يقدموا على عمل يصل الى درجة من السوء فيبلغ حد الشنق ولنفترض اني ذهبت الى المدينة . فانهم ينظرون اليّ ويقولون : لا ليس هذا هو ذلك الزنجي . وكيف سيجرؤون على القول بأنني انا هو الذي اقدم على ذلك العمل ؟ فأنا لم ابرح المكان البارحة ، ولا قبل البارحة .

وقال ابنرليت :

انهم سيشنقونك ، واني متأكد من ذلك تأكدي من وجود الله انهم سيشنقونك . ووافق جديون قائلا :

ـــ انهم سيشنقونك ، ومنذ الآن ،لن اقرر انا، انتم من تصدرون القرار الذي تريدونه . وبعدئذ . ان شئتم ان اقودكم فإني سأفعل ، ولكن انتم من يقرر . اما فيما يتعلق بهذه القصة ، فإن كان لابدَّ لهم من خلق رواية ما ، فهم بحاجة الى اسلوب شبيه

بالطرق الشرعية . وعلى كل حال ، فانه لما يمض عليهم سوى ثمانية ايام منذ استلامهم مقاليد الحكم . وان ثمانية لا تكفيهم لهدم ما بنيناه في ثماني سنوات .

وسأل فرانك كارسون : ــ وماذا ستفعل ياجديون ؟

ــ هذا ما يجب عليكم انتم ان تقرروه . ان لم يكن اليوم فغداً الا انهم سيعودون وسيكونون عندها اكثر من اثنين بكثير ، سيعود عدد كبير منهم ، فعندئذٍ سيبدأون عملية سحقنا ، وبعدئذ سوف لا يحتاجون الى طرق لذلك ، اما ما يمكنكم ان تفعلوا ، فهنالك امورٌ عدة يمكنكم البقاء في بيوتكم وستُقْتلونَ اثنين اثنين او ثلاثة ثلاثة ، لن تقتلوا جميعكم ، فقد يتمكن بعضكم من الهرب . بامكانكم ايضاً ان تولوا الادبار ، وستجدون لكم مزرعة تستأجرونها في مكان ما ، فتعيشون على بعض الحساء والشحم ، وتجدون لأنفسكم مكاناً تأوون اليه . وقد تلزمون السكوت ، وتحتفظون بافواهكم مكمومة فتعيشون هكذا . اما الرجال البيض منكم فقد يختلف الامر بالنسبة اليهم فلربما استطاعوا الانضمام الى جماعة جاسون هوكار ، مع اني لا اعلم اذا كان سيقبلهم ، واظن ان امرهم لن يختلف كثيراً .

والامر الاخير الذي يمكنكم ان تفعلوه هو البقاء هنا ... تبقون معاً ، وتقاتلون .

وقال جيف :

ــ ولكن هذه البلاد ما زالت تدعى الولايات المتحدة الاميركية . ما زالت فيها قوانين ومحاكم ، ياإلهي !! اتريدنا ياسيدي ان نقضي على انفسنا ؟

وقال جديون :

ــ ليس ذلك من الضروري . وقد اعطيتكم الحلين الاخيرين ، وانا لا اقوم بانتقاء حل من الثلاثة ، ومنذ ثمانية ايام لم تعد في البلاد انظمة ، ولم يبق فيها قانون سوى قانون العنف . اما المحاكم فليست لنا . ولان هذه البلاد ، ما زالت تُدعى اميركا ، نجد اننا نملك القوة الكافية لان نحارب !! القضاء على انفسنا ؟ اني لا اعلم ... عندما ذهب ذلك الشيخ بروان مع تسعة عشر فرداً من رجاله الى « هاربرزفيري » كان اقل قوة واملاً منا نحن . الا انه هز هذه الامة ... وايقظها وجعل الرجال يفتحون عيونهم ويرون بها . انا لا اقترح ان نحارب لكي نموت ، بل انني اريد ان اقاتل لكي اعيش . اريد ان احارب حتى ترى هذه الامة جميعها مايحدث هنا .

فقال جيف :

ـــ يجب ان يكون هناك حل آخر .

ـــ وما الحل الآخر ؟

ـــ اذا عدت الى واشنطن ؟

وقال جديون :

ـــ لقد جربت الوسائل عندما كنت هناك ففشلت .

ـــ **ولم لا تجرب ثانية ؟**

ـــ سأفشل ثانية ، وسيكون الامر قد انتهى . وربما انتهى كل شيء غداً .

وقال « ويل بون » بهدوء وكسل : لنفترض اننا نفكر في القتال . وانا أريد ان اقف مدافعاً عن حقوقي . وهذه هي الطريقة الصحيحة كما اجدها . ولكن كيف ؟

فنحن لسنا جيشا . وكل ما نملك من الارض هو ثلاثة آلاف فدان ونصف .

وقال جديون : لقد كنت افكر في هذا ، ويعلم الله اني كنت افكر في امور اخرى فاذا اردنا ان نحارب لابد لنا من وضع النسوة والاولاد في مكان امين ، حيث يكونون في مأمن لمدة طويلة الى ان تأتي هذه الابنية على نهايتها وتحترق . وهنالك مكان

كبير ، والدفاع عنه ميسور ، سهل ...

واعني بذلك البيت الابيض الكبير القديم في كارويل.. انه يقع على رابية ، ويشرف على الارض من كل جهة .. وانهى جديون حديثه قائلاً :

ــ لقد قلت مافيه الكفاية . فقرروا انتم ماترونه صالحاً لأنفسكم .

وبعد مرور ساعة توصلوا الى قرار فيما بينهم . وكان نتيجة أشياء كثيرة ، قوتهم وضعفهم ، خوفهم وغضبهم ، ألمهم وجراحهم ، وذكرى اتعابهم وجهودهم . كان قراراً عبرَّ عنه أبنرليت بعد ان سكتت الاصوات المتشابكة المتداخلة مع سؤاله .

ــ اننا سنحارب ياجديون . فهل تبقى انت معنا ؟

واجاب جديون : اذا اردتموني انتم .

اننا نريدك .

وأجال جديون طرفه في الردهة وهزّ رأسه بالايجاب . وكان يجر خطواته وهو يتقدم الى الامام ، والاخ بيتر يرقبه ، وقد امتلأت عينا الرجل العجوز بالأسى والالم . ونظر جديون الى ساعته وقال : الساعة الآن تقارب الثالثة ، وان كل مانريد ان نعمله ،

يجب ان ينتهي قبل الظلام . لا اعلم اذا كانوا سيعودون هذه الليلة . قد لا يعودون قبل بضعة ايام . وانا اقترح عليكم هذا :

ان نأخذ عائلاتنا الى البيت القديم الكبير وأن نأخذ لهم الخبز والاغطية والادثرة. ثم انه بامكاننا ان نتركهم هناك طيلة النهار بينما نعمل نحن على تحضير امكنتنا ، وسنشعر على الاقل انهم في مأمن . ونستعمل جرس المدرسة للإنذار إلا انني لا اقترح استعمال بناء المدرسة .

واستدار الى بنجامان وينثروب وقال : ــ لا أعلم ما شعورك تجاه ما نحن فاعلون ياسيد وينثروب . وان هذا الامر لا يهمك او يعنيك دون شك ، وإننا مضطرون الى تعليق الدروس في الفترة الحاضرة .

وفرك وينثروب يديه ببعضهما مضطرباً واجاب : انا لاناصر اعمال العنف ياسيد جاكسون ولا أوافق على ماانتم فاعلون . إلا ان ذلك ليس من شأني ، غير انه لا يجوز ان تترك الاولاد يتراكضون دون نظام في مكان واحد ...

ــ ليس لنا مفرٌ من ان نفعل ذلك .

وقال وينثروب مستسلماً : سأبقى هنا فترة اخرى الى ان

تعود الامور الى طبيعتها ، فان الامور ليست طبيعية عندي من بدايتها .

ـــ اذا اردت البقاء ، فاننا نكون لك من الشاكرين .

ونظر الى القوم وقال : « خذوا كل ما لديكم من بارود وطلقات الى البيت القديم ، وانصح بأخذ بعض الحبوب واللحم المجفف وكل ما تتمكنون من نقله دون ضرر .

وتركوا المدرسة كما اتوا إليها ببطء ودون ان يتكلموا كثيراً ، وجمع كل رجل اولاده وعاد بهم الى بيته . وخرج تروبير وقال لجديون : « سوف لن اترك بيتي » .

ـــ ولماذا ؟

وهزّ الرجل الاسود الكبير رأسه ، وكان يقف الى جانب جديون فيبدو اعلى منه ببضع بوصات وأعرض ببضع بوصات ايضاً . كان كتلة من الرجولة بطيئة الحركة . وقال :

ـــ سوف لن اترك بيتي ومزرعتي ياجديون .

فقال جديون : هذا أمر يعود اليك .

وجاءت كلمات تروبير ، كلمة تتبع الاخرى وقال : انني لا احبك ياجديون . فعندما كنت عبداً رقيقاً ، كان السوط يهوي على ظهري بشدة اكثر مما كان يهوي على ظهرك او على اي

ظهر آخر .. وكانت الشتائم لا تنفك تلاحقني .. ايها الزنجي الكبير ، ياإبن الزنى .. ايها الزنجي البليد يا ابن الحرام .. أنت ايها الزنجي الكبير .. ياأبن الزنى .. لعنة الله عليك .. وقد اشتراني دودلي كارويل في المزاد العلني من اورليانس ، فدفع ثمني اكثر مما دفع من ثمن لأي رجل آخر . كان يفرض عليّ عملاً اكثر مشقة واشد هولاً ، كان يجعلني اعمل صباحاً وظهراً ومساء . لم اكن لأحسَّ بالسعادة ، عند بزوغ الشمس ، او في حلكة الظلام . وعندما كانوا يقومون بجلدنا ، كان المراقب يقول : « اجلد ذلك الزنجي الكبير ابن الزنى » مثلاً فلا يضره ذلك ابداً ورفع ترويير قميصه وقال : « انظر الى هذا الظهر ياجديون . !! . » .

وتوقف الاخ بيتر ، وقلائل آخرون يستمعون ، ونظروا الى الظهر الذي كانت تغطيه آثار السياط في كل مكان وكأنه خريطة مجسَّمة ..

ـــ سوف لن أُبرح مكاني ياجديون . سأبقى انا وزوجتي . لقد قصمنا ظهرينا ، نحرث الارض ونقلبها ، لقد اصبحت املك قطعة من الارض وهي لي وحدي لا سيد لي ولا مراقب . واحس احياناً برغبة ملحة تدعوني لأن أخرَّ جاثياً فأقبل تلك التربة .. ارضي ... نعم هذا ماأحس به بكل تأكيد . اني

املك بيتاً ، اجلس فيه فتأتيني زوجتي بطعامي . وهذا البيت ليس كوخاً للعبيد ، او زنزانة للتعذيب ... بل هو بيتي . وسأبقى هناك يا جديون ، ولا يمكن لاي انسان ان يبعدني عنه

وسأل الاخ بيتر : — واولادك ؟

— انهم سيبقون معي ، وسوف لن يصيبهم أذى .

لو حدث ذلك منذ ثمان سنوات ، لتملّكت جديون ثورة عارمة من الغضب ، ولأجتاحته موجةٌ من التوسل والرجاء . ولكنه لم يزد الآن على ان قال : حسنا يا تروبير ، اذا كان هذا ماتريده ، فليكن لك ماتريد ..

وامضى القوم طيلة بعد ظهر الثامن عشر من نيسان وهم يتنقلون من مزارعهم الى البيت الكبير ، وملأت النساء عربات النقل بالفرش والطناجر والاطعمة وبعض ادوات البيوت الكمالية . كتقويم ، او كتاب او انجيل ، وسلة الخياطة . وان الاحاديث التي كانت تشغلهم لأسابيع خلت ، لم تعد لتشغلهم آنذاك ، وحتى الاطفال هذه الانفس البسيطة التي تسير ببطء ... والذين كانوا يشعرون بالنشوة لهذه الهزة الارضية ، كانوا صامتين على غير طبيعتهم ... وكان القوم سريعي الغضب ينفجرون لاسباب تافهة عديمة الاهمية باتت النسوة يغضبن لاسباب لا وجود لها . لماذا

وضعت هذه الاداة بشكل غير مناسب ؟ .. كيف ديست قدم هذا الصبي ؟ اما ذلك العامل الكبير ، العامل الوحيد المرعب ، فقد قبلته دون تعليق او دموع . فقد تلتقي عند سفح الرابية عربة تقل أسرة بعربة تقل أسرة أخرى في اتجاه آخر ، ويقتصر الامر على تبادل التحيات باشارات من الايدي ، وكانت العربات تتجمع آخر الامر ، وعندما اصبح جميع القوم هناك ، كان البيت الابيض القديم يلتمع بالوان قرمزية وذهبية ، والشمس تنحدر نحو المغيب واشعتها تنعكس عليه .

واصطحب جديون بعض كتبه معه ، اما جيف فقد أخذ معه ادواته وبعض الادوية التي ابتاعها من تشارلستون ، ووضع فراشا فوق عربة القش ، لكي يتاح لذلك البائس الجريح ماك هيو اكثر مايمكن من اسباب الراحة . واخذ افراد العائلة جميع اسلحتهم ، كبارودة جديون الحربية ، وبندقية ماركوس الخاصة بالخيّالة ، وببندقيتين للصيد ، ومسدساً كبيراً ابتاعه جديون من واشنطن في العام الماضي . واخذوا معهم أحسن ما تملك راشيل من طناجر وأوعية وشراشف نظيفة. لقد ارادت راشيل ان لاتخلف هذه الاشياء في البيت فهي عزيزة عليها ، اشتراها لها جديون بالتدريج وكان يدرك كم تحب ان ترى الشراشف البيض النظيفة

الناعمة ، واغطية الوسادات الجيدة ، وقال جيف : يجب اصطحابها جميعها .. ولم يذكر اسباباً لذلك .

فقال أبنرليت لأبنه جيمي الذي يبلغ التاسعة عشر من عمره .

ـــ وما رأيك ؟ ان هذه الايام تختلف عما كانت عليه منذ عشر سنوات . انني اقف الى جانب جديون لان ذلك اصبح نوعاً من العادة . وانت لا يتوجب عليك ذلك .

ـــ ومنذ عام ساعد جديون ابنر في شراء قطعة اضافية من الارض تبلغ مساحتها مئة فدان ، أعدَّت لجيمي كي ينقل اليها يوم يتزوج ، ولقد ذكرّ الولد اباه بذلك .

ـــ انني اعلم ذلك . ولكن لا ترتبط معنا .

ـــ انني سأرحل معكم .

وهزَّ ابنر رأسه والقى ذراعه على كتف ابنه ، وإن هذا العطف لا يبديه الا نادراً . وانتفض الولد واسرع الى البيت ليساعد امه .

كان الاخ بيتر وابناء اللنبي اول من وصل الى البيت الكبير ، وان تلك السنوات الطوال لم تغير من منظر البيت الخارجي كثيراً فقد تغير بعض لونه ، وتساقط بعض الطلاء . وانه

ليبدو عن بعد محتفظاً بجماله القديم ، ووجاهته ، اما عن قرب ، فإنك ترى ان نوافذه محطمة ، وان الاعشاب والادغال نامية باسقة الطول ، وإن الابواب مخلعة لا تتعلق الا بمفاصلها بالرغم من ان جميع الاثاث كان قد بيع في المزاد العلني ، الا ان هذا الفراغ لم يجرد المكان من سابق عظمته . وان السلم الكبير الذي يتوسط المنزل باعمدته الكبيرة ودرابزينه المصنوع من خشب البلوط ، كان يزيد في روعته وجلاله في وسط ذلك الفراغ الشامل . لقد تدّلى الورق الذي كان يغطي الجدران ، سحائب مختلفة الحجوم ، ولكنه كان لا يزال محتفظاً بلونه . وان نطاق الخشب الجوزي الذي نقش بشكل بديع رائع ، كان يبدو وكأنه ينتظر بصبر ، ان تسند ارائك الردهة وكراسيها اليه . وعلى ارض الغرف المصنوعة من الخشب الصلب ، كانت تتجمع من خلال السنين بعض الاوساخ وأوراق الاشجار ، ونفايات جاء بها الاولاد الذين كانوا يلعبون في الغرفة الخالية .

ولما كان الاخ بيتر قليل الاثاث والممتلكات ، كان من السهل عليه ان يألف التغير الجديد ، وجاء معه الصبيان الثلاثة الذين كانوا يعيشون معه منذ ان مات الشيخ اللنبي ، وبدأوا بالعمل فوراً وانهمكوا في تنظيف المكان بالمكانس . وبعد وهلة

انضم اليهم آخرون ، لم يكن من السهل التخلص من ركام من الاقذار ، تجمع اثناء السنوات العديدة ، ولكن عندما بدأت الأسر بالتوافد الى المكان ، فقد اصبح البيت الكبير على درجة جيدة من النظافة . وتكلف جديون بادخال القوم الوافدين وبالرغم من ان البيت كان يتألف من اكثر من عشرين غرفة ، فقد كان من الضروري ان يعيش القوم حياة متوعكة ، وكان على الرجال ان يناموا في الغرفة التي كانت فيما مضى ردهة للاستقبال . وعمل جديون على تقسيم غرف النوم بين العائلات المختلفة مجرباً ان يجعل المرأة واطفالها في غرفة واحد ماامكن . وكان في بعض الحالات يضطر الى اعطاء الاسرة غرفة كاملة كما حدث لعائلة جاك سوثر المؤلفة من جدة وامرأة واختها وثلاث بنات . وكان على من يزيد من الرجال ان ينام في غرفة الطعام مع الفتيان الذين لا يتجاوز اعمارهم التاسعة عشر ، وهُيئت هذه الغرفة لان تُستعمل في فترة النهار كغرفة طعام ومدرسة يبقى فيها الاطفال . وَوُضع الطعام والمؤن في الغرفة الملحقة بالمطبخ ، وعيّن جديون طائفة من النساء لتقسيم الطعام وتحضيره والاشراف على الطبخ ، وطائفة أخرى لتنظيف المكان . وألصق الرجال الورق على النوافذ المحطمة الزجاج . وتسلق هانيبال واشنطن واثنان آخران خزان

الماء ، عاملين على اصلاحه وجعله في حالة يمكنهم معها استعماله . ولأن هذا الخزان ، يقع بين جناحي البيت ، ولا يبعد الا بضعة خطوات عن باب المطبخ ، فقد رأى جديون ان يخزن فيه الماء خيراً من جمع البراميل ووضعها في المنزل . وكان الخزان نظيفاً عند الغروب . وأوعز هانيبال واشنطن الى فئة من الاولاد باملائه من ماء البئر وفي تلك الاثناء ، ارسل جديون نحواً من ست عربات كبيرة لنقل بعض الاخشاب .

وقد جلب بعض القوم الذين لهم اطفال صغار ، بقراتهم معهم . واحضروا لها بعض الحشائش اليابسة لاطعامها مايكفيها بضعة ايام . وبما ان اسطبلات كارويل ومستودعات التبن فيها كانت قد احرقت منذ زمن بعيد ، فقد حَظّر جديون البقرات في المحل الكائن بين جناحي البناء واقام حاجزاً في الطرف الآخر من عربات النقل .

لابد ان يأخذ العجب بالمرء اذا ما نظر الى الاعمال التي تمت قبل ان يخيم الظلام ، وان هذا العامل نفسه قد رفع من معنويات القوم كثيراً . ولم يكن بينهم احد من الغرباء فيما خلا وينتروب . وان اولئك الذين لم يعرفوا بعضهم منذ الولادة ، فقد تعارفوا فيما بعد واصبحوا اصدقاء تربطهم اواصر المودة منذ

سنوات عدة ، وان العادات والصفات التي قد تكون مزعجة للآخرين ، لم تكن كذلك بالنسبة لهم . وكانت لهذا الامر الجديد الذي طرأ عليهم فغدوا يعيشون معاً ، روعة ترافق كل جديد ... كل يشارك الآخر آلامه ومتاعبه ، ويجلسون معاً ، ويتسامرون ويتباحثون حتى ساعة متأخرة من الليل خلافاً لما اعتادوا عليه . وكانت الشمعدانات والثريات الكبيرة ما تزال معلقة في البيت الكبير ، فاسرف جديون في استعمالها ، واشعل في كل منها اثني عشرة شمعة واسبغ النور الساطع الذي كان ينبعث منها على المكان جواً مرحاً .

وقسّم جديون الرجال الى لجان ، ويكفي ان يبقى في البيت (عشرة رجال ، وهذا يعني انه يصيب الرجل يوم واحد في الاسبوع يلازم فيه البيت بما في ذلك الفتيان الكبار) وما عدا ذلك تقوم لجنة بالاعتناء بالخيل ، واخرى بصفتها مجلساً قضائياً في البيت . فقد تسير الامور بشكل حسن هذا المساء ، الا ان العيش معاً ، قد يثير اعصاب القوم . وقد تحدث بعض الاختلافات والنزعات فلا بد من حلها جميعها . وكانت الى جانب ذلك آلاف الاعمال الصغيرة التي يمكن للاولاد القيام بها فيؤمن بذلك شرهم . انهم لم يفكروا في المستقبل البعيد ، واذا ما

فعلوا ذلك فقد كان يخيم عليهم جو مقيت من الحزن .. جل ما كان يعنيهم هو اليوم التالي على اكثر تعديل .

وضع جديون لنفسه منضدة من بعض قطع الخشب والصناديق ، وكان هنالك كثير من الكراسي جلبها الكثيرون ، فقد كانت هذه الوسائل الضرورية موجودة ولا بد منها كي يشعر المرء بالراحة . وبعد انقضاء الفوضى التي رافقت تناول الوجبة الاولى للطعام التي طُبخت للجميع معاً جلس جديون لكي يكتب بعض البرقيات . انه سيرسل واحدة منها الى رئيس تحرير صحيفة نيويورك هرالد فان رئيس التحرير هذا ، يرسل مراسيله الى جهنم ويقذفهم جميعاً ، الى امواج البحر الغاضب ، كل ذلك في سبيل ان يأتوه بقصص لا تعادل قيمتها ، نصف ما تعادله الحوادث التي قد تحدث في كارويل . وسيرسل برقية اخرى الى رئيس الجمهورية ، وثالثة الى سكرتير الدولة ، ورابعة الى زعيم الزنوج الكبير ، فريدريك دوغلاس . وأخرى الى كاردوزو يشرح لهم فيها ، الوضع الراهن المؤلم ، ويوجه اليهم نداء اخيراً للسعي الى تضافر جميع القوى في الجنوب على عمل موحد مشترك . وكتب في رسالته الى كاردوزو : انني ارجوك يافرانسيس ، بأنّا لسنا وحدنا . فهناك آلاف الرجال الطيبين

الشرفاء في الجنوب من سود وبيض ، قد يتحدون ، ويشعرون بالحياة تعود الى انفسهم ، اذا ماسمعوا ان الشعب هنا في كارويل ، قد رفض ان يرضخ للظلم والطغيان والرعب ، وبأن الجميع قد رفضوا ايضاً ، الفكرة القائلة بان هذه الامور هي شيءٍ لابد منه .

وكتب برقية الى رالف واندو ايمرسون ، كي يرفع مع الرجل الشيخ صوته ثانية دفاعاً عن العدالة والحق . وكان جديون كلما انتهى من كتابة برقية من البرقيات يناولها الى الرجال فيقرؤونها ويبدون الرأي فيها ، وعندما انهى عمله ، انفرد بماركوس وقال له :

ــ اريد منك ان تقوم بهذا العمل ياولدي وهو أمرٌ هام .

وهز ماركوس رأسه .

ــ إذهب الى كولومبيا ، واريدك ان تذهب هذا المساء وبامكانك ان تصل الى هناك عندما يفتح مركز البريد ابوابه في الصباح . خذ الحصان معك ، وسيعيرك ابنر سرج حصانه ، يجب أن ترسل هذه البرقيات مهما حدث . ثم عد إلينا .

فقال ماركوس : سأعود .

وسار جديون معه الى الخارج قبل ان يغادرهم ، وكان

ماركوس ينتعل حذاء عالياً ، ويحمل تحت ردائه مسدس « الكولت » الكبير ، ويضع في جيبه البرقيات . واشار بيده مودعاً ، وذهب وهو واثق من قدرته على تنفيذ العمل الذي أُوكل اليه . كان ممتلئاً بالحياة والنشاط ، وكانت الليلة مقمرة جميلة ، يطيب للمرء فيها ان يسري الى كولومبيا . وان باستطاعة هذه الفرس الصغيرة ان تسابق الريح في عدوها فلن يوقفها شيء ، ولن يمسك بها احد ، وبعد ساعات قليلة ، سوف يعرف جميع الناس في ادنى البلاد واقصاها ماذا يحدث في كارويل . وكان جديون يرقبه بفخر ، انه ولده ، انه رجل شاب نظيف ، مفتول الاطراف ، مملوء بالحيوية والفخر والشجاعة ، انه شهادة كافية عما كان عليه القوم في السنوات الماضية ، وان المستقبل كفيل بنفسه . وسأل ماركوس « الا يتملكك بعض الخوف ؟ » واجابه الولد بابتسامة وانصرف .

وخرج جيف بينما كان اخوه ممتطياً صهوة الجواد فضغط بيده على فخذ الفتى وقال له : « اتمنى لك حظاً سعيداً » .

واجاب ماركوس وقد اطبق اسنانه وابتسم وفي صوته معاني الاطراء والاحترام : شكراً لك ايها الطبيب سأعود ومعي لك صندوق من حبوب الادوية . وانصرف بعد هذا وجواده يسير

الهوينا منحدراً على الرابية ، آخذاً طريقه الى جانب الخرائب التي كانت يوماً اكواخاً للزنوج .

وبعد ذلك بقليل كان جديون مستلقياً على فراش صغير في غرفة الاستقبال . وكم كان من الغريب ان يستلقي امرؤ هناك ومن حوله قوم يلهثون ويتكلمون بأصوات مبحوحة ... ان الحركة لا تنقطع واشعة القمر الفضية تتدفق من النوافذ الطويلة فتضفي جواً خيالياً حتى ليعتقد المرء انه في حلم . وعاد جديون في حلمه هذا الى ايام بعيدة ، بعيدة جداً . يوم كان في الجيش متمدداً في مخيم بعيداً عن كارويل وهو منهوك القوى ، بعيداً عن زوجته الحبيبة الفتية راشيل ، بعيداً عن الاطفال الذين خلفهم وراءه ... وكم من فترات تمر على الانسان توجب عليه فيها ان يقوم بواجبه ولو كان ذلك قاسياً وشاقاً . وفيما هو مستغرق في حلمه يفكر في اشياء كثيرة حدثت منذ زمن بعيد ، راح في سُبات عميق ... استيقظ بعد وقت لا يعلم مدته على صدى طلقات صادرة من وراء الوادي ، طلقات مختلطة متشابكة خيم بعدها السكون وران صمت عميق .

لم تكن (كاني ترويير) قد قالت لزوجها شيئاً ، فقد كانت تحبه وتخاف منه في وقت واحد . وكان اقوى رجل في

كارويل وله اضخم جثة . ومع ذلك فقد كان بامكانه ان يكون لطيفاً وديعاً وكأنه إمرأة ، وكان من السهل حمله على البكاء حتى وتتساقط دموعه او اشعال نار غضبه دونما صعوبة . و (كاني) كانت تدرك ذلك فاصبحت حياتها مع رجلها مليئة بالسعادة ، على الرغم من انها كانت صغيرة الجسم ، وغير جميلة ، فقد كان تروبير مهذباً معها ولم يرتكب الخطيئة مع نساء اخريات ، بل يقدم لها ما تحتاجه ، ولا ترتفع يده عليها او على الاطفال .

وصحيح انه كانت له طرقه الخاصة ، او انه عندما يرتسم في فكره امر فهو القول الفصل ويجب على كاني ان تسلم به ، وعندما يقول « كلا » فإنه لا يريد بذلك ان يذيع صيته كما يفعل غيره ، فقد كان اسم تروبير اشهر من ان يذكر ، لقد كان اسمه دائما ، وانه سيبقى كذلك لقد كان يتوجب على كاني ان تتقبل كل ما يقوله ولا فائدة من النقاش فيه . ولهذا عندما قال انه سيبقى ، فان كاني قبلت بالامر الواقع واخبرت ابنتيها بانهم سيبقون هناك بالرغم من انها احست بقلبها يكاد يفارقها عندما رأت العائلات تمر في طريقها الى بيت المزرعة الكبير . ولكن ماذا يمكنها ان تفعل ؟ وعندما حلَّ الظلام ، وبدأ بيت تروبير يغيب في

بئر من الوحدة المخيفة ، احسَّت بأنها ترزح تحت وطأة صدمة من الرعب ، غير انها اخفت ذلك عن زوجها .

ولم تنم مطلقاً تلك الليلة ، بل كانت مستلقية وهي تصغي الى جانب جسد تروبير . اما هو فقد نام ولم يخف احداً . ان هذا ملكه ، ومن يستطيع اخراجه منه ؟ غير ان كاني كانت تفكر في جميع القوى التي قد تظهر ، وعندما كانت الدقائق والساعات تمر ، سمعت شيئا فأيقظت تروبير وقالت له :

ـــ استمع

ـــ ما هذا ؟

واصغى فسمع اصوات وقع حوافر خيل سريعة . وانسلّ تاركا الفراش وارتدى سرواله وتطلع الى باردوته فرآها في ضوء القمر الذي كان يملأ الغرفة ، وهمَّ بالخروج حافي القدمين وهمست كاني قائلة :

ـــ الى اين ذاهب ؟

ـــ الى الخارج ، وابقي انت هنا .

فخرج وتوقف امام البيت الصغير ممسكاً ببارودته ، وتذكر انه لا يحمل معه طلقات لها ، فعاد وملأ جيوبه منها . وتحرك

الاطفال ، فهدّأهم ، وكانت كاني ترقبه دون ان تقول شيئاً ، وعاد فوقف ثانية بجسمه الجبار امام البيت في ضوء القمر .

وقف هناك يصغي وعضلاته المنتفخة الكبيرة تتحرك عند كل حركة من حركاته وقد تعرّى جسمه حتى وسطه

وتوقف وقع الحوافر ، ثم عاد باتجاه بيت جديون . وبدأ الصوت يضيع عند اشجار الصنوبر التي تغطي الطريق . وهنا حيث تعود الطريق الى الظهور بوضوح تحت ضوء القمر ، بدا لتروبير عدد من الرجال يزيدون على الثلاثين ، مجتمعين معاً ، وقد ارتدوا جميعهم ألبسة بيضاء ، ووضعوا على رؤوسهم اشارة الكلان ، وتنفس بعمق ، وشتم بهدوء إلا أنه لم يتحرك . وغابت الطريق عن الرؤية ثانية وتوقف صوت الحوافر . لقد توقفوا عند بيت هانيبال واشنطن ، وانهم اقتربوا الآن ، وبامكان تروبير ان يسمع جلبة أصواتهم وسمع وقع الحوافر من جديد وكان بيته يأتي مباشرة على الطريق ، ووقف ثابتاً في مكانه ، وقد باعدَ ما بين رجليه ، وانتفخ صدره .

ورآهم بعد وهلة على الطريق المظللة بالاشجار ، وبدأ كلبه بالنباح ، وكان كلبا ممتازاً ، انقضّ بوحشية وبلادة على كتلة الخيول . وتقدموا ببطء وتؤدة ، وخيولهم تمشي الهوينا ، وعندما رأوا

تروبير ولمحوه كعمود اسود لامع لا يشبه الانسان ، ورأوا بارودته الطويلة ، اندفعوا جانباً ، وتوقفوا لحظة ، ثم تابعوا سيرهم ببطء بإتجاهه . وسأل بصوته العميق المشوب بالغضب والكراهية « ماذا تريدون ؟ » . وجاءت كاني الى الباب فرأت الرجال على ظهور الجياد ، وانخرطت بالانتحاب بشكل جنوني . وقال رجل في المقدمة :

ـــ إننا نريد هانيبال واشنطن ، واندرو شيرمان ، وانت ..

وقال تروبير ـــ انكَ تريدني .

ـــ إلقِ هذه البارودة ارضاً .

ـــ انكم تريدونني ... كرر تروبير قوله بصوته المنفجر بالبغضاء وكأنه طبل نحاسي طنان ـــ انكم في ارضي ، لعنة الله عليكم يا اولاد الخنازير اذهبوا من هنا ..

وسمع الكلب سيده ، فبدأ ينبح بوحشية ، وامسك بقائمة احد الخيول ، فتراجع الحصان ، وقال احدهم : أسْكِت هذا الكلب المنحوس . وانطلق صوت مسدس في الفضاء ، وتدحرج الكلب على قفاه ، منقلباً من جانب الى آخر . واستشاط تروبير غضباً وأمتلأ وجهه ثورة ، فأخذ بارودته واطلق ، وتراخى احد الفرسان ، وتمايل في سرجه ثم سقط ، وبقي معلقاً بإحدى رجليه

في الركاب . وضربت الخيل بقوائمها الارض بعصبية ، وأطلقت نحواً من ستة بنادق النار معاً ، وتساقطت الرصاصات على جسد ترويير وكأنها المطارق ، ولكنه بدأ يسير نحو الامام ، والدم يتدفق كالينابيع الغزيرة من صدره الكبير ، وكانت زوجته تولول بجنون ، وصرخ احدهم :

ـــ اقتلوا ابن الزنى هذا .

ـــ ودوى صوت طلقة من بندقية ، وتعثر ترويير ، وكانت الجياد تقترب منه وتدور حوله ورفع بندقيته وهوى بها ، فلاقت في طريقها يدَ احد الفرسان وهي ترتفع لتدرأ بشدة الضربة ، وكسرت الذراع وكأنها غصن شجرة يابس وهوى بها ترويير ثانية ، فأستقرت في جسمه فحطمت له عظم الترقوة وغاص عميقاً في صدره ، وكانت ضربة قوية كسرت اخمص البارودة . وقد اصبح من الصعب والحالة هذه اطلاق النار على ترويير دون اصابة الآخرين . وأمسك ترويير برجل ثالث فاسقطه عن ظهر جواده ، وضرب بالتاعس الارض كما يضرب الكلب جرذاً صغيراً . وترجَّل فارس آخر ، ووضع فوهة بندقيته على ظهر ترويير واطلق النار . وجمد الجسد الجبار ، وسقط كأنه كيس فارغ . وكان الرجل الذي اسقط من على ظهر جواده ، متمدداً وهو يجأر متألماً ، في

حين كان الآخر الذي كسرت ذراعه وعظم ترقوته يئن ويصرخ بأصوات لا يمكن ان تصدر عن مخلوق بشري ، وظل الآخرون يطلقون النار على جثمان تروبير الفاقد الحياة وقد ترجلوا عن جيادهم جميعاً . وكانت كاني قد تركت البيت راكضة نحو زوجها فأمسكوها وجردوها من ثوب نومها الناعم وطرحوها ارضاً ، وامسكوا بفخذيها مجبرين ان يباعدوا بينهما ، وافلتت منهم ، فضربها احد الرجال باخمص بندقيته على رأسها ضربة شقت جمجمتها فماتت فجأة ، وتراخت اطرافها على الارض دونما حياة او معنى .

وصرخ احدهم :

ـــ لعنة الله عليك ايها المعتوه ياابن الكلب .

ووقفوا هناك يحدقون بالجسد العاري الذي اصبح ولا فائدة تُرجى منه . وكان الرجل الذي اطلق تروبير عليه النار قد فارق الحياة ، واجتمعوا حول الذي كُسِرَ عظم ترقوته . ورأوا الدم يتدفق كينبوع غزير من شريان مقطوع ، وكان في حالة النزاع الاخير .

وقصدوا البيت ، وكان كل شيء هادئاً الآن . وذهب احدهم الى الاسطبل وعاد ببعض الحشائش الجافة ، فألقى بها

من باب البيت المفتوح ، واشعل آخر عوداً من الثقاب ، وما زالوا يطرحون فوق النار حشائش جافة الى ان احترق جدار البيت الامامي بكامله .

ــ وابتدأت الطفلتان بالصراخ . كانتا خائفتين دون ان تدركا سبب هذا الخوف ، وانفجرتا بالعويل : ووقف الرجال يسمعون ويرون وقد شملهم الاضطراب ، وقال احدهم :

ــ هنالك اطفال .

وعلّق آخر على قوله :

ــ هنالك كثير من اطفال الزنوج لعنة الله عليهم جميعاً .

ــ والى اية جهنم ذهب بقية الزنوج ، ابناء الزنى ؟

ــ اتسألني ؟ انهم جميعاً في بيت كارويل الكبير القديم .

وقال الرجل الذي تكلم اولا :

ــ عد يا هاري الى البلدة ، واسأل بنتلي الى اي جهنم ذهبت الفئة الاخرى من رجال مقاطعة « كالهون » ؟ لقد قال انه سيرسل مئتي رجل الى هنا هذا المساء . وفي اي بقعة من الجحيم هم الآن ؟ وقل له ان ماني كلارك وهيب لوسون قد ماتا .

وعاد بعد قوله هذا الى مراقبة البيت وهو يحترق .

* * *

استيقظ جميع الرجال النائمين في غرفة الاستقبال ، على صوت الطلقات النارية ، وتزاحموا على النوافذ ، ينظرون الى التلال المضاءة بأشعة القمر . كانت تبدو هادئة ساكنة قبل ان يسمع صوت الطلقات يتردد في كل ناحية . واندفعوا راكضين وكل يحمل بندقيته الى الشرفة الكبيرة ، ويود لو يخترق بنظره الظلام في تلك الليلة المقمرة . وصرخت النسوة من الطابق الاسفل قائلات : « ما الخطب ؟؟ وماذا جرى ؟ » واستيقظ الاولاد وبدأوا يثرثرون باهتياج .

وذهب بعض الرجال يطوفون حول البيت . الا انهم لم يروا شيئاً .

وكان ماركوس اول من فكر به جديون ، الا ان الساعة كانت آنئذ الثالثة صباحاً ، وما من شك في ان ماركوس يبعد الآن اميالاً عن المكان . ووقف جديون في الرواق وقال لابنر ليت :

ــ من اين تأتي هذه الطلقات على ماتعتقد ؟

ــ يبدو انها تصدر عن الوادي ، هنالك حيث يعيش تروبير في مزرعته . لقد تذكروا تروبير الآن . ونظر الرجال كل الى

صاحبه . وقال فرانك كارسون لافتاً نظر هانيبال واشنطن :

ــ ايها الاله ! يايسوع المسيح ، انظر هناك !!!

وفي السماء كان يلتمع احمرار غريب فيتزايد ويتزايد . وبدا وكأنه مستودع يحترق في البدء ، الا انهم ادركوا بعدئذ ان الامر اكثر من مستودع يحترق ؛ وارتفع اللهيب في السماء ، وصرخ احدهم وكأنه يعبر عما يدور في بخلدهم :

ــ بيت تروبير ...

ــ وابنتاه الصغيرتان ...

وانحدروا من الشرفة مسرعين ، الا ان جديون دعاهم للعودة اليه :

ــ لا تفقدوا صوابكم ، أستحلفكم بالله ألا تفقدوا وعيكم . أبقوا هنا ، واذهب انت يا هانيبال الى هناك وانظر ماذا جرى ...

وهزَّ هانيبال واشنطن رأسه وانطلق مسرعاً وكأنه السهم . وبدا وهو يختفي تحت ضوء القمر رجلا صغيراً وكأنه الظل . وخيم السكون بعد ذهابه ، وكان بعض الرجال يراقبون جديون الذي قال :

ــ اننا سنبقى معاً منذ الآن . لقد طلبتم مني ان أتولَّ

القيادة حسناً .. إذن نفذوا أوامري او ابحثوا لكم عن رجل آخر .

وقال أبنر بلطف :

ــ حسناً ، حسناً ياجديون .

ــ انتم ياجيمس ، وأنْدروا ، وأزرا .. ليقف كل منكم في زاوية من زوايا المكان على بعد ثلاثين ياردة من البيت ، واصرخوا لنا اذا ما سمعتم او رأيتم شيئاً .

وذهب الثلاثة . وجاءت بعض النسوة الى الشرفة ، وبدأن يهمسن في آذان رجالهنَّ ، فطلب جديون اليهن ان يعدن الى المكان المعين لهن ويعملن على حمل الاولاد على النوم . إلا أنَّ احداً من سكان كارويل ، لم يُغمض له جفن في تلك الليلة . وكان الوقت يمضي ولم يحدث ايُّ شيء . وتفرق القوم جماعات جماعات ، يتباحثون ، ويتناقشون باصوات جشه ، ويتهامس هادىء متقطع ، كل يود لو يعرف ماذا ستئول اليه حالهم وجلس البعض على درجات السلم العريضة الواسعة ، واستند آخرون الى الاعمدة التي كانت تنتصب متحاذية امامهم وقد اضفى عليها الظلام قوة وجبروتاً وهيبةً ...

كانوا جميعاً ؛ يحدقون النظر في التلال والمرتفعات حيث

لف الظلام هانيبال واشنطن فأختفى في حلكة الليل . ولم تمض ساعة على ذهابه ، حتى ابصروا رجلاً يتحرك .

ـــ هانيبال ؟

وصعد اليهم راكضاً ، وقد بلله الندى من رأسه حتى اخمص قدميه . والتقط انفاسه قبل ان يخبرهم بكل مارأى ؟

ـــ اين الاطفال ؟

ـــ وهزّ رأسه وأجاب :

ـــ اعتقد انهم قد ... احترقوا . لقد زحفت مقترباً ما امكنني ، ورأيت الرجال بوضوح ، وسمعتهم يتكلمون .

ـــ وسأل جديون وهو شارد الذهن .

ـــ وماذا سمعت ؟

ـــ انهم ينتظرون قدوم نحو من مئتي رجل ، وسيأتون من مقاطعة كالهون . وان فرع مركز الكلان في جنوب هذا المكان وقد يكون في جيورجيا على ما اظن ، وسيرسل هذا الفرع بعض رجاله ايضاً . ثم انهم يعلمون اننا هنا في البيت .

وابتدأ ولد في السابعة عشرة بالقيء . كان منحنياً على جانب الشرفة يُخرج ما في جوفه بأيقاع مؤلم مستمر . وكان الوميض يتضاءل ويختفي . إلا أنَّ الرجال كانوا يحدقون النظر في

اتجاه آخر . وهناك وراء الاشجار المظلة ، ظهرت بقعة جديدة حمراء وردية ، وإذ كانت تتصاعد مرتفعة في كبد السماء ، نظر الرجال كل بدوره ، الى ابنرليت . كان واقفاً في الرواق وقد اطبق قبضتي يديه الحمراوين القويتين ، وبدأ يعض على شفته السفلى الى ان سال منها الدم على ذقنه . وابتدأ يبكي فسالت الدموع منحدرة على خديه ، ولكن وجهه المتطاول ، المحترق باشعة الشمس ، كان جامداً لا يختلج ، وهمس قائلاً :

ـــ ابناء الزنى .. يعمل الانسان .. ويبني .. ويهيىء للمستقبل ، ويحلم ... لعنة الله عليهم ...

وقال هانيبال واشنطن :

ـــ جديون ، لماذا لا نوقفهم قبل ان يحرقوا كل ما في المكان من منازل ؟

وهزّ جديون رأسه وقال :

ـــ انهم يريدوننا ان نخرج من هذا المكان ، ولهذا فهم يقومون باحراق المنازل .

وقال ابنر ليت :

ـــ انني ذاهب الى هناك حيث هم .

ـــ كلا . لن تذهب . لقد تركنا ترويير هناك . والآن يتمدد جسده هناك فاقداً الحياة والى جانبه زوجته .

ـــ انني ذاهب ياجديون .

ورفع جديون صوته . وكان بارداً قاسياً .

ـــ لن تذهب .

وفي هذه الاثناء ، حدث شيء جديد . وقد صرخ ابنر غولدن وسُمع وقع حوافر خيل كثيرة العدد وهي تسير الهوينا . ولمعت من خلال طبقة الظلام الرقيقة اشكال الرجال المقنعين ، حيث توقفوا على بعد مئة وخمسين ياردة وبدوا كتلة من الفرسان يرتدون البسة بيضاء ، ويتجاوز عددهم العشرين ، ومن خلفهم يتبعهم آخرون .

ـــ هاي ... انتم هناك .

وصرخ جديون قائلا :

ـــ ماذا تطلبون ؟ ومن انتم ؟ وانطلقت هذه الكلمات تشق الظلام ، وترتفع وتنخفض ...

ـــ انك تعلم جيداً من نحن ياجاكسون ، وتعلم اننا نريد الرجال الثلاثة .

وأجاب جديون :

ــ لا فائدة من الاجابة ... لا فائدة .

ــ اننا قادمون لأخذهم . ياجاكسون . فإمَّا ان نأخذهم وإما ان نحرق كل بيت في هذا المكان .

فقال جديون لرجاله بحدة :

ــ انتشروا حول البيت . وابقوا منبطحين ولا تطلقوا النار الا عندما يصبحون على بعد خمسين ياردة . وانتشر الرجال في كل مكان وهم يزحفون ، والذين كانوا على الشرفة انبطحوا متمددين ، ووقف جديون وابنرليت والاخ بيتر الى جانب بعضهم وكأنهم أعمدة دُقت في الارض ، فهي قوية ومتينة . ونظر جديون الى ابنر فرآه مُسَدِداً بندقيته الطويلة القديمة ، واقفاً دون حراك وكأنه قطعة قُدْت من صخر ، وما زالت الدموع تنحدر على خديه . فقال الاخ بيتر : فليسامحنا الله ... اغفر لنا يارب .. ورفع جديون بندقيته هو ايضاً وسدَّد ، لقد مضى وقت طويل . لم يسدد به هذه البندقية الى قلب رجل . ليس في الكون عمل اكبر جنوناً واكثر حماقة من القتل ، ومع ذلك فلم يكن آنئذ مثله شيء يقرر ما الصحيح وما الخطأ . وتقدم الخطر الابيض نحوهم وهو يسير خبباً بادىء الامر ثم تبطأ بعدئذ وعندما بلغوا مسافة

مئة ياردة ، انطلق وميض من بندقية ابنرليت وسقط فارس من على جواده . وبدأ الرجال ذوو الاردية البيضاء باطلاق النار . وعندما بلغوا مسافة خمسة وسبعين ياردة بدأ اطلاق النار من جانب البيت بالرغم من تعليمات جديون فسقط فارس ، وصرخ آخر متألماً . وتوقف الخطر الابيض متردداً ، وعاد متقهقراً ، باسرع ما يستطيع ، واختفى في الظلام .

وتقدم الرجال على الشرفة ببطء . وعلى العشب كان اثنان من الكلان ، مستلقيين هناك ، وذهب اثنان من رجال كارويل ، وازاحا عنهما قناعيهما . كلاهما كان فاقداً الحياة ، وكانا غريبين لم يرَ وجهيهما احد من سكان كارويل قبل الآن .

لم يُصب احد من سكان كارويل بأذى في الهجوم الاول . ولكن الزهو الذي سيطر على القوم آنذاك ، لم يلبث ان فارقهم عندما ابصروا وميض نيران جديدة في السماء . وكلما احترق بيت وتلاه بيت آخر كان ذلك اشارة الى دمار رجل وتعذبه وآلامه .

واجتمع الاطفال والنساء معاً ، واخذوا يراقبون الحرائق وهي تتعالى ... وبزغت الشمس ... والبيوت مازالت تحترق ، مرسلة دخاناً اسود متصاعداً متعرجاً الى كبد السماء .

وطبخت النسوة طعام الافطار . وتناول القوم طعامهم . وكانوا يتبادلون الكلمات القليلة ، ولا ترتسم على شفة احد منهم ابتسامة . وكانت ثمة فكرة معزية وحيدة ما تفتأ تتردد على ذهن جديون ، وهي ان ماركوس قد ارسل البرقيات الآن .

وكان ماركوس قد انحدر بفرسه في طريق فرعية تقتصر المسافة ، مجتازاً مروج كارويل حيث كانت تُربَّى في الايام القديمة خيول تخصص للركوب لا للعمل . وبسلوكه هذه الطريق تجنب المستنقع والطريق المرتفع الجديد الذي يجتازه ، ومالبث ان اصبح على الطريق الرئيسية . وانطلقت الفرس الصغيرة في جنب هادىء حيث كان بامكانها ان تثابر على هذه السرعة الساعات الكثيرة . وكانت الطريق المضاءة بنور القمر خالية هادئة .

وان المرء ليستطيع في ليلة كهذه ، تهب فيها نسمات الهواء العليل البارد فتلفحه بلطف ، ان يذهب الى جهنم ويعود منها ثانية . وبعد ان ابتعد ماركوس نحواً من ثمانية اميال عن كارويل ، توقف ليُريح راحلته . وسمع صوت فرسان كثيرين قادمين . فترّجل وقاد فرسه الى مجموعة من اشجار الصنوبر وهمس في أذنها ولمس بيده أنفها الناعم ، وبينما كان واقفاً هناك ، رأى عدداً من الرجال يبلغون العشرة ، ممتطين جياداً ويرتدون

البسة بيضاء ويحملون اشارة (الكلان) وانتظر ماركوس الى ان اصبح بنأى عن انظارهم وسمعهم ، فركب فرسه وتابع سيره .

ولقد اضطرب بادىء الامر بسبب هؤلاء الفرسان ، وكان من الواضح انهم يقصدون كارويل وفكر في ان يرجع في طريق مختصرة ويطلق لفرسه العنان حيث تعود باسرع ما بامكانها ، فيصل الى كارويل وينذر قومه هناك ولكنه ناقش الامر ، فوجد ان عشرين رجلاً لا يمكنهم مهاجمة البيت ، وان أباه لابد ان يكون يقظاً ومستعداً لكل طارىء ، وإنه إذا ما حاول العودة فقد يحيطون به ويقتلونه وكانت هذه الافكار تراود رأسه وهو منحن الى الامام على سرج فرسه وهي تنطلق مسرعة والطريق تنزلق من تحته والساعات تمر سراعاً . وإذ كان في ريعان شبابه فلم يلبث ان نسي الحالة في كارويل وتملكه الشعور بالرغبة في انهاء المهمة الموكولة اليه . فتكلم ماركوس الى الفرس مغتبطاً :

« انتِ ايتها الفرس الممتازة .. انت جميلة ايتها الفرس الصغيرة . انت جميلة بكل تأكيد . لكِ قلب كمدفع قوي يقذف قنابله ... لك قلب كشمس كبيرة يتبزغ وعندما تغير لون السماء ، فأضحى أغبش وقد بدت طلائع الفجر بالظهور شدّ ماركوس عنان الفرس فسارت الهوينا وابتعد مسافة قصيرة ثم

انحرف عن الطريق الى مرج قريب . كانت الفرس تتنفس بصعوبة ، وكلاهما اصبح منهوك القوى ويحتاج الى الراحة . ولفّ الاعنه على يده واستلقى على الارض لحظة ليتمالك انفاسه .. انه لا يتمكن من النوم هنا فوق الارض الرطبة القاسية ، واطبق جفنيه مدة ظنها لحظة فقط . وايقظته الفرس وهي تشد اعنتها والشمس قد ارتفعت في كبد السماء . وعندما نهض بنفسه من على الارض ، تقدمت الفرس واحنت رأسها فوقه تداعبه ، ونظر الى ساعته فرأى انها الثامنة ، وانه قد نام مدة ساعة كاملة . واعتلى ظهر راحلته ، ودفعها ، فسارت تقطع الطريق ، وبعد العاشرة بقليل كان في كولومبيا .

وكان الناس يطيلون النظر اليه وهو يسير في احياء السكن وقد خيمّ على المدينة جو خاص ، حالة نفسية خاصة ، حالة تدعو الى الاحتراس والحذر ، وذهب مباشرة الى مكتب البريد الغربي فربط فرسه الى الحاجز الخشبي ودخل . كان متعباً والغفوة القصيرة لم تنعشه تماماً . واراد ان ينهي مهمته ويخرج من البلدة فيجد لنفسه مكاناً ظليلاً في غابة من غابات الصنوبر يستلقي فيه وينام ، ولم يكن الولد ذو الوجه المنتفخ هناك ، ولا يوجد

سوى حامل البرق وهو رجل اسمر يبلغ الاربعين من العمر . ونظر في وجه ماركوس لحظة قبل ان ينهض ويأتي الى المنضدة .

ـــ ماذا تريد ايها الصبي ؟

والقى ماركوس البرقيات امامه وقال : ارجو ان ترسل جميع هذه البرقيات .

ونظر العامل الى الأوراق وقال :

ـــ ان هذا يكلف مبلغاً كبيراً من المال ايها الصبي .

واخرج ماركوس خمس اوراق من ذات العشر دولارات وطرحها على المنضدة .

ـــ ان هذا مبلغ كبير من المال بالنسبة لزنجي .

لقد قال جديون لماركوس : ارسل البرقيات ، وانا اثق بك ، وقال ماركوس بوضوح :

ـــ ان هذه البرقيات للنائب جاكسون ، وهو الذي اعطاني المال .

ـــ اهو الذي اعطاك المال ؟

وقال ماركوس :

ـــ ارجوك ايها السيد . لقد قلت لك انه هو الذي اعطانيه .

وبدأ العامل بقراءة البرقيات ثم نظر باستغراب الى ماركوس بثيابه المغبرة الملطخة بالأوحال ثم نظر الى الفرس . ووضع ماركوس يده في جيب ردائه وامسك بمسدسه . وتابع العامل قراءة البرقيات . ثم امسك بها جميعاً وقال :

ـــ حسناً ايها الصبي سأرسلها . وتطاول ليأخذ الخمسين دولاراً .

وقال ماركوس :

ـــ ارسلها الآن وانا هنا .

وقال الرجل وبصوته مرارة وغضب :

ـــ والآن انظر ايها الصبي . ان ارسال هذه البرقيات يتطلب وقتاً ، وانا لا اريد ان ارى الزنوج يفهمونني كيف اقوم بعملي . اخرج من هنا ولا تهتم لهذه البرقيات .

فقال ماركوس :

ـــ لقد دفعت لك فارسلها الآن .

ـــ اخرج من هنا .

واخرج ماركوس المسدس ووضع يده على المنضدة حيث لا تبتعد عن بطن الرجل الا بوصات قليلة ، وقد ستره بجسمه

عن اي عابر يمر امام باب المكتب او يدخله ، واطبق باصبعه حول الزناد وقال :

ـــ ارسلها الآن . اجلس وراء مفتاح الارسال وارسلها .

وارتسم على وجه العامل بعض الاصفرار ، وبدأت شفته السفلى ترتجف وقال بصوت متقطع :

ـــ ايها الصبي ان هذا كثير ، الا ...

وقاطعه ماركوس قائلا :

ـــ ابدأ بالارسال ، ولا تجرب ان تحدث أي شغب او اضطراب ، وانا اعلم ماذا سترسل .

وسار العامل الى منضدته وهو يرمق ماركوس بعينيه ، وجلس هناك ، ونثر البرقيات امامه ، وامسك بمفتاح الارسال : انتباه .. انتباه .. مركز شارع صومتر بكولومبيا يبلغكم ان زنجياً يهدده بمركزه . اخبروا الشرطة ... انتباه ...

وبقي العامل يرسل هذه العبارات ويعيد ارسالها ، وتظاهر بانه انهى البرقية الاولى . والقى بها في سلة المهملات . ونظر الى البرقية الثانية .

ودخل في هذه الاثناء الولد ذو الوجه المنتفخ المتورم . فنظر اليه ماركوس وأشار بالمسدس قائلاً : « اذهب الى هناك

وقف الى جانب الجدار » ووقف الصبي الى جانب الجدار مشدوهاً صامتاً . وعاد مفتاح الارسال الى صوته الرتيب ... انتباه . المركز الرئيسي انني سأتابع الارسال ... وانهى البرقية الثالثة والقى بها في سلة المهملات . ودخل رجل اعمال في عقده الرابع الى المركز واشار له ماركوس بمسدسه فاخذ مكانه الى جانب الصبي والقى العامل البرقية الرابعة في سلة المهملات . وتابع مفتاح الارسال صوته الرتيب ، وتبعت البرقية الخامسة والسادسة . وقال العامل بصوت اجش :

ـــ لقد انتهت جميعها .

وقال لهم ماركوس :

ـــ ابقوا حيث انتم . وتقهقر خارجاً وهو يسير الى الوراء .

وقال ثانية : ابقوا كما انتم ولا تبدوا حراكاً وتابع سيره الى الوراء الى ان اجتاز الباب ، ومنه الى الشارع وهو ما يزال شاهراً المسدس بيده ، وفي هذا الحين سمع صوت طلقة بندقية . رافقه ألم واحساس بكسر في ذراعه وكأنها ضربة مطرقة ، وخلفّت الطلقة اثراً احمر وتدلت ذراعه مكسورة . لم يسبق له ان شعر في حياته بألم كهذا ، الا انه بقي منتصباً على قدميه وسقط المسدس من يده . وتعثر وهو يعود الى الفرس ، وحل أعنتها وجرب ان يصعد

الى السرج بينما كان رجلان يركضان باتجاهه وهما يحملان بندقيتيهما . وتوقف احدهما ليسدد بندقيته نحوه واستقرت الاصابة في فخذ ماركوس هذه المرة . وجاء اربعة رجال مسلحون من الزاوية المعاكسة ، وتراكض الرجال من كل اتجاه .

وتعلق ماركوس بالسرج . وصعد الى ظهر الفرس وقال لها : اركضي يا صغيرتي ، اركضي . واحنى رأسه الى الجانب الآخر وانطلقت تعدو مسرعة . وتوقف الرجال وسددوا بنادقهم الى ماركوس وبدأوا باطلاق النار وكأنهم في حقل يتدربون على الرمي وكانت الطلقات تخترق اطراف ماركوس . واصابت احدى الطلقات الفرس فتعثرت والقت بماركوس ارضاً ثم قفزت وتابعت عدوها ، واقترب الرجال من ماركوس ببطء وهم يتابعون اطلاق النار عليه ويتوقفون بعد كل بضعة خطوات لإملاء بنادقهم بطلقات جديدة . واخيراً ادركوا انه اصبح ميتاً فاقتربوا منه ورفسه احدهم بحذائه ، فانقلبت جثة الصبي الى الجانب الآخر .

* * *

وبعد تناول طعام الافطار الاول في بيت المزرعة الكبير ؛

اخذ جديون بنجامان وينثروب وقال له : ـــ اما زلت تشعر بأنك تريد البقاء هنا ؟ فقد يسمحون لك بالعودة .

وأجاب وينثروب هو يهز رأسه وقد بدا متعبا طويل اللحية :

ـــ لقد كنت افكر بذلك طيلة الليل . اني اود البقاء اذا اردتموني ، واعتقد انه بامكاني مساعدتكم .

ـــ شكراً لك . وآمل من الله الاّ تأسف على قرارك هذا .

وقال وينثروب :

ـــ لقد فكرت بالامر بعض التفكير . وسأجرب ألاّ اقوم باعمال اندم عليها بعدئذ .

وقال جديون :

ـــ لو انك تأخذ الاولاد الى الطابق العلوي ، وتنظم لهم نوعاً من الدروس ، وسيساعدك في ذلك الاخ بيتر . فقد يكون من الصعب عليهم البقاء هنا طيلة النهار . ان شيئاً كهذا ، لا شك مرعب ومخيف للاطفال ، فهم لا يدركون له سبباً واذا ما تمكنت بان تفهمهم ببعض الكلمات البسيطة عن سبب وجودنا هنا ، وماذا نريد ان نفعل ، فإنّ ذلك يكون امراً كثير النفع .

فقال وينثروب :

ـــ سأعمل جهدي .

ـــ ارجو ألاَّ تدعهم يخافون ، واغرس الأمل في نفوسهم ، واعتقد ان لدينا من الاسباب ما يدعونا الى الأمل .

وهزَّ وينتروب رأسه ، وذهب ليتحدث بذلك الى الاخ بيتر . وكانت اكثر النسوة آنئذ مجتمعات في غرفة الطعام . وتكلم جديون اليهن واخبرهن ببساطة عن الحالة التي هم فيها :

ـــ انه امر لم نتمكن من تجنبه ، ويجب ان نقف جميعنا معاً . لقد اتبع ترويير طريقته الخاصة ، وانكن لتعلمن جميعكن النتيجة التي آل اليها . ان املنا الوحيد هو في ان نتخلص من هذه الازمة معاً ، ونعيد بناء حياتنا معاً ، ونقوم بصنع ماهو جميل خالد يعادل الثمن الذي دفعناه من اجله . وانني مفعم بالثقة والامل ، فالمكان الذي نحن فيه مكان جيد ، ولدينا من الطعام ما يكفي لايام كثيرة ، وعندنا ماء كثير ، وأدوية وطبيب .

ولقد وافق السيد وينتروب على البقاء معنا ، وسيقوم بتدريس الاولاد ، انه لامر هام جداً ، واعتقد بان الدروس سوف لا تتوقف بالرغم من كل ما قد يحدث . اننا نكوِّن مجتمعاً كاملاً هنا في هذا البيت الكبير . وقضيتنا الكبرى هي : هل يمكننا ونحن الاسر العديدة ان نعيش معاً لمدة من الزمن قد تكون طويلة

او قصيرة ؟ وان نحل جميع المشاكل التي قد تعترضنا ؟ اعتقد انه بامكاننا ان نفعل ذلك . لقد واجهنا في الماضي مصاعب اخطر من هذه ، وتمكنا من التغلب عليها باتحادنا معاً . وهنا في هذا البيت ، لدينا اكثر من زنجيين مقابل كل ابيض ، ولا اعتقد ان ذلك سيشكل عقبة ، اذ اننا قد تعلمنا العمل والعيش معاً وتعلمنا احترام بعضنا بعضاً ، وكل ما قمنا به كان يستند الى قاعدة اساسية ، وهي اننا في هذه المقاطعة ، حيث يعيش البيض والسود على السواء ، يجب علينا ان نعمل معاً ونبني معاً . اما الرجال الذين يحيطون بنا من الخارج ، فانهم ينكرون علينا هذه الحقيقة ، وقد احرقوا بيوتنا ليثبتوا انهم يمثلون الحق والعدالة ، وان لنا اساليب اخرى نثبت بها عدم ارتياحنا ، ونشرح وجهات نظرنا . نحن لا نؤمن بالارهاب والتقتيل والتخريب ، وسنقاتل من اجل حياتنا وارضنا ، وسنقدم لهذه الامة مثالا على اننا مواطنون يخضعون للقانون والانظمة ، واناس يحبون الحرية ...

لقد كنا بالامس نضع المناهج ، ونفكر ان نعمل في اراضينا ، الا ان ذلك اصبح مستحيلاً في هذه الفترة ، وللرجال الآن اعمال ، فإضافة الى العمل على ابقاء خزان الماء مملوءاً ، والاحتفاظ بالمؤونة وحطب التدفئة كافيين ، فانهم سيحرسون هذا

المكان . اما ادارة البيت وتدبيره ، فأمر يترك اليكن ، وستعين كمية الطعام اللازمة وستتحملن جميعكن مسؤولية ذلك ، وستعتنين بالمرضى والجرحى اذا ما جُرح احد وستقمن بكل الاعمال التي تشكل جزءاً من اعمال البيت .

واخيراً ارجو ألاَّ يأخذكن اليأس ، فقد يبدو الامر لنا باننا هنا وحدنا . الا اننا لسنا كذلك ، فنحن جزء من هذه البلاد ، وما نحن الا جزء من القوم الطيبين الذين يؤلفون هذه الامة ، وانهم لن يتخلوا عنا .

* * *

وبقي جديون وآخرون غيره ، يراقبون الرجال الذين يبدون صغاراً في الحجم وهم يتحركون هنا وهناك على تخوم الحرج والبساتين بعيداً عن مرمى الاسلحة ، يروحون ويجيئون دون هدف او غاية او نظام . وكان ثمة عدد قليل منهم مازال يرتدي لباس الكلان الابيض وعلى رؤوسهم الأشارة الخاصة بذلك ، اما الآخرون فقد خلعوها . وقدّر جديون وصحبه عدد العدو بما لا يقل عن المئتين وخمسين رجلاً يحيطون ببيت كارويل ، واستندوا بتقديرهم هذا الى ما رأوه ليلة البارحة ، والى مايرونه الآن ، وقد

التحق بهم اليوم في الساعة الحادية عشرة نحو من خمسين رجلاً آخرين قادمين من الجنوب ، ودار كثير من القادمين الجدد ، ممتطين صهوات جيادهم ، حول البيت ، محدقين بالهضبة حيث ينتصب فوقها .

وقُسّم الرجال والأولاد الكبار الى ست فئات ، في كل فئة ثمانية رجال ، وعين لكل فئة رئيس . وكان على كل فئة ان تستلم الحراسة لأربع ساعات ، يحرس كل جانب من جوانب البيت رجلان . وكانت القيادة لجديون ويعاونه بذلك ابنرليت وهانيبال واشنطن . وعين رؤساء المفارز من الجنود السابقين ، وعُين ليزلي كارسون ، الذي كان بواقاً في الجيش سابقاً ، ولا زال يحتفظ ببوقه ، بواقاً لاعطاء انذار مقتضب عند الحاجة . ووُضعت العربات خلف البيت بين الجناحين القائمين وقد قلبت فارتفعت عجلاتها الى الاعلى ، كي تشكل حاجزاً ذا أهمية ، وتُرك فيها مجال لدخول المواشي وخروجها .

وعند الظهيرة ، كان جديون وأبنرليت واقفين في الشرفة ، عندما لمحا رجلاً يصعد الهضبة ماشياً يحمل عصاً ربط اليها وجه وسادة ابيض . وتوقف الرجل على بعد مئة ياردة وصرخ قائلا :

ـــ هاي جاكسون ، أبأمكاني ان اصعد اليكم ؟

وقال ابنر ليت : « انه بنتلي » .

واجاب جديون : « تعال » .

وخرج عدد من الرجال وبعض النساء ، واجتمعوا جميعا مؤلفين كتلة متراصبة على احد جوانب الشرفة ، وهم يحدقون في بنتلي ، وقد بدا على وجوههم حب الاطلاع والاستغراب جليين ، وكأن الجريمة والنذالة في حرق المساكن قد منحتا هذا الرجل صفة جديدة ، وكأن هنالك شيئا يريدون معرفته . وجاء بنتلي الى السلم ، وجلس على احدى درجاته ، ووضع ساقاً فوق اخرى وطوقهما بذراعيه . لم يكن يشك في شجاعة هذا الرجل ، فأولاء قوم قد احرقت منازلهم ، وقتل جيرانهم ، ومع ذلك فقد جاء بنتلي اليهم وحيداً لا يحمل سلاحاً . وقال الجديون :

ــ لنتكلم بعقل ووضوح وبساطة . نحن لا نريد اشعال حرب ياجديون . لقد جئت الى هنا لتوقيف بعض الرجال ، وهذا ماحدث .

ــ انني اعلم تماما ماحدث .

ــ حسنا ، لنفترض انك تسلمني هؤلاء الرجال .

ــ وبعدئذ ؟ .

ــ بعدئذ نترككم وشأنكم .

ـــ بعدئذ نعود الى بيوتنا . أليس كذلك ؟ او اننا نعيش في الحقول والبراري كالوحوش ؟ او لعلنا نخرج من كارويل ؟

وقال بنتلي بكل صراحة :

ـــ الآن ، انظر ياجديون ، لا يجوز لك ان تتكلم بهذا الشكل . فقد قتلت رجلين ، وبامكاني اتهام كل مخلوق بشري موجود هنا في كارويل . واننا على استعداد لان نعتبره حادثاً عارضاً ، وكل ماأريده هو ان آخذ هؤلاءِ الرجال وانصرف .

ـــ وقد احتجت الى ثلاثمئة رجل لتوقيفهم .

واشار بنتلي بيده وقال :

ـــ ان الكلان شيء ، وانا شيء آخر ياجديون . فانا لا انتمي الى الكلان وانك تعرف ذلك . فجاسون هوكار بدأ بعض اعمال الشغب ، وقد يكون اولئك الصبية قد اخذهم بعض الاضطراب والتهيج ، فارادوا المجيء الى هنا وقد يضيعون صوابهم قليلاً . ولكن هذا قد انتهى .

وقال جديون عابساً :

ـــ وابناء تروبير ؟ لقد أُحْرقا تماما .

ـــ وهذا ايضاً حادث عابر ، لقد فقد الصبية صوابهم .

وكان بيل بون واقفاً على الشرفة وراءهم ، وقال بصوت مرتفع واضح :

ـــ لا فائدة من الكلام . لماذا لا نقتل ابن الكلبة هذا ياجديون ؟

ونظر بنتلي بطرف عينه الى بون وقال :

ـــ انني سأتذكر هذا يابيل .

وقال له جديون :

ـــ سأخبرك بما افكر انا . اعتقد ان سبب بقائك حياً في هذه اللحظة يعود الى اننا قوم متمدنون ، وخاضعون للقانون . وأعتقد انك تدرك هذا فمن صفات امثالك التفهم الغريزي البدائي لما يكوّن المدنية . هل تتبع حديثي ؟

وابتسم بنتلي قليلاً وقال :

ـــ نعم انني اتابعك .

ـــ اريدك ان تفهمني ، وتعلم ما حقوق سكان هذه الولاية وهذه المقاطعة . اما انا فأعرف هذه الحقوق جيداً . وقد ساهمت في وضع دستور هذه الولاية . ولن تقوم بتوقيف اي رجل في هذا البيت . ومن ناحية اخرى ، نعتبرك انت وكل فرد من عصابتك مسؤولا . مسؤولا عن قتل ترويير وزوجته ، وعن العمل

الوحشي القذر الذي يفوق كل ما قامت به عصابتكم من اعمال ، الا وهو حرق طفلين صغيرين وهما على قيد الحياة . سوف نعتبركم مسؤولين عن احراق جميع بيوت القرية ، وستدفعون حساباً عن قتلكم زوجة ماك هيو ، وعن قتلكم زكي هيل ، وآني فيشر ، وعن جميع اعمال الجلد والتعذيب والجرائم التي اقترفت هنا في كارويل . اننا نعتبركم مسؤولين جميعا يا بنتلي ، أنت وعصابتك عن جميع هذه الاعمال وستدفعون حساب كل شيء . لقد كنا صبورين ، وكنا نبني شيئا كبيراً هاما . ولن نتحول عن غايتنا ، وسنتابع بناءنا لهذا الشيء الذي بدأناه . وسنضع حداً ، ليس لكم وحدكم ، بل لكل ما تمثله انت واصدقاؤك من نظام فوضوي . هذا ما اقوله ، واقوله بالنيابة عن قومي . عد واخبر اصدقاءك بهذا . قل لهم اننا سنقتل كل رجل يقترب من هذا البيت ويكون على مرمى اسلحتنا قل لهم كل هذا .

وسأل بنتلي :

ــ اهذا كل ماتريد قوله ياجاكسون ؟

ــ نعم هذا كل شيء .

ــ حسناً ... ونهض العمدة ، ونفض غبار سرواله ،

وتصفح وجوه القوم الواقفين على الشرفة بنظره ، وتوقف ببصره على اولئك البيض ، ثم عاد ادراجه منحدراً على الهضبة .

وفي مساء ذلك اليوم حدث اول هجوم حقيقي ، وبدأ نحو من مئتي رجل من الكلان زحفهم نحو البيت من الجهة الغربية ، وحُضرَّ الهجوم جيداً ، وانتُخب له وقت كانت الشمس فيه منحدرة تلامس الأفق ، وترسل اشعتها على البيت فلا يتمكن المدافعون من الرؤية . وامر جديون ثلاث فئات بالدفاع عن تلك الجهة من البيت الواقعة بناحية الجناحين . واختبؤوا جميعهم وراء العربات وخلف النوافذ . اما الثمانية عشر رجلاً الآخرون ، فقد قاموا بتغطية الجهات الثلاث الأخرى من البيت، فركزوا أسلحتهم وظللوا اعينهم قدر الامكان وطُلب من النساء والاطفال في الطابق العلوي الاستلقاء على الارض . وتقدم رجال الكلان ببطء محاولين عدم الظهور ، مستفيدين من كل عَلْيّقةٍ او حفرة .

وعلّق فرانك كارسون بقوله :

ــ انني لا تساءل ، من كان في كيتسبرج من هؤلاء الابطال .

ولقد ذكّره ذلك بصفوف الرجال المتراصة وهي تتقدم دون وجل الى جحيم مستعر في معركة كيتسبرج .

وعندما بلغ المهاجمون مسافة ثلاثمئة ياردة ، ضغط هانيبال واشنطن على زناد بندقيته من نوع سبنسر بعد ان بلّ شعيرة التسديد بابهمه ، وجرب اول طلقة بعيدة المرمى ، وأشار برأسه قائلاً : اخطأت . وابتدأ رجال الكلان باطلاق النار حينئذ ، وصادفت طلقاتهم التراب ، او اصطدمت بالعربات وبناء البيت . واطلق ماريون جيفرسون ،الذي كان منبطحا دون حراك ، نار بندقيته القديمة ، واصاب شيئا ما ، وصرخ رجل في الطرف الآخر متألما ، واطلق آخرون النار ببطء واعتناء ودراية . وعندما بلغ رجال الكلان مسافة مئة ياردة نهضوا وحاولوا الانقضاض ، وكانت الشمس قد انحدرت كثيراً الآن . وذهبت قوتها وكان نورها البرتقالي ينعكس على اجسام الرجال المنقضين الصارخين ، فيبدون اهدافاً واضحة . وانطلقت النيران من جميع ارجاء البيت الخلفية فتفكك الهجوم وسقط ما لايقل عن اثني عشر رجلاً ، وعاد الآخرون وهم يتعثرون بين ساقط وقد اصيب برجليه ، وبين زاحف . وصرخ جديون : توقفوا عن اطلاق النار . هذا يكفي .

وكان السكون مؤلما هذه المرة ، فهناك احدهم يئن وراء

المتاريس متألماً وآخر يطلب جيف ، وخيم على الفراغ بين الجناحين ظل كثيف وشوهد رجل يضغط بيده على ذراعه التي يتفجر منها الدم غزيراً ، اما الآخر الذي كان يئن فقد كان (لاسي دوغلاس) ، وقد اصيب في عظم الترقوة . وجرب جيف ايقاف النزيف ، وأوصاهم قائلاً : لا تمسوه ، بل اتركوه مضطجعا كما هو . وكان الرجال واقفين حوله ، يرون الخسارة التي حدثت وهم ينظرون الى التلال البعيدة . وبقي ماريون جيفرسون مستلقيا حيث كان ، ممسكا بندقيته بثبات وشدة . وعندما لمس ويل بون كتفه انقلب متدحرجا ، وفي جبهته ثقب . واجتمع حوله عدد من الرجال ينظرون اليه . وهناك في الخارج حيث يخيم الظلام ، كان احدهم يصرخ . ونقل جيف بصره عن الرجل المكسور الكتف وسأل :

ـــ لماذا لا تفعلون شيئا ؟ هنالك رجل جريح في الطرف الآخر ولم يتحرك احد منهم . ثم اخذ ويل بون رداءه ، وغطى به وجه ماريون جيفرسون . ولمس جديون هانيبال واشنطن وقال له : خذ معك احد الرجال واذهب لجلب ذلك الرجل .

وتقدم هانيبال خطوة ، ثم تردد ، وقال ابنرليت : دعه يستلقي هناك حيث هو .

وقال لهم جديون بهدوء :

ـــ اذهبوا وأتوا به .

* * *

كان جيف قد هيأ غرفة لتكون مستشفى منذ البدء . وجهزها باحسن المصابيح الموجودة ، وطلب الى ايفا كارسون ، وهانا واشنطن ان تعملا كممرضات . وعندما وضع المصباح من فوقه ، اخذ يبحث في فخذ رجل جماعة الكلان عن الرصاصة . وكان الرجل قد أصيب في مكانين ، في فخذه وفي معدته . ولم يكن هنالك الا امل ضعيف في انقاذه ، ووجد جيف الرصاصة فأخرجها وكان للرجل وجه صغير احمر وعينان زرقاوان بلون الماء الازرق ، ولم يكن بالامكان فهم ما كان يود قوله لجيف . وسأله جيف :

ـــ من اين انت ، وما هو اسمك ؟

فتمتم قائلاً :

ـــ سكريفن ، سكريفن ...

ولم يعلم جيف ، هل كان هذا اسمه ، ام هو اسم ناحية من نواحي جورجيا .

وكان لاسي دوغلاس يتألم ، غير ان جيف لم يكن ليتمكن من ان يفعل شيئاً من اجله ، فالكسر متعدد الامكنة ، وإذا ما حالفه الحظ ولم يصب بتسمم بالدم ، فلا بد له من الاستلقاء على ظهره اسابيع كثيرة ، اما الرجل الآخر ، فقد كان يتألم من اصابته بجراح خارجية ، ولم تكن حالته خطرة فيما عدا نزيف الدم الذي مني به .

وفيما كان جيف يعالج الجرحى ، كان يحس بحرارة تتزايد في نفسه ، وخيبة تحرض اندفاعه . انها الطريق انها الطريق التي ارادها جديون ، وماذا ينتج عن امتثال الرجال لجديون ؟

ماذا ينتج منه سوى الخسائر والموت والدمار ؟

ونقلوا ماريون جيفرسون الى غرفة صغيرة في الجناح الخلفي من البيت . واجتمع الى جانبه ، زوجته واخته واولاده وهم ينتحبون ويبكون . وكان نشيجهم يُسمع في كل انحاء البيت . وذهب الاخ بيتر اليهم علّه يعزيهم ، واعاد على مسامعهم الكلمات القديمة التي لا تتغير : « الله يعطي والله ياخذ ، فليتبارك اسمه » . الا انه لم يتمكن من ان يعلل سبب ذلك . ان

قومه يختلفون عن غيرهم من الناس ، وقد رافقهم طيلة مراحل حياتهم المختلفة ، في الولادة والطفولة والشباب ، والرجولة ، والامومة ، وانه الآن يقف وإياهم امام مرحلة الموت .. انه الموت ، ولكنه يختلف عن الشكل الذي كان يبدو فيه عادة .. الموت الهادىء ، السهل ، الطبيعي ، الذي يقترب من المرء وهو مضطجع على فراشه يُصعد نفسه الاخير . انه هنا يداهمهم بشدته ورهبته فيضرب ضربته بقوة وقسوة . هنالك اشياء كثيرة لا يدركها . لقد سبق له انه قال لجديون مرة : « انك اشبه بطفل رضيع .. طفل يبدي استعداده لكل انطباع وكل تأثير .. يجب ان تمتلىء من البئر بماء عذب كما تمتلىء الدلاء ... » هذا ما قاله لجديون فيما مضى ، الا انه الآن ، لا يعلم ما يتوجب عليه قوله ، فقد اصبح جديون ، قوياً ، صلباً ، غريباً عنه في بعض تصرفاته ، واثقاً من نفسه . وعندما دخل جديون الى الغرفة ، ورأى الرجل الميت متمدداً على الارض ، لم تتحرك عضلة واحدة في وجهه . ووقف جامداً ينظر الى ماريون جيفرسون نحواً من خمس دقائق ، ثم هزّ رأسه وانصرف . لم يقل كلمة واحد يخفف بها آلام لويزا زوجة الراحل ، ولم يوجه اية كلمة الى الاخ بيتر او الاولاد .

ووقف جديون ، وهانيبال واشنطن وابنرليت على الشرفة ، يتكلمون معا عما حدث وعما قد يحدث عن الامور التي تمت والتي قد تتم قريبا . وكانت هذه الليلة مقمرة ايضا ، ليلة تظهر فيها المروج المحيطة بالبيت الكبير مغمورة بفيض من الضياء الفضي . وفي المنحدر ، وراء الاشجار كانوا يرون النيران التي اشعلها رجال الكلان ، وهي تحيط بالبيت ، وحاجز من الظلام يحول بينهم وبين اولئك . وكان جديون ، لاينفك يفكر بماركوس . فاذا تم كل شيء كما يجب ، فلا بد للصبي من العودة بين لحظة واخرى ، الا اذا توقف في مكان قريب حيث ينام هناك ليلته . وانه لن يلاقي صعوبة كبيرة في التسرب من بين رجال الكلان ، فهو أشبه بحيوان سريع الحركة ، مرن يتجول بسهولة في الاحراج . سيعود الى البيت حتى ولو اضطر الى ترك الفرس والعودة مشياً ، وقد يدفع بفرسه فيجتاز خطوط الكلان مسرعاً ثم يصعد المرتفع . ان جديون اعلم الحراس بتوقع عودة ماركوس وكان يشعر ببرودة تنتابه ، وبخوف وفراغ يملآن عليه نفسه عندما يفكر في امكان حدوث شر لماركوس ، ولم يكن ليتمكن من ان يشرح لأي انسان شعوره بالنسبة لابنه حتى ولا لراشيل . فالصبي جسد من جسده ، ودم من دمه ، وانه ليحس باسعد اوقاته عندما

يجتمع اليه ، ويذهب واياه الى الصيد ، حيث يجلسان معاً ، يصغي الى الموسيقى المنبعثة من « اكورديونه » اما حاله بالنسبة الى جيف .. فالامر يختلف .. يختلف جداً .

وقال ابنرليت :

ــ ان موت رجل ، لا يدعو الى اليأس ياجديون ، وبخاصة اذا ماقارناه باربعة عشر رجلاً منهم .

وقال جديون :

ــ نعم . انه رجل واحد ، ولكنه رب عائلة ..

ــ يبدو ، انهم لا ينوون مهاجمتنا ثانية .

وعلق هانيبال واشنطن بقوله :

ــ انهم بلداء غير انهم سيتعلمون . وهم خائفون . وليست لديهم الشجاعة للعودة الى مهاجمة البيت ثانية . وقد يكون السبب انهم ينتظرون مزيداً من الرجال ، وقد يأتون بستمئة او سبعمئة رجل ، واقسم انهم يحاولون عمل شيء ما .

وقال جديون : ــ لقد اخطأنا في بعض الامور ، فقد كان من الاحسن ان يتمركز رجالنا في الطابق العلوي ، ومن هناك يطلقون النار ، وبذلك لا يدعونهم يستفيدون من الاعشاب

والادغال الصغيرة التي كانت تسترهم عند تقدمهم . كما ان الطابق الارضي اكثر امناً للنساء .

وقال هانيبال :

ـــ لقد كنت افكر فيما نملكه من ذخيرة .

ـــ اعلم ذلك .

ولم يسأل احد منهما عن ماركوس ، وقال ابنرليت :

ـــ اعتقد بانني قد اوفق في الوصول الى كولومبيا ياجديون .

ـــ سننتظر .

وقال ابنرليت :

ـــ انني سأذهب لانبه الرجال الى التصرف في الذخيرة باقتصاد . يا إلهي يجب ألاّ يطلقوا النار الا عندما يرون من يطلقون عليه . لقد كانوا يفرغون بنادقهم هذا المساء ، وكأنهم صبية يطلقون النار في الرابع من تموز .

وقال جديون : ـــ اريد دفن الموتى هذا المساء .

ـــ ماريون ؟

ـــ اريد ان يدفن الآخرون ايضاً . يجب الا يرى الاطفال هذه الجثث في الصباح . وصمت جديون وهلة ثم سأل : ـــ « ما عدد الطلقات التي نملكها ؟ »

ـــ دون قنابل المدافع ؟

ـــ طلقات للبنادق فقط .

ـــ نحو من الفي طلقة .

وقال جديون : ـــ ان ماركوس سيعود هذا المساء . انني اعلم ذلك :

* * *

وفي هذه الاثناء . جاءت راشيل الى الرواق حيث كان جديون يقف وحيداً يفكر ، فهمست قائلة :

ـــ جديون ؟

ـــ نعم !

واقتربت منه وضغطت على جسمه بجسمها وسألت :

ـــ دعني ابقى هنا ياجديون .

وطوّقها بذراعيه وقال :

ــ ان ماركوس سيعود قريباً .

ــ لماذا ارسلته ياجديون ؟

ــ لانني اثق به كما اثق بنفسي .

ووقفا هناك صامتين لحظة ثم سألت :

ــ ما الطريق التي سيعود منها اذا كان سيعود ؟

ــ لا اعلم . انه سيسلك خير السبل .

ــ اتعتقد بانه سيعود ياجديون ؟

ــ نعم . اعتقد انه لابد عائد .

ــ هذا ما تقوله ياجديون . انك قلت ذلك ، وتامل ان يكون الامر كما قلت .

وادارها نحوه وقال لها :

ــ حبيبتي ؟ راشيل ؟ انني احبك .

وتطاولت لتلمس وجهه .

ــ صدقيني ، سأبقى على حبي لك مهما حدث . لقد اصبحت شيئاً لم اكن اود ان اكونه . لقد كان الشعب بحاجة الى رجل ، فكنت انا ذلك الرجل ، وبذلك ، اصبحت عريباً

بالنسبة لك ، ولم اتمكن من تفادي ذلك ... ولو كنت خيراً مما انا عليه ، لو كنت رجلاً اشد قوة ...

وهمست قائلة :

ــ انك رجل طيب ياجديون .

ــ انني رجل اوجدتني الظروف . قد تكون قوة الشعب هي التي اوجدتني ، فقد اخذوا رجلاً مثلي وعلموه ما يجب ان يعمل .. وبعدئذ . لست ادري .. لست ادري الطريق الفضلى . وقد يوجد في المستقبل رجال يعرفون سبب حدوث امر كهذا فيعملون معاً ، ويصممون ، ويبنون ما لا يمكن احراقه ...

وقالت له : ــ « جديون ؟ صغيري جديون ، ايها الصغير الحبيب .. » قالت له هذا كما كانت تخاطبه في الايام البعيدة الماضية .

واغمضت عينيها بعد لحظات قليله ، ونامت وهي بين ذراعيه في الرواق . وكان الكرى يتردد على عينيه ، يقاومه ثم يستسلم اليه ، الى ان ايقظه هانيبال واشنطن ، فوقف وكأنه قطعة من الجماد .

ــ لقد بدأت ثانية ياجديون .

واحسَّ إذْ ذاك بألم بارد يخترق قلبه . وفكر .. ان ماركوس لن يعود .

* * *

في اليوم التالي ، تقدم رجال الكلان بخطوطهم الى الامام ، فاصبحوا على مقربة من البيت . كانوا لا يقلون عن خمسمئة او ستمئة رجل ، وبدوا اكثر نظاماً . وزحفوا متقدمين الى ان اصبحوا على المدى المجدي للبندقية ، فحفروا حفراً في الارض ، وبدؤوا باطلاق النيران المتواصلة . واصيب بغلان وبقرة في القسم الخلفي وراء البيت فاضطر رجال جديون الى قتلهما ، ولم يحدث فيما عدا ذلك خسائر تذكر . وأُتي بالنساء والاولاد الى الطابق الأرضي ، ووضُعوا جميعهم في قاعة الاستقبال الكبرى ، وقُويت الجدران بالاخشاب والافرشة . واعطى جديون اوامره بعدم اطلاق النار من قبل اي كان فيما عدا ويل بون وهانيبال واشنطن ، وهما امهر الرماة . وصعد الاثنان الى السطح ، وتمددا جنباً الى جنب ، وكانا يبللان شعيرة التسديد ، ويمضيان ما يقرب من خمس دقائق في تسديد دقيق ، ومن ثم يضغطان على

زناديهما بهدوء وصبر واعتناء . وكان ويل بون يتكلم عن جد ابيه . لقد كان بامكان جد ابيه هذا ، الا يخطىء سنجاباً عن بعد مئة ياردة ، وكان بامكانه ان يعمل كذا وكذا ... الى ان نفذ صبر هانيبال واشنطن وسأل اخيراً :

ــ بحق جهنم من يكون جدك هذا ؟

ــ أوه ... ايها الزنجي البائس البليد . من بحق جهنم يكون جدي الذي اورثني اسمه !

الا ان طلقاتهما الدقيقة ، اثارت رجال الكلان ، واتجهت مئتا او ثلاثمئة بندقية عليهما ، وكانت الطلقات تصطدم بالجدار امامهما ، فتتطاير شظايا الحجارة الى وجهيهما ومرت عشر دقائق قبل ان يُصعد هانيبال واشنطن أنة هادئة ويسترخي فوق بندقيته . وهزه ويل بون ، وبدأ الرجل الابيض يتنفس بتؤدة وهدوء ، ويتابع اطلاق النار وبندقيته تزداد حرارة في يده . وبعد فترة صغيرة ، توقف اطلاق النار ...

ودفن القوم شهيديهما في المكان الضيق حيث زربت الخيول والبغال والماشية ، وكان اغرب ما في الامر ، ان الرجال لم يذرفوا الدموع ، بل كانوا يراقبون الامر بوجوه جافة ، ظهرت

عليها اثار الشيخوخة فبدت غريبة جامدة . لقد بدت الشيخوخة حتى على وجوه الاطفال . وقرأ الاخ بيتر من كتاب المزامير :

ــ « ... لقد صرخت الى الله مستجيراً في محنتي . فأصغى الى صراخي .. » وكان جديون يستمع وينظر ولكنه يفكر ... يفكر في فترة من الزمن لا وجود فيها لهانيبال واشنطن ، لا وجود فيها لرجل زنجي صغير يشبه ، القزم اسود كالفحم ، لطيف ، حكيم شجاع ، رجل يملك احساساً قوياً بكرامته وقدرة كبيرة على القيام بكل مهنة او صنعة . يلتجيء اليه القوم في بلوائهم ، ويعرضون عليه شكاواهم ، وقضاياهم . رجل الجماعة كلها ... انه يتمدد الآن في تراب كارولينا الدافىء ، الى جانب رجل ابيض كان جد ابيه يدعى « دانيال بون » .

واستمر اطلاق النار طيلة الليل ، الا انه توقف عند الفجر . وتناول القوم طعام الافطار في فترة من الهدوء . وقرأ وينثروب للاطفال اسطورة « حفرة النيام » وفي فترة الهدوء تلك ، وقف جيف يراقب رجل الكلان وهو يموت امامه ، دون ان يعرف اسمه او بلده ، او الدوافع الغريبة التي دفعته الى هذا المكان .

وفي فترة الهدوء هذه ، تقدم بنتلي نحو البيت يحمل علماً ابيض . وصرخ قائلاً :

ـــ أيُسمح لي بالصعود ؟

ولم يجب عليه احد . فتقدم ببطء ، وتوقف على بعد خمسين ياردة ، وقال ما أتى من اجله بصوت عالٍ مرتفع ، فهنا يوجد طبيب عند القوم ، انه جيف جاكسون . وان الطبيب العجوز لبيند كان في حالة سكر مستمر منذ اسبوع . وقد اصيب رجال الكلان ، فجرح عدد منهم ، وهنالك رجل كسرت ساقه وتورمت ، ولا بد من قطعها حتى يعيش الرجل . هل يأتي جيف جاكسون ويعالج المرضى ، وانهم يعدونه بانهم سيسمحون له بالعودة .

وحدق ابنرليت في جديون . وابتسم جديون بمرارة وقال :

ـــ انك ترى ، انهم يفهموننا جيداً ، وهم يعرفوننا اكثر ما نعرفهم نحن .

وعاد بنتلي وصعد جيف الى الشرفة ، فسأله والده : ـــ « هل سمعت ما قال » وهز جيف رأسه بالايجاب . وقال ابنرليت : ـــ « دع جرحاهم يموتون » لعنة الله عليهم .

وقال فرانك كارسون : ــ اقسم بالله اني سأقتل ابن الكلبة هذا اذا ما جاء الى هنا ثانية .

وقال جيف :

ــ اني سأذهب الى هناك .

وامسكه جديون من ذراعه ، ودفعه جانباً ، وصرخ في وجهه قائلاً :

انت ايها المعتوه المسكين . وانت ولدي ايضاً . الا اتمكن من افهامك هذا ؟ .. الا اتمكن من افهامك اننا لسنا امام قوم متمدنين . فهؤلاء ليسوا اعداء كما تفهم انت الاعداء . ان هؤلاء القوم هناك يودون القضاء علينا . وهم ليسوا بشراً كما تفكر في البشر ، ولا قيمة لعهد يقطعونه على انفسهم ، ولا وجود للخير والشر عندهم ، ولا تتمكن من مناقشتهم او إقناعهم ، فعقولهم بالية فاسدة . ونحن لم نقصد كل ماجرى الا لاننا حكمنا عليهم حكماً خاطئاً . لاننا كنا على درجة من الجنون ، فاعتقدنا انهم يخضعون للقوانين التي يخضع لها غيرهم من الرجال . لاننا قدمنا لهم على طبق من الفضة ، الحق والعدالة والنزاهة . ولهذا يكسبون هم وننـدحر نحن . لهذا ترى في جنوبنا رجالاً ونساء شرفاء طيبين ، متفرقين ، مضطربين .

وقالِ جيف :

ــ انني سأعتذر اليهم. لقد أقسمت ان أعالج المرضى والجرحى ، وان أجَبِّر مايكسره القوم .

ــ كلا . لن تذهب . لقد فقدت ولداً . ولكنه كان يدرك مانحارب من اجله .

وبدأ جديون بقوله : « فليساعدني الله ...

وقاطعه ابنرليت قائلاً : ــ دعه يذهب ياجديون » .

* * *

وانتهى جيف من عملية بتر ساق الرجل ، ونقلوه وهو يئن ، بحالة نصف إغماء . ونشّف جيف يديه وقال لقبضة الرجال الذين كانوا يراقبونه باستغراب :

ــ انه الآن بحاجة الى الراحة ولا بد من ان تأخذ الامور مجراها الطبيعي . وعندما تجف الانسجة الميتة يمكن رفع الاربطة بسهولة ، وبامكانكم التحقق منها بسحبها بلطف اذ انها قد تسبب آلاماً . وعندما تُرفع الاربطة يكون الشفاء قد تم مبدئياً ،

وبامكان اي طبيب ان ينهي المعالجة الا اذا حدث تسمم . وهذا هو الخطر الرئيسي .

كان جيف تعباً منهكاً . فان الواحاً من الخشب في حقل تحت اشعة الشمس المحرقة لا يمكن اعتبارها مكاناً صالحاً لاجراء عملية جراحية . وقد عالج نحواً من اثني عشر رجلاً جريحاً احس بعدها بتعب شديد وقال : « سأعود الآن . » .

ــ ماذا سيدي ؟ !!!

كان منحنياً فوق حقيبته يغلقها ، والتفت الى الرجل المتكلم وكان ذا منكبين عريضين ، احرقت الشمس وجهه ، وكانت يده تقبض على مسدسه بصورة دائمة .

ــ قلت اني سأعود الآن .

ــ سيدي !!

وكان يقف الى جانب العمدة بنتلي جاسون هوكار ، فقال :

ــ انك طبيب يا جاكسون . هذا شيء حدث فيما مضى . وعندما يصبح الزنجي طبيباً ، وهذا عمل من لعنة الله ، فان ذلك يقود الى متاعب كالتي نواجهها الآن .

ونظر جيف اليه لحظة ، ثم اخذ حقيبته بسرعة وبدأ بالسير عائداً . واعترض الرجل العريض المنكبين سبيله وقال :

ـــ سيدي !!!

وسأل جيف :

ـــ ماذا تريد ؟

ـــ اريد ان تتصرف كما يتوجب على زنجي قذر أحلَّ الله عليه لعنته ، كما ويجب ان تخاطبني بكلمة سيدي . هذا شيء لابد منه عندما تتكلم الى من هم ارفع منكم منزلة .

واطال جيف النظر الى الرجل ، وقد سيطر عليه شعور من الاستغراب وحب الاطلاع ، شعور يعود جزء منه الى الخوف والرعب ، اما الجزء الاكبر ، فقد كان يعود الى حب اطلاع منطقي يتجلى على شكل رغبة ملحة الى تحليل هذا الرجل المنتصب امامه استناداً الى ماقاله جديون ، والى كل ما يحدث في كارويل من اعمال جنونية مخيفة .

ـــ هل تريدني ان اخاطبك بكلمة « سيدي » ؟

ـــ نعم ، هذا ما اريد .

ـــ « سيدي » قال جيف هذا وهز رأسه ثم اضاف قائلاً : ـــ هل تسمحوا لي ياسيدي بالعودة ؟

وضحك بنتلي ، وقال جاسون هوكار : ـــ « انك لن تعود ياجاكسون » .

ـــ وماذا تعني بذلك ؟

ـــ انك لن تعود وهذا كل ما اعنيه .

وتدخل بنتلي وقال :

ـــ غداً لن يكون القوم بحاجة اليك ياجاكسون . ومن الخير ان تبقى هنا .

وكان جيف يرقبهم وما زال الخوف يشكل جزءاً من فضوله ، فالمستحيل لا يتبع اسلوباً علمياً ، ولا بد من وجود سبب وتعليل لكل شيء . وقال لهم :

ـــ لقد اتيت الى هنا لانني كنت اشعر بان واجبي يدعوني لمساعدة المريض والمتألم . هل تدركون هذا ؟ وقد جئت اليكم لانكم طلبتم مني ان احضر . وبما انني طبيب فلم يكن بامكاني ان ارفض فهل لديكم سببٌ معقولٌ يتطلب مني البقاء هنا ؟

وقال الرجل العريض المنكبين :

ـــ سيدي !! انت ياابن الكلبة القذر ، ايها الزنجي . حلت بك لعنة الله .

وهز جيف رأسه وقال : « انا عائد . » وشق طريقه دافعاً الرجل الذي يعترضه . وكان هذا آخر شيء يذكره . لقد توقفت ذاكرته فلن تعود الى تذكر اي شيء البتة ... بضربة قوية ، توقف كل شيء ... وسقط على الارض فوق حقيبته .

وقال الرجل العريض المنكبين :

ـــ لعنة الله عليك ايها الزنجي .

* * *

ـــ وجلست راشيل وجيني مع آلن ، الا انهما لم تتمكنا من ان تقولا لها اية كلمة . وكان حرمانها من بصرها يحيط العالم اجمع الآن ، ظلام لم تكن له نهاية ... وفي تلك الليلة قال ابنرليت لجديون :

ـــ اتعلم شيئا عن ماركوس ياجديون ؟

ـــ نعم اعلم .

ـــ ربما لم يرسل البرقيات .

ـــ ربما لم يرسلها . قال جديون ذلك ، واحس ان هنالك حداً يقف عنده الالم .

وقال ابنر :

ــ لابد من وجود من يقوم بارسالها ، وكيف يعلم بهذا النبأ احد من الناس ، ونحن قابعون هنا ؟ كيف سيسمع مخلوق على هذه الارض الملعونة بما يحدث عندنا ؟ هل نعرف نحن ماذا يحدث الآن في اي مكان آخر ؟ لقد احاطوا بهذا المكان وعزلوه عن العالم ، لقد عزلوه فاصبح اكثر عزلة من الجحيم . قد يكون كل شيء قد عزل كما عزلنا نحن ايضاً ، وقد لايدري احد بنا .

وقال جديون :

ــ قد يكون ذلك .

اكتب هذه البرقيات ثانية وسآخذها انا الى كولومبيا فارسلها .

ــ واذا لم يرسلوها لك .

ــ حينئذ سآخذها بنفسي الى واشنطن ..

ــ حسناً ، اذا كان هذا ما تفكر به ، فلا ارى مانعاً .

واخذ ابنر جواداً جيداً ، كبير الجسم ، هو جواد هانيبال واشنطن . ان الذهاب مشياً على الاقدام امر ميئوس منه . والسبيل الوحيد ، هو الاندفاع خلال خطوطهم بسرعة .

وكان بالامكان ان يُكتب له النجاح ، ولكنهم اطلقوا النار

على الجواد فسقط على بعد نصف ميل من البيت ، وسقط ابنرليت تحته مكسور الساق . واخذوه ، فرفعوه حتى وقف . وجاء جاسون هوكار يقول له :

ـــ لنا اسلوب خاص بمعاملة محبي الزنوج . وقد ذاق فريد ماك هيو طعمه ...

وقال له ابنر ليت :

ـــ اذهب الى جهنم .

ـــ ولم يفه ابنرليت بكلمة اخرى . فقد ثبّتوا يديه بخشبة وعلقوه ، ولم ينقطعوا عن جلده بالسياط طيلة الليل ، واخذ جاسون هوكار دوره بالجلد ، وقال وهو يضربه : « سأرغم ابن الكلبة القذر على الكلام . » ولكن ابنرليت احتفظ بشفتيه مطبقتين . وتُرك هناك طيلة اليوم التالي . ولكنه كان قد فقد وعيه آنئذ ، ولم يعد يحس بقوته التي كانت جزءاً من قوة الجماعة ، او يدرك القتال الشريف الذي قاتله وهكذا ، فقدت ذاكرته ، آخر صورة للعالم الجميل الذي رأى جزءاً منه ، وللرفاق الطيبين الذين عرفوه وعرفهم ...

* * *

ورآهم جذيون يجرون المدفع الكبير الى المكان في اليوم التالي . فوضعوة على بعد ثلث ميل من البيت . ولم يدرك اولاً ماهية ذلك ، ولكن توقفهم عن اطلاق النار لاربع وعشرين ساعة ، جعله ينتظر حدوث شيء غير طبيعي ، وكان المدفع هو احد الاحتمالات التي فكروا بها عندما رآهم يجرون شيئاً ، فقال فرانك كارسون :

ـــ لابد انهم حصلوا عليه من رحبة في مكان ما .

ـــ وهل يهم ذلك كثيراً !! قال جديون ذلك بمرارة بالغة . ولم يكن هناك امر اشد صعوبة من هذا . وكان يبدو كثير الهدوء عندما قال لبنجامان وينثروب .

ـــ خذهم جميعاً الى القبو ... جميعهم .

لقد جرب ان يؤخر هذه النهاية ، فتابع نضاله ، ولم ينقطع له اجل . وفي غمرة هذا الرعب المتواصل ، كان يدرك ان هناك غاية ابعد من هذا وراء هذه النهاية المحتومة . غاية كانت تربطه مع غيره من الناس . مع جميع الناس : الصغار ، الشجعان ، الخائفين ، الذين كانوا يحتفظون برؤوسهم مرفوعة عندما اصبحت النهاية أمراً لا بد منه .

وقال بنجامان وينثروب ، وكان لا يزال يضع على عينيه نظارتيه ذاتي الاطارين المعدنيين :

ـــ كل شيء سيتم على احسن وجه . وسننشد معهم بعض الاناشيد ، وقد يرفع ذلك من المعنويات .

ـــ شكراً لك .

ووقف جديون على الشرفة مع فرانك كارسون ، ليزلي كارسون ، وفرديناند لنكولن ، يرقبون جميعاً رجال الكلان وهم يحكمون الرمي .

وقال ليزلي كارسون بعد تفكير :

ـــ ليسوا مدفعيين .

وانفجرت اول قنبلة بعيدة عن البيت بمئة ياردة او اكثر ، وبعيدة في الاتجاه ايضاً ، وانفجرت اربع قنابل اخرى على مسافة من البيت . واستدعى جديون جميع الرجال الى داخل البيت . وانبطحوا وراء الحواجز المقامة على النوافذ ، يسددون على مسافات بعيدة ويطلقون النار على سدنة المدفع ، دون اخذ كثير من الاعتبار لاستهلاك الذخيرة ، اذ كان لابد عليهم من ان يردوا على هذه القنابل بشكل ما . وانفجرت اول قنبلة على السطح ، وتساقطت على القوم بعض قطع الطين والحجارة .

وصرخ جديون :

ـــ ارفعوا علماً ابيض ، وسنعمل على ترحيل النساء والاطفال من هذا المكان .

وصعد جاك سوتر الى الشرفة يحمل قطعة بيضاء من القماش ، ووقف هناك يهزها يمنة ويسرة ، وكان رجال الكلان ينظرون اليه وهم يعدلون زاوية الرمي للمدفع . وانفجرت القنبلة الثانية على الشرفة حيث كان يقف .

* * *

ووقف الاخ بيتر في وسط النساء والفتيات والصبية والاطفال ، اولئك الذين شعروا بالخطر والمتاعب لاول مرة آنذاك ، وقف بين الصبايا الكاعبات ، وقد برزت نهودهن الغضة القاسية من تحت اثوابهن كتفاحات ناضجة ، وبين الجدات والاحفاد ، والاطفال الرضَّعْ ، والاولاد الذين بدؤوا يتكلمون عن عجائب هذا العالم الغريب ، وقال لهم دون خوف او وجل :

ـــ ان الله صخرتي وخلاصي : فمن يخيفني ؟

وانفجرت قنبلة فوق رأس وينثروب ، فاحاط بذراعيه صبياً

زنجيا صغيراً وفتاة صغيرة استرسل شعرها الناعم على كتفيها كحرائر الذرة الصفراء .. وقال الاخ بيتر :

ـــ ممن سأخاف ؟ واجاب القوم : آمين .

ـــ ان الله هو قوة حياتي ...

* * *

وكان آخر ما تذكره جديون ، تلك البداية البعيدة ، يوم كان القوم عبيداً ارقاء ، يوم كانوا يُباعون ويُشرون كالماشية ، وكيف تساوت ظروفهم القاسية مع ظروف غيرهم ممن يعملون بأيديهم بغض النظر عن ثوبهم الابيض ، يوم لم يكن في الارض ما يبعث الامل في الانسان ، وكيف كان الشعب لا يفقد امله بالرغم من كل ذلك .

وكان آخر ما تذكره جديون جاكسون عندما انفجرت القنبلة وأرغمت ذاكرته على التوقف ، فانتهت .. كان آخر ما جال في تلك الذاكرة هو ، قوة الشعب ، ابيضه واسوده ، تلك القوة التي خاضوا بها حرباً طويلة الامد ، القوة التي شيدت من الركام والخراب والمساكن القذرة ، بناء ، يعد بمستقبل سعيد

هانىء ، يعد بحياة من الاخاء لم يعرف لها العالم مثيلاً . قوة تتكوّن من شعبه ، من ولده ماركوس ، وولده جيف ، وزوجته راشيل ، وابنته جيني ، وذاك الرجل العجوز الذي يدعى الاخ بيتر ، وابنرليت الابيض الطويل ذي الوجه الاحمر ، وهانيبال واشنطن الصغير ، الاسود الحكيم . انهم كثيرون ، وقد اختلفت الوانهم وتعددت ، بعضهم قوي وبعضهم ضعيف ، بعضهم عاقل حكيم ، والآخر غبي جاهل . لقد كانوا بالرغم من كل ذلك ، يؤلفون جميعاً ذلك الشيء الذي لا يمكن وصفه او قهره ، يؤلفون الشيء الذي كان آخر ما تذكره جديون جاكسون .

* * *

وفي خارج بيت كارويل الكبير ، وقف اولئك الرجال الذين يحجبون وجوههم عن الشمس باقنعتهم ، ينظرون الى المنزل وهو يحترق . كان الخشب جافاً ، واذا ما اشتعلت فيه النار ، فليس هنالك من قوة على الارض تستطيع اخمادها . وظل البيت يشتعل طيلة النهار . وعندما حلّ المساء ، لم يكن قد بقي منه سوى المداخن السبع الطوال التي بناها والد هانيبال واشنطن .

خاتمة

قد تسأل ايها القارىء ، ولك الحق في ان تسأل ، هل يمكن اعتبار هذه القصة واقعية . واذا كانت كذلك حقاً ، فلماذا لم تكتب ، او يسمع بها قبل الآن .

وجواباً على السؤال الاول ، فان جميع النقاط الرئيسية لهذه القصة هي واقعية حقا ، ولم تكن هناك كارويل واحدة في الجنوب في تلك الحقبة من الزمن . بل كان هنالك الف مكان ، اكبر من كارويل او اصغر منها . وكل ما قلت انه حدث في كارويل ، كان يحدث مثيل له في أمكنة اخرى كثيرة . فقد عاش البيض والسود معاً وعملوا معاً ، واشتركوا في البناء معاً كما كتبت هنا ، وهنالك مراجع كثيرة وعديدة لمن يود التحقق من هذه الوقائع التاريخية ، واليك بعضها :

التقارير المفصلة عن مؤامرات الكلان ، وقد وضعتها لجنة كُلفت بالتحقيق في ظروف واعمال العصيان في الولايات ، وتقع في ثلاثة عشر مجلداً . وهنالك تقرير مفصل للجنة مجلس الشيوخ المكلفة بالتحقيق في انتخابات المسيسيبي عام ١٨٧٥ ويقع في مجلدين . وتقرير شارل شورز الى الكونغرس عن الوضع في كارولينا الجنوبية وجورجيا . وكتاب هولويل : « الجندي الزنجي في الحرب الاهلية » . وكتاب « كارولينا الجنوبية في فترة التعمير » لكاتبه سيمكنرو وودي . وهذه المراجع هي قليل من كثير ، فهنالك صحف تلك الحقبة من التاريخ ، وهنالك المناقشات البرلمانية في مجلس الكونغرس ، وهنالك افتتاحيات لصحف جنوبية وشمالية ، وكلها تبدي معرفتها للمذابح وللتدمير الذي كان يحدث في الجنوب .

اما جديون جاكسون فهو مجموعة من السياسيين الزنوج في ذلك الزمن . وجميع مانُسب اليه كان يشترك معه فيه واحد او عدد من اولئك الزنوج .

اما كارويل ، فأسم لا وجود له . وسكان كارويل الذين اعطيناهم اسماء مختلفة في هذا الكتاب ، لقد عاشوا حقاً ،

وكثيرون آخرون من ابطال القصة هم اشخاص حقيقيون اعطينا بعضهم اسماء روائية .

وليس من الصعب الجواب على السؤال الثاني ، « لماذا لم تُكتب هذه القصة قبل الآن ، ولم تنشر بين الناس » ذلك انه قُضي على عهد الثماني سنوات من الحرية والتعاون بين البيض والسود ، فقد قُضي بَذلك على ذاك العهد تماماً ، ولم يقتصر الامر على هدم المعالم الماديه وذبح القوم ، بل انهم أرادوا محوها من الذاكرة

الفهرس

اهداء المترجم ٧
شيء من الذكرى ٩
تقديم ١٥
اهداء المؤلف ٢٩

○ الجزء الأول

الانتخابات ٣١
تمهيد ٣٣

الفصل الأول ٣٧
الفصل الثاني ٥٩
الفصل الثالث ٧٣
الفصل الرابع ١١٧
الفصل الخامس ١٦٥
الفصل السادس ٢٣٥
الفصل السابع ٣٠١

○ الجزء الثاني

القتال ٣٨٥
الفصل الثامن ٣٨٧
الفصل التاسع ٤٣٣
الفصل العاشر ٥١٣
خاتمة ٦١٤

صدر عن دار
طلاس
للدراسات والترجمة والنشر

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر[1] ليرة
رسالة الاسلام ـ الرسول العربي	العماد مصطفى طلاس..	....	٢٥
فارس الأطلس ـ عقبة بن نافع	العماد مصطفى طلاس..	....	١٠
فطير صهيون	العماد مصطفى طلاس..	....	١٦
راعي القدس ـ ايلاريون كبوجي ...	العماد مصطفى طلاس..	....	١٥
فارس الجزائر ـ الأمير عبد القادر..	العماد مصطفى طلاس..	....	١٧
المصطفى من أحاديث المصطفى ..	العماد مصطفى طلاس..	.........(قياس كبير)	٦٠
		........(قياس صغير)	٣٠
كذلك قال الأسد	اختارها العماد	.........(قياس كبير)	٣٠
	مصطفى طلاس	........(قياس صغير)	١٥
حب وبطولة........................	سليمان العيسى	....	١٥
قصة المتنبي........................	أحمد الجندي	....	١٢
صبرا وشاتيلا (تحقيق حول مجزرة) .	أمنون كابليوك	المكتب العربي للترجمة ...	٦
روضة الورد	سعدي الشيرازي	محمد الفراتي	١٥
سعد الله الجابري	أحمد الجندي	....	١٥

(١) السعر يشمل كامل الأجزاء .

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر
فراشات غجرية	نضال قبلان		٦
كيان (قصة)	كوليت الخوري		٩
البطل والتاريخ	صفوان قدسي		١٨
خريف الغضب (جزءان)	محمد حسنين هيكل		٣٠
كفاحي	آدولف هتلر	لويس الحاج	١٨
ماجدولين	الفونس كار	مصطفى لطفي المنفلوطي	١٠
رسالة من امرأة مجهولة والحب الجنوني	ستيفان زفايغ	أنجيل عبود	٨
سقوط السنديان	اندريه مالرو	د . سامي الجندي	٩
عشرة أيام هزت العالم	جون ريد	فواز طرابلسي	٢٢
هكذا يتكلم القائد	نابليون بونابرت	عبد الله حيدر	٨
حبات من الرمال الذهبية	سليمان العيسى وشعراء آخرون		١٠
رواد النغم العربي	أحمد الجندي		٩
حبال من رمل	ولبر كرين ايفلاند	د . سهيل زكار	٢٥
البطالة المقنعة في الوطن العربي	سمير عبده		١٤
باقة نثر	سليمان العيسى		١٨
موجز ديوان المتنبي (شرح اليازجي)	اختصره سليمان العيسى		٢٠
طريق التبغ	ارسكين كالدويل	منير البعلبكي	١٥
تولستوي	ستيفان زفايغ	ميشيل راكيم قصي الأتاسي	١٠
حب بياتريس الجديد (شعر) (بالعربية والفرنسية)	جيرار مورغ	رواد طربيه	٨
الاستراتيجيتان السوفييتية والأمريكية	هنري باريس	أحمد عبد الكريم	١٠

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر
شعراء من بلاد الشام	أحمد الجندي	....	١٥
رد على التوراة	ندرة اليازجي	....	١٠
رد على اليهودية واليهودية المسيحية .	ندرة اليازجي	....	٢٥
الصراع على سورية	باتريك سيل............	سمير عبده ـ محمود فلاحة	٢٠
نظرات ومسائل في الإدارة.........	أحمد الدهاس	....	٤٠
روائع طاغور	رابندرانات طاغور	الدكتور بديع حقي	٢٠
الفراشة وقصائد أخرى .... (بالعربية والانكليزية)	سليمان العيسى	برندا ووكر..............	١٠
العواصف	جبران خليل جبران......	....	١٠
البدائع والطرائف..................	جبران خليل جبران......	....	١٠
النبي	جبران خليل جبران......	ثروت عكاشة...........	٨
السابق	جبران خليل جبران......	انطونيوس بشير	٥
عرائس المروج	جبران خليل جبران......	....	٥
التائه	جبران خليل جبران......	عبد اللطيف شرارة......	٦
المجنون	جبران خليل جبران......	انطونيوس بشير	٥
الأرواح المتمردة	جبران خليل جبران......	....	٨
دمعة وابتسامة	جبران خليل جبران......	....	١٠
الحروب والحضارات	مدرسون في المعهد ...... الفرنسي لعلم الحرب	أحمد عبد الكريم	٢٠
بروتوكولات حكماء صهيون ...... (جزءان)	عجاج نويهض	....	٣٠
حرب الثلاث سنوات ٦٧ ـ ٧٠ (مذكرات)	الفريق أول محمد فوزي .	....	٢٥
قصة الرعب والجرأة...............	الكسندر بيك............	....	١٥
رفائيل............................	لامرتين.................	محمد حسن الزيات	١٦
فيكتور هيجو	....	فريد جحا..............	١٥

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر
الأمنية الأوروبية..................	اندريه بريغو	أحمد عبد الكريم	١٥
أو الدفاع المشترك المفقود	و دومينيك داليد		
الطاعون	البير كامو	د . سهيل ادريس	١٥
السلام الضائع في اتفاقيات........	محمد ابراهيم كامل......	....	٣٠
كامب ديفيد	وزير خارجية مصر الاسبق		
استراتيجية العصر النووي	الجنرال بيير غالوا	اللواء الركن سميح السيد..	١٢
حرب البترول السرية	جاك بيرجيه وبرنار توماس.	اللواء الركن سميح السيد..	١٢
تاريخ الأدب الغربي (جزءان) ...	مجموعة من الاساتذة	....	١٠٠
مختارات من الشعر الروسي	....	د . ماجد علاء الدين ..	١٨
إلي أواصل الأرق.................	سليمان العيسى	....	١١
الحرب العالمية الثالثة	الجنرال جون هاكيت ...	موسى الزعبي...........	٣٣
يسوع ابن الانسان	جبران خليل جبران......	....	١٢
نشيد الجمر	سليمان العيسى	....	٢٥
من الشعر اليوناني الحديث	....	الياس معوض............	١٠
يوميات وزير (جزءان)...........	ريتشارد كروسمان	العميد صبحي الجابي ...	٥٠
ليالي الشيطان الأخيرة (راسبوتين)..	فالنتين بيكول	عبد الوهاب مدور......	٤٠
ديك الجن الحمصي	أحمد الجندي...........	....	١٠
(ديوان ودراسة)			
سلام غير مرغوب فيه	لجنة أمريكية	اللواء الركن سميح السيد..	٩
الجدل الكبير حول................	ريمون آرون.............	اللواء الركن سميح السيد..	١٥
الاستراتيجية الذرية			
عودة وضاح اليمن (شعر)	د . عبد العزيز المقالح ...	....	٢٥
الحرب الأهلية العالمية	جاكلين غرابان	اللواء الركن سميح السيد..	١٤
	وجان بيرنار بيناتيل		
المسألة السورية المزدوجة..........	ميشيل كرستيان داليه...	اللواء جبرائيل بيطار.....	٢٢
(سورية في ظل الحرب العالمية الثانية)			

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر
عملية كمال عدوان..............	العماد مصطفى طلاس..	....	٨
الثورة الجزائرية	العماد مصطفى طلاس..	....	٨٠
مع سليمان العيسى	مجموعة من الكتاب	....	١٤
من وحي المرأة (شعر)..........	عمر أبو ريشة..........	....	٢٥
كيف سقينا الفولاذ	نيقولاي أوستروفسكي..	غائب طعمة فرمان	٢٥
رباعيات عمر الخيام............	عمر الخيام............	أحمد الصافي النجفي.... تقديم أحمد الجندي	١٥
المسيح يُصلب من جديد	نيكولاس كازانتزاكس ...	شوقي جلال (جزءان) ..	٤٠
وجيز علم الجنس الهندي.........	فاتسيايانا	كاستون فاتول	٢٠
لحن كرويتزر	ليون تولستوي	د . سامي الدروبي	١٣
أنشودة الحب الظافر (قصص)..	تورجنيف	عدنان سبيعي وخليل شطا	١٢
الأيام المضيئة (قصص)	كوليت الخوري..........	....	١٥
أغاني الأغاني (٣ مجلدات).......	أبو الفرج الأصفهاني...	اختصره يوسف عون.....	١٠٠
شوارد قلم في الأدب والنقد.......	محمد روحي فيصل	....	١٥
العمران في مقدمة ابن خلدون	د . سعيد محمد رعد....	....	٤٠
حديث الهيل (شعر بدوي)	عمر الفرا...............	....	١٢
مذكرات ديغول (٤ أجزاء)........	....	....	١٠٠
١ ـ النفير	الجنرال ديغول..........	عبد اللطيف شرارة	
٢ ـ الوحدة...................	الجنرال ديغول..........	عبد اللطيف شرارة	
٣ ـ الخلاص	الجنرال ديغول..........	خليل هنداوي ابراهيم مرجالة	
٤ ـ الأمل	الجنرال ديغول..........	د . سموحي فوق العادة	
مذبحة صبرا وشاتيلا.............	العماد مصطفى طلاس..	....	٢٢
الآداب المعنوية للصلاة..........	الإمام آية الله الخميني...	أحمد الفهري...........	٦٠
رسائل أبي حيان التوحيدي........	د . ابراهيم كيلاني......	....	٢٨

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر
خروتشوف..................	بسام العسلي...........	....	٢٤
ستالين................	بسام العسلي...........	....	٢٥
الشعر بين الرؤيا والتشكيل.	د . عبد العزيز المقالح...	....	٢٨
التربية الرياضية الحديثة	فايز مهنا	....	٢٧
سيف الله (خالد بن الوليد)	العماد مصطفى طلاس..	....	٢٢
آفاق الاستراتيجية الصهيونية	العماد مصطفى طلاس..	....	٢٠
زنوبيا (ملكة تدمر).............	العماد مصطفى طلاس..	....	٢٠
الثوم والعمر المديد.....	العماد مصطفى طلاس..	....	٢٢
القدس في فلسطين..............	جورج مونتارون	فريد جحا............	١٠
كيسنجر في البيت الأبيض........	هنري كيسنجر.........	خليل فريجات..........	٢٠٠
(مذكرات في اربع مجلدات)			
اعترافات جان جاك روسو	جان جاك روسو	محمد بدرالدين خليل....	٩٠
(ثلاثة أجزاء)			
الطريق إلى بئر سبع	ايثيل مانين.............	د . نظمي لوقا	٢٥
سيوف عربية (شعر)............	نذير الحسامي..........	....	١٠
الوردة تُعشق برعماً	نذير الحسامي..........	....	١٢
كازانوفا	ستيفان زفايغ...........	ميشيل واكيم.......... قصي أتاسي	١٥
حصاد الحب.................	إميل زولا...............	....	٢٠
الزنبقة الحمراء..............	أناتول فرانس...........	أحمد الصاوي محمد.....	٢٥
هل يمكن السيطرة على الحرب .... (النووية) ؟	معهد الدراسات........ الاستراتيجية (لندن)	د . محمد حجار........	١١
يوم العيد..................	انطون تشيخوف	عدنان سيعي رخليل شطا	١١
المعلقات السود والذئب (شعر) ..	نجيب جمال الدين	....	٢٥
الغزو الاسرائيلي للبنان	مجموعة من الباحثين بإشراف العماد مصطفى طلاس	....	٣٠

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر
المعجم الطبي الموحد انكليزي ــ عربي ــ فرنسي	مجموعة من الاطباء الاختصاصيين		١٠٠
الكَنَّة (عن البلغارية)	جيورجي كاراسلافوف..	حسين راجي	٢٠
اليسا فيتا باغريانا (مختارات شعرية)		حسين راجي	١٦
شعراء فرنسيون معاصرون	سعد صائب		٢٠
فن الشعر في قصائد الشعراء وكلماتهم	مجموعة من الأساتذة	سعد صائب	٢٢
الدليل العملي للوقاية من أمراض القلب	المركز الطبي الجامعة بوسطن	دار طلاس	٢٢
ايزابيلا	اندريه جيد	د . صبري فهمي	١٥
سيرة بالتازار كوسا (البابا يوحنا الثالث والعشرون)	اليكساندر باراديسيس..	بسام اسخيطة	٢٥
هرمن ودروتيه	غوته	د . محمد عوض محمد	١٥
التحكم بوزن الجسم عن طريق اليوغا	ريتشارد . ل . هيتل مان	دار طلاس	٢٢
طريق الحرية	هوارد فاست	سليم ابراهيم عبود	٣٠
الأدب والأنواع الأدبية	مجموعة من الاساتذة	طاهر حجار	٢٥
البراعم (قصائد للأطفال)	مختارات من الأدب الالباني	عبد اللطيف ارناؤوط	١٢
العصافير وقوس قزح (قصص للأطفال)	= = = =	عبد اللطيف ارناؤوط	١٤
التقرير الكامل للجنة كاهان الصهيونية حول مذبحة صبرا وشاتيلا	النص الكامل وإفادات بعض الشهود		١٨
ومرَّ صيف	كوليت الخوري		٢٠
سر الصلاة أو صلاة العارفين	الإمام الخميني	أحمد الفهري	٣٠
نبضات أفئدة		قدم لها العماد مصطفى طلاس	١٠

اسم الكتاب	المؤلف	المترجم	السعر
لوليتا	فلاديمير نابوكوف	مروان الجابري	٢٠
ديغول ما له وما عليه	برنارد ليدويدج	اللواء الركن صبيح السيد	٣٥
العرس الكبير	اعداد وجمع قمر كيلاني		١٧
العلاقات الدبلوماسية الأميركية	توماس آ . برايسون	دار طلاس	٣٠
ايزابيلا	اندريه جيد	د . صبري فهمي	١٥
العلاقات الخطرة بين الجنسين	كودير لوي دي لاكلو	اديب مروة	٣٥
آه يا أنا	سهام ترجمان		٧٥
تدخل الدول العظمى في الشرق الأوسط	بيتر مانغولد	اديب يوسف شيش	٣٠
هرمن ودروتيه	غوته	د . محمد عوض محمد	١٥
أصوات في الليل	صلاح دهني		٢٠
مصلح البيانو الشهير	مارسيل بريفو	حسن صادق	١٥
اصداء النضال العربي في شعرنا المعاصر	أحمد سعيد هواش		١٣
أوراق مسافر	الدكتور عمر موسى باشا		٢٠
حكاية الأميرة حنان	خالد محي الدين البرادعي .		٢٠
مناسك الحج	آية الله الخميني	عربه أحمد الفهري	٢٠
عروس الجنوب	بسام العسلي		٢٠
عتب المائدة	مجموعة من الباحثين المختصين		١٨
فن الحرب عند الصليبيين	ر . سي . سميل	العميد الركن وليد الجلاد	٥٠

تحت الطبع

ـــ معجم الأسماء العربية..........	العماد مصطفى طلاس الاستاذ نديم عدي	
ـــ الفن الاسلامي................	د . عفيف بهنسي	
ـــ الجامع الأموي (باللغات : .... العربية والافرنسية والانكليزية)	د . عفيف بهنسي	
ـــ مذكرات ادغار فور...........	ادغار فور.............	د . حافظ الجمالي
ـــ امرؤ القيس................. (عاشق وبطل درامي)	قمر كيلاني	
ـــ الف وخمس مية............... من الأمثال الشعبية	سيمون حصي	
ـــ ١٠٠ قصة بهيجة للاطفال.... (في أربعة أجزاء)	اصدار............... دار (هملين) البريطانية	سليمان العيسى بهيج بدين
ـــ كذلك قال الاسد............ (طبعة ثالثة مزيدة ومعدلة)	....	قدم له العماد مصطفى طلاس
ـــ لا شيء خلف الفولاذ......... (رواية)	جاكلين سوزان.........	عبد الكريم ناصيف
ـــ النباتات العسلية..............	....	ترجمة دار طلاس
ـــ دراسات حول النظرية الديمقراطية	رينيه دو لاسارير........	د . حافظ الجمالي
ـــ فن التصوير	جون هيجكو..........	العماد مصطفى طلاس

ـ تلخيص المتشابه في الرسم ..... وحماية ما أشكل منه عن بوادر التصحيف والوهم	أحمد علي ثابت .... (أبو بكر الخطيب البغدادي)	تحقيق سكينة الشهابي
ـ الدليل العملي لمنتجي الغذاء الملكي	آلان كاياس............	دار طلاس
ـ العسل غذاء وعافية	جان لوك داريغول.......	دار طلاس
ـ الوجبات الغذائية الهندية السريعة .	ميشيل بالدياً	مهند الغيرة
ـ التربية الحديثة للأغنام	د . بوهيير دوليكليز	دار طلاس
ـ الأصابع الصغيرة .... تنمو في الظلام	نزار مؤيد العظم	
ـ مناهج التعليم البوليتكنيكي	حسين عمر حمادة	

العماد

في

اللغة والعلوم والفنون والأعلام

معجم لغوي موسوعي

سيصدر قريباً عن الدار بالتعاون مع مؤسسة

لاروس الفرنسية بترجمة معجمها الموسوعي L 3

طريق الحرية



المترجم

أيدٍ سوداء عشقت الأرض
وامتهنت الدخول في تلافيفها..
وعيون تبحث عن حصتها في
ضوء الشمس..
أناس تريد الزمن الوردي بعد
الموت...
لكن الموت يفتح عينيه
بينهم.. قادم إليهم في هيئة
رجال يبغض ... يسمون الحرية..
والأيدي السوداء تمعن في
العشق والمقاومة من أجل الحرية
وفي سبيل الحرية.

السعر [redacted]